مواقِفُ وعِبَر
من
حَيَاةِ التَّابِعِين رضي الله عنهم

تأليف

محمد على قطب

الدار الثقافية للنشر

عنوان الكتاب : مواقف وعبر من حياة التابعين رضي الله عنهم
awakef wa Eber min Hayat Al - Tabien
ohamad Ali Qutb
4 p. 17x24 c.m.
اسم المؤلف : محمد علي قطب
٣٣٤ ص. ١٧/ ٢٤ سم .
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : 99/15815
الترقيم الدولي : ISBN 977-5875-93-5

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م

الدار الثقافية للنشر - القاهرة

ص.ب ١٣٤ بانوراما أكتوبر - هاتف وفاكس ٤٠٢٧١٥٧ - ٤١٧٢٧٦٩
Email: sales @thakafia.com
Website : www. thakafia. com

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نحمده تعالى ونشكره ، ونتوب إليه ونستغفره ، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيي ويميت ، وهو على كل شيء قدير .

ونشهد أن سيدنا ونبينا ومولانا وقدوتنا ، محمداً عبد الله ورسوله ، أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة وكشف الغمة ، وتركنا على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يضل عنها إلا هالك .

صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، صلاة وسلاما دائمين . . باقيين ، خالدين .

وبعد فقد أثر عن سيدنا رسول الله ﷺ قوله الشريف : «خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم . . » .

ولقد عبر ﷺ عن التابعين له بإحسان ، ممن لم يصاحبوه بأنهم إخوانه . أولئك الذين حملوا الأمانة بصدق ، وأورثوها بحق ، فكانوا هداة مهتدين ، ومشاعل نور فى العالمين . زينوا قلوبهم بالقرآن الكريم ، ورطبوا ألسنتهم بالذكر الحكيم ، وعَضُّوا على السنة الشريفة بالنواجذ ، وتأسَّوْا بصاحبها - صلوات الله وسلامه عليه - فكانوا مثلا من الأولين والآخرين . كانوا قريبى العهد بالنبى الخاتم ﷺ . لذا شغلوا ذواتهم وأرواحهم بسيرته العطرة ، وجعلوها فى حبات قلوبهم ، ومكنون أفئدتهم ، ونصب أعينهم ، وديدن سلوكهم ابتغاء مرضاة الله عز وجل .

ولقد حفل القرن الأول بنماذج راقية من التابعين - رضوان الله عليهم - طابوا وطابت سيرتهم ، وبلغوا فى الفضل والدين والتقوى والزهد والعبادة والجهاد مرتبة الرضوان .

وتركوا من بعدهم فى سجل الخالدين أنصع الصفحات وأخلد الذكريات ، ودروسا وعبر ، وحكمًا كالدرر .

وهدانى الله تعالى إلى تذكير نفسى وإخوانى أن أسطر فى صفحات مآثرهم وآثارهم لتكون لنا معينا لا ينفد من الدروس والموعظة الحسنة والقدوة الصالحة ، فى زمن وعصر أحوج ما نكون فيه إلى التواصل .

وقد تشعبت بنا المسالك ، وغميت عنا الدروب وتضاءلت فيه الأحجام ، وتقزمت الرجال ، وانعدمت الأمثال والمُثُل . راجيا من الله تعالى حسن التوبة والأجر ، وطيب الذكر . والحمد لله رب العالمين

القاهرة فى غرة رمضان ١٤٢٠هـ

الموافق ٩ من ديسمبر ١٩٩٩م .

محمد على قطب

عامر بن عبد الله

رضى الله عنه

(... ـ ٥٥ هـ)

زاهد البصرة. دفن ببيت المقدس، أول مَن
عُرف بالنّسك من عُبَّاد التابعين بالبصرة.

أبو نُعَيْم

العنبرى ـ التميمى:

فى رُبى نجد وواحاتها، وبين هضابها، وفى بنى العنبر من تميم ـ إحدى أكبر قبائلها ـ كانت ولادة عامر ونشأته.

فتح عينيه على نور الإسلام يبزغ وينتشر، ويمحو ظلمة الجاهلية فى قلوب وصدور الناس، شرقا وغربا وفى كل تجاه، وفتح قلبه وصدره على نور المعرفة، فاغترف منها ما شاء له ذكاؤه ونماؤه وشبابه، وتفاعل ذلك كله فى أعماق ذاته ووجدانه، فغدا إنسانا ربانيا، فى سلوكه وتطلعاته.

وما أن أذن مؤذن الجهاد إلى الانسياح فى أرض الله لينشر لواء الحق، والتبشير بكلمة التوحيد، حتى زحفت جموع القبائل من شبه الجزيرة العربية باتِّجاه الشام والعراق ومصر وفارس؛ لا لغزو أو كسب أو إغارة، بل اندفاعًا إلى تبصرة الناس وهدايتهم بعد أن رنت على قلوبهم أدران الشرك والوثنية آجالاً وآماداً.

البصرة:

وكانت البصرة ـ آنذاك ـ قد اختطها المسلمون الفاتحون، وجعلوها قاعدتهم، ومرتكز انطلاقهم إلى العراق وأعماق بلاد فارس، وإلى المشرق كله.

وحفلت تلك القاعدة بالعديد من الصحابة الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ وكبار التابعين، قد اتخذوها لهم سكنًا ومقامًا، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، وتتقاطر عليها المكاسب والمغانم تباعًا، حتى عُدَّت إحدى خزائن بلاد الإسلام الكبرى وكنوزه العظمى.

الوافد التميمى:

وكانت قبيلة تميم إحدى أعظم القبائل العربية عددا، وأشدها بأسًا، قد تجردت بفرسانها وأبطالها وشجعانها للانضمام إلى جيوش الإسلام الضاربة فى أرض العراق وفارس، واتخذت من البصرة وطنًا جديداً.

وكان الفتى عامر بن عبد الله التميمى واحداً من أفرادها، بل واحداً فى نبله وخلقه وإسلامه. ما غرته المغانم، ولا استهوته الأسلاب، وما فتنه المال ولا الجاه، على حداثته، ويفاعة شبابه، وعنفوان حيويته، بل كان زاهداً فى كل زمان، راغبًا عنه، راغبًا فى طاعة ربه ورضاه.

فى صحبة أبى موسى الأشعرى:

وما أدراك ما الأشعرى؟ كان من السابقين المقربين، ومن الحافظين لكتاب الله تعالى، القالين له، ومن العلماء العاملين، ومن القادة النجباء المؤتمنين، من الأتقياء الأسمياء الزاهدين. فى قلبه مصحف، وفى يده سيف، وعلى لسانه كلمة الحق. وكان فى حينه واليا على البصرة، وقائداً عامًا للجيوش الإسلامية، فى الجبهة العراقية الفارسية، يخطط وينظم، ويفكر ويدبر، ويجهز ويغزو. وكان قدوة فى العلم، وورعًا أمينًا لما حفظ من كتاب الله وسنة رسوله.

هذه الشخصية الفذة استهوت عامر بن عبد الله، فمال إليها بكليته، فاتخذه أستاذًا له ومعلمًا، ورائدًا، ولزمه ملازمة الظل لصاحبه، لا يفترق عنه أبدا. يحفظ عنه كتاب الله تعالى، وحديث رسول الله ﷺ، ويتلقى العلم، وينخرط تحت رايته مجاهدا فى سبيل الله، غازيًا ومقاتلاً، كلّما دعا الداعى لا يتأخر ولا يتوانى.

راهب الليل وفارس النهار:

هكذا كان دأبه، وذلك كان دَيْدنه ومذهبه، إذا ما جَنَّ عليه الليل خلا بنفسه إلى ربه يتعبد ويتهجَّد، ويتلو ويذكر، ويدعو ويبتهل، يرتفع عن دنيا الناس إلى ذروة التواصل، حتى يكاد يذوب بدنًا وحسًّا.

وإذا ما أشرق النهار، وضجت الحياة بالحركة، والتحمت الجيوش بالجيوش، كان فى مقدمة الصفوف، مشرعًا سيفه، أو حاملاً رُمحه، ومندفعًا إلى أتون المعركة، لا يبالى أوَقع على الموت، أم وقع الموت عليه؛ فكل ذلك شهادة فى سبيل الله، ونيل لرضاه، وتبوؤ لمقعد صدق عند مليك مقتدر فى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين.

عابد البصرة وزاهدها:

وبناء على ما تقدم من علم عامر وزهده وجهاده، وقد اكتملت جوانب شخصيته، صحت فيه نظرية الدارس المؤرخ أنه جعل حياته أقسامًا ثلاثة: شطر فى حلقات الدرس والحفظ والتلقى على يد أستاذه العظيم أبى موسى - رضى الله عنه - وغيره من الصحابة وكبار التابعين رضى الله عنهم أجمعين. وشطر فى خلوات العبادة، قائمًا وراكعًا وساجدًا، وداعيًا ومبتهلاً، وراجيًا باكيًا، فى حرارة وشفافية، حتى تكاد قدماه لا تحملانه، فيسقط إعياءً. وشطر ثالث لميادين الجهاد، ومعامع المعارك، وساحات الوغى. فلا يشغله بعد هذه الثلاثة أدنى شاغل، مهما كان. وعرف عنه كل الناس هذا السلوك، وتلك المنهجية، فنعتوه: عابد البصرة وزاهدها.

شهادة حق وصدق:

ولا أدل على ما قدمنا من شهادة أحد أبناء البصرة الذين عاصروا عامرًا وعايشوه، واطّلعوا عن كَثَب على أسلوب حياته.

قال البصرى: سافرت فى قافلة فيها عامر بن عبد الله، فلما أقبل علينا الليل نزلنا بغيضة - وهى مجتمع الشجر فى مغيض الماء - فجمع عامر متاعه، وربط فرسه بشجرة، وطوّل زمامه، وجمع له من حشائش الأرض ما يشبعه، وطرحه أمامه، ثم دخل الغيضة وأوغل منها. فقلت لنفسى: والله لأتبعنه، ولأنظرن ما يصنع فى أعماق الغيضة فى هذه الليلة، فمضى حتى انتهى إلى رابية ملتفة الشجر، مستورة عن الأعين، فاستقبل القبيلة، وانتصب قائما يصلى، فما رأيت أحسن من صلاته، ولا أكمل، ولا أخشع. فلما صلى ما شاء الله له أن يصلى، طفق يدعو الله ويناجيه، فكان مما قاله: إلهى، لقد خلقتنى بأمرك، وأقمتنى فى بلايا هذه الدنيا بمشيئتك، ثم

قلت لى : استمسك . فكيف أستمسك إن لم تمسكنى بلطفك ، يا قوى يا متين؟ إلهى إنك تعلم أنه لو كانت لى هذه الدنيا بما فيها ، ثم طُلبت منِّى مرضاةً لك لوهبتها لطالبها ، فهب لى نفسى ياأرحم الراحمين . إلهى إنى أحببتك حبا سهَّل علىَّ كل مصيبة ، ورضًا بكل قضاء ، فما أبالى مع حبى لك ما أصبحت عليه ، وما أمسيت فيه .

ويتابع البصرى روايته ، فيقول : ثم إنه غلبنى الناس ، فأسلمت جفنى للكرى ، ثم ما زلت أنام وأستيقظ ، وعامر منتصب فى موقفه ، ماض فى صلاته ومناجاته حتى تنفس الصبح . فلما بدا له الفجر ، أدى المكتوبة ، ثم أقبل يدعو ، فقال : اللهم ها قد أقبل الصبح ، وطفق الناس يغدون ويروحون ، يبتغون من فضلك ، وإن لكل منهم حاجة ، وإن حاجة عامر عندك أن تغفر له . اللهم فاقض حاجتى وحاجتهم ، يا أكرم الأكرمين .

اللهم إنى سألتك ثلاثا ، فأعطيتنى اثنتين ، ومنعتنى واحدة ، اللهم فأعطنيها حتى أعبدك كما أحب وأريد .

ثم نهض من مجلسه ، فوقع بصره علىَّ ، فعلم بمكانى منه فى تلك الليلة ، فجزع لذلك أشد الجزع ، وقال لى فى أسًى : أراك كنت ترقبنى الليلة يا أخا البصرة؟ فقلت : نعم . فقال : استر ما رأيت منى ، ستر الله عليك! فقلت : والله لتُحَدِّثَنِّى بهذه الثلاث التى سألتها ربك ، أو لأخبرنَّ الناس بما رأيته منك! فقال : ويحك! لا تفعل . فقلت : هو ما أقول لك . فلما رأى إصرارى ، قال : أحدثك على أن تعطينى عهد الله وميثاقه أن لا تخبر بذلك أحدا . فقال : لك علىَّ عهدُ الله وميثاقه ألا أفشى لك سرا ما دمتَ حيا . فقال : لم يكن شىء أخوف علىَّ فى دينى من النساء ، فسألت ربى أن ينزع من قلبى حبهن ، فاستجاب لى ، حتى صرت ما أبالى امرأةً رأيتُ أم جدارًا .

فقلت : هذه واحدة . فما الثانية؟ فقال : الثانية أنى سألت ربى أن لا أخاف أحدًا غيره ، فاستجاب لى ، حتى أنى - والله - ما أرهب شيئًا فى الأرض ولا فى السماء سواه!

قلت : فما الثالثة؟ فقال : سألت ربى أن يُذهب عنِّى النوم حتى أعبده بالليل والنهار كما أريد ، فمنعنى الثالثة .

فلما سمعت منه ذلك قلت له : رفقا بنفسك فإنك تقضى ليلك قائمًا ، وتقطع نهارك صائمًا ، وإن الجنة تُدرك بأقل مما تصنع ، وإن النار تُتَّقَى بأقل مما تعانى . فقال : إنى لأخشى أن أندم حيث لا ينفع الندم ، والله لأجتهدنَّ فى العبادة ما وجدت إلى الاجتهاد سبيلاً ، فإن نجوت فبرحمة الله ، وإن دخلت النار فبتقصيرى .

شروط خير الرفاق

وكان لعامر - رضى الله عنه - بعض الشروط فى تخير الرفاق فى الرحلات ، سواء كان السفر لحج أو لعمرة أو لغزو ، أو غير ذلك . فإذا ما وقع اختياره على جماعة وصحبة ، قال لهم : يا هؤلاء ، إنى أريد أن أصحبكم على أن تعطونى من أنفسكم ثلاث خلال : أن أكون لكم خادما ، فلا يسلبنى أحد منكم هذا الشرف . وأن أكون لكم مؤذنا ، فلا ينازعنى عنى أحد منكم النداء للصلاة . وأن أنفق عليكم قَدْرَ طاقتى .

فإن وافقوه إلى مطلبه وشروطه صحبهم ورافقهم، وإن أبَوْا استنكف عنهم إلى غيرهم.

إلى هذا الحد من التسامى فى الخلق والورع كان ينزع عامر ـ رضى الله عنه ـ ويتمسك، ويتخذ ذلك مبدأ لا يحيد عنه ولا يتنازل. فالخدمة شرف؛ لأن كبير القوم خادمهم. وللأذان للصلاة منزلة لا تسامَى. والإنفاق على الرفاق لا يقدَّر بعوَض.

لا أخبركم لتحمدونى:

كانت بلاد فارس من أغنى بقاع العالم، وكانت قصور الأكاسرة ـ ملوكها ـ تضم التحف الثمينة التى لا مثيل لها، وكانت مدخرات الأكاسرة من الأموال والجواهر لا يحصيها العد، وكانت أثوابهم وأسلحتهم وتيجانهم كلها مرصعة بالدُّرِّ والجوهر، واللآلئ النفيسة. وأما أدوات مأكلهم ومشربهم، فحدِّث عنها، ولا حرج، فأكثرها من الذهب والفضة. كل ذلك كان غنيمة خالصة للمسلمين، بعد أن فتحوا البلاد، وطهروها من رجس المجوس. فكل ذلك أيضا ـ لم يضعف النفوس المؤمنة الطاهرة، فيميل بها عن رضا الله تعالى إلى الرغبة فى الدنيا وزينتها، فكانت القلوب بمنأى عن مكان الشيطان، وزخرف المتاع الزائل.

دخل القائد الفاتح سعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ المدائن فرأى العجب العجاب، فبكى خشيةً، وأسًى، وتلا قول الله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا من جَنَّات وَعُيُون * وَزُرُوع وَمَقَام كَرِيم * وَنَعْمَة كَانُوا فيهَا فَاكهينَ * كَذَلكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرينَ * فَمَا بكَتْ عَلَيْهمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرينَ﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٩]، ثم أمرَ عمرو بن مقرّن المزَنى بجمع الغنائم وإحصائها، وإرسال حصة بيت المال إلى الخليفة الفاروق ـ رضى الله عنه ـ فى المدينة.

وكان فى الغنائم سَفَط لكسرى مرصع بالجواهر النفيسة، يخلب الألباب، ويُعشى الأبصار، فلما وُضع بين يدَىْ عمر ـ رضى الله عنه ـ بكى، وقال: إن قومًا أدَّوا هذا لأمناء! وكان إلى جانبه على ـ رضى الله عنه ـ فقال: يا أمير المؤمنين لقد عففتَ فعفوا ولو رتعت لرتعوا[١].

وتلك أول شروط الحاكم الصالح.

وفى غمرة العمل والانهماك بإحصاء الغنائم وفرزها تقدم من القائمين بالعمل رجل يحمل حُقّا[٢] كبير الحجم، ثقيل الوزن، يكاد حامله يقع أرضًا تحت وطأته ثم وضعه بين أيديهم. وعندما فتحوه ونظروا ما بداخله تسمَّرت أعينهم دهشة وعجبًا، فقد كان مليئا برائع الجوهر والدُّرِّ النفيس، لم تقع العين على مثلها أبدا. فسألوه: أين وجدت هذا الكنز الثمين؟ فأجابهم: لقد غنمته يوم كذا، فى معركة كذا. فقالوا: وهل أخذت منه شيئًا؟ فغضب لقولهم، وثار، ثم قال: هداكم الله، إن هذا الحُقَّ وكل ما ملكته أكاسرة الفُرْس لا يعدل عندى قلامة ظفر[٣]، ولولا حق بيت مال المسلمين فيه ما رفعته من مكانه ولا جئتكم به.

---

(١) رتع: أكل وشرب واستغنى.

(٢) الحُق: وعاء للطيب والجواهر.

(٣) قلامة الظفر: ما يسقط من طرفه عند قطعه.

فتأسفوا له واعتذروا، ثم سألوا: مَن أنت؟ أكرمك الله. فقال: لا والله. لا أخبركم لتحمدونى، ولا أخبر غيركم فيقرظونى[١]، ولكنى أحمد الله تعالى وأرجو ثوابه، ثم ولى عنهم.

فطلبوا إلى أحدهم أن يتبعه، ويستقصى خبره، فلحق به من خلفه حتى بلغ مقصده، ودخل خيمته، فسأل عنه أصحابه الذين كانوا يفترشون الأرض خارج الخيمة، فقالوا له: عجبا! ألا تعرفه؟! إنه زاهد البصرة عامر بن عبد الله.

الصادع بكلمة الحق:

وصدق من قال: إن قولة الحق لم تترك لى صاحبا! فلقد جرت كلمة الحق على لسان عامر - رضى الله عنه - كثيرا من المتاعب، ولكنها واجهها بالرضا والتسليم لأمر الله تعالى، ورجاء مثوبته.

أفسد عليه الكثيرون، حقداً وحسداً له من عند أنفسهم، وطعنوا فيه أمام الولاة، واتهموه، وزينو لأولى الأمر أن يأخذه بالعقاب والشدة.

وكانت البداية - أو السبب - حادثة بسيطة عادية، ولكنها أثارت عليه النفوس الضعيفة، وجرّت عليه المصاعب والمصائب. لقد رأى ذات يوم أحد عوان صاحب شرطة البصرة يمسك بخناق أحد الذميين، ويجره بعنف وقسوة، والذمى يصرخ ويستغيث ويقول: أجيرونى أجاركم الله، أجيروا ذمة نبيكم يا معشر المسلمين. فتقدم عامر منه وقال: هل أدَّيتَ جزْيَتَك[٢]؟ فقال الذمىُّ: نعم أديتها. فالتفت عامر إلى الشرطى وسأله: إذاً ماذا تريد منه؟ فقالَ: أريده أن يأتى معى إلى حديقة صاحب الشرطة ليكسحها[٣]. فسأل عامر الذمى: وهل تطيب نفسك بهذا العمل؟ فقال الذمى: كلا، فإن ذلك يهد قواى، ويشغلنى عن كسب قوت عيالى، وهم أولى.

وعندها قال عامر للشرطى: دعه، وخلِّ سبيله. فقال الشرطى: لا أدعه، حتى يمضى معى وينفذ ما سيكلف به. فما كان من عامر إلا أن خلع رداءه، وألقاه على الذمى، وقال: لقد أجرته، والله لا تُخفَرَ[٤] ذمة محمد ﷺ وأنا حى.

وتجمع المارة من كل حدب وصوب، وأعانوا عامراً على صاحبه، وخلصوا الذمى من بين يدى الشرطى، وأطلقوا سراحه.

الاتهام الباطل

وتفاقم الأمر.. من أعوان صاحب الشرطة.. إلى صاحب الشرطة، إلى الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه. واتهم عامر بالخروج على السنة والجماعة، وأنه لا يتزوج النساء، وأنه لا

---

(١) يقرظونى: يمدحونى ويثنون علىَّ.

(٢) الجزية: ما يدفعه أهل الذمة من اليهود والنصارى وغيرهم إلى بيت مال المسلمين، مقابل الزكاة عند المسلمين.

(٣) يكسَحها. ينظفها من الأوساخ والأعشاب الطفيلية.

(٤) تُخفر: تنقض.

يأكل اللحوم، ولا يشرب الألبان، ويتعالى أيضا على مجالس الولاة، وكأنهم يحصون عليه أخطاءه.

فأرسل الخليفة ذو النورين إلى واليه على البصرة يأمره أن يدعو عامر بن عبد الله، ويسأله فى التهم الموجهه إليه، ثم يرفع إليه الخبر.

فاستدعى الوالى إليه عامرًا، وقال له: إن أمير المؤمنين بعث إلىَّ لأسألك عن أمور نُسبت إليك. فقال عامر: سَلْنى عما أمر به أمير المؤمنين، وأنا سامع طائع. فقال: مالك تُعرض عن سنة رسول الله ﷺ، فتعزف عن الزواج؟

فقال عامر: معاذ الله أن أتنكر لسنة رسول الله ﷺ بالإعراض عن الزواج، وإنما أنا امرؤ رأى أن له نفسًا واحدة فجعلها لله عز وجل، وخشى أن تغلبه الزوجة عليها. ثم سأله: ما لك لا تأكل اللحم؟ فقال: بل آكله إذا اشتهيته ووجدته، أما إذا لم أشتهه، أو اشتهيته ولم أجده، فإنى لا آكله. وسأله: لم لا تأكل الجبن؟ فرد عامر: إنا نقيم بمنطقة فيها مجوس، يصنعون الجبن، وهم قوم لا يفرقون بين الميتة والمذبوحة، وإنى لأخشى أن تكون المنفحة(١) التى صنع بها الجبن من شاة غير مذكاة(٢)، فإذا شهد شاهدان من المسلمين على أنه جبن صنع بمنفحة شاة مذبوحة أكلته. وأخيرا سأله: وما يمنعك أن تأتى الولاة وتشهد مجالسهم؟ فقال عامر: إن فى أبوابكم كثيرًا من أصحاب الحاجات، فادعوهم إليكم، واقضوا حوائجهم لديكم، واتركوا من لا حاجة له عندكم.

النفى:

وحُمل محضر هذه الجلسة التاريخية إلى أمير المؤمنين فى المدينة؛ إذ لم يكن الفصل فيها من اختصاص الوالى، ولم ير فيها ذو النورين ما يستوجب عقوبة.

إلا أن أصحاب الغرض، مرضى النفوس والقلوب، أثاروها فتنة، حتى ضج بها مجتمع البصرة فى المساجد والحوانيت والمجالس الخاصة، وفى كل موضع وناد، فأرسل الوالى مجددًا إلى أمير المؤمنين عثمان - رضى الله عنه - يستأمره فى أمر عامر، ويحيطه علمًا بما يجرى. وكان من سياسة عثمان - رضى الله عنه - اتِّقاء كل فتنة، فأمر واليه على البصرة أن يسيِّر عامرًا إلى الشام. كما بعث إلى معاوية بن أبى سفيان - والى الشام - أن يكرم وفادة عامر ويحسن معاملته، ويرعى حرمته. وخرج مع عامر إلى ظاهر البصرة خلق كثير لا يحصى عددهم، يودعونه، فى أسًى وحزن، على فراقه لهم، وما آل إليه الأمر.

ونزعنا ما فى صدورهم من غلّ:

والتفت عامر إلى الحشود وقال: أيها الناس إنى داعٍ فأمِّنوا. ورفع يديه، باسطا كفَّيه إلى

(١) المنفحة: ما يخمر به الحليب فيصبح لبنا رائبا.

(٢) المذكاة: المذبوحة على وفق الشريعة الإسلامية.

السمـاء، وقـال : اللهـم من وَشَى[١] بى، وكـذَب علىَّ، وكـان سـببًـا فى إخـراجى من بلدى، والتفريق بينى وبين صحبى، اللهم إنى قد صفحت عنه فاصفح عنه، وهب له العافية فى دينه ودنياه، وتغمدنى وإياه وسائر المسلمين برحمتك وعفوك وإحسانك، يا أرحم الراحمين.

ورددت الوديان والهضاب والبطاح تأمين الحاضرين : آمين . . حتى ضجت بها الآفاق، ثم ولى وجه راحلته وزمامها إلى الشام، ومضى.

أولى القبلتين:

وكانت القدس أحب البلاد إلى قلب عامر بن عبد الله بعد مكة والمدينة؛ فهى أولى القبلتين، ومسرى رسول الله ﷺ، ومنها كان معراجه. فأتاها وأقام بها، ووفّى له والى الشام معاوية بن أبى سفيان بوصية أمير المؤمنين عثمان. واستمرت إقامته بها إلى أن لقى وجه ربه، وفيها دفن.

ولقد دخل عليه فى مرضى موته بعض أصحابه وتلامذته، فوجدوه يبكى. فقالوا : ما يبكيك، وقد كنت . . وكنت . . ؟ وراحوا يعدِّدون من تقواه وعبادته وزهده ما عرفوا وعاينوا! فقال لهم : والله ما أبكى حرصا على الدنيا، أو جزعًا من الموت، وإنما أبكى لطول السفر وقلة الزاد، ولقد أمسيت بين صعود وهبوط، إما إلى الجنة وإما النار، فلا أدرى إلى أيهما أصير!

رضى الله عن زاهد البصرة وعابدها، قدوة العلماء العاملين، الصادعين بالحق، الصابرين على البأساء والضراء، وحين البأس، وأثابه الفردوس الأعلى، مع النبيين والصدِّقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا، وألحقنا بهم فى الصالحين من عباده.

* * *

---

(١) وشى بى : كذب بشأنى عند الوالى.

أبو مسلم الخولانى

عبد الله بن ثوب

رضى الله عنه

(... ـ ٦٢هـ)

الحمد لله الذى لم يُمِتْنى حتى أرانى فى أمة محمد ﷺ مَن فُعِل به كما فُعِل بإبراهيم الخليل ﷺ.

عمر بن الخطاب

الأسود العنسى وأصحاب الأخدود:

الأسود العنسى : عبهلة بن كعب بن غوث . كان قلبه أشد سوادا من بشرته الداكنة ، ضخم الجسم، كبير الرأس ، فصيح اللسان ، قوى الحجة .

فى بلدة فى اليمن يقال لها (كهف حنان) ادّعى النبوة على نهج مسيلمة كذاب بنى حنيفة ، وأنه يوحى إليه . وتابعه على زعمه وافترائه على الله تعالى جماعة فى قبيلته بنى مذحج مما زاده شرا وإثما وردَّة ، وإيغالا[١] فى الكفر .

كان فى الجاهلية صاحب كهانة وخداع وشعوذة . فلما ارتد عن الإسلام ، وتنبأ كذبا ، استيقظت فى أعماقه جاهليته ومنكراتها ، وعاد إلى كهانته ومفترياتها ، وراح يَدُسُّ على العوام طائفة من إخوانه ، يقتحمون عليهم دخائل نفوسهم وأسرارهم ، وخاصة شئونهم ، ثم ينقلونها إلى صاحبهم الكذاب ، فإذا ما أتاه هؤلاء العامة يبسطون عنده شكاياتهم حدثهم حديث العارف ، فيؤخذون بذلك ويدهشون . وبهذا استشرت فريته[٢] وتوسع نفوذه .

وكان له سيماء يظهر بها ؛ مبالغة منه فى الكهانة والشعبذة ، فكان يتقنع فلا تظهر سوى عينيه ، وكانتا تقدحان بحمرة ما يعبّه من الخمر ، أو ما يحرق من بخور ، يعبق بدخان كثيف ، مع روائح تزكم الأنوف ، وتضغط على الأنفاس .

ثم إنه قام بهجمات متتابعات على المدن والأقاليم ، وأمعن فى إزهاق الأرواح ، وسفك الدماء ، فخافه الناس ، وأعلنوا ولاءهم له ، وتابعوه على دعواه الكاذبة . وامتد نفوذه من اليمن إلى حَضْرَمَوْت وعمان . ولقد فر من بين يديه عمال رسول الله ﷺ معاذ بن جبل وأبو موسى الأشعرى وخالد بن سعيد بن العاص - رضى الله عنهم - حتى لا يفتك بهم .

وذات يوم أخبر الأسود العنسى بأن عبدالله بن ثوب - أبا مسلم الخَوْلانى - ما يزال يقيم باليمن ويناهض فرية النبوة الكاذبة التى ادعاها الأسود ، وهو الوحيد الذى كان يعلن ذلك من دون الناس .

وكان - رضى الله عنه - شابا جلدا ، صفى السريرة بالإسلام ، متين العقيدة ، قد عزف عن الدنيا وآثر الآخرة ، وسعى لها سعيها ، متزودا بالزهد فى زخرف الفانية ، ناذرا حياته لله تعالى .

وقد أحبه الناس وأحلوه من أنفسهم فى مكان رفيع ، مقدرين فيه تلك الخلال ، ولكنهم مع اشتداد بأس الفتنة وخشيتهم على أرواحهم أعرضوا عنه ظاهراً ومالأوا الأسود العنسى تَقِيَّةً[٣] .

فأرسل الأسود العنسى بعض جلاوزته ، فألقوا القبض على أبى مسلم وجاءوا به إلى سَيدهم مكبلاً بالقيود ، ومصفدا بالحديد والسلاسل .

فلما أوقف بين يديه ، سأله : أتشهد أن محمدا رسول الله؟ فقال أبو مسلم فى ثبات وجرأة : نعم . . أشهد أن محمدا ﷺ رسول الله ، وخاتم النبيين ، وحبيب رب العالمين . فصر[٤] الأسود

(١) إيغالا : إمعانا .

(٢) فرِيَتَه : كذْبته .

(٣) التقية : إظهار المولاة مع الإنكار فى القلب .

(٤) صرّ على أسنانه : ضغط عليها فأحدثت صوتا .

على أسنانه، وبدا الغيظ فى تقطيب جبينه، وقال: وتشهد أنى رسول الله؟ فأجابه أبو مسلم: إن فى أذنى صمما، فلا أسمع ما تقول.

وكرر الأسود السؤال، وكرر أبو مسلم نفس الجواب، مما جعل هذا المأفون الكذاب يهب واقفا يرغي ويزبد، ويتوعد، ويهدد، وينذر أبا مسلم بالموت حرقا.

وكان أبو مسلم هادئا راسخا كالجبل الأشم، إن مرت به الأعاصير والرياح لم تهزه، ولم تأخذ منه شيئا سوى الأتربة.

ولقد استيقظت فى واعية الأسود قصة أصحاب الأخدود، فأراد أن يعيد الكرة بمثلها على أبى مسلم ويجعله وما يدعو إليه وقودا للنار، فأمر بإحضار الحطب وتكويمه فى باحة قصره، ثم إضرام النار فيه.

وسيق أبو مسلم فى قيوده إليها، واجتمع الناس من كل حدب وصوب فى حشد حولها، وهدد أبو مسلم بإلقائه فيها إن لم يتب عما هو فيه، فما زاده ذلك إلا إيمانا وتثبيتا، وكأنه فى ابتسامته الساخرة، وهزئه بالأسود يردد قول السحرة لفرعون: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة طه]. ودفع إلى النار وقد اشتد أوارها، وتصاعدت ألسنة لهيبها إلى عنان السماء، وكأنها فى تراقصها رءوس الشياطين. فلما مسته نادى ربه. وعندها مال أحد أعوان هذا الطاغية - الأسود العنسى - على أذنه وهمس له: إياك أن تتمادى فى فعلتك هذه، فلئن خرج الرجل سليما من أذى النار فلسوف يكون أعظم خطرا على ما أنت فيه، ولئن مات اتخذه الناس حنانا [1]. أخرجه فورا، وأطلق سراحه، وانفه فى البلاد، وذلك أهون الشرين.

واستجاب الأسود لنصيحة صاحبه، واستدرك عقله، فأمر بوقف هذه المهزلة، ثم بفك قيود أبى مسلم. ولم تكن النار قد آذته إلا فى ظاهر ثيابه، وطلب إليه مغادرة اليمن، وعلى الفور.

مثل ما فعل بخليل الرحمن:

واتخذ أبو مسلم سبيله فى الصحراء الشاسعة سربا، فيمم وجهه شطر المدينة المنورة، حيث رسول الله ﷺ محمد بن عبد الله الذى آمن به أبو مسلم ولم يره، وصدق به ولم يسمعه، واتبعه ولم يصاحبه.

ومرت الأيام، تردفها الأيام، وأبو مسلم فى رحلته إلى الله ورسوله، يحفزه الشوق ويستحثه الحنين. ومع مضى ثلاثة أشهر على ظهور الأسود واستيلائه على السلطان وإرهابه الناس كانت نهايته.

فقد جاء كتاب من رسول الله ﷺ إلى طائفة ممن كانوا يبيتون الإيمان، يستحثهم فيه على الخلاص من الأسود، والقضاء على فتنته ومجاهدته. فاجتمعوا وتشاوروا ودبروا خطتهم ورسموا أدوارهم، ثم قاموا بالتنفيذ.

---

(١) حنانا: يجعلون من قبره محجة ومزارا.

وفى جوف قصره تم الخلاص منه، وألقيت رأسه فى الطريق، وتنفس الناس الصُّعَداء، وحمدوا الله تعالى على الخلاص، وعاد إلى اليمن وحضرموت وعمان الهدوء والسكينة والصفاء.

وبلغ أبو مسلم المدينة، وكان أول ما فعل أن قصد المسجد ووقف يصلى شاكرا حامدا، وفى نيته أن يأتى إلى رسول الله ﷺ ليكحل عينيه بالطلعة الشريفة ويفرغ ما فى قلبه من الوجد والشوق بين يدى المصطفى ﷺ.

ورآه سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وعرف أنه غريب، وفى بعض هيئة لباسه ما يدل على أنه من اليمن، فأتاه ووقف قريبا منه، فلما فرغ سلم عليه وعرفه بنفسه، وسأله: لعلك من اليمن؟ فقال أبو مسلم: نعم. فقال عمر فى لهفة ظاهرة: ما فعل الله تعالى بصاحبنا عبد الله بن ثوب - أبى مسلم - الذى ألقى فى النار على يد الطاغية الكذاب الأسود العنسى؟ فأجابه أبو مسلم: هو - والحمد لله - بخير ونعمة. واستدرك سيدنا الفاروق - رضى الله عنه - وكان صاحب فراسة؛ ونظرا محدقا إلى أبى مسلم، ثم قال: نشدتك [1] الله - سبحانه - ألست أنت هو؟ فقال أبو مسلم: بلى أنا هو. فاعتنقه عمر وقبل ما بين عينيه، وغمره بدموعه..

وعرف أبو مسلم بوفاة رسول الله ﷺ فذرف الدمع السخين، إذ كان يؤمل اللقيا العظيمة، والله يفعل ما يشاء.

وعرف أيضا بنهاية الأسود وفتنته، وعودة الإيمان إلى اليمن وزوال كابوس الظلم والجهل؛ فحمد الله تعالى؛ وقال: الحمد لله الذى قر عينى بموت الطاغية، واستجاب لدعائى وندائى.

فقال له عمر: وأنا أحمد الله تعالى الذى أرانى الرجل الذى فعل به مثل ما فعل بأبينا إبراهيم عليه السلام، فجعل الله تعالى النار بردا وسلاما عليه وحفظه من كيد الكافرين.

بين الشيخين:

وذهب به عمر إلى أبى بكر - رضى الله عنهم - فاستقبله واحتفى به وأكرمه وأجلسه بينه وبين عمر.

واستمع الشيخان إلى أبى مسلم وهو يردد لهم قصته مع الأسود العنسى ويستعيد فصولها بمرارة وألم، واتخذه أبو بكر صديقا صدوقا وأخا كريما فى الله تعالى، يهش له ويرحب به كلما أتاه.

وعاش أبو مسلم زمنا فى المدينة المنورة، ملازما مسجد رسول الله ﷺ، وحلقات العلم، يغترف من علوم الصحابة - رضوان الله عليهم - ويستغرق فى العبادة تلاوة وذكرًا وقياما.

وكان أكثر مصاحبته لأبى ذر الغفارى و عبادة بن الصامت و عوف بن مالك ومعاذ بن جبل الذى عرفه من قبل فى اليمن.

---

(١) نشدتك: استحلفتك.

إلى الشام:

وبدا لأبى مسلم ـ رضى الله عنه ـ أن يرحل إلى الشام، ليس بقصد السياحة ولا التجارة، ولكن بقصد المرابطة مع الجيوش الإسلامية، التى دأبت على غزو بلاد الروم، جهادا فى سبيل الله . فأتاها وأقام بها، وانضوى أكثر من مرة تحت لواء الغزاة الدعاة، وجاهد فى الله حق جهاده .

ولقد قدر له ـ رضى الله عنه ـ بما استحفظ من علوم وحلق فى سماء الحكمة كالنجوم، أن يصبح بين عشية وضحاها أحد أساطين [١] المعرفة ورواد البيان؛ أضف إلى ذلك ما كان فيه من ميل جارف إلى الزهد والقناعة، وأنفة عن متاع الدنيا، مما جعله لدى العامة والخاصة موضع الاحترام والتقدير .

رَيْحَانة الشام:

وراحت فصوص الحكم ودرر القول المأثور، تتفجر من قلبه على لسانه كأنها اللآلئ النادرة فى لمعانها وبريقها، وأنوارها التى تشع فى جنبات القلوب، ويهتدى بها الناس . وكانوا يتناقلونها بينهم، فى مجالسهم وبيوتهم وحوانيتهم ومجامعهم، وقد طربوا لها وتأثروا بها، ومن ثم أطلقوا على أبى مسلم صفة كريمة عالية سامية، وعرفوه بأنه ريحانة الشام، فمن أراد ظلا ظليلا، وزهرا فواحا، وعطراً شذيا وحكمة بالغة يستهدى بها فعليه بأبى مسلم .

وحكيم الفقهاء:

وترقى أبو مسلم ـ رضى الله عنه ـ فى مدارج العلوم، فقيها ومحدثا وحكيما، سديد الرأى صائب القول، وتناقل الناس ذلك، وبجلوه [٢] واحترموه، وعظموه، ونعتوه بحكيم الفقهاء . أما هو فى نفسه وفى أعماق ذاته فقد كان يتصاغر مع الله ويتواضع، فلا يغتر ولا يطرب لما يقولون، ولا يستخفه شيطان ليلعب به من هواه، إذ كبح الجماح، وأمسك باللجام .

يا أجير المؤمنين:

وعاصر أبو مسلم ـ رضى الله عنه ـ خلافة معاوية بن أبى سفيان، ولم يدخل ـ لا فى قول ولا فى فعل ـ صراع التجاذب السياسى على الخلافة ومنصبها، وآثر أن يظل العالم الداعية، القائم على حدود الله تعالى، المحذر من مخالفة أمره سبحانه فى الشقاق والنزاع .

وكانت له مواقف مشهورة فى الصدع بالحق مع معاوية رضى الله عنهما . فقد دخل عليه يوما مجلسه، وكان قد اتخذ من رسوم السلطان بعض ما تعارف عليه حكام تلك البلاد، من حُجاب وشرط وحاشية، دخل عليه وحوله الكبراء والأعيان يحفّون به، فأراد أن يذكره ويعظمه، فخاطبه بقوله : السلام عليك يا أجير المؤمنين . فبهت الحضور، وأمسكوا أنفاسهم وخافوا ما لا

---

(١) الأساطين : جمع، مفرده أسطوانة، وهى العامود.

(٢) بجلوه : عظموه.

تحمد عقباه. فقال بعضهم لأبى مسلم: أمير المؤمنين يا أبا مسلم، صوِّب ما تقول يا رجل!
فأعاد أبو مسلم سلامه بقوله: السلام عليك يا أجير المؤمنين.

وكأنه لم يسمع تحذيرا ولا تنبيها، وكأنه يريد أيضا أن يوقظ فيهم سمعهم ووعيهم، وإنابتهم إلى الحق والحقيقة، فى غير مداجاة، ولا ممالأة، فلما أصروا وارتفعت أصواتهم، قطع معاوية عليهم بفهمه وعلمه وفقهه وحلمه - رضى الله عنه - هذا الاستنكار، وخاطبهم بقوله: دعوا أبا مسلم؛ فهو أعلم بما يقول.

وعندئذ توجه أبو مسلم بالنصيحة إلى ولى الأمر معاوية، وقال له: يا معاوية إنما مثلك - بعد أن ولاك الله أمر الناس - كمثل من استأجر أجيرا وأوكل إليه أمر غنمه، وجعل له الأجر على أن يحسن رعيها، ويحفظ أبدانها، ويوفر أصوافها وألبانها. فإن هو قام بما عهد إليه حتى تكبر الصغيرة، وتسمن العجفاء، وتصح السقيمة، أعطاه أجره وزاده. وإن هو لم يحسن رعيها، وغفل عنها حتى هلكت عجافها، وهزلت سمانها، وضاعت أصوافها وألبانها، منع الأجر عنه، وغضب عليه وعاقبه. فاختر لنفسك، ما فيه خيرك وأجرك.

وكان معاوية مطرقا برأسه إلى الأرض، يسمع ويعى. فلما انتهى أبو مسلم من نصيحته، وأراد الانصراف موليا ظهره، قال معاوية: جزاك الله عنا وعن الرعية خيرا يا أبا مسلم، فما علمناك إلا ناصحا لله ورسوله ولعامة المسلمين.

الخلافة عمل بالحق وقول بالمعدلة:

وحضره أبو مسلم صلاة جمعة فى مسجد دمشق الجامع على عادته، وكان معاوية يخطب الناس وعرض فى خطبته إلى ما استحدثه من إصلاح لمياه نهر بردى، كى تصفو مشاربه للناس، ويبدو أن أهل دمشق قد لجت ألسنتهم فى الحديث عن ذلك، فأراد معاوية أن يبين لهم.

وبينا هو يخطب قاطعه أبو مسلم وناداه من بين جموع المصلين قائلا: تذكر يا معاوية أنك هامة اليوم أو غد[١]، وأن دارك قبر من القبور، فإن جئتها بشىء كان لك فيها شىء، وإن جئتها صفر اليدين، وجدتها قاعا صفصفًا. وإنى أعيذك بالله يا معاوية أن تظن أن الخلافة كرى[٢] الأنهار، وجمع الأموال، وإنما الخلافة عمل بالحق وقول بالمعدلة[٣]، وأخذ للناس بما يرضى الله عز وجل.

يا معاوية إنا لا نبالى بكدر الأنهار إذا صفت رأس عيننا، وإنك رأس عيننا، فاجتهد فى أن تظل صافيا. يا معاوية إنك إن تحفْ[٤] على رجل واحد، يذهب حيفك عليه بعدلك، فإياك والظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة[٥].

(١) أى أن مصيرك الموت اليوم أو الغد.
(٢) الكرْى: حفر مجار جديدة.
(٣) المعدلة: الصدق والإنصاف.
(٤) تحف: تظلم.
(٥) هذا جزء من حديث رسول الله ﷺ.

فلما انتهت الخطبة، وقضيت الصلاة، سعى معاوية، إلى حيث يجلس أبو مسلم فسلم عليه، وشكره على موعظته ونصيحته، وقال: يرحمك الله يا أبا مسلم، ويجزيك عنا خير الجزاء. وانفض الجمع، وانتشر الناس إلى أعمالهم وأرزاقهم وهم يرددون مقالة أبى مسلم وجرأته فى الحق بإعجاب، ويدعون لولى الأمر الذى سمع ولم يغضب، بحرراة وإكبار.

ليس المال مالك ولا مال أبيك:

وفى مرة وكان معاوية قد حبس عن الناس أعطياتهم ومخصصاتهم، ولعل ذلك كان بسبب من أسباب إعداد الجيوش، أو لقله الموارد ـ فالله أعلم ـ رغم ما كانت تتمتع به بعض الجهات من بحبوحة وإنفاق عن يسر. وقدا عتلى المنبر خطيبا فى يوم جمعة، فناداه أبو مسلم: يا معاوية إن هذا المال ليس بمالك ولا مال أبيك وأمك، فبأى حق تحبسه عن الناس؟ ولم يزد على ذلك.

كانت اللهجة قاسية، ونبرة الكلمات شديدة، مؤلمة موجعه، فاشتد غيظ معاوية، وبدأ الغضب على وجهه وعلى قسماته، ولكنه لم ينفعل ولم يثر، وما رد بكلمة، بل أشار إلى الناس أن يمكثوا فى أماكنهم، ونزل عن المنبر وتوضأ ثانية، ثم عاد فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن إبا مسلم قد ذكر أن هذا المال ليس بمالى ولا مال أبى وأمى، وقد صدق أبو مسلم فيما قال، وإنى سمعت رسول الله يقول: «الغضب من الشيطان والشيطان من النار، والماء يطفئ النار، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ أو يغتسل». أيها الناس أغدوا على أعطياتكم[1] على بركة الله عز وجل.

وفتحت الخزائن، وتدفقت الأموال على الناس، فارتاحت النفوس، وهدأت الخواطر، وبارك الله تعالى نصيحة أبى مسلم وآستجابة أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان.

حتى أتاه اليقين:

ومضت سفينة الحياة بأبى مسلم ـ رضى الله عنه ـ فى خضم هائج مائج، لا يهدأ تارة حتى يثور أخرى، وهو على عهده مع الله تعالى صادق الوعد، غير مضطرب الجنان، ولا متلجلج اللسان، صادعًا بالحق والنصح.

ينفح القلوب والنفوس بريا طيبه وشذا عطره. وينطق بالحكمة يتردد صداها عبر الأجيال والقرون، حتى أتاه اليقين، وكان ذلك سنة اثنتين وستين للهجرة (٦٢) هـ.

وصعدت روحه الطاهرة إلى بارئها فى مقعد صدق عند مليك مقتدر.

---

(١) الأعطيات. الحقوق من بيت المال.

الأحنف بن قَيْس

رضى الله عنه

(١٣ ق هـ - ٧٢هـ)

قال رسول الله ﷺ: «اللهم اغفر للأحنف».

وقال الحسن البصرى رضى الله عنه:

«ما رأيت شريف قوم أفضل منه».

فتى بنى تميم:

حضر وافد رسول الله ﷺ إلى بنى تميم فى أرض نجد من بلاد اليمامة، يدعوهم إلى الإسلام، فاجتمع إليه كبَراؤهم وشيوخهم وسادتهم يستمعون، ويسألون أحيانا. وصادف وجود فتى صغير السن معهم، لم تكتمل فتوته بعد، واختلف القوم فيما بينهم حتى علت أصواتهم، بين مؤيد ومعارض، فابتدرهم الفتى قائلا: يا قوم، ما لى أراكم مترددين، تقدِّمون رجلاً وتؤخِّرون أخرى، والله إن هذا الوافد عليكم لوافد خير، وإنه يدعوكم إلى مكارم الأخلاق، وينهاكم عن سفاسفها، ووالله ما سمعنا منه إلا حسنا، فأجيبوا داعى الهدى، تفوزوا بخيرَى الدنيا والآخرة.

ثم إنهم رأور فيما قاله فتاهم صوابًا وحقّا، فما لبثوا أن استجابوا فأسلموا، وأسلم معهم الفتى، بل كان أولهم إسلامًا.

اللهم اغفر للأحنف بن قيس:

كان ذلك الفتى هو الأحنف بن قيس التميمى. وعاد وافد رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة ليبشره. وحضر من بعده وفد بنى تميم ليشرفوا بلقاء رسول الله ﷺ وصحبته، ولم يكن معهم فتاهم الأحنف لصغر السن، فحُرم اللقاء، ولكنه - رضى الله عنه - لم يحرم الدعاء. يحدثنا الأحنف عن ذلك، فيقول: بينما أنا أطوف بالبيت العتيق، فى زمن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - إذ لقينى رجل أعرفه، فأخذ بيدى وقال: ألا أبشرك؟ قلت: بلى. قال: أما تذكر يوم بعثتى رسول الله ﷺ إلى قومك لأدعوهم إلى الإسلام، فجعلتُ أدعوهم وأعرض عليهم الدخول فى دين الله، فقلت أنت ما قلت. قلت: بلى. قال: فإنى رجعت إلى النبى ﷺ وأخبرته بمقالتك، فقال: «اللهم اغفر للأحنف». فكان الأحنف بعدها، يقول: ما من شىء من علمى أرجَى لى يوم القيامة من دعوة رسول الله ﷺ.

من هو؟

إنه الضحاك بن قيس بن معاوية التميمى، وإنما لقب الأحنف - الذى غلب على اسمه - بسبب حَنَف فى رجليه، وهو: مَيل إحداهما عن الأخرى.

وكان قصير القامة، وسيما كوسجا[1]، لا يملأ عين الناظر إليه، وكان من أوسط القوم، ليس من أسيادهم ولا شيوخهم ولكنه بلغ مرتبة عالية فيهم، مع تقدم السن والنضوج، حتى سادهم جميعا.

وكان - رضى الله عنه - يتحلى بمكارم الأخلاق، وحضور البديهة، وفصاحة اللسان، وروعة البيان، وسرعة الخاطر، والجرأة النادرة فى أشد المواقف حرجًا.

وتوّج ذلك كلَّه حلمُه، حتى ضُربت به الأمثال، واعتلى به فوق هامات الرجال، وكان جديرًا به - وهو يحمل كل تلك المؤهلات والسجايا - أن يسود وأن يقود أيضا.

---

(١) الكوسج: الذى لحيته على ذقنه، لا على عارضيه.

حلمه:

ونكرر هنا ما قاله الشاعر أبو تمام فى مدحه لأحمد المعتصم حين قال:

إقدام عمرو فى سماحة حاتم   فى حِلم أحنف فى ذكاء إياس

والوقائع التى تشهد للأحنف - رضى الله عنه - بالحلم كثيرة، وكثيرة جدا، وهى بحاجة إلى سِفْر ضخم يجمعها بعد أن تفرقت فى بطون الكتب، ونَذكر منها طرفا وطرفا.

يُروى أن عمرو بن الأهتم أغرى رجلاً بسب الأحنف سبا مقذعًا ليستثيره، ويخرجه عن حلمه ووقاره، فتذهب عنه تلك السجية والمزية. وظل الأحنف صامتا لا يتكلم ولا ينبس ببنت شفة، كاظمًا غيظه، متجملاً بحلمه، حتى إن الرجل الساب الشاتم ارتد على نفسه، فالتقم إبهامه يضغط عليها بأسنانه، يكاد يقطعها، ثم قال: واسوأتاه، والله ما منعه من جوابى إلا هوانى عليه.

ويروى أنه - رضى الله عنه - كان يمشى فى ضواحى البصرة خاليا بنفسه، فى تفكر وتدبر، وتأمل فى الكون وفى الناس، فتعرَّض له رجل وأخذ يشتمه، ويقبّح فى سبه وعيبه، والأحنف ساكت صامت، لا يلتفت إليه، ولا يعيره اهتمامه، والرجل يتابعه فى سيره وممشاه وسبِّه، حتى إذا اقترب الأحنف من منازل قومه وعشيرته التفت إلى الرجل، وقال له: يا ابن أخى، إن كان قد بقى من كلامك فضله فقلها الآن؛ فإن قومى إذا سمعوك نالوا منك، وأصابك منهم أذًى شديد، فأغضى الرجل حياءً وخجلاً من نفسه وانصرف.

ويروى - أيضا - أن رجلاً أغلظ له فى الكلام المقذع، والسب القبيح، وقال وقد رآه ساكتا لا يجيبه: والله يا أحنف، لئن قلت لى واحده لتسحقن بدلها عشرًا. فتبسم له الأحنف وقال: وأنت لو قلت لى عشرًا لم تسمع منى واحدة.

ما هذا الحِلْم؟

تُرى هل كان الأحنف يتصنع ذلك، أم أنه كان له سجية وطبعًا؟ وهل كان فى عجز عن أن يرد على مثل هؤلاء السفهاء فيخرسهم، ويلقمهم حَجَرًا - أو أحجارًا - فى أقوالهم؟ وما حقيقة هذا الحلم؟

وكان إذا تعجب الناس من حلمه قال: والله إنى لأجد ما يجدون - من الغيظ والأسى - ولكنى صبورٌ.

عند عمر - رضى الله عنهما:

لم يفد الأحنف إلى المدينة المنورة إلا فى زمن خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وكان قد أتى مع وفد تميم من البصرة. والسبب أن عمر - رضى الله عنه - طلب إلى عتبة ابن غَزوان - القائد العام لجيوش المسلمين فى العراق وفارس - أن يرسل إليه عشرة من صُلحاء عسكره، وأحسنهم بلاء فى القتال، ليقفَ منهم على أحوال الجيش، ويستمع إلى آرائهم،

ويأخذ بمشوراتهم، فأرسل إليه عتبة بما طلب، وجعل فيهم الأحنف بن قيس مع وفد بني تميم.
رحب بهم عمر وتبسَّط إليهم، ثم راح يسألهم، فقاموا تباعًا يتحدثون، وأفاضوا في القول، ولكنهم آثروا الحديث عن أنفسهم ومطالبهم الخاصة، حتى إن قائلهم قال: أمَّا عامة الناس فأنت وليهم - يا أمير المؤمنين - وصاحب شئونهم، وأما نحن فنتكلم عن خاصة أنفسنا، ثم طلب كل منهم حاجته التي تعنيه.

أما الأحنف فقد لزم الصمت؛ فإن في القوم من هو أكبر منه وأعظم، حتى جاء دوره، فقام وحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: يا أمير المؤمنين، إن جند المسلمين الذين حلُّوا في مصر قد نزلوا في الخضرة والنضرة، والخصيب من منازل الفراعنة. وإن الذين حلوا في ديار الشام قد نزلوا في الرغد والثمار والرياض من منازل القياصرة، وإن الذين حلوا في ديار الفرس قد نزلوا على ضفاف الأنهار العذبة والجنان الوارفة من منازل الأكاسرة. لكن قومن الذين حلوا في البصرة قد نزلوا في أرض هشاشة نشاشة، لا يجف ترابها، ولا ينبت مرعاها، أحد طرفيها بحر أجاج، وطرفها الآخر فلاة قفر. فأزل - يا أمير المؤمنين - ضرهم، وأنعش حياتهم، ومر واليك على البصرة أن يحفر لهم نهرًا يستعذبون منه الماء، ويسقون الأنعام والزرع، فتحسن حالهم، ويَصلح عيالهم، وترخص أسعارهم. ويستعينوا بذلك على الجهاد في سبيل الله.

سيد بني تميم:

تفحصه عمر وتأمله، وأعجب به وبقوله، وكان الفاروق - رضي الله عنه - على معرفة بالرجال، فالتفت إلى القوم، وقال لهم: هلا فعلتم فعل هذا! إنه والله لسيد!

ثم أجازهم بجوائز مختلفة، وأكرمهم، وحين قدم للأحنف جائزته قال الأحنف: والله يا أمير المؤمنين، ما قطعنا إليك الفَلَوات، ولا ضربنا أكباد الإبل، في البكور والعشيات لنيل الجوائز، وما لي من حاجة لديك إلا حاجة قومي التي ذكرت، فإن تقضها لهم تكن قد كفيت ووفيت.

فازداد له عمر إكباراً وتقديراً، وبه إعجابًا، وقال: هذا الغلام سيد أهل البصرة.

كذبة واحدة:

ويحدثنا الأحنف عن نفسه بأنه ما كذب في حياته قط إلا مرة واحدة، رجع بعدها إلى صفاء نفسه، ونقاء معدنه، وطيب عنصره. فقد حدث بعد هذا اللقاء بينه وبين عمر، وحين همَّ القوم بالانصراف أن قام عمر إلى رواحلهم يتفحصها، فرأى طرف ثوب خارجًا عن رحل، فأمسك به فتحسسه بيده، ثم سأل: لمن هذا؟

فقال الأحنف: لي، يا أمير المؤمنين. وقد أدرك الأحنف أن الفاروق تعجب من رفاهة الثوب. ثم سأله عمر: وبكم اشتريتَه؟ فقال الأحنف: بثمانية دراهم، وكان قد اشتراه باثني عشر درهما. فنظر إليه عمر وقال: هلا اكتفيت بواحد، ووضعت فضلة مالك في موضع تعين به مسلمًا؟

ثم وجه الفاروق ـ رضى الله عنه ـ الحديث إلى عامة القوم قائلا : خذوا من أموالكم ما يصلح شأنكم ، وضعوا الفضول فى مواضعها ، تريحوا أنفسكم وتربحوا . وأدرك الأحنف أنه المعنى بقول أمير المؤمنين ، فأطرق حياءً ، وسكت .

الحبس:

وليس المقصود بالحبس : السجن . لقد رأى عمر ـ رضى الله عنه ـ بثاقب فكره ، وبُعد نظره ـ أن فى الأحنف من الصفات ما يؤهله للقيادة والرياسة ، ولكنه أراد أن يستوثق من مصداقية الأحنف .

وعندما أذن أمير المؤمنين للقوم بالعودة إلى البصرة والالتحاق بكتائب الجهاد حبسَ الأحنف ؛ إذا استبقاه عنده ، ولمدة سنة كاملة كانت كافية للاختبار ، وأيضا للتعلم .

فقد لازم الأحنف كبار الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فى مسجد رسول الله ﷺ، يشافههم ويحفظ منهم ، ويتزود من علمهم ، ويتهيأ .

ولم يكن ليغيب عن مجلس عمر رضى الله عنه ، ومن خلاله اكتسب كثيراً ، وأضحى من أنجب تلاميذ المدرسة العمرية ، فى الحكم والقضاء والسياسة والإدارة والعدل!

ولقد سئل الأحنف ـ رضى الله عنه ـ مرةً : بم أوتيت ما أوتيت من الوفاء والحكمة؟ فقال : بكلمات سمعتهن من عمر بن الخطاب ، حيث قال : من مزح استخف به ، ومن أكثر من شىء عرف به ، ومن كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه .

معلمه فى الحلم:

ويحدثنا عن أستاذه فى الحلم ومعلمه له ، فيقول : كنا نختلف إلى مجالس قيس بن عاصم المنقرى[1] لنتعلم منه الحلم ، كما نختلف إلى مجالس العلماء لنتلقى عنهم العلم . فقيل للأحنف : وما الذى بلغ من حلمه؟ فقال : جئته مرة ، فرأيته قاعدا فى فناء بينه محتبيا [2] بحمائل سيفه ، يحدث قومه ، فسلمت وجلست ، وما هو إلا قليل حتى سمعنا ضجة ، فنظرنا فإذا به قد أتىَ له بشاب مكتوف ، وآخر مقتول ، وقيل له : هذا ابن أخيك قد قَتل ابنَك ، فوالله ما حل حبوته ، ولا قطع كلامه ، ثم التفت إلى ابن أخيه ، وقال له : يا ابن أخى ، قتلت ابن عمك ، فقطعت رحمك بيدك ، ورميت نفسك بسهمك . ثم قال لابن آخر له : قم يا بنى فحل كتاف ابن عمك ، ووارِ أخاك ، ثم سق إلى أمه مائة ناقة دية ابنها ؛ فإنها غريبة .

عبادته وورعه:

وكان الأحنف ـ رضى الله عنه ـ صوَّامًا قوامًا ، راكعًا ساجدًا ، تاليًا لكتاب الله تعالى ، حافظًا له ، خلوته بنفسه مع ربه ، يحاسبها حسابًا عسيراً ، ويوعظها فى غفلتها إن هى مالت .

---

(١) من سادات العرب فى الجاهلية ، وكان قد حرم على نفسه الخمر . . وفد على النبى ﷺ، وأسلم بين يديه وبايعه .

(٢) محتبيا : جامعا ظهره إلى ساقيه .

كان يسرج مصباحه، ويقف فى صلاته، ويستغرق فيها، ويبكى وينشج أحيانًا خشوعا وخوفًا، ويظل فى حاله هذه حتى يدركه الصبح. وكان يقرب إصبعه من المصباح ويقول: حس يا أحنف حسِّ، ما حملك على كذا؟ ما حملك على كذا؟ ويخاطب نفسه فيقول لها: إذا لم تصبرى علَى نار المصباح فكيف تصبرين على النار الكبرى؟! وكان يقول فى دعائه: اللهم إن تعذبنى فإنى أهل لذلك، وإن تغفر لى فأنت أهل لذلك.

وبعد، فلما أنس منه عمر - رضى الله عنه - حسن النية وصدق الطوية، ولم يخالف ظاهرُه باطنَه، وأنه قد تشبع علما، واستوى على عوده، قال له: يا أحنف إنى قد بلوتك واختبرتك فلم أرَ إلا خيرًا، وقد رأيت علانيتك حسنة، وإنى لأرجو أن تكون سريرتك مثل علانيتك، ثم وجه إلى حرب الفرس.

فى ميدان الجهاد فى سبيل الله:

وكما برز الأحنف - رضى الله عنه - فى العلم والفضل والأدب، والدين والخلق، برز أيضا فى ميادين القتال والجهاد.

وجهه عمر إلى البصرة من حيث أتى. وكان قد تولى قيادة الجبهة الشرقية أبو موسى الأشعرى عبد الله بن قيس رضى الله عنه. فكتب إليه عمر: أما بعد فأدن الأحنف بن قيس منك، وشاوره، واسمع منه. وحل الأحنف - رضى الله عنه - من قلب أبى موسى مكانة عالية. وقاد الجيوش إلى أقصى الشرق، وأبلى فى الميادين بلاءً حسنًا، وما خاض معركة إلا وكتب الله له فيها النصر على عدوه.

وكان من أبرزها فتح مدينة تستر، درة التاج الكسروى، وأسر الهرمزان. والهرمزان من أشد قادة الفرس سفكا وغدرًا، وأعظمهم حيلة فى الحرب، فلما حوصرت تستر وشدد عليها، أطل الهرمزان من برج، ونادى فى المسلمين: إن معى مائة سهم ووالله ما يصلون إلىّ ما دام فى يدى شىء منها، وعَرض عليهم أن يستسلم ويرضى بأن يحكم فيه الخليفة عمر، وقبلوا منه ذلك. ثم حملوه إلى المدينة أسيرًا.

وكان على رأس الوفد أنس بن مالك والمغيرة بن شعبة والأحنف بن قيس رضى الله عنهم، فلما أتوها لم يجدوا عمر فى المسجد ولا فى دار الخلافة وإنما وجدوه فى ظاهر المسجد، وقد توسَّد رداء له، مستسلمًا لقَيْلولة، وقد أنهكه سهر الليل قيامًا لله تعالى، ورعاية للناس. وعندما فتح عمر - رضى الله عنه - عينيه رأى الهرمزان فى أبهى حُلة وزينة، فأعرض عنه، واستعاذ بالله تعالى، وقال: أعوذ بالله من النار، وأستعين به على الدنيا. الحمد لله الذى أذل هذا وأشياعه للإسلام. يا معشر المسلمين، تمسَّكوا بهذا الدين، واهتدوا بهدى نبيكم، ولا تغرنكم الدنيا؛ فإنها غرارة.

وبشر الوفد عمر - رضى الله عنه - بالفتح المبين. وكان المتحدث الأحنف، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الهرمزان قد استأسر لنا، وطلب أن ينزل على حكمك فيه، فكلمه إذا شئت. فقال

عمر : لا أكلمه حتى تخلعوا ما عليه من مظاهر البطر والأشر ، ففعلوا . وأخذ عمر فى مساءلته ومجادلته ، وتبكيته وتوبيخه ، على ما كان منه من الغدر والخيانة أكثر من مرة ، ثم إن الهرمزان طلب أن يشرب ، فأمر له عمر بقدح من ماء . وتناول القدح بيد مرتجفة ، فسأله عمر عن سبب خوفه ، فقال الهرمزان : أخاف أن تقتلنى قبل أن أشرب . فأمَّنه عمر حتى يشرب . لكن الهرمزان ألقى بالقدح جانبا ، واستنكف عن شرب الماء ، فسأله عمر عن ذلك . فقال الهرمزان : لا حاجة لى إلى الماء وإنما أردت أن أستأمن به على نفسى من القتل . وغضب عمر ، لكن أنس بن مالك والأحنف بن قيس هدَّءا من ثورته ، وشهدَا للهرمزان بأنه فى الأمان . فقال عمر للهرمزان : لقد خدعتنى ولا أنخدع إلا لمسلم ، وأسلم الهرمزان .

التوغل فى بلاد فارس والانسياح إلى ما وراءها:

ثم إن عمر - رضى الله عنه - سأل الوفد : ما بال الفرس ينتقضون على المسلمين؟ أيؤذى المسلمون أهلَ الذمة ويسيئون معاملتهم؟ فقال قائل الوفد : والله يا أمير المؤمنين ، ما نعلم أن أحدا أساء لهم معاملة ، أو خفر لهم ذمة ، أو غشهم فى عقد . فقال عمر : إذًا ما لهم ينقلبون عليكم ، مع ما بينكم وبينهم من عقود ومواثيق . وسكت القوم عن الجواب . عندئذ استأذن الأحنف فى الكلام ، وقال : يا أمير المؤمنين ، لقد نهيتنا عن الانسياح فى بلاد الفرس ، وأمرتنا بالاقتصار على ما فى أيدينا من بلادهم ، أراضيهم ومدنهم . وإن الفرس - ما دام لهم مَلك حى ، ومُلك قائم - فسيقاتلوننا الكَرة تلو الكرة ، لاسترجاع ما فى أيدينا ، وإنه - يا أمير المؤمنين - لا يجتمع ملكان فى أرض واحدة ، فلا بد أن يُخرج أحدُهما الآخرَ . فلو أذنت لنا بالانسياح فى بلادهم حتى نقضى على ملكهم ، ونزيل ملكهم ، لانقطع رجاؤهم ، وسكن جأشهم ، واستتب لنا الأمر . فاستصوب عمر رأى الأحنف ، ووافقه على ما قال ، وقال : لقد صدقنى الأحنف ، وكشف لى ما غاب عنى من شأن القوم ، ثم أعطى الأذن ، وتغير مجرى التاريخ .

القائد الظافر الفاتح:

ومرت الأيام وتوالت السنون والأعوام . وانطلق الأحنف بن قيس - رضى الله عنه - يخوض الميادين ، ويفتح البلدان فى أقصى فارس وما وراءها ، ظافراً مظفرا ، فى اندفاع سريع وجرىء . فافتتح مَرْو الرَّوذ . وكان معه فى الجيش يومئذ سيِّدان من كبار التابعين رضوان الله عليهم ، هما : الحسن البصرى ومحمد بن سيرين . وكذلك افتتح سمرقند فى بخارى ، وخرسان وقتل من أهلها خلقًا لا يُحصَون عددًا . وفقد إحدى عينيه ، فكانت له شهادة صدق وحق ، ووسامًا يرصع وجهه فيزيد إشراقًا بنور الإيمان ، والجهاد فى سبيل الله .

وما زال ينطلق متوغلا حتى وصل إلى بلخ ، وكانت من أعظم المدن وأكثرها رخاءً وازدهاراً ، وعُرفت - فيما بعد - بقبة الإسلام ، فصالحه أهلها على أن يدفعوا له أربعمائة ألف دينار كل سنة .

الأحنف مع على رضى الله عنهما:

ولقد سجَّل الفتى التميمى أنصع الصفحات وأكثرها إشراقًا وسطوعًا فى سفْر الجهاد فتحًا وإعلاءً لكلمة الله. ثم ارتد إلى قواعده، لا هروبًا من الميادين، ولكن إلى جهادٍ من نوع آخر.

فقد استشرت الفتنة بين المسلمين، وتطاير شرارها هنا وهناك، واحتدم الخلاف بين على ومعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما.

لم يشهد الأحنف معركة الجمل، ولكنه شهد صفِّين، وكان يومئذ قائداً من قادة جيش على، وأبلى فى المعركة بلاءً حسنا، ثم إنه التزم الحياد بعد استشهاد على رضوان الله عليه.

عند معاوية:

وبايع الأحنف لمعاوية بن أبى سفيان، وكان يأتيه بين الحين والحين، ومعاوية يعرف له قدره ومنزلته، وقوة شخصيته، وسعه نفوذه، فيكرمه ويقدر تلك المنزلة.

وعند اللقاء الأول بينهما قال معاوية للأحنف: والله يا أحنف، ما تمثلت يوم صفين مرة، وتذكرت انحيازك عنا، ووقوفك إلى جانب على بن أبى طالب إلا كانت حزازة فى قلبى إلى أن أموت.

ثارت حمية الأحنف لقول معاوية، فرد عليه: والله يا معاوية - دون أن يخاطبه بأمير المؤمنين - إن القلوب التى أبغضناك بها ما تزال بين جوانحنا، وإن السيوف التى قاتلناك بها ما فتئت فى أيدينا، وإن تَدْنُ من الحرب فترًا نَدْنُ منها شبراً، وإن تمش إليها مشيًا نمض إليها هرولةً. ووالله ما حملتنا إليك رغبة فى عطائك، أو رهبة من جفائك، وإنما جئناك لرأب الصدع ولم الشمل، وجمع كلمة المسلمين، ثم ولى ظهره وخرج.

وكانت إحدى بنات معاوية - وتدعى أم الحكم - تستمع من وراء ستر وحجاب لما يجرى من حوار، وقد هالها ما سمعت من قارص الكلام لأبيها، فخرجت إليه تقول: من الذى يتهدد أمير المؤمنين، ويتوعَّده فى عقر داره؟ فأجابها أبوها: يا ابنتى، هذا الذى إذا غضب غضب له مائة ألف من بنى تميم لا يدرون فيم غضب! إنه الأحنف بن قيس.

ولم يدُم الجفاء:

فقد جاء الأحنف بعدها أكثر من مرة إلى دمشق، لا بشأن خاص، ولكن لصالح المسلمين عامة، حضر مرة مع وفد من العراق، فاستقبلهم معاوية، وسألهم عن سيرة واليه عليهم عبيد الله ابن زياد بن أبيه[1]، فأطنب رجال الوفد فى المدح والثناء على ابن زياد، ولزم الأحنف الصمت. فقال له معاوية: ما لك لا تتكلم؟ فقال الأحنف: إن تكلمت خالفتهم. فقال معاوية: أشهدكم أنى قد عزلت عبيد الله عن العراق، فاختاروا لأنفسكم نائبًا غيره، وقد أمهلتكم ثلاثة أيام.

(١) هو: زياد بن أبى سفيان من أم تدعى سمية، تنكَّر لها أبو سفيان، ثم استلحقه معاوية. وكان قائدا سياسيا وإداريا ناجحا، شديد الوطأة على الناس، فصيحًا بليغًا.

وكان بين الأحنف وابن زياد مجافاة ومباعدة؛ لما كان عليه الأخير من فظاعة وقسوة وشدة، وسوء سلوك فى الناس. اجتمع القوم وتداولوا، ثم إنهم لم يتفقوا على شخص معين. فلما حل الأجل حضروا إلى معاوية، فسألهم، وتبين له أنهم فى خلاف وشقاق، وقد علت أصواتهم عند الخليفة، فتضابق منهم، وسأل الأحنف الذى كان ساكتا لا يتكلم، ولا يدخل فى الشحناء، وقال له: تكلم يا أحنف وأسعفنى برأيك ومشورتك. فقال الأحنف: إن كنتَ - يا أمير المؤمنين - تريد أن تولى أحدًا من أهل بيتك فليس فيهم مثل عبيد الله؛ فإنه رجل حازم لا يسد أحد مسده، وإن كنت تريد غيره فأنت أعلم بقرابتك. فتبسم معاوية، واستدعى إليه عبد الله وأنَّبه وعنَّفَه. وقال له: كيف جهلت مثل الأحنف يا هذا؟! لقد عزلك وولاك وهو ساكت.

وأعاده إلى الولاية، وصلُح الحال بين عبيد الله وبين الأحنف فيما يعود على الناس بالنفع والخير.

وعظمت المنزلة:

وتبوأ الأحنف من قلب معاوية وعقله مرتبة المشير الناصح، المسموع الكلمة. ويروى أنه قدم ذات مرة على معاوية فوجده غضبان أسفا على ولده يزيد، وبينهما جفوة، فما زال به ينصحه ويرقق قلبه، ويستثير حبه، حتى رضى، وأرسل إلى يزيد بمال وأثواب؛ دليل عفو ومحبة. وحين علم يزيد بما فعله الأحنف أرسل إليه بضعف ما وصله به أبوه.

واستمر الأحنف - رضى الله عنه - داعية خير ووئام وصلح بين المسلمين، حتى لقى وجه ربه. وكان ذلك سنة ثلاث وسبعين من الهجرة، فى الكوفة. وصلى عليه يومئذ أمير العراق مصعب بن الزبير، وشهد جنازته.

* * *

صِلة بن أشيم

رضى الله عنه

(.. ـ ٧٦ هـ)

قال الحافظ ابن كثير:

كان صِلة يصلى حتى ما يستطيع أن يأتى الفراش إلا حَبْوًا.

قائم الليل:

ما عرف التاريخ - على مدى الأزمان والقرون والأعوام - قائم ليل فى عبادة مثل رسول اللهﷺ. كان يقوم حتى تتورم قدماه الشريفتان، ولقد قيل له فى ذلك: وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فأجاب: أفلا أكون عبدًا شكورًا.

ولقد تأسى به - صلوات الله وسلامه عليه - طائفة من أصحابه، والتابعون لهم بإحسان، ومن بعدهم من العباد من السلف الصالح. وكان أبرزهم صلة بن أشيم رضى الله عنه.

كان إذا جَنَّ الليلُ، وهدأت حركة الكون، واستسلم الأحياء للكَرَى قام فتوضأ، فأحسن الوضوء، واستقبل القبلة الشريفة، وأخذ فى الصلاة، لا يسأم، ولا يمل، ويَسبح فى أنوارها، مستعليًا على دنيا البشر، محلِّقًا فى العَنان، حتى يكاد يسامى الملائكة طاعةً وعبادةً. وذكرًا وشكرًا، ويظل على حاله تلك حتى يعيا، فلا يأتى فراشه إلا حبوًا. وقد عجزت قدماه عن حَمله.

﴿إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾(1):

وأحيانًا كان صلة - رضى الله عنه - وقد اقترب الهزيع الأخير من الليل يُقبل على قراءة القرآن الكريم فى خشوع وتدبر وتنكر.

يمر بآية من العذاب فيستغفر، ويتعوذ، ويسحّ الدمع من عينيه مرارًا، ويمر بآية من آيات الرحمة والنعمة فيذكر ويشكر ويسبح، وأيضا تنهمر الدموع من مآقيه؛ فهو على كل حال يبكى حتى تحمر عيناه.

وكان الفجر أحلى أوقات القراءة عنده، فى صَفائه ورُوائه، وانفلاق الليل عن نور الصباح، وما أعظمها آيةً من آيات الله تعالى فى الكون، لمن له قلب، أو ألقَى السمع وهو شهيد. على هذا المنوال من الصلاة والذكر وقراءة القرآن كانت تمضى حياة صلة بن أشيم - رضى الله عنه - لم ينقطع عنها أبدا حتى وافته المنية.

البصرى - العدوى:

ينتسب صلة إلى بنى عَدِىّ من بطون قريش، وهم قوم عمر - الفاروق رضى الله عنه. أما نسبته إلى البصرة فلأنه نشأ فَيها وترعرع، وشب وكبر، وعاش أكثر حياته فيها. وكم من تابعى كانت البصرة والكوفة فى العراق موطنًا لهم ومقامًا، وفيها كانت مدرسته الأولى، فى حلقات مساجدها، وعلى يد جلّة فى الصحابة رضوان الله عليهم.

يقول الأصبهانى: تلقى صلة بن أشيم عن جلة الصحابة، واقتبس من خلالهم، وتخلَّق بأخلاقهم.

عايشهم، وعاش معهم وبهم، وتجاوبت روحه الطاهرة بما حفظ منهم ووعى، فكان قدوة

(1) وتمام الآية ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

فى الفضل والورع والعبادة والزهد، ونموذجًا راقيًا فى الصلة بالله تعالى، وكان لاسمه (صلة) نصيب كبير فى هذه الصلة.

المجاهد فى سبيل الله:

قد تراءى لبعض الناس أن انقطاع العبد الصالح - أى عبد صالح - فى دينه وعبادته وزهده، ونبذه للدنيا، ما يصرفه عن خوض ميادين الجهاد؛ إذ يكفيه ويغنيه ما هو فيه عن امتطاء صهوة جواد، وحمل سيف، وبذل رُوح، وقتال لأعداء الله. وهذا وهم، وخصوصًا فى تلاميذ المدرسة المحمدية، رهبان الليل وفرسان النهار.

فها هو صلة بن أشيم أحد النجباء، لا يركن إلى زاوية، ولا ينام عن وثبة، ولا يُصمُّ أذنيه عن نداء الواجب، بل الفرض فى جهاد كل عدو، فهو - رضى الله عنه - فى ميادين الحَرب، نفسه فى المحراب، هنا يحارب الشيطان ويذعن للرحمن، وهناك يقاتل المشركين والكافرين وعبدة الأوثان، وفى كل ينتصر بإذن الله.

يحدثنا جعفر بن زيد أحد الذين رافقوه فى إحدى المعارك، فيقول:

خرجنا مع جيش من جيوش المسلمين فى غزاة إلى مدينة كابل[1] رجاء أن يفتحها الله لنا، وكان فى الجيش صلة بن أشيم. فلما أرخى الليل سدوله - ونحن فى بعض الطريق - حط الجند رحالهم، وأصابوا شيئًا من الطعام، وأدَّوا العشاء الآخرة، ثم مضوا إلى رحالهم يلتمسون فيها حظا من الراحة، والنوم.

فرأيت صلة بن أشيم يمضى إلى رحله كما مضوا، ويسلم جنبه للرقاد، كما فعلوا، فقلت فى نفسى: أين الذى يروونه من صلاة الرجل وعبادته؟ ويشيعونه عنه من قيامه الليل حتى تتورم قدماه؟! والله لأراقبنه الليلة، حتى أرى ما يكون منه. فلما غلبهم الكرى، واستغرقوا فى سباتهم، وعلا صوت شخيرهم، رأيته وقد قام من رقدته فى تؤدة وحذر؛ كى لا ينتبه لحركته أحد، ثم انحاز عن المعسكر متسترا ومتسربلاً بظلام الليل الدامس، ومضى حتى دخل فى غيضة ملتفة الأشجار، كثيفة الأغصان، فتبعته، وتركت بينى وبينه أمداً حتى لا يشعر بى، فلما بلغ من الغيضة مكانًا قصيًا التمس القيبة واتجه إليها، وكبر للصلاة، واستغرق فيها. وتأملت وجهه، فكان مشرقًا بالنور فى طمأنينة وهدوء وسكون. وفجأة طلع علينا أسد كاسر من الجانب الشرقى من الغيضة، يمشى فى زهو، فلما رأيته انعقد لسانى من الخوف، واضطرب فؤادى، وازداد وجيبه[2]، وأسرعت فعلوت شجرة، ولا أدرى كيف؟

وتقدم الأسد من صلة بن أشيم حتى أصبح على قيد خطوات منه، فوالله ما التفت إليه، ولا اهتم له، ولا حفل به، وظل مستغرقًا فى صلاته التى طالت وامتدت، فلما سجد قلت فى نفسى: الآن يفترسه ويلتهمه، وبعد أن رفع رأسه من سجوده وقعد للتحيات وقف الأسد بجانبه

---

(١) كابل: أو كابول، عاصمة أفغانستان.

(٢) الوجيب: ضربات ونبضات القلب.

وكأنه يتأمله، ثم سلم يمنة ويسرة، وتمتم بكلمات لم أسمعهن لبُعدى عنه، ولعلى رأيت حركة شفتيه، لم يلبث الأسد بعدها أن ولى ظهره لصلة ومضى عنه، وهو يزأر، وزئيره المُرعب يشق سكون الليل، ويخرق صمته.

ولما انبلج الفجر قام صلة وأدّى صلاة الصبح، ثم شرع فى الدعاء والابتهال. ولقد سمعته يقول: اللهم إنى أسالك أن تجيرنى من النار، وهل يجترئ عبد خاطئ مثلى أن يسألك الجنة؟ وما زال يكررها حتى بكى وأبكانى، ثم رجع إلى المعسكر، ولم يفطن له أحد سواى، وبدا لصحبه فى خيمته كأنه بات معهم على الحشايا[١].

وكنت قد عدت فى أثره وبى من سهر الليل، وفتور الجسم، وخوف الأسد ما الله به عليم، ثم إنى جالسته بعدها، ورويت له ما كان منى. . وكان أكبر همى أن أعرف حديثه مع الأسد، فذلك أمر خارق، غير معهود، ولا تكاد تصدقه العقول، ولولا أنى رأيته بعينىْ رأسى ما أفشيته ولا رويته.

تبسم صلة - رضى الله عنه - فافترّ ثغره عن إشراقة ضياء كست وجهه، ثم قال: لقد قلت له بلسان الحال، لا المقال: أيها السبع، إن كنت أمرت بشىء فافعل، وإلا فاطلب الرزق من مكان آخر.

بالحكمة والموعظة الحسنة:

ذلك كان نهجه - رضوان الله عليه - فى وعظه وإرشاده، لم يكن ليتكلف الكلمة، ولم يكن ليشتد ويحتد، بل كان - رضى الله عنه - لين العبارة، هادئ النبرة، خفيضها، من غير تشنج ولا استعلاء. وهذا الأسلوب القرآنى جعله يستلين الأفئدة والأرواح مهما نزع بها نازع الشر والغطرسة والقسوة.

يروى أنه - رضى الله عنه - كان على عادته فى ضاحية من ضواحى البصرة، يختلى فيها للعبادة، بعيدًا عن أعين الناس، وهروبًا من عَيبة الرياء. وفى ذات يوم مرت به طائفة من الشباب، قد شبت فى حناياهم رعونة الصبا، بين لهو وعربدة، فاستوقفهم، وحياهم بأنس ودعة، ولطف، ثم قال لهم: يا أبنائى ما تقولون فى قوم أزمعوا سفرًا لأمر عظيم، وخطر جسيم، غير أنهم كانوا فى نهارهم يحيدون عن الطريق القويم، ليلهوا ويلعبوا، وأما فى ليلهم فكانوا يخلدون إلى النوم ليستريحوا من العناء والعبث، أتُراهم ينجزون رحلتهم ويصلوا إلى غرضهم ومقصدهم.

سمعوا منه وما وعوا، ثم مضوا. وتكرر مرورهم عليه، وتكرر منه الوعظ من غير ملل ولا فتور، قال أحدهم، وهو الراوى للحادثة: قلت لأترابى: والله ما يعنى هذا الرجل بما يقول أحدًا غيرنا؛ فنحن الذين نلهو بالنهار، وننام بالليل. ثم انحاز الفتى إلى صلة ورافقه وتابعه وتعلم منه واهتدى بهداه، وما زال لصيقًا به حتى افترقا بالموت.

---

(١) الحشايا: الفراش؛ لأنها محشوة.

طول الإزار والخيلاء:

وحدث مرة أن كان صلة - رضى الله عنه - مع طائفة من أحبابه وأصحابه وتلامذته، فمروا بشاب قد أسبغ ثوبه، وأطال إزاره، يخطُر فى خيلاء وزهو كالطاووس، آذاهم منظره، فليست تلك هى سمة المؤمنين المتقين، وتقاولوا فيما بينهم، أن يأخذوا هذا الشاب بغضبتهم، فقال لهم صلة: دعوه لى، فإن لى معه شأنًا آخر. ثم تقدم إليه وحيَّاه بلطف ورقة، ثم قال: يا ابن أخى إن لى إليك حاجة. فقال الفتى: مرْحبا، وما هى يا عماه؟ قال صلة: أن ترفع إزارك؛ فإن ذلك أتقى لربك، وأدنى لسنة نبيك، وأنقى لثوبك. أطرق الفتى خجلاً وحياءً، ولم يملك نفسه إلا أن قال: سمعًا وطاعةً لله ورسوله وللواعظين أمثالك. ورفع رداءه، وشمَّر إزاره، ومضى. وعاد صلة إلى أصحابه، وقال لهم: إن ما فعلته أمثل من الذى أردتم. ولو أننى تركتكم فضاربتموه وشتمتموه لضاربكم وشتمكم، وترك إزاره مسدلاً ومضى عنكم. ولا نرى صلة - رضى الله عنه - إلا ممتثلاً ومتأسيًا برسول الله ﷺ حين جاء أعرابى يسأله، فأعطاه، وقال له: هل وفيت لك؟

فقال الأعرابى: لا. عن جفوة وغلظة. فهبَّ إليه الصحابة بمن حضر يريدون البطش به، فمنعهم رسول الله ﷺ. ثم دخل بيته، وعاد يحمل المزيد إلى الأعرابى السائل، ثم سأله: هل وفيت لك الآن؟ فقال: نعم، جُزيت من أهل وعشيرة خيراً، فطلب إليه رسول الله ﷺ أن يعود إليه فى اليوم التالى ليشهد بما قال أمام الصحابة، ففعل. فالتفت رسول الله ﷺ إلى أصحابه وأخبرهم أن هذا أفضل مما أردوا، حتى لا يبوء بإثمه.

صلة ومُعاذة:

كان لصلة ابنة عم اسمها معاذة، لا تقلّ عنه علمًا وورعًا وتقوى. تتلمذت فى بيت النبوه على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، وتأثرت بها، وحفظت عنها وروت، وترقت فى سلوكها إلى مرتبة عالية، عرفت عنها واشتهرت بها، حتى إن الحسن البصرى - رضى الله عنه - كان أحد التلامذة الذين تربَّوا عليها، وهو من هو فى علمه وورعه وبُعد صيته.

كانت معاذة إذا أقبل عنها الليل تقول: قد تكون هذه آخر ليلة لى، فلا تنام حتى تصبح، فى صلاة وقراءة ودعاء، وإذا أسفر النهار تقول: قد يكون هذا آخر يوم لى، فلا ترقد حتى تمسى. كانت - كما روى عنها - تلبس رقيق الثياب إبان فصل الشتاء، كى يمنعها البرد من الركون إلى النوم، والانقطاع عن العبادة. كانت إذا غالبها النوم، ويكاد يغلبها فى الليل، قامت تجول فى أنحاء الدار، وتردد: أمامك يا نفس نوم طويل، غداً تطول رقدتك فى القبر، إما على حسرة، وإما على سرور، فاختارى يا معاذة لنفسك اليوم ما تحبين أن تكونى عليه غدا.

تلك الشخصية الفذة علقت بقلب صلة، لا غرامًا ولا وجداً ولا هيامًا، ولكن إعجابا، وعلى سنة سيد العالمين محمد بن عبد الله ﷺ اقترن صلة بمعاذة، فكان زواجهما زواج دين إلى دين، وخلق إلى خلق، وصفو إلى صفو.

بين الجنة والنار:

فلما كان يوم إهدائها إليه قام ابن أخ له بشأنه، فمضى به إلى الحمام، ثم أدخله عليها فى بيت مطيب. فلما صارا معا، واختليا منفردين، قام صلة يصلى الركعتين المسنونتين، فصلّت معاذة وراءه تصلى بصلاته، مقتدية مؤتمّة به. واستغرقتها الصلاة، وجذبت روحيهما إلى علّيين، حتى برق الفجر، ونسيا حظهما من الزواج.

فلَما كانت الغداة جاء ابن أخيه، وعرف ما كان، فتعجب، وقال فى عتاب رقيق: يا عم، لقد أهديت لك ابنة عمك عروسًا، فقمت تصلى الليل كله وتركتها. فأجابه صلة: يا ابن زخى إنك أدخلتنى أمس بيتا أذكرتنى به النار، ثم أدخلتنى آخر أذكرتنى به الجنة، فما زالت فكرتى تتردد بينهما حتى أصبحت. فقال له ابن أخيه: وما ذاك يا عم؟ قال صلة: لقد أدخلتنى الحمام فأذكرتنى حرجهنم، ثم أدخلتنى بيت العرس فأذكرنى طيبُه طيبَ الجنة، فكان ذلك شغلى، ففزعت إلى الصلاة.

وحدّث صلة عن نفسه بنفسه فقال: جعت مرة فى غزاة جوعًا شديدا، فبينما أنا أسير أدعو ربى وأستطعمه إذ سمعت من خلفى وجبة[1]، فالتفتّ، فإذا بمنديل أبيض، فإذا فيه دَوْخلة[2] ملآنة رطبا، فأكلت منه حتى شبعت. وأدركنى المساء فملت إلى دير[3] راهب فحدثته الحديث، فاستطعمنى من الرطب فأطعمته، ثم إنى مررت على ذلك الراهب بعد زمان، فإذا نخلات حسان، فقال: إنهن لمن الرطبات التى أطعمتنى.

جندى بطل:

وحدث جعفر بن زيد - صفيه وخليله - فقال: خرجنا فى غزوة، ومعنا صلة بن أشيم وهشام بن عامر، فلما لقينا العدو انبرى صلة وصاحبه من صفوف المسلمين، وأوغلا فى جموع الأعداء، طعنًا بالرماح وضربًا بالسيوف، حتى أثّرا فى مقدمة الجيش أبلغ الأثر. فقال بعض قادة العدو لبعض: رجلان من المسلمين أثّرا بنا هذا كله! فكيف لو قاتلونا جميعا؟! أعطوا المسلمين حاجتهم، وانزلوا على حكمهم.

الشهيدان: صلة وابنه:

وكانت خاتمة حياته - رضى الله عنه - الشهادة. ففى سنة ست وسبعين من الهجرة خرج صلة فى غزاة مع جيوش المسلمين إلى بلاد ما وراء النهر، رفقة ابن له، فلما التقى الجيشان، واحتدمت المعركة، وحمى وطيسها قال لابنه:

أى بنى، تقدم وجاهد أعداء الله حتى أحتسبك وديعة عند من لا تضيع عنده الودائع، فتقدم الفتى منطلقا كالسهم، يخترق الصفوف، وما زال يقاتل حتى خر صريعًا، ثم تبعه صلة يقاتل ويحارب، حتى ثوى شهيدا، مطمئن قرير العين.

---

(١) الوجبة: الجلبة من الوجيب، وهو صوت الحركة، الخفقة.

(٢) الدوخلة: ما ينج من الخوص ويجعل فيه الرطب. (٣) يعنى: الصومعة.

واجتمع النساء عند معاذة ـ رضى الله عنها ـ يوا سينها ، ويخففن من حزنها على زوجها وولدها ، وما درين أنها أسمى وأرفع من الحزن ، وأن الشهادة عندها عرس . فقالت لهن : إن كنتن جئتن لتهنِّئْنَنى فمرحبًا بكنَّ ، وإن كنتن جئتن لتعزِّينَنى فارجعن ، آجَرَكُنَّ اللهُ .

من بليغ دعائه:

سأله رجل أن يدعو له ، فقال : رغبك الله فيما يبقى ، وزهدك فيما يفنى ، ورزقك اليقين الذى لا يُركن إلا إليه ، ولا يُعَوَّل فى الدين إلا عليه .

رضى الله تعالى عن صلة بن أشيم التابعى الثقة ، عابد الليل ، وفارس النهار!

* * *

شريح القاضي

رضي الله عنه

(٣٠ق.هـ-٧٨هـ)

قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لشُرَيْح:

سِرْ إلى الكوفة فقد وليتُك قضاءها.

جعل الله الحق على لسان عمر وقلبه:

تلكم هى مقولة رسول الله ﷺ فى حق عمر رضى الله عنه، وهى شهادة الصادق الأمين، أضف إليها أكثر من شهادة، وأكثر من مقولة، فى وقائع وأحداث أخر.

ولقد روى عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قوله: «كان إسلام عمر فتحا، وكانت ولايته رحمة».

وهذه - أيضا - من باب: إنصاف الرجال للرجال، ولكن ما الصلة بين حديثنا عن شريح - القاضى - وبين ما قدمناه عن عمر رضى الله عنهما؟

بين عمر وشريح:

يروى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - اشترى من رجل فرسًا، على أن ينظر إليه ويجربه، وبعد أن امتطى صهوته ومضى به قليلا، عطب الفرس، فارتد إلى الرجل وقال له: خذ فرسك فإنه معطوب لا يصلح، وردَّ على الثمن. فقال الرجل: وكيف ذلك يا أمير المؤمنين، وقد أخذته منى سليما، صحيحا؟ فقال عمر - رضى الله عنه -: اجعل بينى وبينك حكما، يفصل فى الأمر، لا أغبنك، ولا تظلمنى. فقال الرجل: رضيت، فليحكم بيننا شريح ابن حارث.

واستدعى إلى مجلس أمير المؤمنين عمر شريح، وعرض عليه الأمر، ليحكم فيه، فقال شريح: هل أخذت الفرس سليما يا أمير المؤمنين؟ فأجاب عمر: نعم. فقال شريح: يا أمير المؤمنين رد كما أخذت، أو خذ بما ابتعته واحتفظ به. فنظر عمر إلى شريح معجبا، وقال: وهل القضاء إلا هذا؟! سر إلى الكوفة فقد وليتك قضاءها، وخصص له مرتبا مائة درهم فى الشهر. وتلك كانت بداية العهد من عمر بشريح رضى الله عنهما.

من هو شريح؟

هو شريح بن الحارث بن قيس، أبو أمية الكندى.

قيل إن أصله من أولاد الفرس الذين كانوا باليمن، وينتسب بالولاء إلى قبيلة كندة، وهى إحدى قبائل العرب الكبرى فى اليمن، ومن أشهرها.

ولد قبل مبعث النبى ﷺ، وأسلم بعد البعثة، وبقى فى اليمن إلى ما بعد وفاة رسول الله ﷺ وخلافة الصديق رضى الله عنه، وأتى المدينة فى خلافة عمر - رضى الله عنه - تضلع فى العلوم، وحفظ حديث رسول الله ﷺ، وكان لماحًا ذكيا حاد الذكاء.

ولى قضاء الكوفة كما قدمنا، واستمر قاضيها طوال خلافة عمر وعثمان وعلى ومعاوية بن أبى سفيان - رضى الله عنهم - أجمعين. واستعفى من القضاء قبل وفاته بسنة، وكانت وفاته - رحمه الله ورضى عنه - سنة ثمان وسبعين هجرية، وقد عمر مائة وثمانى سنوات على الأرجح من الروايات.

قاضى الكوفة:

مما هو مألوف للعين، ومذكر للمتداعين المتخاصمين أن ترفع يافطة عند رأس القاضى - فى أيامنا - مكتوب فيها قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [سورة النساء - الآية ٥٨][١].

ولقد كان من شأن شريح - رضى الله عنه - أنه عند جلوسه ليفصل فى الخصومات، يتلو قول الله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ [سورة ص - الآية ٢٦]. يذكر بها نفسه ويعظها، ويحذرها فتنة الهوى والميل عن الحق، ويردد بصوت عال، على مسمع من الحضور هذه العبارة المحكمة: سيعلم الظالم حظ من نقص، إن الظالم ينتظر العقاب، والمظلوم ينتظر النصر.

كما جاء فى تفويض عمر لشريح بالولاية:

إذا جاءك الشيء من كتاب الله فاقض به، ولا يلفتنك عنه رجاء ما ليس فى كتاب الله، وآنظر سنة رسول الله ﷺ فاقض بها، فإن جاءك ما ليس فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله فانظرما اجتمع عليه الناس[٢] فخذ به وفى رواية: فانظر فيما قضى به الصالحون، فإن لم يكن، فإن شئت فتقدم، وإن شئت فتأخر[٣]، وما أرى التأخر إلا خيرا، والسلام.

إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم:

ولكن ينظر إلى قلوبكم. فالهيئة ليست بذات بال عند الله تعالى، إنما العبرة بما انطوت عليه الصدور من قلوب طاهرة، نقية صافية، لا تشوبها شائبة، والرؤوس وما حوت من عقول وأفهام، وحفظت من علوم وفنون، ونفوس كبار، لا ترضى إلا بالحق منهجا وسبيلا.

وعليه فإن شريحا - رضى الله عنه - لم يكن بالصورة أو الهيئة التى تملأ العين وتستحوذ عليها، اللهم إلا إذا نطق وتكلم، ففى ذلك الفصل والفضل.

كان - رضى الله عنه - قصيراً دميما أعور. ولكنه فى علمه ووعيه وذكائه وأحكامه، جبلا شامخا، عالى الذرا.

علمه وشهادة علىّ له:

كان شريح - رضى الله عنه - كما قدمنا، غزير العلم، حافظا لكتاب الله تعالى، وحديث رسوله ﷺ، حاذق الفهم، حاد الذكاء.

ولقد سأله بعضهم وقد أعجب به: بأى شيء أصبت هذا العلم؟ فقال: بمعاوضة العلماء، آخذ منهم وأعطيهم.

---

(١) وهى جزء من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾.

(٢) اجتمع عليه الناس: تعارفوا. أى العرف.

(٣) أى اجتهد أو توقف، والتوقف أحوط.

إذًا كان على بينة ويقين بتلاقح العقول والأفهام، لا يقتصر على ما عنده وما حصله، فذلك سبيل المغرورين، إنما يجالس ويسمع، ويناقش ويحدث، فيأخذ ويعطى، وتلك هى المعاوضة.

ولقد كان فيما امتدح به سيدنا عمر - رضى الله عنه - عليا - كرم الله وجهه - فقال: أقضانا علىٌّ. أى أكثر الصحابة النجباء - رضى الله عنهم - إدراكًا للقواعد والأحكام الفقهية فى القضاء، من خلال الكتاب والسنة. وتلك شهادة ومكانة، شهادة من عمر ومكانة لعلى. وعلى الرغم من ذلك فقد شهد على - كرم الله وجهه - لشريح - رضى الله عنه - بأنه أعلى رتبة فى هذا الشأن والميدان.

فقد رُوى أن عليا - رضى الله عنه - وأثناء خلافته دعا الناس من الخاصة إلى الجلوس معه، للتباحث والتشاور، إذ قال: يأتينى فقهاؤكم يسألوننى وأسالهم. وكان ذلك فى الكوفة بعد أن انتقل إليها من المدينة، فلما كان اليوم التالى اجتمع عنده العديد من العلماء، حتى امتلات بهم الرحبة، وراح يسألهم فيجيبون، ويسألونه فيجيبهم، ويخبرونه ويخبرهم، حتى ارتفع النهار، وقارب وقت الظهيرة، وفرغوا جميعا عدا شريح، الذى كان جاثيا على ركبته، لا يسأله علىّ عن شىء إلا أجابه، دونما تلعثم أو تردد، أو توقف حتى امتلات عين على منه إعجابا وإكبارا.. وأخيرًا قال له: قم يا شريح فأنت أقضى العرب!

زهده وورعه وخشيته من الله تعالى:

تجاوب الإيمان والعلم فى قلب شريح وتفاعلا، ونتج عن ذلك استغراقه فى الزهد والورع والخشية من الله تعالى، وعلوّ وسموّ.

ومن مأثور ما عرف عنه فى هذا الصدد أنه جعل ميازيب[١] أسطحة داره تنصب إلى داخل الدار؛ لئلا يؤذى بها المارة من الناس، تستقبل مياه الأمطار وتغدقها إلى جوف الدار، ومن داخل الدار جعل المثاعب - أو المشاعب[٢] - إلى حفرة، فكان إذا هلك لأهله سنَّوْر[٣] يأخذه فى هذه المثاعب، تجرى به إلى الحفرة، ويمنع عليهم إلقاءها فى طريق الناس، حتى لا تؤذى المارة بنتن ريحها، وما تفرزه من أوبئة وجراثيم ومضاعفات ذلك. فقال له أحد معارفه، آخذا عليه هذا التصرف: إن شأنك لَشُوَيْن[٤]، فقال له شريح: أراك تعرف نعمة الله على غيرك وتجهلها فى نفسك.

وصادف أن صديقا صدوقا له هرب من الكوفة وقد دهمها وباء الطاعون[٥]، فكتب إليه

---

(١) مفردها: ميزاب، وهو الماسورة.

(٢) المشاعب: مسيل الماء.

(٣) سنور: هرة.

(٤) أى تشين على نفسك، ويعاب عليها.

(٥) الحديث الشريف ينهى عن الخروج منها أو الدخول إليها فى حال وقوع هذا الوباء المعدى.

يقول: أما بعد، فإنك والمكان الذى أنت فيه والمكان الذى خرجت منه، بعين من لا يُعجزه مَن طلب ولا يفوته من هرب. والمكان الذى خلفته لم يعجل امرءًا جمامه، ومن تظلمه أيامه، وإنك وإياهم على بساط واحد، وإن المنتجع من ذى قدرة لقريب.

وجاءه أحد أبنائه يوما فقال: يا أبت إن بينى وبين قوم خصومة، فانظر فيها، فإن كان الحق لى قاضيتهم، وإن كان لهم صا لحتهم. فقال شريح رضى الله عنه: هات ما عندك.. ثم استمع إليه، فلما انتهى قال له: انطلق فقاضهم. فلما مثلوا بين يدى شريح فى مجلس القضاء قضى لهم على ولده، وعندما ضمه البيت مع ابنه قال له ولده: فضحتنى يا أبت، والله لو لم أستشرك من قبل لما لُمتك! فقال له أبوه: يا بنى، والله لأنت أحب إلى من ملء الأرض من أمثالهم، ولكن الله - تعالى - أعز علىَّ منك، لقد خشيت أن أخبرك بأن الحق لهم، فتصالحهم صلحا يفوت عليهم حقهم، فقلت لك ما قلت.

الحق أحق أن يتبع:

لم تأت شهادة علىٍّ - كرم الله وجهه - لشريح بأنه أقضى العرب من فراغ؛ فبالإضافة إلى الحادثة التى ذكرنا من قبل كان لشريح مع على وقفة فى مجلس القضاء ذاته. وإليك البيان:

افتقد على - رضى الله عنه - درعًا له كانت أثيرة عنده، يعتز بها ويفتخر، ثم ما لبث أن رآها فى يد يهودى يعرضها للبيع فى سوق الكوفة، فلما رآها قال لليهودي: هذه درعى، سقطت من جمل لى فى ليلة كذا، فى مكان كذا. فقال اليهودى: بل هى درعى. فقال على: إنما هى درعى أنا، لم أبعها لأحد ولم أهبها، فكيف صارت إليك وتدعيها؟ فقال اليهودى: بينى وبينك القضاء. فقال على: أنصفت فهيا إلى القاضى. فلما كانا بين يدى شريح سأل عليا: ما تقول ياأمير المؤمنين[1]؟ فقال: وجدت درعى هذه مع هذا الرجل، وقد سقطت منى فى ليلة كذا، فى مكان كذا، ولم تصل إلى هذا الذمى ببيع ولا هبة. فقال شريح لليهودى: وما تقول أنت أيها الرجل؟ فقال: الدرع درعى، وهى فى يدى. ثم سأل شريح عليا: لا ريب عندى يا أمير المؤمنين أنك صادق فى دعواك، وأن الدرع لك، ولكن لا بد لك من شاهدين عدلين على صحة دعواك، فهل لديك هما؟ فقال على: مولاى قنبر وولدى الحسن. فقال شريح: لكن شهادة الابن لأبيه لا تجوز يا أمير المؤمنين، وأنت تعلم ذلك.

قال على: رجل من أهل الجنة لا تجوز شهادته، سبحان الله! أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة». فأجابه شريح: بلى يا أمير المؤمنين، غير أنى لا أجيز شهادة الابن لأبيه.

ثم إن عليا - رضى الله عنه - التفت إلى اليهودى وقال له: خذها فليس عندى شاهد غيرهما. عندها تغير موقف اليهودى وتبدل، فقال: ولكنى أقر بأن الدرع درعك يا أمير المؤمنين. وأردف: أمير المؤمنين يقاضينى أمام قاضيه، وقاضيه يقضى لى عليه! أشهد أن الذى يأمر بهذا

(١) بدأ به يستمع إليه؛ لأنه المدَّعِى.

لحق! وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . أعلم أيها القاضى أن الدرع هى درع أمير المؤمنين، وأننى اتبعت الجيش وهو فى طريقة إلى «صفين» ، فسقطت الدرع من جمله فأخذتها.

فقال له على رضى الله عنه :

أما وإنك قد أسلمت فإنى وهبتها لك ووهبت لك معها فرسى أيضا .

ومما هو جدير بالذكر أن هذا الرجل قد شوهد بعد زمن يسير يقاتل الخوارج مع على - رضى الله عنه - فى معركة النهروان ، وأنه قد رزق الشهادة يومئذ .

شريح والشهود:

ولقد كان شريح - رضى الله عنه - يعتريه بعض الشك فى صدق شهادة الشهود ، فكان يحذرهم قبل أن يدلوا بشهاداتهم ، فيقول لهم : استمعوا منى ، هداكم الله ، إنما يقضى على هذا الرجل أنتم ، وإنى لأتقى النار بكم ، وأنتم باتقائها أولى ، وإن فى وسعكم الآن أن تدَعوا الشهادة وتمضوا .

فإن أصروا التفت إلى من يشهدون له وقال : اعلم يا هذا أننى أقضى لك بشهادتهم ، وإنى لأرى أنك ظالم ، ولكنى لست أقضى بالظن ، وإنما أقضى بشهادة الشهود ، وإن قضائى ما يحل لك شيئا حرمه الله عليك .

كان يخاطبهم جميعا فى محاولة لإيقاظ الضمير عندهم ، فلعلهم يرجعون إلى الحق ، ويئوبون إلى العدل ، ويكون القضاء قد برأ ذمته ، وبيض صحيفته .

شريح القاضى.. الأديب الشاعر

وكان شريح - رضى الله عنه - إلى جانب ما اشتهر به فى القضاء أديبا رقيق العبارة ، جيد السبك ، وشاعرا مطبوعا حاضر البديهة .

جاءته امرأتان ذات يوم تشكوان ، أم وجدة ، ومعهما ولد صبى ، وكل تدعى أنها أحق بالرعاية والولاية من الأخرى ، فالجدة تشكو الأم بأنها فرطت فى حقها حين تزوجت بعد وفاة الأب ، والأم تذكر حملها ووضعها ورعايتها ، وكانتا قد عرضتا أمريهما شعراً .

قالت الجدة :

أبا أمية أتيناك وأنت المستعان به	أتاك جدة ابن وأم وكلتانا نفديه
فلو كنت تأيّمت لما نازعتُك فيه	تزوجت فهاتيهً، ولا يذهب بك التيه

ألا أيها القاضى فهذى قَضيتى فيه

وردت الأم تقول :

ألا أيها القاضى قد قالت لك الجدة	قولاً ، فاستمع منى ولا تطردنى رده
تعزى النفس عن إبنى	وكبدى حملت كبده
تزوجت رجاء الخير	من يكفينى فقده
ومن يظهر لى الود	ومن يحسن لى رفده

سمع شريح الدعويين ثم أنشد :

قد سمع القاضى ما قلتما ثم قضى وعلى القاضى جهد إن غفل
قال للجدة : بينى بالصبى وخذى ابنك من ذات العلل
إنها لو صبرت كان لها قبل دعوى ما تبتغيه للبدل

وعلى هذا فقد قضى للجدة بالصبى .

شريح والدعابة المحببة:

ومما يذكر عنه وله أنه كان يحمل بين جنبيه نفسا طيبه كريمة ، نقية صافية رضية مرحة ، ضاحكة مستبشرة ، تحضره الطرفة وفى أحلك الأوقات والظروف ، فتطفو من قلبه على لسانه ولا يبالى .

فلقد قضى ذات يوم على رجل باعترافه ، والاعتراف سيد الأدلة ، فلا ضرورة لبينة أو قرينة ، أو شهود . فقال الرجل : يا أبا أمية لقد قضيت علىّ بغير بينة . فقال له شريح : لقد أخبرنى بواقعتك وجنايتك ابن أخت خالتك - يعنى الرجل نفسه .

وسأله أحدهم عن شاة تأكل الذباب ، ما الحكم فى لبنها؟ فأجاب : علفٌ مجَّان ، ولبنٌ طيِّب .

وبلغه أن أحد أولاده يهرش بين الكلاب ، يلهو بذلك ، وكان قد عهد به إلى مؤدب ليعلمه ويهذبه ، فعجب من أمر المؤدب وغفلته ، فكتب إليه يقول :

ترك الصلاة لأكلب يسعى بها طلب الهراش مع الغُواة الرُّجَّس
فإذا أتاك فعفَّه بملامة وعظه من عظة الأديب الأكيس
فإذا هممت بضربه فبدرَّة فإذا ضربت بها ثلاثا فاحبس
واعلم بأنك ما أتيت ، فنفسه مع ما تجرعنى أعز الأنفس

نصحه لعامة المسلمين وخاصتهم:

ما كان منصب القضاء ليشغل شريحا - رضى الله عنه - عن أن يكون واعظا ناصحا ، وعالما معطاء ، وداعية خير وهداية لعامة المسلمين وخاصتهم .

فما أوتيه من علم وفضل ، وقوة حجة وبيان وجرأة فى الحق ، كل ذلك دفعه ليكون على مستوى المسئولية ، فى القضاء وفى الوعظ على حد سواء .

روى أحدهم : سمعنى شريح وأنا أشتكى بعض ما غمنى لصديق ، فأخذنى من يدى وانتحى بى جانبا وقال : يا ابن أخى إياك والشكوى لغير الله ، فإن من تشكو إليه لا يخلو أن يكون صديقا أو عدوا ، فأما الصديق فتحزنه ، وأما العدو فيشمت بك ، انظر إلى عينى هذه - وأشار إلى عينه غير السليمة - فو الله ما أبصرت بها شخصا ولا طريقا منذ خمس عشرة سنة ، ولكنى ما

أخبرت أحداً بذلك ، إلا أنت هذه الساعة .

أما سمعت قول العبد الصالح[1] : ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِى إِلَى اللَّهِ﴾ [سورة يوسف ـ الآية ٨٦]، فاجعل الله ـ عز وجل ـ مَشْكاك عند كَل نائبة تنوبك ؛ فإنهَ أكرَم مسئول ، وأقرب مدعو .

وبعد فإن شريح بن الحارث ـ رضى الله عنه وأكرم مثواه ـ كان ولا يزال عَلَمًا فى الأولين ، وقدوة صالحة للقضاة والعلماء والأدباء فى كل وقت وحين ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

* * *

(١) هو نبى الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل ، عليهم الصلاة والسلام .

محمد بن الحنفية

ابن على بن أبى طالب

رضى الله عنهما

(٣١ـ٨١هـ)

كان محمد بن الحنفية من سادات قريش،

ومن الشجعان المشهورين، ومن الأقوياء المذكورين

الحافظ ابن كثير

ملامح الشخصية:

هو فى التابعين علم شامخ، وذروة لا تسامى. ابن علىٍّ ـ رضى الله عنه. فصاحة وبلاغة وعلما، وشجاعةً وإقدامًا، وفارسَ ميدان، وبطل ملاحم.

فى بيت شعَّت فى أرجائه أنوار النبوة تُقًى وورعًا فمسَّت شغاف قلب ابن الحنفية، واستمكنت فى صميمه، فنشأ صالحا، وشبَّ نقيا، واسترجل فقيها عالما، واستضاء صدره بالحكمة، فنطق بها لسانه.

عاصر الفتنة تضرب ألسنة لهيبها هنا وهناك، ثم أبى يسلّ سيفا على مسلم، حتى لا يكون مسؤولا عن دمه بين يدى ربه. ثم مضى حميدًا، طاهر البدن والجوارح، راضيا مرضيا!

ابن الحنفية:

فى جلسة لعلى ـ رضى الله عنه ـ مع رسول الله ﷺ، قال على: أرايت ـ يا رسول الله ـ إن وُلد لى ولد من بعدك أفأسمِّيه باسمك، وأكنيه بكنيتك؟ فأجازه رسول الله ﷺ، وقال: نعم.

ومرت الأيام، وتُوُفِّىَ رسول الله ﷺ ولحقت فاطمة ـ رضى الله عنها بأبيها بعد أشهر قلائل، فلما قاربت نهاية خلافة الصديق ـ رضى الله عنه ـ تزوج علىٌّ من خَوْلَة بنت جعفر من بنى حنيفة، فولدت له غلاما، سمَّاه محمد وكنَّاه بكُنية رسول الله ﷺ: أبى القاسم، وكان قد أذن له ـ كما ذكرنا.

واشتهر محمد ـ رضى الله عنه ـ بنسبته إلى أمه (ابن الحنفية) تمييزًا له عن إخوته أولاد فاطمة رضى الله عنها. ودأب المؤرخون وكتاب السير على هذا التعارف، وجروا عليه.

يد على الضاربة:

كان جو بيت على ـ رضى الله عنه ـ مدرسة محمد الأولى، وكانت المدينة المنورة ما تزال عاصمة الإسلام، مركز الخلافة، ومجمع الرجال من طبقة الصحابة الأولى ومن بعدهم، وكان المسجد النبوى الشريف ركن الدولة بكل مؤسساتها، ومركز الإشعاع العلمى.

فى هذا الجو المشبع بالعطاءات وبناء الرجال درج محمد ومشى وشب، فكان ـ رضى الله عنه ـ أنموذجا راقيا بين أقرانه وأترابه. أضف إلى ذلك ما وهبه الله تعالى من قوة بدنية وشجاعة جعلته مضرب المثل.

فلما ولىَ والده على ـ رضى الله عنه ـ الخلافة، بعد استشهاد عثمان ذى النورين ـ رضى الله عنه ـ وسُلَّت سيوف المسلمين على المسلمين، لأول مرة فى معركة الجمل ـ كان محمد ـ رضى الله عنه ـ الذراع القوية، واليد الشديدة لأبيه، يقدمه على غيره فى الصفوف ويترِّس به.. وأبلى يومئذ بلاءً شديداً، وخاض الغمرات، غير هيَّاب ولا وَجِل.

واستطاع ـ رضى الله عنه ـ أن يصرع مروان بن الحكَم يومئذ، ويجلس فوق صدره، ويكاد يفتك به، فاستحلفه مروان بالرحم، ورجاه العفو، فقام عنه، وتركه فكانت إحدى محامده، ورفعه خلفه

ولقد قيل له ذات مرة: ما لأبيك يقحمك فى المهالك، ويدفع بك إلى أصعب المواقف دون أخويك الحسن والحسين؟ فقال محمد: ذلك لأن أخوىَّ من أبى منزلة عينيه، وأنزل أنا منه منزله يديه؛ فهو يقى عينيه بيديه!

تحت راية على.. ولكن:

انتقل على - رضى الله عنه - من الحجاز إلى العراق، ترك المدينة وأقام فى الكوفة التى اتخذها قاعدة لخلافته. وأبَى معاوية بن أبى سفيان - رضى الله عنه - مبايعة علىٍّ إلا أن يقتصَّ من قتلة عثمان الخليفة الشهيد المظلوم. ورآها على - رضى الله عنه - ذريعة يمتطيها معاوية ويتججج بها، واضطر - رضى الله عنه - إلى المواجهة مع معاوية وجيش الشام فى صِفِّين.

حديث النفس المؤمنة الصافية:

وبينما كانت المعركة فى صفين على أشدِّها، وقد بلغت ذروتها، وتجندل[1] فى ساحتها العديد من المسلمين، من كلا الطرفين.

وكان محمد - رضى الله عنه - حامل لواء أبيه، وفى مقدمة الصفوف. سمع - رضى الله عنه - همس حديث نفسه. وها هو يحدثنا عن ذلك فيقول: لقد رأيتنا فى صفين وقد التقينا مع أصحاب معاوية فاقتتلنا حتى ظننت أنه لن يبقى منا ومنهم أحد، فأستفظعت الأمر واستكبرته، ثم ما لبثت أن سمعت صائحا من خلفى يصيح: يا معشر المسلمين، الله الله! يا معشر المسلمين من للنساء والولدان؟! من للدين والأعراض؟ من للروم والدَّيْلم[2]؟! يا معشر المسلمين، الله الله! يا معشر المسلمين. فعاهدت نفسى أن لا يُرفَع لى سيفٌ فى وجه مسلم بعد ذلك اليوم!

بعد استشهاد على - كرم الله وجهه:

كانت واقعةُ حديث النفس مفترق طريق مهم فى حياة محمد بن الحنفية رضى الله عنه. وها هو بعد استشهاد أبيه على يد الخارجى عبد الرحمن بن ملجم - قاتله الله - يتخذ طريقا آخر، بعيداً عن سبيل أية فتنة أو قتال بين المسلمين، ويكرس ذاته لكل خير وحب وسلام، ودعوة إلى الوئام. لكنه لم يفترق عن أخويه وقرة عينيه الحسن والحسين رضى الله عنهما، وبقى إلى جانبهما داعية خير وفضل، ورجل نُصح فى المشورة.

المبايعة لمعاوية:

بعد أن بايع الحسنُ بن على معاوية بن أبى سفيان، والتمَّ شملُ المسلمين على يديه، وعادت الأسرة الهاشمية إلى المدينة - من الكوفة - عادَ محمد مع أهله وذويه إليها، وسكنها، وتزوج وأنجب، وكثر أبناؤه.

---

(١) تجندل: سقط أرضا.

(٢) الدَّيْلَم: شعوب ما بعد فارس فى بلاد قَزْوِين.

وكان ـ رضى الله عنه ـ قد بايع معاوية بيعة صادقة صافية، لا تحمل كرهًا ولا غبنا ولا نفاقا، فعظَّمها معاوية فى نفسه، واحترم صاحبها، وقدره، ووصله، ثم استزاره، فكان محمد كثيراً ما يأتى دمشق، فيدنيه معاوية، ويكرمه ويرحب به ويفسح له، وهو يعلم علم اليقين مبلغ علم محمد ونبوغه، وذكائه، وقوته وشجاعته.

شهادة التاريخ:

وليس أدل على قوة محمد البدنية الفائقة من الوقعة التالية.. فيروى أن ملك الروم كتب إلى معاوية يقول: الملوك عندنا تراسل الملوك، ويطرف بعضهم بعضا بنادر وغريب ما عندهم، وينافسون بعجائب ما فى ممالكهم، فهل تأذن لى أن يكون بينى وبينك ما يكون بينهم؟ فأجابه معاوية بالإيجاب، ورضى المنافسة.

وأرسل ملك الروم رجلين من أتباعه إلى معاوية، وكانا أعجوبة دهرهما فى بلادها، أحدهما طويل مفرط فى الطول، جسيم بدين، يبدو لرائيه كأنه بناء قائم بذاته، أو دوحة غليظة الجذع باسقة الأغصان والفروع. والثانى مصارع قوى، مفتول الذراعين، متين العضلات، صعب المراس. وكتب معهما يقول لمعاوية: هل فى مملكتك من يساوى هذين الرجلين طولا وقوة؟ فاستشار معاوية صديقه وصفيَّه عمرو بن العاص قائلا له: أما الطويل يا عمرو فقد وجدت من يكافئه، بل يزيد عليه، إنه قيس بن سعد بن عبادة، ولكن أشر على بالقوىِّ. فقال عمرو: هناك رجلان لهذا الأمر، غير أن كليهما بعيد[1] عنك، هما محمد بن الحنفية وعبد الله بن الزبير. فقال معاوية: إن محمد بن الحنفية ليس عنا ببعيد. فقال عمرو: ولكن أتراه يرضى ـ على جلالة قدره ورفعة شأنه أن يصارع رجلاً من الروم وعلى مرأى من الناس؟ فقال معاوية: إنه يفعل ذلك وأكثر من ذلك، إذا وجد منه عزاًّ للإسلام.

المبارزة:

ثم إن معاوية أرسل إلى قيس ومحمد يستزيرهما فى دمشق، فأتياه، فأخبرها الخبر، ودعا بضيفيه الروميَّين إلى مجلسه.

فقام أولاً قيس، فنزع سراويله ورمى بها إلى العلج[2] وأمره أن يلبسها، وكان قيس ـ رضى الله عنه ـ طويلا جدا، جسيما وسيما، فلبسها العِلج، فغطته سراويل قيس إلى ما فوق ثدييه! وضحك الحضور جميعا للمنظر!

ثم جاء الدور على محمد، فقال للترجمان:

قل للرومى إن شاء أن يجلس وأكون أنا قائما، ثم يعطينى يده، فإما أن أقيمه وأرفعه، وإما أن يقعدنى، وإن شاء فليكن هو القائم وأنا القاعد. فاختار الرومى القعود.

فأخذ محمد بيده، وأقامه، وعجز الرومى عن إقعاده، فأثاره ذلك وأغاظه، وطلب استبدال

(١) يعنى بالبعد: المكان، والتواصل.

(٢) العِلج: الشديد من العجم.

الحركة، فوافقه محمد، وقام الرومى واقفًا، فأخذ محمد بيده، وشده إليه فى جذبة قوية كادت تخلع ساعده عن كتفيه، ثم أقعده أرضًا، وانتهت المبارزة.

محمد وأخوه الحسين:

تكثَّفت رسائل وكتب أهل العراق إلى الحسين بن على ـ رضى الله عنه ـ يدعوه إليهم، ينصرونه ويبايعونه، ويقاتلون معه، وكان ـ رضى الله عنه ـ قد أبى مبايعة يزيد بن معاوية، فحمل كتبهم محمل الظن الحسن، واعتبرها عربون وفاء وصدق، وقرر الخروج إليهم. وكان يومئذ بمكة، فأتاه عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وقال له: أنشدك الله أن لا تأتي العراق، وإن كنت لا بد فاعلا، فأقم حتى ينقضى الموسم، وتلقى الناس، وتعلم على ماذا يصدرون، ثم ترى رأيك. وكان ذلك فى العاشر من ذى الحجة سنة ستين من الهجرة. فأبى الحسين إلا أن يمضى إلى العراق. فقال له ابن عباس: والله إنى لأظنك أنك ستُقتل غدا بين نسائك وبناتك، كما قتل عثمان بين نسائه وبناته. والله إنى أخاف أن تكون الذى يقاد [(١)] به عثمان! فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون. فقال له: يا ابن عباس إنك شيخ قد كبرت. فقال ابن عباس: والله لو لا أن يزرى ذلك بى وبك لنشبت[(٢)] يدى فى رأسك، ولو أعلم أننا إذا تناصبْنا [(٣)]أقمتَ لفعلتُ، ولكن لا إخال ذلك نافعى. فقال الحسين: لأن أقتل بمكان كذا وكذا أحب إلى من أن تستحل بى مكة. فبكى ابن عباس.

وتبع ابنَ عباس فى نصحه للحسين كبارُ الصحابة ـ رضوان الله عليهم: أبو سعيد الخدرى و جابر بن عبد الله و عبد الله بن عمر و أبو واقد الليثى و عبد الله بن جعفر وغيرهم. ومن أقرانه من التابعين: سعيد بن المسيب وعمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية. وقال له عبد الله بن مطيع: فداك أبى وأمى، متِّعْنا بنفسك ولا تسرْ إلى العراق؛ فوالله، لئن قتلك هؤلاء القوم ليتخذوننا خَوَلاً[(٤)] وعبيدًا.

ورفض الحسين كل قول وصمم على الخروج، وأرسل إلى المدينة يستدعى بعض أهله، فجاءوه، ومعهم أخوه محمد.

فأتاه، واستحلفه ورجاه، وأخلص له النصح والمشورة، لكن حسينًا ـ رضى الله عنه ـ ما زاده ذلك إلا إصرارًا وتمسكًا، وإقدامًا على الشهادة، ورفع الظلم بالدماء الطاهرة الزكية. ولم يخرج معه محمد، ولم يكتف بذلك، بل منع بنيه أيضا على الخروج مع عمهم، فوجد[(٥)] من ذلك حسين وتأثر، وقال لأخيه: ترغب بولدك عن موضع أصاب فيه. فقال له محمد: وما حاجتى أن تصاب ويصابون معك، وإن كانت مصيبتك أعظم عندنا منهم.

---

(١) أن تُقتل بعثمان.

(٢) نشبت: أمسكت بشدة.

(٣) تناصبنا: تخاصمنا.

(٤) خولا: خدمًا.

(٥) وَجَد: غضب.

وافترق الأخوان، ومضى كل إلى سبيله، حسين - رضى الله عنه - إلى الشهادة، ومحمد إلى أيام عصيبة.

بين محمد و ابن الزبير:

وتعاقبت السنون، بما حفلت وحملت من أحداث، ومضى معاوية ويزيد بن معاوية ومروان ابن الحكم كل إلى ربه، وتبوأ عبد الملك بن مروان الخلافة، وأعلن عبد الله بن الزُّبَيْر البيعة له فى بلاد الحجاز والعراق، وعادت الفتنة من جديد تطلّ بنارها وأوارها على البلاد والعباد.

وكان محمد بن الحنفية - رضى الله عنه - بمعزل عن هذا كله، منصرفا إلى ذاته وأهله وعبادته، ونصحه الناس، عامتهم وخاصتهم، إذا ما وجد إلى ذلك سبيلا، يتنقل بين مكة والمدينة، ويزور دمشق كلّما سنحت له الفرص، والتداعيات.

وطلب إليه ابن الزبير أن يبايعه، لكن ابن الحنفية الذى نذر سيفه لله منذ صفِّين، وأبَى أن يخرج مع أخيه الحسين - ما كان ليقف موقفًا معاديًا لطرف من الأطراف المتنازعَة، أو يزيد فى ضراوه الفتنة.

فقال لابن الزبير: إنك لتعلم علم اليقين أنه ليس لى فى هذا الأمر أرب[1] ولا مطلب، وإنما أنا رجل من المسلمين، فإذا اجتمعت كلمتهم عليك، أو على عبد الملك بايعت من اجتمعت كلمتهم عليه، أما الآن فلا أبايعك ولا أبايعه.

وساءت العلاقة بين الطرفين، ولكنها لم تبلغ حد المواجهة، فكان ابن الزبير يلانيه حينًا، ويجافيه أحيانًا. حتى كثر أتباع ابن الحنفية الذين رأوا رأيه فى الحياد، وآثروا السلامة، لهم ولأمتهم، من الزج فى الخصومة، وخوض المعارك، وإسالة الدماء، وزهوق الأرواح، حتى بلغوا سبعة آلاف.

التهديد والوعيد:

هذه الكثرة الكاثرة وفى قلب الحجاز معقل ابن الزبير - أثارت حفيظته على ابن الحنفية، وحملته على الشدة والتشدد، فسلك سبيل التهديد والوعيد.

ومن ثم أمره ومن معه، من بنى هاشم وأتباعه، أن يلزموا شعَبهم فى مكة، إقامةً إجباريةً، وجعل عليهم الرقباء والعيون، يرصدون حركاتهم وسكَناتهم. واشتد أيضا فى غلوائه فقال لهم: والله لتبايعن أو لأحرقنكم بالنار. وحبسوا فى بيوتهم، وجمع لهم الحطب ووضع حول مساكنهم، ويقال إنه فى تكدُّسه قد بلغ السقوف.

دعْنا نقتل ابن الزبير:

وكاد الموقف بين جماعة محمد بن الحنفية ينفجر وينذر بالخطر، فقد سكتوا واستكانوا، حتى بلغ السَّيْل الزُّبى، ولم يعد فى قوس الصبر من منزع، فقال قائلهم: دعنا نقتل ابن الزبير

(١) لا حاجة لى فى الخلافة.

ونُرِح الناس منه . ولو وافقهم محمد لفعلوا ، لكنه ظل متمسكا بموقفه المبدئى ، فأجابهم : أفنوَقد بأيدينا نار الفتنة؟! من أجلها اعتزلنا ونقتل رجلاً من صحابة رسول الله ﷺ ، وأبناء صحابته؟!

لا لا ، لا والله ، لا نفعل شيئا يغضب الله ورسوله .

فرصة لعبد الملك:

وكان عبد الملك فى دمشق يرقب الأحداث ويتتبعها ، فلما وصل الأمر بين ابن الزبير وابن الحنفية إلى هذا الحد من التجا فى والخصومة أرسل إلى محمد كتابا قال فيه : لقد بلغنى أن ابن الزبير قد ضيق عليك وعلى من معك الخناق ، وقطع رحمك واستخف بحقك ، وهذه بلاد الشام مفتوحة أمامك ، تستقبلك أنت ومن معك على الرحب والسعة ، فانزل فيها حيث تشاء ، تلق فيها الأمن والسلامة والترحيب ، وستجدنا عارفين بحقك ، مقدرين لفضلك ، واصلين لرحمك إن شاء الله .

إلى أيلة[1]:

لم تكن أَيْلة مقصد محمد بن الحنفية فى خروجه من الحجاز إلى الشام ، ولكنه عندما بلغها بمن معه رحَّب به أهلها ، وأكرموا وفادته ، وأغدقوا عليه وعلى من معه عطفهم ورعايتهم ، فأقام بها .

يقول أبو الطفيل - واثلة بن الأسقع - رضى الله عنه - وكان من خاصة محمد : سرنا حتى نزلنا أيلة فجاورونا بأحسن جوار ، وجاورناهم بأحسن من ذلك ، وأحبوا أبا القاسم حبا شديداً ، وعظموه وأصحابه ، وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر ، ولا يُظلم أحد من الناس قربنا ولا يحضرتنا .

تغير عبد الملك:

بلغت أنباء ذلك مسامع عبد الملك فشقت عليه وأزعجته ، فاستشار فى الأمر اثنين من خاصته هما قَبيصة بن ذؤيب و رَوح بن زنباع ، فقالا : ما نرى أن تسمح له بأن يقيم فى ملكك ، وسيرته كما علمت ، فإما أن يبايع لك ، وإما أن يعود من حيث جاء . فكتب إليه عبد الملك : إنك قدمت بلادى فنزلت فى طرف منها ، وهذه الحرب قائمة بينى وبين ابن الزبير ، وأنت رجل لك بين المسلمين ذكر ومكان ، وقد رأيت أن لا تقيم فى أرض إلا إذا بايعتنى ، فإن بايعتنى فلك منى مائة سفينة قدمت علىَّ أمس من القلزم[2] ، فخذها بما فيها ومن فيها ، ولك معها ألف ألف درهم مع ما تفرضه من فريضة لنفسك ولأولادك ، ولذوى قرابتك ، ومواليك ، ومن معك . وإن أبيت فتحول عنى إلى مكان لا سلطان لى عليه .

---

(١) أيلة : قرية ساحلية عند خليج العقبة .

(٢) القلزم : البحر الأحمر .

فكتب إليه محمد يقول: من محمد بن على إلى عبد الملك بن مروان، سلام عليك، وإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو إليك، أما بعد، فلعلك تتخوف منى، وكنت أحسب أنك عارف بحقيقة موقفى من هذا الأمر، ووالله لو اجتمعت علىّ هذه الأمة كلها - إلا أهل قرية واحدة - ما قبلته، ولا قاتلتهم عليه.

ولقد نزلت بمكة، فأراد عبد الله بن الزبير أن أبايعه، فلما أبيت أساء جوارى، ثم كتبت إلىّ تدعونى إلى الإقامة ببلاد الشام، فنزلت ببلدة فى أطراف أرضك لرخص أسعارها، وبعدها عن مركز سلطانك، فكتبت إلى بما كتبت به، ونحن منصرفون عنك إن شاء الله.

من ضنك إلى ضنك أشد:

وخير محمد - رضى الله عنه - أصحابه، فانفض أكثرهم من حوله وتفرقوا، ولم يبق معه سوى سبعمائه من خلصائه. وطوّحت به الأيام فى شدة وضنك فلا ينزل منزلا إلا نفر عنه. حتى أنه أحرم ومن معه بالعمره إلى مكة، وقدَّم الهدى، فأبى عليه ابن الزبير دخولها، ومنعه من ذلك، فتحول إلى الطائف فنزل بها.

وقام الحجاج بن يوسف بقتال ابن الزبير وحاصر مكة حصاراً شديداً، وضيق على ابن الزبير وقذف الكعبة بالمنجنيق، وأخيراً استطاع القضاء عليه، وقتله وصلبه، فأكل الطير من رأسه.

وكان محمد - رضى الله عنه - قد تعرض لفتنة أعظم وأشد من تقلب الأيام، وطغيان الحكام، فقد أرجف بعض أتباعه بأنه محمد المهدى المنتظر.

وأن رسول الله ﷺ قد أودع صدر على - كرم الله وجهه - كثيرا من أسرار التعليم وقواعد الدين، وكنوز الشريعة، مما ليس عند الناس، وأنه خص آل البيت بما لم يطلع عليه غيرهم، وبالغوا فى أموالهم ودعواهم.

وكان الشاعر كُثَيِّرُ عَزَّةَ لساناً من ألسنتهم، ومرافقاً لهم فى حلِّهم وترحالهم، وكان يقول:

ألا إن الأئمـــة من قـــريش   ولاة الحق أربعـــة ســـواء
على والثـــلاثة من بنيــــه   هم الأسبـاط ليس بهم خفـاء
فـســبْط ســبط إيمـان وبر   وســبط غـيـبـتــه كـربلاء
وسَـبط لا تراه العـين حـتى   تعـود الخـيل يقـدمـهـا لواء

وراح بعض أتباعه يسلمون عليه، بقولهم: السلام عليك يا مهدى، فأدرك العالم النابه، الصادق الإيمان واليقين، مغبة ذلك ومضاعفاته، فجمع الناس وقام فيهم خطيبا، فقال: يزعم بعض الناس أن عندنا - معشر آل البيت - علمًا خصنا به رسول الله ﷺ، ولم يطلع عليه أحد غيرنا! وإنا والله ما ورثنا من رسول الله ﷺ إلا ما بين هذين اللوحين - وأشار إلى دفتى المصحف - وإن مَن زعم أن عندنا شيئًا نقرأه إلا كتاب الله، فقد كذب. ورد على الذين كانوا ينادونه بالمهدى فقال: نعم أنا مهدى إلى الخير، وأنتم مهديون إليه إن شاء الله، ولكن إذا سلَّم على أحدكم فليسمِّنى باسمى، وليقل: السلام عليك يا محمد.

المبايعة لعبد الملك:

بعد القضاء على ابن الزبير، واجتماع الكلمة على عبد الملك كتب إليه محمد يقول: إلى عبد الملك بن مروان - أمير المؤمنين - من محمد بن على، أما بعد، فإنى لما رأيت هذا الأمر أفضى إليك، وبايعك الناس، كنت كرجل منهم، فبايعت لواليك فى الحجاز، وبعثتُ إليك ببيعتى هذه مكتوبةً. والسلام عليك.

وأضحى محمد بن على من بعد ذلك موضع إكرام وتقدير الخليفة عبد الملك، يزوره فى دمشق وينزل عنده، فيسبغ عليه الخليفة كل احترام.

ولم تَطُل به الأيام. فانتقل إلى جوار ربه، ودفن فى المدينة، وصلى عليه أبان بن عثمان بن عفان، واليها يومئذ، وترك من بعده ذكرى طيبة، علمًا وفضلاً وخلقًا وأسوةً حسنةً.

* * *

جابر بن زيد

أبو الشعثاء

رضى الله عنه

(٢١ - ٩٣هـ)

لما مات جابر بن زيد قال «قتادة»:
اليوم مات أعلم أهل العراق.

أحمد بن حنبل

لأن أتصدق بدرهم على يتيم أو مسكين أحب إلى من حجة بعد حجة الإسلام.

جابر بن زيد

إنى رأيت فلا تظنوا غيره أن التورع عند هذا الدرهم
فإذا قدرت عليه ثم تركته فاعلم بأن تقاك تقوى المسلم

ذلك كان منهجه فى الحياة وسلوكه.

فقيمة المال عنده فى التقرب به إلى الله تعالى، ومن هنا كانت نشأة التورع لديه، وهو يعتبر ذلك قمة العبادة؛ وذروة التقوى.

ورغم القدرة على الدرهم والحاجة إليه، كان يرى رضى الله عنه أن إنفاقه فى سبيل الله أعظم أجرا وأطيب ذكرا؛ وأعطر فى الأنام.

ومن هنا كان قوله رضى الله عنه: لأن أتصدق بدرهم على يتيم ومسكين أحب إلى من حجة بعد حجة الإسلام.

النزوح:

مع بدو شبابه فتوته، نزح جابر بن زيد من عُمان إلى البصرة.

البصرة التى كانت من أكبر المعاهد الإسلامية. ففى حلقات مساجدها يلتف ويتلاقى العشرات من صحابة رسول الله ﷺ؛ وكبار التابعين، أمثال: جابر بن عبدالله والحسن البصرى رضى الله عنهم. أتاها جابر بن زيد وهو يتوقد ذهنا، ويتلظى عطشا إلى العلم، وكان فيه ذكاء وقدرة على الاستيعاب والحفظ، والتلقى.

فغشى المساجد، وجلس فى الحلقات، وسمع وحفظ، وناقش وساءل. وكان أكثر جلوسه إلى جابر بن عبدالله والحسن البصرى. وله مع كل منهما مواقف تشهد بالعلم والحب، والإيثار.

نصيحة جابر بن عبدالله..

توجه إليه جابر بن عبدالله يوما، وقد رأى فيه نضوجا وامتلاء، وفقهًا جليا رائعا، فنصحه قائلا: يا ابن زيد، إنك من فقهاء البصرة، فإنك ستُستفتى، فلا تفتين إلا بقرآن ناطق، أو سنة ماضية؛ فإنك إن فعلت غير ذلك فقد هلكت وأهلكت.

ونزلت هذه النصيحة من نفس ابن زيد موقعها السامى، وترسخت فى وجدانه، فكان لا يفتى فى مسألة إلا ولها دليلها من كتاب الله تعالى أو سنة رسول الله ﷺ دليلا قوليا وعقليا، ومنطقيا، لا يدافَع ولا يحاجج.

كيف تسألوننا؟

وحصَّل جابر بن زيد إجازة العلم، والفقه والفتوى على أيدى كبار العلماء، وجهابذة الإمامة فى هذا الميدان.

قال عمرو بن دينار: ما رأيت أحدا أعلم بفتيا من جابر بن زيد.

وقال القاضى إياس بن معاوية: أدركت أهل البصرة ومفتيهم جابر بن زيد من أهل عمان.

وقال قتادة بن دعامة السدوسى يوم مات جابر بن زيد: اليوم دفن أعلم أهل الأرض.

وكان الصحابى الجليل جابر بن عبدالله رضى الله عنه وهو من هو من الصحابة، والعلم،

والدين، يقول لمن يستفتيه من أهل البصرة: كيف تسألوننا وفيكم أبو الشعثاء؟!

أبو الشعثاء ومنصب القضاء:

ولم يكن جابر بن زيد أبو الشعثاء ممن تستهويهم المناصب، وتستدرجهم صلات الحكام، وقد عزف عن هذا كله مؤثرا عليه حلقة علم، وموقف طاعة وعبادة بين يدى الله تعالى، أو صلة مسكين ويتيم، ولقد كان له مع عمرو بن دينار واقعة طريفة.

فقد جاء أمر التكليف بمنصب القضاء لعمرو بن دينار، من الوالى الحكم بن أيوب، بناء على رغبة الخليفة سليمان بن عبدالملك.

فحدَّث بهذا صفيَّه وصاحبه أبا الشعثاء؛ فقال له: لو أنى ابتليت بشىء منه لركبت راحلتى وهربت من الأرض.

إلى هذا الحد من الشفافية فى أمور الدنيا بلغت نفس جابر بن زيد رضى الله عنه، مع علمه بأن القضاء بين الناس، وفض المنازعات، وإحقاق الحق، أمر مطلوب شرعا، إلا أنه كان يخشى المنصب. ويزهد فيه، ويبتعد عنه.

قبضة تراب:

وفى أثناء عودته، ذات يوم، من المسجد إلى بيته مر ببستان، فقبض قبضة تراب من أرض البستان، ومضى بها، ولا ندرى لم فعل ذلك. وأرقته تلك الحفنة طول ليله، فما عرف النوم سبيلا إلى جفنيه، وهو يفكر فى حلِّيتها أو حرمتها، إذ لم يستأذن أصحاب البستان فيها. فلما انبلج الفجر، وقام إلى وضوئه، كى يسعى إلى المسجد للصلاة، جاءه أحد تلامذته يقول له: يا أبا الشعثاء إن أصحاب البستان قالوا وقد رأوك تحمل قبضة من تراب الأرض: لو كان كلما مر بالبستان أخذ منه قبضة لم يبق منه شىء. فتبسم جابر من قوله وقال: ذلك ما أرقنى ليلتى هذه. ثم إنه، لدى خروجه، حمل تلك القبضة ورمى بها فى أرض البستان، حين بلغه. لا يريد إذنا ولا ترابا، ولا حمْل وزر يُسأل عنه يوم القيامة.

ويحدثنا تلميذه هذا عن دعاء كان يردده جابر كلما أتى المسجد يوم الجمعة. كان يقف عند الباب ويقول: اللهم اجعلنى اليوم أوجَه من توجه إليك، وأقرب من تقرب إليك، وأنجح من دعاك ورغب إليك.

ويحدثنا الحجاج بن أبى عيينة أحد تلامذته، فيقول: كان جابر بن زيد يأتينا فى مصلانا، فأتانا ذات يوم وعليه نعلان خلقان[1]، (فعاتبه بعضنا) فقال: مضى من عمرى ستون سنة، نعلاى هاتان أحب إلى مما مضى منه، إلا أن يكون خيرا قدمته. لا عن بخل أو تقتير على نفسه، ولكن زهدا وحرصا؛ وقناعة واخشيشانا.

وإليك عزيزى القارئ ما يشهد لجابر رضى الله عنه بما قلنا.

روى صالح الدهان فقال: كان جابر بن زيد إذا وقع فى يده ستُّوق كسره ورمى به لئلا يغر به مسلم. والسَّتوق - أو السُّتوق -: الدرهم الدَّغْل المزيف. يقبله لنفسه، ثم يكسره ويرمى به، ولا يرضاه للمسلمين أن يخدعوا به، ولا نعتقد من يفعل ذلك بخيلا.

(١) هما نعلاه اللذان كان يلبسهما دائما؛ وخلقان: باليان.

ولا جدال فى الحج:

والمماكسة فى البيع والشراء جدال، لذا كان جابر رضى الله عنه لا يماكس فى اكتراء الدابة إلى مكة المكرمة، للحج أو العمرة، أو الزيارة العادية . . ولا يماكس كذلك فى ثمن الأضحية . . بل يدفع للبائع وصاحب الدابة ما يطلبان من ثمن وأجرة، تحرزا منه أن يقع فى المحظور؛ وأيضا كان لا يماكس رضى الله عنه فى ثمن الرتبة يشتريها ليعتقها . ويقول رضى الله عنه : لا تماكس فى شىء يتقرب به إلى الله تعالى . كذلك كان اجتهاده، ومبلغ علمه .

ومن اجتهاداته وهى كثيرة، خالف بها فقهاء عصره، ولكنها لا تخرج من أصولها الاستدلالية عن كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ - ما رواه أحد تلامذته عنه .

فقد سئل ذات يوم، وهو يدرس ويعظ، عن المفاضلة بين العبادات . فقال : نظرت فى أعمال البر، فإذا الصلاة تجهد البدن ولا تجهد المال، والصيام مثل ذلك، والحج يجهد المال والبدن، فرأيت أن الحج أفضل فى ذلك . ولقد أخذ عليه اجتهاده هذا، وغيره، فذهب بعض معاصريه إلى اتهامه بالإباضية ،وهم طائفة من الخوارج، حتى إن بعضهم عده رأسا فى هذا المذهب . ولم يكن كذلك .

بين جابر وهند بنت المهلب بن أبى صفرة:

وهند هذه من التابعيات، كانت ذات دين وعقل وفصاحة وبلاغة، ورواية لحديث رسول الله ﷺ. روت عن أبيها المهلب بن أبى صفرة وعن الحسن البصرى وجابر بن زيد رضى الله عنهم، قال عنها أبو أيوب السجستانى : ما رأيت امرأة أعقل من هنْد بنت المهلب .

وكانت تقول : النساء ما زُيِّنَّ بشىء كأدب بارع تحَت لب طاهر . إذا رأيتم النعم مستدرّة فبادروا بالشكر قبل حلول الزوال . ما رأيت لصالح النساء - وشرارهن - خيرا لهن من إلحافهن بإسكانهن . الطاعة مقرونة بالمحبة، فالمطيع محبوب وإن نأت داره، والمعصية مقرونة بالبغض، فالعاصى ممقوت وإن مسّتك رحمه ونالك معروف .

وهند هذه كانت قانتة عابدة، مع علم وتقوى وفقه؛ وصواب رأى . ولها شهادة طيبة فى جابر ابن زيد . قال حجاج بن أبى عيينة : سمعت هند بنت المهلب بن أبى صفرة وكانت من أحسن النساء . وذكروا عندها جابر بن زيد، فقالوا : إنه كان إباضيا . فقالت : كان جابر بن زيد أشد الناس انقطاعا إلىَّ وإلى أمى، فما أعلم عنه شيئا؛ وكان لا يعلم شيئا يقربنى إلى الله عز وجل إلا أمرنى به، ولا شيئا يباعدنى عن الله تعالى إلا نهانى عنه، وما دعانى إلى الإباضية قط، ولا أمرنى بها، وكان ليأمرنى أين أضع الخمار - ووضعت يدها على الجبهة .

بين جابر والحجاج بن يوسف:

كان الحجاج بن يوسف الثقفى قد تولى على العراق زمن خلافة عبدالملك بن مروان، بعد مقتل عبدالله بن الزبير رضى الله عنه، ووفاة بشر بن مروان الذى كان واليا على العراق من قبل أخيه عبدالملك، وكان الغرض من ولايته أن يضبط الأمور، ويقمع الثائرين، ويطوع البلاد والعباد .

وقد استطاع بما ركب فيه من قسوة وغلظة وشدة، وجراءة . . . أن يؤدى مهمته ويحكم قبضته

على الناس، ويسوسهم بالقهر والعسف والطغيان، اللهم إلا نفرا كانوا قادة فكر، ورواد علم، من هؤلاء جابر بن زيد رضى الله عنه.

ولقد حاول الحجاج فى أكثر من موقف وحادثة أن يقمع جابرا عن الجهر بالحق، فلم يفلح، وإن استطاع أن يقتل صبرا كثيرا من أصحاب الرأى المخالف، تجاوزوا الآلاف، إلا أنه أعيته الحيل مع جابر رضى الله عنه، وأكثر ما قدر عليه أن نفاه إلى عمان بلده، وموطن آبائه وأجداده.

وهناك قضى جابر شطرا من عمره، لم يطل كثيرا. ومن ثم عاد إلى البصرة، وقد مات الحجاج وهلك. عاد إلى المساجد والحلقات، يوزع على الطالبين علمه وتحصيله، وما زخر به عقله وصدره من معارف وآراء.

مع مالك بن دينار:

ومالك رضى الله عنه من كبار التابعين، ومن رواة الحديث الشريف، وقد عاصر جابر بن زيد، وكان ورعا تقيا نقيا.

ولقد كان بينه وبين جابر صلة وثيقة، وود، وتبادل محبة واحترام. وكان مالك من المعجبين بجابر بعلمه وفضله، ولا يتأخر عن حضور مجلسه، والانخراط فى حلقته. وفى ذات يوم، نظر جابر إلى الحضور متفرسا، مستطلعا، فلم ير مالكا بينهم، فلما انقضى الدرس، وانتهت الموعظة، قام جابر يسعى إلى دار مالك لتفقده.

يقول مالك رضى الله عنه: دخل على جابر بن زيد وأنا أكتب المصحف، فقلت له: كيف ترى صنعتى هذه يا أبا الشعثاء؟ قال: نعْم الصنعة صنعتك، تنقل كتاب الله ورقة إلى ورقة، وآية إلى آية، وكلمة إلى كلمة، هذا الحلالَ لا بأس به.

وكان مالك رضى الله عنه قد اتخذ من نَسْخ كتاب الله تعالى، صنعة ومهنة يرتزق منها ويتكسب؛ فأحب أن يستفتى المفتى الفقيه فيما يفعل، فإذا كان فيه حرج تركه، وإن رأى منه حلا... استمر.

وصادف دخول جابر عليه قراءته ونسخه، لقول الله تعالى: ﴿ **إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً** ﴾ سورة (الإسراء) الآية: ٧٥.

فسأله عن تفسيرها، فقال جابر رضى الله عنه: ضِعْفَ عذاب الدنيا، وضعف عذاب الآخرة.

وفاته رحمه الله ورضى عنه:

ومع دخول عام ثلاثة وتسعين للهجرة، كان أبو الشعثاء جابر بن زيد قد استكمل ما قدر الله تعالى له فى الحياة الدنيا، فمرض ولزم الفراش، لا يقوى على حركة أو نشاط، يتردد عليه زواره ومحبوه، وعارفو فضله.

ولما ثقل عليه، وقارب المفارقة، قيل له: ما تشتهى يا أبا الشعثاء؟ ترى ماذا كان جوابه فيما يشتهى من أمور الدنيا، وقبل أن يلقى وجه ربه؟

قال رحمه الله: نظرة إلى الحسن - الحسن البصرى رضى الله عنه. فقيه البصرة بلا مدافع

ولا منازع؛ وثمال الباقين من رؤوس التابعين، الراضع من ثدى أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها.

يقول الراوى [1]: فأتيت الحسن فأخبرته، فركب إليه، فلما دخل عليه، قال - جابر - لأهله: أقعدونى. فجلس، فما زال يقول: أعوذ بالله من النار وسوء الحساب. يردد ذلك. ثم فاضت روحه، وأسلم وجهه لله تعالى!

* * *

(١) ثابت البنانى رديف سعيد بن جبير بالتلمذة على ابن عباس رضى الله عنه.

سعيد بن المسيب

رضى الله عنه

(١٣- ٩٤هـ)

ما أعزت العـباد نفسها بـمثل طاعة الله، ولا أهانت نفسها بمثل معصيته.

سعيد بن المسيب

فقيه الفقهاء

أتى على المدينة المنورة حين من الدهر كان فيه سعيد بن المسيب علمها البارز، وعالمها الأجل، ومرجعها فى الفقه والحديث، حتى طبقت شهرته الآفاق، وذاع صيته فى كل البلاد والأمصار، وقصده الكثيرون من مختلف الديار، يجالسونه ويتلقون عنه، ويحتكمون إليه.

وذلك على الرغم من وجود نفر من جهابذة التابعين رضوان الله عليهم، أمثال: أبى بكر بن عبدالرحمن بن الحارث وعروة بن الزبير والقاسم بن محمد بن أبى بكر وخارجة ابن زيد وعبدالله بن عبدالله بن عتبة . . وغيرهم.

إلا أن سعيدا كان أشهرهم، وأوفرهم علما، وقد شهد له بذلك طائفة من الذين عاصروه، والذين جاءوا من بعدهم، حتى قيل فيه إنه فقيه الفقهاء.

سعيد وصحابة رسول الله ﷺ

كانت ولادة سعيد بن المسيب بن حزن بن أبى وهب بن عائذ بن عمران بن مخزوم فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه؛ ومن ثم أدرك نفرا عديدا من أصحاب رسول الله ﷺ، فتلقى عنهم وحفظ فى واعية شهد له بها شيوخ العلماء.

قال عنه الصحابى الجليل عبدالله بن عمر رضى الله عنهما: كان سعيد أحد المتقنين. وقال الزهرى: جالسته سبع حجج وأنا لا أظن عند أحد علما غيره. وعن مكحول قال: طفت الأرض كلها فى طلب العلم، فما لقيت أعلم من سعيد بن المسيب.

وكيف لا يكون له ذلك العلم وهو الذى أثر عنه أنه راوية عمر.

إذ حمل سعيد ونقل الى الناس جل علم عمر رضى الله عنه؛ وعثمان وعلى وغيرهم من أجلاء الصحابة.

أضف إلى ذلك أنه رضى الله عنه كان أعلم الناس بحديث أبى هريرة.

وأبوهريرة – عبدالرحمن بن صخر الدوسى – هو من هو فى الإكثار رواية لحديث رسول الله ﷺ. ولم يكن قرب سعيد من أبى هريرة قرب تلميذ من أستاذه فقط، بل كان بينهما صلة نسب ومصاهرة، فقد تزوج سعيد من ابنة أبى هريرة، مما وثق الصلة بينهما مودة ورحمة، وعلما غزيرا، وخيرا وفيرا.

ولا ندرى إذا ما كان سعيد هو الذى رغب فى ذلك، أم أن أبا هريرة آثره بها. وسواء كان الأول أو الآخر، فإن لكل نصيبه من الفضل والأجر.

بين العلم والتجارة

ما كان سعيد رضى الله عنه ليمد يده إلى عطاء من وال أو خليفة، أو يتكسب بعلمه أو يتجر به، فقد زينه الله تعالى بالإباء والشمم، والترفع عن الدنايا وذل النوال، وأفاض عليه من فضله.

كان رضى الله عنه، منذ أن وعى الحياة وتحمل مسؤولية الكسب والنفقة على نفسه وأهله، صاحب رأس مال، قدره بعضهم بأربعمائة دينار، وكان يتجر بالزيت، يبيع ويشترى، مراعيا السماحة والحق؛ دون إجحاف أو غبن.

ولقد بارك الله تعالى له فى مهنته وعمله، وزاده غنى وبحبوحة.

ووصفه ابن كثير [1] نقلا عمن عاصره وعرفه، فقال: وكان سعيد بن المسيب من أورع الناس فيما يدخل بيته وبطنه، وكان من أزهد الناس فى فضول الدنيا.

أدبه وزهده وورعه

وكـــان رضى الله عنه مثالا فى أدب السلوك فعلا وقولا، لا يدخل فيما لا يعنيه، ويتخير كلــمته فى موضــعها لتنزل منزلها فى أذن السامع ونفسه، وأكثر ما كان متأدبا مع حديث رسول الله ﷺ.

يروى أنه جاءه رجل - وهو مريض طريح الفراش - يسأله عن حديث، فاستوى سعيد فى فراشه بعد معاناة وتعب، وحدث السائل، ثم عاد فاضطجع، فقال له الرجل: وددت أنك لم تتعنَّ. فأجابه سعيد: إنى كرهت أن أحدثك عن رسول الله ﷺ وأنا مضطجع.

ويروى لنا برد - مولاه - عن زهد سعيد وورعه فيقول: ما نودى للصلاة، منذ أربعين سنة، إلا وسعيد فى المسجد.

وروى أيضا، فقيل: صلى سعيد بن المسيب الغداة - الفجر - بوضوء العتمة - العشاء - خمسين سنة.

فلقد كان رضى الله عنه قواما، فى صلاة ودعاء، وتهجد، وتلاوة، حيث تصفو نفسه، ويخلو إلى ذكر ربه.

بين حاكم وعالم

كان الخليفة عبدالملك بن مروان فقيها عالما محدثا؛ يعرف للعلماء قدرهم ومكانتهم، فلما تولى صرفه الحكم والسلطان عن العلم؛ ولكن لم يصرفه عن محبة أهل العلم ومجالستهم ومحادثتهم؛ والتقرب إليهم.

وكان يعرف سعيدا حق المعرفة، بما هو عليه من علم وفضل، ومكانة بين الناس؛ خصوصا أهل المدينة المنورة.

ووصل إلى مسامع عبدالملك ذات يوم، أن لسعيد ابنة رائعة الجمال، كريمة الخلال، ذات خلق ودين، قد ورثت ذلك عن أمها بنت أبى هريرة، فضلا عن كونها بنت سعيد فى علمه ونبله؛ فأراد أن تكون هذه الفتاة زوجة لابنه الوليد، الذى يعده ليكون وليا للعهد، وخليفة من بعده؛ فأرسل إلى سعيد فى المدينة يخطب ابنته؛ فأبى سعيد ذلك، ورد الخاطب.

فلما سئل سعيد فى ذلك، وما سبب الرفض، أجاب قائلا: إن ابنتى أمانة فى عنقى، وقد تحريت فيما صنعته لها صلاحَ أمرها. فقال له السائل: وكيف؟ قال سعيد: ما ظنكم بها إذا انتقلت إلى قصور بنى أمية وتقلبت بين رياشها وأثاثها. وقام الخدم والحشم والجوارى بين يديها وعن يمينها وعن شمالها، ثم وجدت نفسها بعد ذلك زوجة للخليفة. أين يصبح دينها يومئذ؟

---

(١) (البداية والنهاية) جـ٩، ص: ١١٨ - ١١٩.

وزوجها على درهمين!

وعليه. فقد أراد سعيد رضى الله عنه لابنته الدين قبل الدنيا، والآخرة قبل الأولى، والرضا والقناعة قبل الدور والقصور، والعصمة قبل الفتنة.

وعليه فقد زوجها من أحد رواد حلقته في المسجد، طالب علم، وعلى درهمين مهرا، هو ابن أبى وداعة، واسمه كثير.

وهنا نترك لكثير يحدثنا حديث زواجه هذا..

يقول كثير: كنت ألازم مسجد رسول الله ﷺ طلبا للعلم، وكنت أدوام على حلقة سعيد بن المسيب، وأزاحم الناس عليها بالمناكب، فتغيبت عن حلقة الشيخ أياما، وظن أن بى مرضا، أو عرض لى عارض، فسأل عنى من حوله، فلم يجد عند أحد منهم خبرا.

فلما عدت إليه بعد أيام حياني ورحب بى، وقال: أين كنت يا ابن أبى وداعة؟ قلت: توفيت زوجتي فاشتغلت بأمرها. فقال: هلا أخبرتنا فنواسيك، ونشهد جنازتها معك، ونعينك على ما أنت فيه. فقلت: جزاك الله خيرا.

وهممت أن أقوم، فاستبقانى حتى انصرف جميع من كان فى المجلس، ثم قال لى: ما فكرت فى استحداث زوجة لك يا ابن أبى وداعة؟ فقلت: يرحمك الله، ومن يزوجنى وأنا شاب نشأ يتيما، وعاش فقيرا؟ فأنا لا أملك غير درهمين، أو ثلاثة دراهم. فقال سعيد: أنا أزوجك ابنتى.

فانعقد لسانى، وقلت: أنت!؟ أتزوجنى ابنتك بعد أن عرفت من أمرى ما عرفت؟ فقال: نعم؛ فنحن كما أمرنا سيدنا رسول الله ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه».

وأنت عندى مرضى الدين والخلق.

ثم التفت إلى من كان قريبا منا وناداهم، فلما أقبلوا عليه، وصاروا عنده، حمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيه، وعقد لى على ابنته، وجعل مهرها درهمين اثنين.

فقمت وأنا لا أدرى ما أقول من الدهشة والفرح.

ثم قصدت بيتى، وكنت يومئذ صائما، فنسيت صومى وجعلت أقول: ويحك يا ابن أبى وداعة! ما الذى صنعت بنفسك؟ ومن أين لك النفقة على أهلك؟

وظللت على حالى هذه حتى أذن للمغرب، فصليت وجلست إلى فطورى، وكان خبزا وزيتا، فما أن تناولت منه لقمة أو لقمتين حتى سمعت الباب يقرع.

فقلت: من الطارق؟

فجاءنى الصوت قائلا: سعيد.

فوالله لقد مر بخاطرى كل إنسان اسمه سعيد أعرفه، إلا سعيد بن المسيب، ففتحت الباب فإذا بى أمام سعيد بن المسيب؛ فظننت أنه قد بدا له فى أمر زواجى من ابنته شىء، فقلت له: يا أبا محمد. هلا أرسلت إلى فآتيك؟

فقال: بل أنت أحق بأن آتى إليك اليوم. فقلت: تفضل على. فقال: كلا، وإنما جئت لأمر. فقلت: وما هو؟ يرحمك الله. فقال: إن ابنتى أصبحت زوجة لك بشرع الله منذ الغداة، وأنا أعلم أنه ليس معك أحد يؤنس وحشتك، فكرهت أن تبيت أنت فى مكان وزوجتك فى مكان

آخر، فجئتك بها.

فقلت: ويحى! جئتنى بها؟ فقال: نعم. . . فنظرت، فإذا هى قائمة بطولها - خلفه -.

فالتفت إليها وقال: ادخلى بيت زوجك يا ابنتى على اسم الله وبركته. قال لها ذلك سعيد وانصرف.

فلما: أرادت أن تخطو تعثرت بملاءتها من الحياء، حتى كادت تسقط على الأرض.

أما أنا فقد وقفت أمامها مشدوها، لا أدرى ماذا أقول.

ثم إنى بادرت فسبقتها إلى القصعة التى فيها الخبز والزيت فنحيتها من ضوء السراج حتى لا تراها. ثم صعدت إلى السطح وناديت الجيران، فأقبلوا على وقالوا: ما شأنك؟

فقلت: عقد لى سعيد بن المسيب على ابنته اليوم فى المسجد، وقد جاءنى بها الآن على غفلة، فتعالوا آنسوها حتى أدعو أمى، فهى بعيدة الدار.

فقالت عجوز منهن: ويحك أتدرى ما تقول؟ أزوجك سعيد بن المسيب ابنته، وحملها لك إلى البيت بنفسه، وهو الذى ضن بها على الوليد بن عبدالملك؟! فقلت: نعم، وها هى ذى عندى فى بيتى، فهلموا إليها وانظروها.

فتوجه الجيران إلى البيت، وهم لا يكادون يصدقوننى، ورحبوا بها، وآنسوا وحشتها.

وما هو إلا قليل حتى جاءت أمى، فلما رأتها التفتت إلى وقالت: وجهى من وجهك حرام إن لم تتركها لى حتى أصلح شأنها، ثم أزفها إليك كما تزف كرائم النساء. فقلت: أنت وما تريدين.

فضمتها إليها ثلاثة أيام ثم زفتها إلى؛ فإذا هى من أبهى نساء المدينة جمالا، وأحفظ الناس لكتاب الله عز وجل، وأرواهم لحديث رسول الله ﷺ، وأعرف النساء بحقوق الزوج.

فمكثت معها أياما لا يزورنى أبوها أو أحد من أهلها؛ ثم إنى أتيت حلقة الشيخ فى المسجد فسلمت عليه، فرد على السلام، ولم يكلمنى، فلما انفض المجلس ولم يبق غيرى. قال: ما حال زوجتك يا ابن أبى وداعة؟

فقلت: هى على ما يحب الصديق ويكره العدو. فقال: الحمد لله.

فلما عدت إلى بيتى وجدته قد وجه إلى مبلغا وفيرا من المال لنستعين به على حياتنا.

كرامة العلم

وحج الخليفة عبدالملك بن مروان إلى بيت الله الحرام، فى حشد من حاشيته، وأدى ما عليه من نسك، ثم أتى المدينة المنورة شادا رحاله إلى حرم رسول الله ﷺ.

وأقام فى المدينة أياما.

وفى ذات يوم صحا من قيلولته فنادى على خادم له وأمره أن يذهب إلى المسجد يبتغى له أحدا من العلماء يجالسه ويحدثه.

فذهب الخادم إلى المسجد كما أمره مولاه، فلم يجد سوى حلقة واحدة قد توسطها شيخ يحدث الناس وهم مصغون إليه، فى وقار وهيبة.

فأشار إليه الخادم بأصبعه، فلم يأبه له الشيخ، وكأن الأمر لا يعنيه، فتقدم الخادم منه، وهو مغيظ، وقال: ألم تر أنى أشير إليك؟

فقال الشيخ: إليَّ أنا؟ قال: نعم. قال: وما حاجتك؟ قال: إن مولاى أمير المؤمنين يريدك أن تأتيه فى منزله لتحدثه ويحدثك. قال الشيخ: أنا لست من حُدَّاثه. فقال الغلام الخادم: لكنه يريد محدثا يحدثه. قال الشيخ: إن من يبتغى شيئا يأتيه. وفى الحلقة متسع له إذا أراد! والعلم لا يسعى إلى أحد ولكن يُسعى إليه.

وعاد الغلام الخادم خالى الوفاض إلى مولاه، فلما سأله عما كان من أمره، أخبره بما كان، ووصف له حال الشيخ فى سمته وحديثه، وإصغاء الناس له.

فسأله الخليفة إن كان الشيخ أعور؟ فقال الغلام: نعم. فضرب عبدالملك كفا بكف، وقال: ذاك سعيد بن المسيب، ليتك لم تأته ولم تكلمه.

سعيد وبيعة الوليد

وعقد عبدالملك البيعة بالخلافة من بعده لابنه الوليد ثم لسليمان. وأخذها على الناس فى دمشق، كما بعث إلى الأمصار ليحمل أهلها عليها؛ وكان على المدينة وال لعبدالملك اسمه هشام بن إسماعيل، فيه غلظة وشدة؛ فراح يأخذ البيعة من الخاصة والعامة للوليد، كما جاءه الأمر.

فلما وصل الدور على سعيد بن المسيب رفض وأبى واستنكر ذلك، وعارض أن يبايع لأحد فى حياة الخليفة؛ فأخذه هشام بالشدة والقسوة ليكرهه، فازداد تمنعا وإباء، ضربه على مشهد من الناس ستين سوطا، فلم يذعن، رغم شيخوخته، وضعفه، وألبس ثيابا من شعر، وحمل على جمل. وطيف به فى أنحاء المدينة؛ كأنه يعزره على مخالفته أمر الخليفة وعصيانه.

واشتد هشام على سعيد فأمر به أن يحمل إلى ثنية ذباب – وهى ضاحية كانوا يصلون عندها ويقيلون – ليضرب عنقه هناك، ثم بدا لهشام أن يتوقف عن ذلك، ويخبر الخليفة بأمر سعيد ليرى فيه رأيه، فأعيد إلى المدينة وأودع السجن.

وأرسل هشام بريدا إلى الخليفة فى دمشق يخبره بمخالفة سعيد ويستطلع رأيه فى شأنه؛ فرد عبدالملك على واليه يقول: إن سعيدا كان أحق بصلة الرحم مما فعلت به، فأخرجه من سجنه، وإنا لنعلم أن سعيدا ليس عنده شقاق ولا خلاف.

وعاد سعيد سعيدا بصلابة رأيه، وصلاح أمره، وخلو عنقه من تبعة البيعة للوليد بن عبدالملك فى حياة أبيه.

عاد إلى حلقته مرفوع الرأس، عالى الجبين، وقد ازدادت اتساعا، وإقبالا من الناس، واغترافا من علمه وخلقه.

طائفة من أقواله وحكمه

لا تملأوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بالإنكار من قلوبكم، لكى لا تحبط أعمالكم الصالحة.

ما يئس الشيطان من شىء إلا أتاه من قبل النساء.

كفى بالمرء نصرة من الله أن يرى عدوَه يعمل بمعصية الله.

من استغنى بالله افتقر الناس إليه .

الدنيا نذلة ، وهى إلى كل نذل أميل ، وأنذل منها من أخذها من غير وجهها ووضعها فى غير سبيلها .

ليس من شريف ولا عالم ولا ذى فضل إلا وفيه عيب ، ولكن مِنَ الناس مَنْ لا ينبغى أن تذكر عيوبه .

من كان فضله أكثر من نقصه ، وهب نقصه لفضله .

وكان رضى الله عنه يخاطب ماله فيقول : اللهم إنك تعلم أنى لم أمسكه بخلا ولا حرصا عليه ، ولا محبة للدنيا ونيل شهواتها ، وإنما أريد أن أصون به وجهى عن بنى مروان حتى ألقى الله فيحكم فى وفيهم ، وأصل منه رحمى ، وأؤدى منه الحقوق التى فيه ، وأعود منه على الأرملة والمسكين والفقير ، واليتيم والجار .

ورأته امرأة من نساء أهل المدينة ، ممن عرفن مقامه ومنزلته ، وقد أشفقت عليه وهو يطاف به فى الأسواق ، على أبشع صورة وأحقرها ، فقالت له فى حنان : ما هذا الخزى يا سعيد؟!

فأجابها : من الخزى فررنا إلى ما ترين . فلو استجبنا لهم لوقعنا فى خزى الدنيا والآخرة .

* * *

سعيد بن جبير

رضى الله عنهم

(٤٥ ـ ٩٤هـ)

إن أفضل الخشية أن تخشى الله خشيةً
تحول بينك وبين معصيته، وتحملك
على طاعته.. فتلك هي الخشية النافعة.

سعيد بن جُبَيْر

الفتى الحبشي:

كان سعيد بن جبير - رضى الله عنه - حبشى الأصل، عربى النشأة، وكان مولى لبنى أسد، أسود البشرة، أجعد الشعر، ملتف العضلات، قوى البنية.

وكان منذ طفولته الأولى على درجة عالية من الفهم والوعى، ذكى الفؤاد، لماحا، مقبلا على الطاعة والعبادة، راغبا فى تلقى العلم، يواكب بين العلم والسلوك.

تفتحت عيناه ومداركه على جلة من صحابة رسول الله ﷺ، فعاصرهم وعايشهم، والتصق بهم وحفظ عنهم، أمثال: أبى موسى الأشعرى، وأبى هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسى، وأبى سعيد الخدرى، ومالك بن سنان الأنصارى، وعدى بن حاتم الطائى، وعبد الله بن عمر ابن الخطاب - رضى الله عنهم.

وكان أكثر لصوقه بعبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - ترجمان القرآن، وحَبْر الأمة، وبحر علمها الزاخر، الذى نال بركة دعاء رسول الله ﷺ بالحفظ والفهم.

وتأثر سعيد - رضى الله عنه - بنزوع ابن عباس إلى كتاب الله عز وجل، فحفظه عنه حفظ الإتقان، استوعبه فى صدره وفؤاده، وتردد على لسانه، فغدا وكأنه لا ينطق إلا به.

سعيد.. بكتاب الله:

ومضى سعيدٌ سعيداً بكتاب الله - عز وجل - بتوجهاته، وأوامره، وأحكامه، وكل آياته، وكلماته وحروفه، وصنوه الذى لا يفارقه فى يقظة أو منام، فى ليل أو نهار.

لقد وعى قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾، وحفظ عن أم المؤمنين عائشةَ - رضى الله عَنها - قولها حين سئلت عن خُلق رسول الله ﷺ: «كان خلقه القرآن»، فجعل كتاب الله تعالى غاية الغايات عنده، وأعظم المنى، والكنز الذى لا يفنى.

وفى هذا المقام يروى أن سعيداً - رضى الله عنه - كان يقرأ القرآن فى الصلاة فيما بين المغرب والعشاء ختمة تامة. ويروى أنه كان يقعد فى الكعبة فيقرأ فيها الختمة، وربما قرأها فى ركعة فى جوف الكعبة.

وروى عنه أنه ختم القرآن مرتين ونصفًا فى الصلاة فى ليلة فى الكعبة(١).

إلى هذا الحد الرائع من التعلق بكتاب الله تعالى بلغ قلب سعيد. وكان تجاوبه مع الحفظ والفهم والسلوك عنوانه الدائم، ومفتاح شخصيته. إذ روى عنه أنه قال: الذكر طاعة الله، فمن أطاع الله فقد ذكره، ومن لم يطعه فليس بذاكر له، وإن أكثر من التسبيح وتلاوة القرآن.

العالم العامل:

وبين العلم والفهم انقدح زناد عقل سعيد، فأصبح فى مكة المكرمة ومن بعدها فى الكوفة،

---

(١) البداية والنهاية. ج: ٩، ص: ١١٦.

عالما علما يشار إليه بالبنان، ويقصد من كل البلدان ليؤخذ عنه، ويستقى منه.

وسئل سعيد عن الخشية من الله تعالى، فقال: إن أفضل الخشية أن تخشى الله خشية تحول بينك وبين معصيته، وتحملك على طاعته، فتلك هى الخشية النافعة.

ولقد أنصفه من عاصره، فقدموه على أنفسهم، وأقروا بفضله وعلمه ونبوغه، واقتدى به كثيرون، وتابعوه فى نهجه.

قال عنه ميمون بن مهران[١]: لقد مات سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا هو محتاج إلى علمه[٢].

العالم المجاهد:

ولقد ساح سعيد - رضى الله عنه - مع الجيش الإسلامى الزاحف نحو المشرق مجاهدا فى سبيل الله. ولذلك قصة.. وكانت هى بداية صلته بالحجاج بن يوسف الثقفى - أمير الأمويين المروانيين على بلاد الحجاز والعراق، وما وراء النهر، وصاحب السلطان والنفوذ، والبطش والجبروت.

عرف الحجاج سعيدا وقد سمع عن علمه وفضله وحزمه وعزمه، وسعة معرفته، فاختاره قائما على مالية الجيش الذى بعثه لقتال رُتبيل ملك الترك[٣]، وقد ولى الحجاج يومئذ القيادة لقائد فذ شجاع محنك هو عبد الرحمن بن الأشعث.

الظفر والنصر:

واستطاع القائد المظفر أن يتغلب على رتبيل ويهزمه وجيشه فى مواقع ومعارك عدة، وأن يحتل شطرا كبيرا وجزءاً واسعًا من بلاده وحصونه، وينشر الإسلام فى ربوعها، ويغنم مغانم كثيرة يفوق حصرها ووصفها.

ثم أرسل إلى الحجاج رسله ببشائر النصر وأخماس الغنائم، واستأذن فى التوقف عن متابعة الزحف ريثما يستطلع أحوال أقاصى البلاد، ذات الطبيعة الجبلية وقممها العالية، وممراتها ودروبها وشعابها كى لا يقع فى محظور يعود على جيش المسلمين بالهزيمة والخسارة.

وكان سعيد - رضى الله عنه - فى مركز من مراكز القيادة المسئولة، يحترمه الجميع ويقدرون منزلته.

طبيعة شخصية الحجاج:

كان الحجاج بن يوسف الثقفى شخصية قوية، جريئة، ميالا إلى النفوذ والسلطان، مستهينا بالأرواح والدماء، ويتخذها جسرا يعبر عليه إلى السلطة، غير مبُال بظلم أو بطش أو جبروت. يحاول دائما تطويع الأحكام والقواعد الشرعية وفق مزاجه الدموى.

(١) من أعلام التابعين فى العلم والقضاء.

(٢) وينسب هذا القول أيضا إلى الإمام أحمد بن حنبل - رضى الله عنه.

(٣) وراء سجستان، بين إيران وأفغانستان.

لومه لابن الأشعث:

اغتاظ الحجاج لكتاب عبد الرحمن بن الأشعث الذى يستأذنه فيه بالهدنة، فرد عليه بكتاب مرير يصفه فيه بالجبن والخنوع، وبأشد الألفاظ نبوة وجفوة، ثم يأمره بمتابعة الزحف دون توقف، وعلى الفور[(١)].

خلع الطاعة:

كان عبد الرحمن بن الأشعث ينتظر أن يمتدحه الحجاج، لا أن يهينه ويوبخه، وكان الرجل شهما ذا مروءة وإباء، أبت عليه نفسه الكريمة أن يحتمل هذا التجنى والظلم، فجمع قادة الجند وأمراء الجيش وتلا عليهم كتاب الحجاج له، واستشارهم فى الرد، فأجمعوا على خلع طاعة الحجاج وحربه، والقضاء عليه، وتخليص البلاد والعباد من شروره وآثامه.

فقال لهم عبد الرحمن: أتبايعوننى على ذلك، وتؤازروننى على جهاده حتى يطهر الله أرض العراق من رجسه؟ فأيدوه فى قوله، وبايعوه. وكان سعيد -رضى الله عنه- أحد المسئولين الذين خلعوا طاعة الحجاج وبايعوا ابن الأشعث.

وخلع بيعة عبد الملك بن مروان الخليفة:

وقال قائل منهم: أتدرون أنكم فى خلعكم الطاعة للحجاج تخلعون بيعتكم لأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان الذى ولاه؟ فقالوا: نعم.. ونخلع بيعتنا لعبد الملك.

ووقعت إثر ذلك فتنة بين المسلمين أكلت الأخضر واليابس، وأزهقت أرواحا كثيرة.. وبدلا من محاربة العدو حاربوا بعضهم بعضا. و بدلا من أن يولى ابن الأشعث وجهه شطر عدوه رتبيل لوى الأعنة باتجاه العراق.

وهاجت البلاد وماجت، واستطاع ابن الأشعث أن يستولى على كل بلاد فارس، وسجستان والبصرة والكوفة فى العراق، وهدد سلطان بنى أمية تهديدا خطيرا.

صاحب النفوذ:

ومما زاد فى نفوذ ابن الأشعث وخطره أن داهية ألمت بالبلاد. فقد كتب ولاة الأمصار إلى الحجاج كتبا تنبئ عن أمر خطير، قالوا فيها: إن أهل الذمة قد طفقوا يدخلون فى الإسلام ليتخلصوا من دفع الجزية، وقد تركوا القرى التى يعملون بها وهبطوا إلى المدن، وقل الخراج واضمحل وانعدمت الجبايات فى العمل.

أين كان همُّ الحجاج؟

كان همه على الدوام ينصب على السلطة والنفوذ والحكم، والغزو والفتح، والجيوش،

(١) كتب الحجاج إلى ابن الأشعث يقول: إن كتابك كتاب امرئ يحب الهدنة، ويستريح إلى الموادعة، قد صانع عدوا قليلا ذليلا، فامض لما أمرتك به، من الوغول فى أراضيهم، والهدم لحصونهم، وقتل مقاتليهم، وإلا فأخوك إسحق بن محمد أمير الناس.

فأرسل إلى الولاة يأمرهم أن يجمعوا كل من نزح إلى المدن من أهل الذمة، ويعيدوهم إلى القرى مهما طال نزوحهم عنها.

فأطاع الولاةُ الأمرَ، وأخذوا بإجلاء النازحين بأعداد كبيرة، وغفيرة عن مواطنهم الجديدة، وإبعادهم عن ممتلكاتهم وموارد رزقهم، وحشدوهم فى أطراف المدن ليقسروهم على العودة من حيث أتوا، وقد طالت بهم الشقة، رجالا وشيوخا ونساء وأطفالا. فكانوا يبكون، ويستغيثون، ويستصرخون، وينادون: وامحمداه، وامحمداه. وتحيروا ماذا يفعلون؟! وأين يقصدون؟! إذ أصبحوا عن ديارهم الأصلية وعن دينهم الذى تركوه غرباء. واستشفعوا واستغاثوا بالقراء والفقهاء، ولكن دون جدوى أو طائل.

ولقد انتهزها ابن الأشعث فرصة، فاستعان بالفقهاء والعلماء على تأييده وتمكينه. وكان سعيد بن جبير ـ رضى الله عنه ـ أحد الذين أيدوه وتابعوه فى حركته الإصلاحية، كما أعلن عنها، وكما بدت لهم، ومن هؤلاء: عبد الرحمن بن أبى ليلى، وعامر الشعبى، وأبو البخترى، وغيرهم.

المعركة الفاصلة:

وتتابعت المعارك بين ابن الأشعث والحجاج، ودامت أمدا طويلا، ثم بدأ نجم ابن الأشعث فى الأفول، وسقطت البصرة، ثم تلتها الكوفة فى يد الحجاج، وحدثت المعركة الفاصلة فى مكان يعرف بدير الجماجم، فانهزم ابن الأشعث هزيمة منكرة، وفر هاربا إلى حيث انطلق، ولجأ إلى عدوه رتبيل الذى أمَّنه أولا، ثم غرر به فقتله واحتز رأسه وأرسل بها إلى الحجاج متزلفا متقربا.

سعيد الهارب:

وفر الجند وقادتهم، وتبعثروا هنا وهناك، وكذلك فر سعيد بن جبير ـ رضى الله عنه ـ واختبأ فى الكوفة متسترا، وأمضى فى هروبه سنوات طوالاً.

وكان الحجاج قد أمر مناديه بعد معركة دير الجماجم أن يعلن فى المقاتلين المهزومين بالعفو لمن يقر على نفسه بالكفر بسبب خلع الطاعة، والبيعة ثم تجديدها[1].

ولقد جازت هذه الفرية على كثير من الناس، فاستسلموا وألقوا بأيديهم إلى التهلكة، وحفظ الله منها طائفة من الناس الذين آثروا الشهادة على الإقرار بالكفر، والعياذ بالله.

كان الحجاج يقول لأحدهم: أتشهد على نفسك بأنك قد كفرت بنقض بيعتك لوالى أمير المؤمنين؟ فإذا أجاب بالإيجاب عفا عنه، وخلى سبيله، وإن رفض قتل صبرا بين يديه. ولقد قتل فى تلك المجزرة الرهيبة بضعة آلاف من المسلمين.

ويحكى أن رجلا طاعنا فى السن من قبيلة خثعم كان معتزلا لكلا الفريقين المتقاتلين، مقيما

---

(١) كان الحجاج بهذا التصرف يتأول آيات الله ـ تعالى ـ فى الردة والإفساد فى الأرض.

فيما وراء الفرات، ولكنه جيء به مع من سيقوا إلى الحجاج، فلما جاء عليه الدور قال ـ بعد أن سئل: ما زلت منذ شبَّت هذه النارُ معتزلا وراء هذا النهر، منتظرا ما يسفر عنه القتال، فلما ظفرت وانتصرت على عدوك جئتك مبايعا.

لكن الحجاج لم يرضه قول الشيخ عن حيدته فقال له: تبا لك.. أتقعد متربصا ولا تقاتل مع أميرك؟ ثم أضاف زاجرا متوعدا: أتشهد على نفسك بأنك كافر؟ فقال الشيخ: بئس الرجل إن كنت تعديت الثمانين عاما، ثم أشهد بعد ذلك على نفسي بالكفر. فقال الحجاج: إذن أقتلك. فقال: وإن قتلتني فوالله ما بقى من عمرى إلا ظمْء حمار، فإنه يشرب فى الغداة ويموت فى العشي، وإنى لأنتظر الموت صباح مساء، فافعل مَا بدا لك. فأمر الحجاج الجلاد بضرب عنقه.

وأتى بالتابعي الجليل كميل بن زياد النخعي، وأوقف أمام الحجاج فقال له: أتشهد على نفسك بالكفر؟ فقال: والله لا أشهد. فقال: إذن أقتلك.

فقال: اقض ما أنت قاض (يورِّى بمقالته هذه ما رد به السحرة على فرعون). وأضاف: وإن الموعد فيما بيننا عند الله ـ تعالى ـ وبعد القتل الحساب. فسخر منه الحجاج وقال له: ستكون الحجة يومئذ عليك لا لك. فرد عليه كميل: ذلك إذا كنت أنت القاضي يومئذ. فالأمر لله تعالى من قبل ومن بعد. وتضايق الحجاج وخانته الحجة، ثم أمر الجلاد بقتله.

أنا أكفر أهل الأرض:

وقدم للحجاج رجل اشتهر عنه كراهيته له، والنيل منه، وكان يتمنى أن يظفر به ليضرب عنقه ويتشفى، فلما أوقف بين يديه بادره بالكلام قبل السؤال، فقال: إنى أرى أمامى رجلا ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر. فرد عليه الرجل ـ وكان واسع الحيلة، شديد الدهاء والمكر ـ فقال:

لا تورطني وتخدعنى عن نفسي، فأنا أكفر أهل الأرض، وأكفر من فرعون ذى الأوتاد.

وأسقط فى يد الحجاج، وفقد الحجة على الرجل، ولم يملك إلا أن يخلى سبيله.

سعيد فى ضواحى مكة:

وجد سعيد ـ رضى الله عنه ـ نفسه فى الكوفة قريب المنال من يد الحجاج، فارتحل عنها إلى مكة، إلى بيت الله الحرام، الذى من دخله كان آمنا، ونزل فى برية من ضواحيها.

وأقام هناك عشر سنين يحج فى كل عام، ويعتمر كل ستة أشهر، متعبدا زاهدا، مقبلا على الله ـ تعالى ـ بكل جوارحه.

وحرص كل الحرص على أن يختفى عن أعين الحجاج الذى ما فتئ يطلبه. فقد كان سعيد ـ رضى الله عنه ـ فيما مضى موضع احترام الحجاج وثقته، وهو الذى رشحه ليكون المسئول المالى عن جيش ابن الأشعث، وتلك ـ ولا شك ـ ثقة عظمى. وها هو الآن ناكث للبيعة، مخيب للظن، طريد الطلب.

الوالى الجديد على مكة:

عندما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة بعد أبيه عين واليا جديدا على مكة وهو خالد بن

عبد الله القسرى، وكان مشهورا بسوء الخلق، ورديء السلوك، حتى إن بعضهم اتهمه بالزندقة.

عندها توجس أصحاب سعيد خيفة عليه لما يعرفونه من سوء طوية الأمير الجديد، فجاءوا إلى سعيد، ورجوه أن يخرج من بين ظهرانيهم؛ حفاظا على حياته، فأجابهم:

والله لقد فررت حتى صرت أستحي من الله تعالى، ولقد عزمت على المقام فى مكانى هذا، وليفعل الله بى ما يشاء، وأنا منتظر قضاءه فىّ.

القبض على سعيد:

وأخذت عيون الوالى الجديد وجواسيسه فى البحث عن سعيد، وقد كان يعلم من قبل أنه مختف فى قرية صغيرة فى ضواحى مكة. فلما استيقن أرسل شلة من الجند إلى بيت سعيد للقبضً عليه، وسوقه إلى واسط[1] فى العراق، حيث يقيم الحجاج تزلفا وتقربا.

وأحاط الجند بالدار، وأمسكوا بسعيد، ووضعوا الأصفاد والقيود فى يديه، وكان قد تلقاهم بهدوء واطمئنان، والتفت إلى من كان عنده من صحبه، وقال لهم: ما أرانى إلا مقتولاً على يدى ذلك الظالم، ولقد كنت أنا وصاحبان لى فى ليلة عبادة فلما استشعرنا حلاوة الدعاء فدعونا الله بما دعونا، وتضرعنا إليه بما شاء أن نتضرع، ثم سألناه عز وجل أن يكتب لنا الشهادة، وقد رزقها صاحبى كليهما، وبقيت أنا فى انتظارها.

وكانت لسعيد بنية صغيرة، فلما رأته مكبلا والجند يجرونه خارج الدار، تعلقت به وتشبثت، وراحت تبكى وتصرخ، فنحاها عن طريقه برفق، وقال لها: يا بنية، قولى لأمك إن موعدنا الجنة إن شاء الله تعالى.

بين عالم وطاغية:

ومن ثم كان اللقاء والحوار.. اللقاء المنتظر والحوار الذى نستشهد به على رعونة الطغاة، والأحرار والأباة.

فما أن أوقف سعيد - رضى الله عنه - أمام الحجاج وهو فى قيوده وأصفاده حتى سأله الحجاج: ما اسمك؟ وكان يعرفه حق المعرفة، ولكنه أراد من السؤال الولوج إلى الإذلال. فقال سعيد: سعيد بن جبير. فقال الحجاج: بل أنت شقى بن كسير. قال سعيد: أمى أعلم باسمى منك. فقال الحجاج: بل شقيت أنت وأمك. فرد سعيد: هذا علمه عند الله تعالى.

فسأله الحجاج: ما تقول فى محمد؟.. هكذا، مجردا من رسول الله والصلاة والسلام عليه.

فقال سعيد: تعنى محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه؟ قال الحجاج: نعم. فقال سعيد: خير من بقى من البشر، وخير من مضى، حمل الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح لله وكتابه وعامة المسلمين وخاصتهم.

---

(١) واسط: المدينة التى بناها الحجاج فى العراق زمن الخليفة عبد الملك بن مروان.

فقال الحجاج : فما تقول فى أبى بكر؟ فقال سعيد : هو الخليفة الصِّدِّيق، عاش سعيدا، ومضى حميدًا، لم يغير ولم يبدل.

فقال الحجاج : فما تقول فى عمر؟ قال سعيد : هو الفاروق الذى فرق الله به بين الحق والباطل، خيرة الله وخيرة رسوله، ولقد مضى على منهاج صاحبيه، فعاش حميدا ومات شهيدا.

قال الحجاج : فما تقول فى عثمان[١]؟ فقال سعيد : هو المجهز لجيش العسرة[٢]، الحافر بئر رومة[٣]، المشترى لنفسه بيتا فى الجنة، صهر رسول الله ﷺ على ابنتيه، ولقد زوجه النبىﷺ، بوحى من السماء، عاش حميدا، وقتل مظلوما.

قال الحجاج : فما تقول فى علىّ؟ فقال سعيد : ابن عم رسول الله ﷺ، وأول من أسلم من الفتيان، وهو زوج فاطمة - البتول - وأبو الحسن والحسين، سيدى شباب أهل الجنة.

ثم سأله الحجاج - وهنا بدأ الاستفزاز من الحجاج، وحكمة سعيد فى الإجابة : فأى خلفاء بنى أمية أعجب لك؟ فقال سعيد : أرضاهم لخالقهم. فقال الحجاج : فأيهم أرضى للخالق؟ فقال سعيد : علم ذلك عند الذى يعلم سرهم ونجواهم

قال الحجاج : فما تقول فىّ؟ فقال سعيد : أنت أعلم بنفسك. قال الحجاج : بل أريد علمك أنت. فقال سعيد فى ثقة وثبات : إذن يسوءك ولا يسرك. قال الحجاج : لا بد أن أسمع منك. فقال سعيد : إنى لأعلم أنك مخالف لكتاب الله - تعالى، تقدم على أمور تريد بها الهيبة، وهى تقحمك فى التهلكة، وتدفعك إلى النار دفعا.

وبلغ الغيظ والغضب لدى الحجاج أقصاه، وانتفخ، وثار، وقال : أما والله لأقتلنك. فقال سعيد : إذن تفسد علىّ دنياى، وأفسد عليك آخرتك. قال الحجاج : اختر لنفسك أى قتلة شئت. فرد سعيد : بل اخترها أنت يا حجاج، فوالله ما تقتلنى قتلة إلا قتلك الله مثلها فى الآخرة.

وحاول الحجاج استنزال سعيد فقال : أفتريد أن أعفو عنك؟ فقال سعيد : إن كان العفو فمن عند الله تعالى، أما أنت فلا براءة لك ولا عذر. فما ملك الحجاج على نفسه إلا أن نادى : علىّ بالنطع[٤] والسيف. فتبسم سعيد - رضى الله عنه - فلما رآه الحجاج قال : وما تبسمك؟ فقال سعيد : تبسمت من جرأتك على الله، وحلْم الله عليك. فصرخ الحجاج بجلاده : اقتله يا غلام.

---

(١) كان سعيد - رضى الله عنه - متهما فى تشيعه لآل البيت، لما كان بينه وبين ابن عباس - رضى الله عنهما - من متابعة وتواصل.

(٢) يوم غزوة تبوك، التى كانت تسمى أيضا بغزوة العسرة.

(٣) كانت بئر رومة فى المدينة ملكا ليهودى، فاشتراها عثمان - رضى الله عنه - ووقفها للمسلمين، وكان رسول الله ﷺ قد قال : «من يشترى بئر رومة . . . وله الجنة».

(٤) النطع : جلد يوضع تحت المحكوم عليه بالقتل.

فلما وجه إلى القبلة قال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة الأنعام-الآية ٧٩]. فنادى الحجاج على غلامه وقال: أديروا به إلى غير القبلة. فقال سعيد: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة-الآية ١١٥]. فاغتاظ الحجاج وصرخ: كُبوه على وجهه. فقال سعيد-رضىَ الله عنه: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [سورة ص-الآية ٥٥]. فقال الحجاج: اذبحوا عدو الله، فما رأيت رجلًا أدعى منه لآيات القرآن.

ورفع سعيد يديه بالدعاء، وقال: اللهم لا تسلطه على أحد بعدى. وحملت ملائكة الرحمن دعوة سعيد إلى أعلى عليين، إلى رب العزة والجبروت. فما مضت غير أيام قلائل حتى وقع الحجاج فريسة للمرض واشتدت عليه وطأته، وكان يغفو ويفيق، ويقول فى إفاقته مذعورا: هذا سعيد بن جبير آخذ بخناقى، يقول: فيمَ قتلى؟ ثم يبكى وينتحب ويقول: ما لى ولسعيد بن جبير، ما لى ولسعيد بن جبير.. حتى قضى.

وهكذا أسدل الستار على أعظم ملحمة بين عالم وطاغية، عالم يصدع بالحق ولا يخشى فيه لومة لائم، وطاغية غره سلطانه فأورده حتفه وخسران الدنيا والآخرة.

* * *

زين العابدين

علىّ بن الحُسَيْن بن على

رضى الله عنهم

(٣٨ ـ ٩٤هـ)

كان إذا توضأ يصفر لونه،

وإذا قام إلى الصلاة ارتعد من الخوف.

فقيل له فى ذلك،

فقال: ألا تدرون بين يدَىْ من أقومُ؟! ومن أناجى؟!

بقية آل البيت:

وانفض عرس الشهادة يوم الطف، فى كربلاء عن رءوس تدحرجت، وأشلاء أبدان تمزقت وتناثرت، وعن دماء زكية طاهرة فيها عبق النبوة سالت وامتزجت بتراب الأرض، وأرواح زهقت ظلما وعدوانا صعدت إلى بارئها آمنة مطمئنة.

استشهد الحسين بن على - رضى الله عنه - على أيدى طائفة من أعوان الظلمة، مع نفر من آل بيته وصحبه زادوا على السبعين، ولم يسلم من تلك المجزرة «المذبحة» إلا واحد من أبناء الحسين، وهو على الأصغر، زين العابدين.. إذ كان عليلاً مريضا، طريح الفراش، يعانى سكرات الموت، ولولا ذلك للحق بمن سبقه.

ولكن لحكمة إلهية صرف النظر عن قتله.

وقدر لهذا الفتى البالغ من العمر ثلاثة وعشرين عاما أن يكون بقية آل البيت وأن تستمر حلقة الاتصال فى السلسلة قائمة لا ينفرط عقدها، ولا تتناثر حباتها.

فى المدينة:

وعاد الموكب الحزين إلى المدينة المنورة، تتقدمه السيدة زينب بنت الحسين، عقيلة بنى هاشم - رضى الله عنها - وعلى زين العابدين.

وكان مسجد الرسول ﷺ مهوى قلب على ومثوى فؤاده، وفيه حط الرحال، فأقبل على حلقاته - كما تعود سابقا - يجالس العلماء من الصحابة وكبار التابعين، ويستزيد من العلم، ويحفظ عنهم، ويحدث ويتعبد ويتهجَّد.

وكم طال وقوفه عند قبر جده المصطفى ﷺ مسلما، خاشعا تنهلُّ الدموع من عينيه غزيرة فياضة حارة لاهبة، تصاحبها زفرات وتنهدات.

ولقد كان حفظه لكتاب الله تعالى آية من آيات إقباله على ربه، وكذلك إتقانه لسيرة النبى ﷺ، وسنته الشريفة.

فبلغ - رضى الله عنه - مكانة علمية رفيعة جعلته فى مقدمة الصفوة، وقطبا من أقطاب علماء عصره.

زين العابدين

هذا اللقب لم يأت من فراغ، لم يلقب به تزلفا أو مداهنة، أو اصطناعا ممن أحبه، وتعلق به أو اتصل.. بل كان حقيقة تلبسته، وخالجت أحاسيسه ومشاعره، وخالطت ذرات كيانه.

قال عنه محمد بن شهاب الزهرى: «ما رأيت أورع منه ولا أفضل».

وقال الواقدى: «كان من أورع الناس وأعبدهم وأتقاهم لله عز وجل».

وروى أنه احترق البيت الذى هو فيه، وهو قائم يصلى، فلما انصرف قالوا له: ما لك لم تنصرف؟ فقال: إنى انشغلت عن هذه النار بالنار الأخرى».

وروى أنه كان إذا توضأ للصلاة اصفر لونه، فإذا قام إلى الصلاة ارتعد من الفرق[1]، فقيل له في ذلك، فقال: ألا تدرون بين يدى من أقوم، أو من أناجى؟».

وروى أنه لما حج - وما أكثر ما حج - أراد أن يلبى فارتعد، وقال: أخشى أن أقول: لبيك اللهم لبيك، فيقال لى: لا لبيك. فشجعوه على التلبية، فلما لبى غشى عليه، حتى سقط عن الراحلة.

وروى أنه كان يصلى فى كل يوم ألف ركعة. ولا نرى فى ذلك أدنى مبالغة، فما رُئى - رضى الله عنه - سامرا لاهيًا، منشغلاً بأمور الدنيا، اللهم إلا ما يقتضيه طلب العيش، وضرورته، إذ كان أكثر وقته مع الله تعالى قياما وركوعا، وسجودا، وتلاوة، وذكرا.

هذه السلوكيات الفائقة الرائقة الرائعة، أهلته عن جدارة واستحقاق أن يكون زين العابدين، فعرف بهذا اللقب، واشتهر، حتى غلب على الاسم، وبات علما له.

السَّجَّاد:

حفظ على - زين العابدين - عن جده رسول الله ﷺ قوله الشريف: «أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد..».

وكان - رضى الله عنه - يريد القرب الدائم من ربه تعالى، فأطال سجوده وأكثر من دعائه وبلل الثرى بدموعه. ويروى لنا التابعى الجليل طاووس بن كيسان - رضى الله عنه - هذه الطرفة فيقول: سمعته وهو ساجد عند الحجر يقول: «عُبيدك بفنائك سائلك بفنائك فقيرك بفنائك». ثم يقول طاووس: فوالله ما دعوت بها فى كرب قط إلا كشف عنى».

وكان طاووس - رضى الله عنه - من أقرب الناس إلى على - زين العابدين - وأكثرهم لصوقا به، وحفظا عنه، هو وزيد بن أسلم والزهرى - ويحيى بن سعيد الأنصارى، وغيرهم.

وكما اشتهر - رضى الله عنه - بلقب (زين العابدين) اشتهر أيضا بلقب «السجاد».

مقامه بالمدينة:

لقد آثرها - رضى الله عنه - على غيرها من ديار الإسلام، فكان لا يبرحها إلا إلى مكة المكرمة فى موسم الحج، أو إلى دمشق - دار الخلافة - بناء على تواصل فيه خير البلاد والعباد.

وكانت له ولآل بيته مخصصات من بيت مال المسلمين. وكان له تجارة مبارك فيها، وأرض وزروع، وخيرات حسان، ولكنها كلها كانت عنده بمثابة ابتلاء واختبار.

صدقة السر:

وليس أفضل من الليل كتمانا للسر، فيه تهدأ الحركة، ويخلد الناس إلى دورهم، ويسترسلون فى سباتهم، وتخلو الطرقات من المارة، ويتجلبب الكون بالظلمة الحالكة.

وعليه.. فقد اتخذ زين العابدين من الليل سبيلا وسترا إلى الصدقة الصادقة، فى غير خيلاء ولا رياء.

---

(١) الفرق: شدة الخوف.

كان يحمل على ظهره أكياس الدقيق، وغيره، يدور بها على بيوت الفقراء والمحتاجين والمساكين، رغبة فى ما عند الله تعالى من جزاء وحسن ثواب، وخير مآب.

ومع قوله رضى الله عنه: «صدقة الليل تطفئ غضب الرب، وتنور القلب والقبر، وتكشف عن العبد ظلمة يوم القيامة» كان لا يُعْلم أحدا بما يفعل، وما كان له أن يمن.

وكان أهل تلك البيوتات من الفقَراء ينتظرون قدوم الخير عليهم مع مجيء هذا المتصدق المجهول، ويدعون له وهم لا يعرفونه.

ولكن كيف عرفوا أنه علىّ زين العابدين؟ بعد وفاته ـ رضى الله عنه وأكرم مثواه ـ انقطع عنهم المدد، وحين غسل ظهرت فى ظهره خطوط سوداء من أثر ما كان يحمل عليه، فأدركوا ذلك، وعرفوا فترحموا.

قال عمر بن حارث: لما مات على بن الحسين ـ رضى الله عنهما ـ فغسلوه، جعلوا ينظرون إلى آثار سواد فى ظهره، فقالوا: ما هذا؟ فقيل: كان يحمل جُرُب الدقيق ليلا على ظهره يعطيه فقراء المدينة.

وقال ابن عائشة: سمعت أهل المدينة يقولون: «ما فقدنا صدقة السر حتى مات على بن الحسين».

البَكَّاء:

وكان ـ رضى الله عنه ـ كثير الصمت قليل الكلام، كثير البكاء سخى الدمع مدراره. وكان لا يبكى إلا لأمرين: خشية لله تعالى، وحزنا على الأحبة. فما ذكر الله تعالى خاليا إلا فاضت عيناه بالدموع السواجم، وتوجه إلى ربه بالدعاء فقال: اللهم إنى أعوذ بك أن تحسِّن فى لوامع العيون علانيتى، وتقبح فى خفيات الغيوب سريرتى.. اللهم كما أسأتُ وأحسنتَ إلىّ فإذا عدت فعد إلىّ.. اللهم ارزقنى مواساة من قترت عليه رزقك بما وسعت علىّ من فضلك.

وكان يقول: فقد الأحبة غربة. ثم تغرورق عيناه، وتفيض بالدمع الغزير. فقيل له فى ذلك، فقال: إن يعقوب ـ عليه السلام ـ بكى حتى ابيضت عيناه على يوسف ولم يعلم أنه مات. وإنى رأيت بضعة عشر من أهل بيتى يذبحون فى غداة واحدة، فترون حزنهم يذهب من قلبى أبدًا؟

العفو من شيم الكرام

وذكروا أنه ـ رضى الله عنه ـ كانت له جارية تصب له ماء لوضوئه، فسقط الإبريق من يدها من غير قصد فشج وجهه، فرفع رأسه إليها وفى نظرته غضب ظاهر، فقالت الجارية: ﴿والكَاظمينَ الغَيْظَ﴾. فأغضى وقال: قد كظمت غَيظى. فقالت: ﴿والعَافينَ عَن النَّاس﴾، فتبَسَم وقال: عفا الله عنك. فقالت: ﴿واللَّهُ يُحبُّ المُحْسنينَ﴾، فانفرَجت شفتاه عن ابتسامة عريضة وقال: ولقد أحسنت إليك.. أنت حرة لوَجه الله تعالى.

وروى أحد مواليه الذين أعتقهم فقال: كنت غلاما لعلى بن الحسين فأرسلنى فى حاجة،

فأبطأت عليه، فلما جئته خفقني[١] بالسوط، فبكيت واشتد غيظي منه؛ لأنه ما خفق أحدا قبلى قط، وقلت له: «الله الله يا على يا بن الحسين، أتستخدمنى فى حاجة أقضيها لك ثم تضربنى؟

فبكى وقال: اذهب إلى مسجد الرسول ﷺ وصل ركعتين ثم قل: «اللهم اغفر لعلى بن الحسين»، فإذا ذهبت وفعلت فأنت حر لوجه الله تعالى. فذهبت وصليت ودعوت، ولم أعد إلى داره إلا وأنا حر.

وروى ابن أبى الدنيا:

أن غلاما لعلى بن الحسين سقط من يده سَفُّود[٢] وهو يشوى شيئا فى التَّنُّور على رأس صبى لعلى فقتله.. فنهض علىّ مسرعا، فلما نظر إليه قال للغلام: إنك لم تتعمد، أنت حر. ثم شرع فى جهاز ابنه.

محرر العبيد:

كان لعلى بن الحسين - رضى الله عنهما - أريحية عتق العبيد وتحرير الرقيق، جاوزت فى أسبابها وصورها كل تصور وتخيل، وكل حدود المعقول.

فقد كان يعتق العبد إذا أحسن، جزاء وثوابا على إحسانه، وكان يعتقه أيضا إذا أساء ثم تاب وأناب واستغفر.

ويروى أنه لم يستعمل عبدا أكثر من عام واحد.

وفى هذا الصدد يروى الراوون أنه أعتق أكثر من ألف عبد.. كل ذلك تقربا إلى الله تعالى وفى سبيله.

وكان أكثر فعله هذا ليلة عيد الفطر، وليلة ختم شهر رمضان.

ولعله - رضى الله عنه - كان يفعل ذلك تجاوبا مع روح حديث جده المصطفى ﷺ الذى يقول عن شهر رمضان: «أوله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار». فما من شك بأن حقيقة الرق والعبودية وسلب حرية الإنسان هى كالنار فى ضراوتها وأذاها وانعكاساتها على الكيان البشرى.

وكان - رضى الله عنه - يطلب منهم أن يتوجهوا إلى القبلة ويدعون: «اللهم اغفر لعلىّ بن الحسين». ثم يزودهم بعطاء غير ممنون ليكون العيد لديهم مضاعف الفرحة.

الكاظمين الغيظ:

لم يكن - رضى الله عنه - بحاجة إلى أن تذكره جاريته بالآية الكريمة - كما سبق وتحدثنا - إذ كانت معانيها محفورة فى قلبه وروحه وعقله، وديدنه فى تصرفه، وأسلوب حياته.

روى الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب - رضى الله عنهم - فقال: «وقعت بينى وبين ابن عمى زين العابدين جفوة، فذهبت إليه وأنا أتميز غيظا منه، وكان مع أصحابه فى المسجد،

(١) خفقنى: ضربنى.

(٢) السفود: حديدة يشوى عليها اللحم.

فما تركت شيئا إلا قلته له، وهو ساكت لا يتكلم ثم انصرفت، فلما كان الليل إذا طارق على الباب يقرعه، فقمت لأرى من هو؟ فإذا زين العابدين، فما شككت أنه جاء يرد إلىّ الأذى، ولكنه قال: «يا أخى، إذا كنت صادقا فيما قلت لى فغفر الله لى، وإن كنت غير صادق فغفر الله لك»، ثم ألقى السلام علىّ ومضى، فلحقت به وقلت له: لا جرم، لا عدت إلى أمر تكرهه.. فرق لى وقال: وأنت فى حل مما قلت لى».

وروى أحدهم فقال: كان زين العابدين خارجا من المسجد، فتبعته وجعلت ألوح بالشتم، ولست أدرى سببا لذلك، فهجم علىّ الناس يريدون أخذى، ولو أخذونى لم يفلتونى حتى أحطم، فالتفت إلى الناس وقال: كفوا عن الرجل. فكفوا عنى. ولما رأى ما أصابنى من الذعر أقبل علىّ بوجهه الطلق، وجعل يؤمننى ويهدئ من روعى، ثم قال لى:

لقد سببتنا بما علمت، وما ستر عنك من أمرنا أكبر. ثم قال لى: ألك حاجة نعينك عليها؟ فاستحييت منه، ولم أقل شيئا، فلما رأى حيائى ألقى على خميصة[1] كانت عليه، فجعلت أقول كلما رأيته بعد ذلك: أشهد أنك من أبناء رسول الله ﷺ.

منزلته فى قلوب الناس:

من خلال صفاته وسجاياه، ومن خلال خلاله وكريم فعاله، ومن خلال تدينه، وتعبده، وتواصله مع الله تعالى، ومن خلال أقواله وكلماته، ومن خلال سيرته عموما أحبه الناس جميعا، وأنزلوه من قلوبهم فى الصدارة، وعظموه واحترموه، وما كان ذلك إلا ليزيده استغراقا فى الشفافية وتواضعا لله جل جلاله.

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته:

ما كان - رضى الله عنه - ليغيب عن موسم الحج أبدا.

وفى ذات مرة حضر هشام بن عبد الملك بن مروان حاجا، وكان آنئذ وليا للعهد، فلما حاول فى طوافه أن يستلم الحجر الأسود، لم يتمكن من شدة الزحام، وتدافع الناس، فأخذ من معه من الجند والحاشية يفرقون الناس ويفسحون لسيدهم الطريق.

فى تلك الأثناء أقبل زين العابدين - رضى الله عنه - فانفرجت له السبيل إلى الحجر الأسود من غير قسر ولا قهر، وتباعد الناس يفتحون له طريقا.

فقال قائل من حاشية هشام:

من هذا؟ من هذا الذى فتحت له الأجساد والأبدان وتراجعت؟

وكان الفرزدق الشاعر حاضرا، وهو من محبى زين العابدين، فأثاره هذا السؤال وهيج قريحته فقال على الفور بالبديهة قصيدة عصماء، احتلت فى ديوان الشعر العربى أسمى منزلة.

قال الفرزدق(*):

---

(١) الخميصة: الثوب - الكساء.

(*) القصيدة تزيد على سبعة وعشرين بيتا، وهى فى ديوان الفرزدق بتمامها.

هذا الذى تعرف البطحاء[١] وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقى النقى الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله بجده أنبياء الله قد ختموا
وليس قولك: من هذا بضائره[٢] العُرب تعرف من أنكرت والعجم
كلتا يديه غياث عم نفعهما يستوكفان[٣] ولا يعروهما عدم
سهل الخليقة لا تخشى بوادره[٤] يزينه اثنان: حسن الخلق والشيم
ما قال: لا قط إلا فى تشهده[٥] لولا الشهادة كانت لاؤه نعم
عم البرية بالإحسان فانقشعت عنها الغياهب والإملاق[٦] والعدم
إذا رأته قريش قال قائلها إلى مكارم هذا ينتهى الكرم
يغضى[٧] حياء ويغضى من مهابته فما يكلَّم إلا حين يبتسم
مشتقة من رسول الله نبعته طابت مغارسه[٨] والخيم والشيم

فقبض على الفرزدق، وحبس فى مكان يدعى عسفان بين مكة والمدينة، فأرسل إليه زين العابدين اثنى عشر ألف درهم يواسيه بها، فردها الفرزدق وقال: إنما قلت ما قلت لله عز وجل، ونصرة للحق، وقياماً بحق رسول الله ﷺ فى ذريته، ولست أعتاض عن ذلك بشيء.

فأرسل إليه زين العابدين يقول: قد علم الله صدق نيتك فى ذلك، وأقسمت عليك بالله لتقبلها، فتقبلها منه.

زين العابدين وأقدار الرجال:

جاء إلى المدينة بعض العراقيين زائرين، ونزلوا فى الضيافة، واجتمعوا فى يوم حول زين العابدين - رضى الله عنه - وأخذوا فى الحديث.

وكان محور حديثهم يدور حول الفتنة، يثيرون عواملها، وما خمد من نيرانها، وقد لجوا فى النيل من الشيخين الصاحبين: أبى بكر، وعمر - رضى الله عنهما - وزين العابدين - رضى الله عنه - يحرِّق الأُرَّم غيظا مما يقولون، ثم إنهم شرعوا فى عثمان - ذى النورين - رضى الله عنه - يريدون النيل منه أيضا، ولم يكن سكوت زين العابدين يعنى الرضا، إذ كان يعزف عن الخوض فى الفتنة، سواء سلبا أو إيجابا.

(١) وطأته: مشيته. (٢) بضائره: بمنقص له.
(٣) الغياث: الكثير العطاء.
(٤) بوادره: حدته، وقسوته.
(٥) فى تشهده: فى قوله: لا إله إلا الله.
(٦) الغياهب: الظلمات، والإملاق: شدة الفقر.
(٧) يغضى: ينظر إلى الأرض حياء وخجلا.
(٨) مغارسه: منابته وأصوله، والخيم: الطباع.

فلما طفح كيله، وفاض به صبره التفت إليهم وقال: أخبروني.. أأنتم من المهاجرين الأولين ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؟ [الحشر الآية ٨] فقالوا: لا.

فقال: أ أنتم من الذين ﴿تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾؟ [الحشر الآية ٩] فقالوا: لا.

فقال لهم: أما أنتم فقد أقررتم وشهدتم على أنفسكم أنكم لستم من هؤلاء ولا من هؤلاء، وأنا أشهد أنكم لستم من الفرقة الثالثة الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾.

[الحشر الآية ١٠]

فقوموا عنى، لا بارك الله فيكم، ولا قرب دوركم، أنتم مستهزئون بالإسلام، ولستم من أهله.

كان ـ رضى الله عنه ـ يعرف نفاقهم، وسوء طويتهم، وغدرهم. أليسوا هم الذين تخلوا عن جده علىّ؟ أليسوا هم الذين استنزلوا أباه الحسين ـ سيد شباب أهل الجنة ـ ثم خذلوه؟ ولذا كان ـ رضى الله عنه ـ طوال عمره وحياته السنية الوضاءة علما مفردا فى الابتعاد عن مزالق الفتنة والوقوع فى شراكها، وحبائلها.

المعلم الحكيم لأبنائه، ولأبناء المسلمين:

فقد كان ـ رضى الله عنه ـ من بيت تشبع بالعلم والحكمة، تبدو من فمه فصوصها كأنها الدر المنثور.

قال لابن له يوصيه: يا بنى لا تصحب فاسقا فإنه يبيعك بأكلة، وأقل منها، يطمع فيها ثم لا ينالها. ولا بخيلا، فإنه يخذلك فى ماله أحوج ما تكون إليه. ولا كذابا، فإنه كالسراب، يقرب منك البعيد، ويباعد عنك القريب. ولا أحمق، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك. ولا قاطع رحم، فإنه ملعون فى كتاب الله.. قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣)﴾[سورة محمد].

وكان يقول: إن قوما عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وآخرون عبدوه رغبة فتلك عبادة التجار، وآخرون عبدوه محبة وشكرا، فتلك عبادة الأحرار والأخيار.

وكان يقول: لا يقول رجل فى رجل من الخير ما لا يعلم إلا أوشك أن يقول فيه من الشر ما لا يعلم. وما اصطحب اثنان على معصية إلا أوشك أن يفترقا على غير طاعة.

وكان ـ رضى الله عنه ـ يحاسب نفسه ويناجى ربه فيقول:

يا نفس، حتَّامَ إلى الدنيا سكونك، وإلى عمارتها ركونك؟ أما اعتبرت بمن مضى من أسلافك، وما وارته الأرض من ألاَّفك؟ ومن فجعت به من إخوانك؟ ونقل إلى الثرى من أقرانك؟ فهم فى بطون الأرض بعد ظهورها محا سنهم فيها بوال دواثر. ويردد:

خلَت دورهـم وأقوت عراصـهم　　وساقتهم نحو المنايا المقـادر
وخلوا عن الدنيا وما جمعوا لها　　وضمهم تحت التراب الحفـائر

انظر إلى الأمم الماضية والملوك الفانية، كيف اختطفتهم عقبان الأيام، ووافاهم الحمام، فانمحت من الدنيا آثارهم، وبقيت منها أخبارهم، وأضحوا رمما فى التراب، إلى يوم الحشر والمآب.

كم من ذى منعة وسلطان، وجنود وأعوان تمكن فى دنياه، ونال فيها ما تمناه، وبنى فيها القصور والدساكر، وجمع فيها الأموال والذخائر، ومليح السرارى والحرائر.

فـمـا صـدقت كف المنيـة إذ أتت　　مـبـادرة تهـوى إليـه الذخـائر
ولا دفعت عنه الحصون التى بنى　　وحفَّ بهـا أنهـاره والدسـاكـر
ولا قـارعت عنه المنيـة حـيلة　　ولا طمعت فى الذب عنه العسـاكر

فالبدار البدار، والحذار الحذار، من الدنيا ومكايدها، وما نصبت لك من مصايدها، وتحلت لك من زينتها، وأظهرت لك من بهجتها، وأبرزت لك من شهوتها، وأخفت عنك من قواتلها، وهلكاتها.

وفى دون مـا عـاينت من فـجعـاتهـا　　إلى دفـعـهـا داع وبالزهد آمـر
فـجـدَّ ولا تغـفل وكن مـتـيـقظا　　فـعـمـا قليل يتـرك الدار عـامـر
فـشـمر ولا تفـتـر فـعـمـرك زائل　　وأنت إلى دار الإقـامـة صـائر
ولا تطلب الدنيـا فـإن نعـيـمـهـا　　وإن نلت منهـا غـبّـه لك صـائر

ويقول - رضى الله عنه: يا بنى اصبر على النوائب ولا تتعرض للحقوق، ولا تخيب أخاك إلا فى الأمر الذى مضرته عليك أكثر من منفعته لك.

وقال: إن الله - تعالى - يحب المؤمن المذَّنب التواب، التارك للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كالنابذ كتاب الله وراء ظهره، إلا أن يتقَى منهم تقاة، قالوا: وما تقاة؟ قال: يخاف جبارا عنيدا أن يسطو عليه، وأن يطغى.

رضى الله عن علىّ زين العابدين وأرضاه، وأكرم له فى الجنة منزله ومثواه، وألحقنا به فى لصالحين من عباده.

موسى بن نصير

رضى الله عنه

(١٩ - ٩٧هـ)

أما ـ والله ـ لو انقادوا إلىَّ لقدتهم إلى روميَّة.

موسى بن نصير

وقال ابن عذارى:

لم يسمع قط بمثل سبايا موسى بن نصير فى الإسلام

قال عبيد الله بن عوف الخولانى فى مدح موسى بن نصير :

كنا نؤمل حسّانا [١] وإمرته حتى أتانا أمير غير حسان

النصر يقدمه، والحزم سائغه عف الخلائق ماض غير وسنان

الحق نسبته، والعدل سيرته جَزْل المواهب مُعطٍ غير منان

شيخ المجاهدين:

إن أكثر ما يلفت الأنظار ويشد الانتباه فى شخصية التابعى الجليل موسى بن نصير - رضى الله عنه - مع عظمة فتوحه فى المغرب والأندلس - تقدمه فى السن. إذ كان قد أوفى على العقد السادس من عمره حين انطلق تلك الانطلاقة العظمى فى بلاد المغرب قاطبةً، من ليبيا حتى شاطئ المحيط الأطلسى عند مراكش، ثم عبوره البحر إلى الأندلس، وانسياحه فى مقاطعتها، حتى وصل إلى بعض المقاطعات الفرنسية، وكأنه فى عز الشباب والفتوة، يتقد حمية وحماسا، وقد جاوز السبعين. ما قلّ الجهاد، ولا قعدت به شيخوخته، وما توقف عن الزحف لنشر الإسلام ورفع رايته، حتى مل جنده وتعبوا، وهو ينهض بهم من أرض إلى أرض، ومن فتح إلى فتح، فى تواصل واستمرارية.

فلما قال له أحد قادته (حنش الصنعانى): أيها الأمير، إنى سمعتك وأنت تذكر عقبة بن نافع تقول: لقد غرر بنفسه وبمن معه. أما كان معه رجل رشيد؟ وأنا رشيدك اليوم. أين تذهب؟ تريد أن تخرج فى الدنيا، أو تلتمس أكثر مما آتاك الله - عز وجل - وأعرض مما فتح عليك؟ إنى سمعت من الناس ما لم تسمع، وقد ملأوا أيديهم وأحبوا الدَّعَة!

ضحك موسى، ثم قال: أرشدك الله، وكثَّر فى المسلمين أمثالك، ثم لوى عنَان فرسه وارتد وهو يقول:

أما والله لو انقادوا إلىّ لقدتُهم إلى رومية [٢]، ثم يفتحها الله على يدى إن شاء الله.

من هو؟

فى قرية من قرى الأنبار فى العراق غربى الكوفة تدعى عين التمر، وجد خالد بن الوليد - رضى الله عنه - أربعين غلامًا يتعلمون الإنجيل، عليهم باب مغلق، فكسره عنهم، وسألهم: ما أنتم؟ فقالوا: رُهُنٌ. فأخرجهم ونفى عنهم ما كانوا فيه، ووزعهم فى أهل البلاد. كان من بين هؤلاء نصيرٌ، والد موسى..

ولقد أعتق نصير، فلما شب قدم الشام، والتحق بحرس معاوية بن أبى سفيان، وأبدى نشاطًا واهتمامًا وإقدامًا، حتى جعله معاوية رئيسًا لحرسه، ثم قائدًا لبعض جيوشه.

وكان موسى فى أثناء ذلك ينهد من الشباب إلى الرجولة، يتفقه فى دين الله، ويتعلم فنون

(١) هو: حسان بن النعمان، أحد قادة فتح المغرب العربى، والشمال الإفريقى.

(٢) رومية: روما.

القتال على مستوى القيادة، ويطلع على شئون الحكم والإدارة، ويستوعب كل ذلك بما تأهل له من ذكاء وتفتح ووعى، لفت إليه الأنظار، مما جعله من خاصة معاوية.

فلما غزا معاوية جزيرة قبرص، وافتتحها سنة ثمان وعشرين أيام خلافة عثمان بن عفان - رضى الله عنه - كان موسى فى عداد الجند الذين عبروا معه البحر، وأظهر شجاعة وإقدامًا، وهذا ما دفع معاوية إلى أن يبعث بموسى على رأس حملة بحرية إلى قبرص ثانيةً فى خلافته ليثبِّت أقدام المسلمين فيها. فنزلها موسى، وأنشأ فيها حصونا مثل الماغوصة، وبانس، وغيرها، وأقام فيها نائبا عن معاوية، ورسَّخ الإسلامَ فى أهلها. وبدأ نجمه يظهر ويسطع وشخصيته القيادية والإدارية تتبلور وتتشكل.

ومرت الأيام وتلتها الأعوام، وظهرت الفتن يردف بعضها بعضا. اضطربت أحوال الحكم، وتقطعت أوصال البلاد والعباد، ووجد موسى نفسه فى جبهة عبد الله بن الزبير، يقاتل فى معركة «مرج راهط» إلى جانب الضحاك بن قيس الفهرى، ضد مروان بن عبد الحكم. وكان ذلك سنة أربع وستين هجرية. فلما هزم الضحاك وقتل، هرب موسى، ولكن إلى أين؟

كانت بينه وبين عبد العزيز بن مروان صداقة وألفة، فأتاه لاجئًا، فحماه عبد العزيز، وشفع له عند أبيه مروان، الذى قبل عذره، وعفا عنه.

وكان مروان معجبًا بموسى، وتعرَّف فيه الإخلاصَ والكفاءة، والنبوغ، فقرَّبه منه وأدناه، وجعله من خاصته، كما فعل معاوية من قبل. وصدق موسى فى النصح والمشورة لمروان وأخلص له، وكانت تلك سجاياه التى عرف بها، واشتهرت عنه.

فلما ولى مروان ولده عبد العزيز على مصر، عين له موسى وزيرًا ومشيرًا، فأدَّى المهمة بكل أمانة وكفاءة، وتفان.

التابعى:

وبقى موسى - رضى الله عنه - وفيًّا للبيت الأموى المروانى، يتنقل بين الشام ومصر والعراق مع علوّ مرتبته، وسموّ مقامه فى الإدارة والسياسة والحرب، وفى كل شأن من شئون الدين والدنيا.

فقد كان من التابعين - رضى الله عنهم - عالمًا فقيهًا فصيحًا، على خلق واستقامة، حافظًا لحديث رسول الله ﷺ، وأكثر رواياته عن تميم الدارى. وروى عنه يزيد بن مسروق اليحصبى، وعده المؤرخون من العلماء ورواده. وكان أيضا ورعا تقيا، مراعيا لحدود الله - تعالى - فى السر والعلن.

يروى أنه عندما نزل الشمال الإفريقى كانت البلاد فى قحط وجدب شديدين، فأمر الناس بالصوم والصلاة والتطهر، وإصلاح ذات البين، وخرج بهم إلى الصحراء للاستسقاء، وكان قد فرق بين الحيوانات وأولادها.

واشتد البلاء ووقع البكاء والصراخ والضجيج، وأقام على ذلك إلى منتصف النهار، ثم صلى وخطب ودعا. ولم يذكر الخليفة الوليد بن عبد الملك، فقيل له: ألا تدعو لأمير المؤمنين؟ فقال: هذا مقام لا يدعى فيه لغير الله تعالى. وما زال كذلك حتى سقوا ورووا.

موسى واليا على إفريقية:

فى أواخر عام خمسة وثمانين من الهجرة ولى الخليفة عبد الملك بن مروان موسى بن نصير على الشمال الإفريقى، بعد حسان بن النعمان الغسانى.

وكان الشمال الإفريقى حتى ذلك الحين، منذ بدء الفتح، أكثر الأمصار والأقطار اضطرابًا وانتقاضًا، وقد عانى الولاة عليه أشد المعاناة، ولقوا بسبب ذلك أهوالاً ومتاعب شديدة. فقد كانت بعض قبائل البربر لا تزال على ولائها للرومان، وبعضها يخضع لنزعته القبلية وعنصريته، وأقلها دخل فى الإسلام وانضوى تحت لوائه، وتشبع بتعاليمه.

ويذكر لموسى فى هذا الصدد جهاده فى توحيد الشمال الإفريقى، والقضاء على نزاعات البربر، ودمجهم فى المجتمع الإسلامى، وصهرهم فى بوتقته.

وقد علمنا أن شخصية موسى - رضى الله عنه - لم تكن قاصرة على كفاءته العسكرية القتالية، فإلى جانب ذلك كان إداريًا وحاكمًا من الطراز الأول. أضف إلى ذلك كونه تابعيًا جيِّد العلم والفهم، قويم الإيمان.

يروى أنه - رضى الله عنه - عندما وافى البلاد، وباشر مهمته، خطب فى الجند، فكان فيما قاله: وإنما أنا رجل كأحدكم، فمن رأى منى حسنة فليحمد الله، وليحض على مثلها، ومن رأى منى سيئة فلينكرها فإنى أخطئ كما تخطئون، وأصيب كما تصيبون. وقد أمر الأمير عبد العزيز بن مروان - أكرمه الله - لكم بعطاياكم وتضعيفها ثلاثا، فخذوها هنيئًا مريئًا، ومن كانت له حاجة فليرفعها إلينا، وله عندنا قضاؤها - على ما عزَّ وهان - مع المواساة إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والملاحظ - مما ذكرنا - ثلاثة أمور جعلها موسى - رضى الله عنه - فى صميم برنامجه السياسى الإدارى للعباد والبلاد.

أولها: حرية الرأى من غير انتقاض ولا ثورة. ثانيها: زيادة الأعطيات، مما يغرى ويشحذ الهمم. ثالثها: مبدأ التوكل على الله، والطاعة له وحده - عز وجل - وإرجاع الأمر كله إليه سبحانه.

وأنفق موسى - رضى الله عنه - بضع سنين فى قطع دابر كل فتنة أو انتقاض، وترسيخ قواعد الدين فى نفوس البربر، حتى باتوا جميعا - على مختلف قبائلهم ونزعاتهم - جندا مخلصين تحت راية الإسلام.

ومن الظلم أن نختص جهاده هذا ببضع كلمات وسطور، ولكن المجال لا يتسع لأكثر من

ذلك. ويكفي أن نقول إن موسى - رضى الله عنه - كان دائم الحركة واليقظة، يقرن العمل العسكرى بالإصلاح السياسى والاجتماعى، وهذا بالفعل هو الذى ألقى بين يديه بمقاليد الأمور كلها حتى بات الشمال الإفريقى قاعدة الانطلاق إلى الفتح الأندلسى.

يقول ابن كثير رحمه الله[١]: وقد كان موسى بن نصير هذا يفتح فى بلاد المغرب وقتيبة - ابن مسلم الباهلى - يفتح فى بلاد المشرق، فجزاهما الله خيرا.

وقال أيضا: ولقد افتتح موسى بلاد المغرب، وغنم منها أموالاً لا تعد ولا تحصى، وله بها مقامات مشهورة وهائلة، وأسلم أهل المغرب على يديه، وبث فيهم الدين والقرآن، فكان يأمر العرب أن يعلموا البربر القرآن، وأن يفقهوهم فى الدين.

سبتة وجوليان:

ولم تستعص على موسى سوى مدينة سبتة؛ فقد كانت مدينة ساحلية حصينة، موصولة عن طريق البحر بالعَدْوة الأوروبية، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، ويحكمها حاكم اسمه جوليان، شديد المراس، واسع الحيلة.

ولعل موسى منذ أن عهد الله إليه بحكم قبرص أيام معاوية بن أبى سفيان، ووقوف سبتة فى وجهه، قد أدرك ما لخوض سُبُل البحر من أهمية. فعوَّل على تطوير صناعة السفن فى دار الصناعة فى تونس، وشق قناةً توصل بين الميناء وبين المدينة بطول اثنى عشر ميلاً، حتى أقحم البحر (دار الصناعة)، التى صارت مشتًى للمراكب إذا هبت الأنواء والأعاصير، وأمر ببناء مائة مركب. ومن ثم بدأ الغزو البحرى الإسلامى، فى خوض غمار البحر الأبيض المتوسط، والاستيلاء على بعض الجزر، وبسط سلطان الإسلام فيها.

وكانت أول غزاة بقيادة ولده عبد الله بن موسى إلى صقلِّيَّة، وافتتح بها. ثم أتبعها بغزوة أخرى بحرية، بقيادة عياش بن أخيل إلى صقلية أيضا، فاستولى على مدينة سرقوسة، التى كان بها سرير مَلك الروم.

وفى سنة تسع وثمانين عقد موسى لولده عبد الله راية حملة ثانية، فافتتح جزيرتى: ميورقة ومنورقة، وهكذا بدأت سيطرة المسلمين على مياه البحر الأبيض المتوسط، فى جزيرة صقلية حتى مضيق جبل طارق، وبات حاكم سبتة - جوليان - محاصرًا، وفى الوقت نفسه ساءت العلاقة بينه وبين حاكم إسبانيا، وهذا ما دفعه إلى إرسال كتاب إلى موسى يعرض عليه الصلح وتسليم سبتة، ويغريه بفتح إسبانيا.

تجاوب موسى واستئذان الخليفة:

وبعد لقاءات واستشارات ودراسات، عقد موسى العزم على المغامرة، التى كان لها فيما بعد أكبر دوىّ فى التاريخ. واستأذن الخليفة الوليد بن عبد الملك فى الإقدام على الفتح، فأذن له

(١) البداية والنهاية، ج ٩، ص ١٩٥.

بشرط أن لا يغرِّرَ بالمسلمين، وأن يستطلع أولاً، ويتيقن. فجهز حملة بقيادة طريف بن مالك قوامها خمسمائة جندي، مائة فارس وأربعمائة راجل، حملتهم سفن جوليان إلى العَدْوة الثانية، عند الجزيرة الخضراء التي عرفت فيما بعد بجزيرة طريف.

فأغار على ما جاورها، وأصاب سبيًا ومالاً كثيرًا ورجع سالمًا، وكان ذلك في شهر رمضان سنة إحدى وتسعين للهجرة، وعكف موسى بعد ذلك يعدّ العدة للفتح.

حملة طارق بن زياد:

كان طارق بن زياد مولى لموسى، ومن أعظم قادته وأبرزهم، فجهزه موسى ووصاه، وودعه عند الشاطئ في احتفال مهيب، وكان ذلك في شهر رجب سنة اثنتين وتسعين للهجرة.

واستعان أيضا بسفن جوليان، وكان قوام حملته بضعة آلاف من الجند، اجتازوا المضيق الذي عرف فيما بعد - وإلى يومنا هذا - بمضيق جبل طارق.

وأخذ طارق في التوسع عند الساحل، ففتح كثيرًا من المدن، وبسط سلطانه عليها، وأنذر به رودريك حاكم البلاد، فزحف للقائه بجيش عَرَمْرَم، فاستمد طارق سيده وقائده موسى، فأمدَّه بعدة آلاف من الجند بقيادة طريف بن مالك.

وعند وادي لكة التقى جيش طارق بجيش رودريك، وكان ذلك في الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة اثنتين وتسعين للهجرة - دارت المعركة بين الطرفين ثمانية أيام. وكانت هي المعركة الحاسمة في فتح الأندلس؛ إذ انهزم رودريك هزيمة ساحقة، وانطلق طارق على أثرها ينساح بجنده في طول البلاد وعرضها، ظافرًا منتصرًا، لا تقف في وجهه مدينة ولا حصن، وتعدى قرطبة.

عندئذ توجس في نفسه خيفة على جند المسلمين، وكان قد أمر موسى أن لا يتعدى قرطبة، فعبر هو البحر بقواته، وكان ذلك في رمضان سنة ثلاث وتسعين (٩٣)هـ.

وكان نزول موسى إلى الأندلس، تدعيما للفتح وترصينه، وليخول بون وقوع طائفة أكسيدة على المسلمين من جراء تفلفل طارق في الأندلس، تغلغلا لا يتناسب مع ما لديه من الرجال.

ترك موسى خط سير طارق واتخذ سبيلاً آخر، حاميًا لجناحه حتى دخل أشبيلية، وهي في حينها أعظم مدن الأندلس على الإطلاق، بعد معاناة حصار استمر أشهرا.

لقاء موسى وطارق:

بعد فتح أشْبيليَّة تابع موسى سيره إلى طُلَيْطلَة، فالتقى طارقًا، وكان قد أمره بموافاته، وكان اللقاء عند مكان يعرف بتايْتر. نزل طارق بين يدَيه، وعظمه، فعاتبه موسى على توغله، ومخالفة أوامره، فاعتذر له طارق. وقال: إنما أنا مولاك، وقائد من قوادك، ما فتحته وأصبته فإنما هو منسوب إليك. وما زال يتلطف إليه حتى رضي الله عنه، وأمَّره على مقدمته، وسار موسى خلفه.

ومضى جيش المسلمين يجوب البلاد، ويفتحها واحدة بعد الأخرى، ويؤكد سلطانه عليها، وكان عبد العزيز بن موسى أحد قادة الفتح، وقد عرف عنه التقوى والعبادة، والجرأة والإقدام، فكان سندًا قويًا لأبيه فى كثير من المواقع والمقاطعات.

فتنة مغيث الرومي:

وكان مع موسى مَوْلًى للخليفة الوليد بن عبد الملك يُدعى مُغيثًا، رومى الأصل، وكان أحد القادة الفرعيين، وجنديًا نابهًا، ولكنه كان يحمل فى قلبه حقدًا وحسدًا على موسى وطارق معا.

فلما تم لموسى وطارق إخضاع الكثير من البلاد التى باتت تدين بالولاء لهما، وقد حصلا كثيرًا من الغنائم والسَّبايا والتحف. أرسل موسى بعضها إلى الخليفة فى دمشق، مع بيان مفصل عما تم له من الفتح، مع مغيث هذا، وبدلاً من أن يؤدى مغيث شهادة صدق فى حق موسى وطارق، ملأ قلب سيده الوليد غيظًا وغضبًا، وأنذر بأن موسى فى صدد خلع الطاعة ونبذها، والتفرد بحكم الأندلس.

ولا نعدو الحقيقة إذ قلنا إن مغيثًا - بالإضافة إلى حقده على موسى - كان قد استفاقت فى قلبه عنصريته الرومية، وهو يرى جزءًا من بلاد الروم - إسبانيا - تفتح تحت سنابك خيل المسلمين، فأراد الثأر.

التوغل.. إلى أين؟

وما زال موسى يتوغل فى البلاد حتى كان قاب قوسين أو أدنى من الحدود الفرنسية، واشتد ذلك على الجند؛ إذ لم يعرفوا طعمًا للراحة والاستكانة، فهم فى جهاد دائم متواصل، لا يفتحون بلدًا أو إقليمًا إلا نهض بهم قائدهم موسى إلى بلد آخر، ولعلهم كانوا يودون الاسترخاء والاكتفاء. فقالوا: أين تذهب بنا؟ حسبنا ما فى أيدينا.

وكان موسى قد قال حين دخل إفريقية، وذكر سلفه عقبة بن نافع رضى الله عنه: لقد غرَّر بنفسه حين توغل فى بلاد العدو، والعدو عن يمينه وشماله، وأمامه وخلفه، أمَا كان معه رجل رشيد؟

تذكر هذا القول حَنَش الصنعانى رضى الله عنه، فقام إلى عنان فرس موسى وأمسك به، وقد رأى توغل موسى فى البلاد الإسبانية، وقال له: أيها الأمير إنى سمعتك وأنت تذكر عقبة بن نافع تقول: لقد غرر بنفسه وبمن معه، أما كان معه رجل رشيد؟! وأنا رشيدك اليوم. أين تذهب؟ تريد أن تخرج من الدنيا، أو تلتمس أكثر مما آتاك الله عز وجل، وأعرض مما فتح الله عليك وردَّخ لك؟ إنى سمعت من الناس ما لم تسمع، وقد ملأوا أيديهم وأحبوا الدعة. فضحك موسى، وقال لحنش: أرشدك الله، وكثر فى المسلمين أمثالك. وارتد عن مواصلة الزحف وهو يقول: أما والله لو انقادوا إلىَّ لقُدْتُهم إلى روميَّةَ، ثم يفتحها الله على يدىَّ إن شاء الله.

وفى الوقت نفسه عاد مغيث الرومى من دمشق يحمل إلى موسى أمر الخليفة الوليد بالتوقف

عن متابعة الزحف، والاكتفاء بما حصلوا من الفتح، وموافاته إلى دمشق مع مولاه طارق بن زياد.

غفر الله لحنش والوليد؛ فقد كانت انطلاقة موسى وطارق سهمًا من سهام الله تعالى فى قلب العدو، لو قدر له أن يمضى لأصاب كبد أوروبا، وتغير مجرى التاريخ، ولكن قدر الله، وما شاء فعل.

فى دمشق:

ها هو موسى بن نصير اللخمى، الشيخ الذى جاوز منتصف العقد السابع من عمره، ومعه مولاه طارق بن زياد ومغيث الرومى يدخلون دمشق على الخليفة الوليد بن عبد الملك، وهو فى مرض موته.

ولم يعرف تاريخ الفتح الإسلامى قائدًا يحمل إلى دار الخلافة ما حمل موسى معه من آلاف السبايا، والأسرى، والأموال والكنوز، حتى أرجف بذلك المؤرخون وبالغوا.

وسمع الشيخ المجاهد، أو شيخ المجاهدين، مديحًا ولومًا، استحسانًا وتقريعًا فى آن واحد. مدحه الناس واستحسنوا جهاده، ولامه الخليفة وقرعه على مخالفة أمره.

سليمان بن عبد الملك وموسى بن نصير:

وتولى الخلافة سليمان بن عبد الملك بعد أخيه الوليد، وترددت الحال بين سليمان وموسى بين سَخَط ورضا، وغضب وليونة، وتوتر وتودد، وذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن سليمان عامَل موسى بقسوة وإهانة وتحقير. وما كان لسليمان أن يفعل ذلك، فقد عرف عنه التقوى والدين، وأنه مفتاح الخير.

الحج إلى بيت الله الحرام:

فى سنة سبع وتسعين حج سليمان إلى بيت الله الحرام، وكثيراً ما حج من قَبل الخلافة وبعدها، واصطحب معه موسى بن نصير وحمله على ثلاثين نجيبا [١] جهازًا، وخصَّه بحجرة من حجره، وجائزة نفقة[٢].

وفى الطريق عند وادى القرى أدركت موسى المنيةُ، وكان قد بلغ من العمر ثمانية وسبعين عامًا؛ إذ لم تستطيع شيخوخته، وما ألمَّ به من نكبات، وما قاساه من متاعب أن يصمد أمام مشقة السفر، وأسلم الرُّوح . . وأغمض البطل عينيه. ولكن التاريخ لم يغمض عينيه عن مآثره الخالدة.

ذكروا أن موسى دخل يوما على سليمان، وعنده الناس، فلما رآه سليمان قال لمن حوله، بصوت خفيض هامس: ذهب سلطان الشيخ. وأبصره موسى حين تكلم، ولكنه لم يفهم؛ إذ لم

(١) النجائب: الإبل المختارة المميزة.

(٢) الإمامة والسياسة، ج ٢، ص ١٠١.

يسمع ، لكنه بعد أن سلَّم قال : يا أمير المؤمنين رأيتك لمَّا نظرتَنى داخلاً تكلمتَ بكلام ظننتُ عنيتَنى به .

قال سليمان نعم . قلتُ : ذهب سلطان الشيخ . فقال موسى : أما والله لئن ذهب سلطان الشيخ لقد أثَّر الله به فى دينه أثرًا حسنًا ، ولقد كنت طويل الجهاد فى الله ، حريصًا على إظهار دين الله ، حتى أظهره الله ، وكنت ممَّن أتمَّ الله به موعده لنبيه . ولئن أدبر معك فقد كان مع آبائك ناضر الغصن ، ميمون الطائر . فقال سليمان : هو ذاك . فقال موسى فى أنفة وعزة : هو ذاك . فما زال سليمان يرددها ، وكذلك موسى فى تحدٍّ ، ثم سكت سليمان .

رحم الله تعالى التابعى الجليل ورضى عن شيخ المجاهدين ، الذى أكَّد الفتح الإسلامى فى المغرب ، وفتح الأندلس ، وأكد فيها سلطان المسلمين ، على مدى قرون من الزمان . . موسى ابن نصير ، وأنزله منازل الأبرار الصالحين .

* * *

عمر بن عبد العزيز

رضى الله عنه

(٦١-١٠١هـ)

«لا أدرى قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز»

أحمد بن حنبل

«ما صليت وراء إمام أشبه بصلاة رسول الله ﷺ من هذا الفتى

- يعنى عمر بن عبد العزيز - حين كان على المدينة»

أنس بن مالك

«أعجب ممَّن عرف الله فعصاه، ومن عرف الشيطان

فأطاعه، ومن عرف الدنيا فركن إليها»

عمر بن عبد العزيز

«إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر، تسر قليلاً وتحزن كثيراً»

عمر بن عبد العزيز

مواقفه كثيرة، والعبر منها وفيرة، والدروس حجة، لمن أراد أن يتذكر أو أراد نشوراً. لطالب العلم وللعالم، ولطالب السلطان والحاكم، وللعابد الزاهد الصائم القائم، منذ أن كان فتى يافعا إلى أن فارق الدنيا مرضيّا راضيًا.

كان قدوة في العلم وإمامًا، وخليفة أسوة لكل مسئول وحاكم، عدلاً وإمامًا، وعابدًا زاهدًا، يرجو رحمة ربه في جنة حسنت مستقرا ومقامًا، فخر تاج الخلفاء الأمويين، وخامس الراشدين عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه وأرضاه.

الفتى العمرى:

على عادته في حرصه وعدله ورعايته لرعيته، كان الفاروق ـ رضى الله عنه ـ ذات ليلة يطوف أحياء المدينة، يتفقد شئون الناس ويتحسس، فمر ببيت سمع منه صوت امرأة تقول لابنتها:

ـ يا بنية لقد قارب وقت الفجر، فقومى امزجى اللبن بالماء. فردت الابنة: ألم يأتيك ـ يا أماه ـ نهى أمير المؤمنين عمر عن ذلك؟! فقالت الأم: نعم، ولكن كيف يدرى عمر؟ قالت البنت: إن كان عمر لا يدرى فإن رب عمر يدرى. فترك عمر ـ رضى الله عنه ـ علامة على جدار البيت، ثم أمر ابنه عاصمًا أن يأتى هذا البيت، ويخطب الفتاة إلى نفسه ويتزوجها؛ فإنها ممن يخشون ربهم بالغيب. ففعل عاصم ما أمر به، فولدت له تلك الفتاةُ فتاةً سُميت ليلى، تزوجها عبد العزيز بن مروان، فكان الفتى العمرى من صلبه وترائبها. جيد الوصل والتواصل بجده الفاروق يفخر به ويعتز، ويحذو حذوه، ويترسم خطاه.

ربيب المدينة المنورة:

ولد عمر بن عبد العزيز في المدينة المنورة سنة إحدى وستين للهجرة، وفي سنة خمس وستين، تولى والده عبد العزيز بن مروان على مصر بأمر من أبيه مروان بن الحكم، فلما أراد الانتقال إليها من دمشق مع أهله قال له ولده عمر:

يا أبه، أوغير ذلك؛ لعله يكون أنفع لى ولك؟ قال: ما هو؟ قال عمر: ترحِّلنى إلى المدينة فأقعد إلى فقهائها وأتأدب بآدابهم. وكان عمر وهو في طفولته هذه ميالاً إلى العلم، شغوفًا به، ولم يرد له والده غير ذلك، فرضى بما قال له، وأشار عليه. فأرسله إلى المدينة، وأرسل معه الخدام وكل ما يلزم، وحرص على متابعة أخباره، وكأنه إلى جانبه وفي حضرته.

وفي المسجد النبوى الشريف كان محط رحال الطالب الصغير النابه، المتعطش الظامئ إلى مهد عظمة الإسلام، فأقبل على الحلقات يجالس كبار العلماء من الصحابة والتابعين، يعب من فيض علمهم ما وسعه، ويتجنب معاشرة الشباب. وكان مؤدبه الذى عهد إليه به هو صالح بن كيسان، وكان من جلة التابعين علما وفضلا.

وكان عمر في تلك المرحلة السنية من عمره نزّاعا إلى الدلال والترف؛ بحكم نشأته؛ فهو أمير من أمراء بنى أمية، الحكام.

وقد حدث ذات يوم أن تأخر عمر عن صلاة الجماعة، فسأله مؤدبه صالح بن كيسان: ما

شغلك؟ فقال: كانت مرجلي[١] تسكن شعري.

فقال له: قدَّمتَ ذلك على الصلاة؟

ثم إن صالحًا كتب إلى عبد العزيز يخبره بذلك، فبعث رسولاً من عنده إلى عمر ينذره ويحذره، ويتوعَّده بالقطيعة، ولم يكتب له. وعندئذ حلق عمر رأسه، واستغنى عن الترجيل.

وما زال ينمو ويشب ويتعلم، ويتفقه، حتى غدا واحداً من كبار علماء التابعين، يشار إليه بالبنان، ويسأل فى القضايا والأحكام، ومن ثم أحب المدينة حبًا ملك عليه كل مشاعره وأحاسيسه، لا يريم عنها، ولا تهفو قلبه إلى غيرها، ما يكاد ينتقل إلى مصر حيث أبوه، أو إلى دمشق حيث عمه عبد الملك، حتى يعاوده الحنين إلى المدينة، فيأتيها. وكان المسجد النبوى الشريف ـ على الدوام ـ قبلته ومهوى فؤاده الزاخر بالذكريات الخالدات والحلقات.

بنت الخليفة:

هذا الشبوب الظاهر الطاهر جعل عمر مميزاً لدى الخاصة والعامة من الناس، ومقربا إلى عمه الخليفة عبد الملك بن مروان، فصاهره على ابنته فاطمة بنت عبد الملك، وكانت من ربات الخلق والدين؛ وذلك بعد وفاة أبيه عبد العزيز.

وفيها يقول الشاعر:

بنت الخليفة، والخليفه جدها[٢]   أخت الخلائف[٣] والخليفه[٤] زوجها

وكان عبد الملك قد استقدمه، وخلطه بأولاده، ورعاه حق الرعاية، إعجابًا منه به، واستحقاقًا لعلمه وفضله.

يحكى أن عمر ـ رضى الله عنه ـ كان شديد الاعتناء بمظهره، لا يرتدى إلا فاخر الثياب، وأغلاها ثمنا، يؤتى له بالثوب ذى المائة درهم فيقول لمشتريه: ما أخشنه! ويتطيب بأزكى العطور رائحة، وأشدها نفاذا، وفى مشيته اختيال، ظاهر، وهذا ما أخذ عليه وحسد من أجله. وينفق فى سبيل ذلك مالاً طائلاً؛ إذ ورث عن أبيه ثروة هائلة من الأقوال والمتاع والدواب، هو وإخوته.

دخل يومًا على عمه الخليفة عبد الملك وهو يتجانف[٥] فى مشيته، على غير عادته، فقال له: يا عمر، ما لك تمشى غير مشيتك؟! فقال: إن فيَّ جرحًا. قال له عمه: وأين هو من جسدك؟ قال: بين الرانقة والصغن (يعنى: بين طرف الإلية وجلدة الخصية). فأدرك عبد الملك المعنى المراد. فتبسم إعجابًا، ثم التفت إلى رئيس حرسه وشرطته ومستشاره روح بن زنباع[٦] وقال: بالله لو سئل رجل من قومك عن هذا ما أجاب بمثل هذا الجواب.

---

(١) المرجل: الماشطة.   (٢) جدها مروان بن الحكم أول الخلفاء الأمويين المروانين.

(٣) الخلائف: الوليد وسليمان ويزيد وهشام.

(٤) زوجها: عمر بن عبد العزيز.   (٥) يتجانف: يميل.

(٦) كان أحد أمراء الشام، ومن خاصة عبد الملك.

الوالى على المدينة:

وفى عام ست وثمانين ولاه الوليد بن عبد الملك - الخليفة بعد أبيه - الحجاز : مكة والمدينة والطائف، واستمر على هذه الولاية إلى سنة ثلاث وتسعين، فاتخذ المدينة قاعدة له، وظهرت فى تلك الفترة مقدرته وكفاءته فى الإدارة والحكم.

يقول ابن كثير(١) : وقد كان فى هذه المدة من أحسن الناس معاشرة، وأعدلهم سيرة، كان إذا وقع له أمر مشكل جمع فقهاء المدينة عليه، وقد عين عشرة منهم، وكان لا يقطع أمرًا دونهم، أو من حضر منهم، وهم : عروة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبه وأبو بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام وأبو بكر بن سليمان بن خيثمة وسليمان بن يسار والقاسم بن محمد وسالم بن عبدالله وعبد الله بن عامر بن ربيعة وخارجة بن زيد بن ثابت. وكان لا يخرج عن قول سعيد بن المسيب. وقد كان ابن المسيب لا يأتى أحدًا من الخلفاء، وكان يأتى إلى عمر بن عبد العزيز، وهو بالمدينة.

وأجرى عمر - رضى الله عنه - توسعة بالمسجد النبوى الشريف، عن أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك، وأدخل فيه حجرات النبى ﷺ.

وفى مجالس العلم التى كان يحرص عليها ظهر تفوقه. قال مجاهد: أتينا عمر نعلمه، فما برحنا حتى تعلمنا منه. وقال ميمون بن مهران: كانت العلماء عند عمر بن عبد العزيز تلامذة. وقال: كان عمر بن عبد العزيز معلم العلماء. وقال عبد الله بن طاووس(٢): «رأيت أبى تواقف هو وعمر بن عبد العزيز من بعد صلاة العشاء حتى أصبحنا، فلما افترقا قلت: يا أبه، من هذا الرجل؟ قال: هذا عمر بن عبد العزيز، وهو من صالحى هذا البيت - يعنى بنى أمية.

العزل عن الإمارة:

وكان عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - يكره سيرة الحجاج بن يوسف الثقفى فى الناس، بسبب ظلمه واستبداده وغشمه، فكتب إلى الخليفه الوليد بن عبد الملك يحرضه على الحجاج، ويخبره بما عليه أهل العراق من شظف العيش وقسوة الحاكم. فلما علم الحجاج بذل، بعث إلى الخليفة كتابًا فيه معارضة لمقولة عمر عنه، وتحدث فيه عن ضعف عمر فى الضبط والربط، وإحكام القبضة على البلاد والعباد، فأخذ الوليد بقول الحجاج، وعزل عمر، واستقدمه إلى الشام.

وعندما أصبح عمر خارج المدينة التفت إليها وبكى، لا على العزل عن الإمارة ولكن على فراقه للبلد الذى أحبه وعشقه، فسأله مولاه مزاحم عن ذلك، فقال: يا مزاحم، نخشى أن نكون ممن نفت المدينةُ. يشير بذلك إلى حديث رسول الله ﷺ: إن المدينة لتنفى خبثها كما ينفى الكير خبث الحديد، وينصع طيبها.

---

(١) البداية والنهاية، ج٩، ص ٢١٩.
(٢) طاووس بن كيسان.

ونزل - رضى الله عنه - بأهله ومن معه من حاشيته فى مكان يسمى السُّوَيْداء، وهى أرض اشتراها سابقًا من ماله، واستنبط فيها عين ماء، وابتغى قصراً، وأقام بعض الوقت، ثم غادرها إلى الشام.

مع الوليد بن عبد الملك:

قدم دمشق، ونزل فى دار لأبيه كانت له، ثم أتى ابن عمه الوليد مسلِّمًا، فرحب به الوليد وجعله من خاصته، ولم يُبد له جفاءً أو سخطًا، فكان ممن يحضرون إلى ديوان الخليفة دائما، لا يغيب ولا يتأخر، وكان الوليد كثيرا ما يستشيره ويسأله، ويعمل وفق مشورته ورأيه.

وحدث عمر عن ذلك، فقال: بعث إلى الوليد ذات ساعة من الظهيرة، فدخلت عليه فإذا هو عابس، فأشار إلىَّ أن أجلس، فجلست، فقال: ما تقول فيمن يسب الخلفاء؟ أيقتل؟ فسكتُّ، ثم عاد فسكت، ثم عاد، فقلت: أَقَتَلَ يا أمير المؤمنين؟ قال: لا، ولكن سبَّ، فقلت: ينكَّل به. فغضب وانصرف إلى أهله. وقال لى ابن الريان - السياف -: اذهب، فخرجت من عنده، وما تهب ريح إلا وأنا أظن أنه رسول يردنى إليه.

وعلى هذا النهج من قول الحق، والصدع به كانت مسيرة عمر رضى الله عنه، لا يخشى فى ذلك لومة لائم، ولا يرهب سلطانًا. وعلى هذا النهج أيضا استمرت العلاقة بين الوليد وعمر بين التودد والتردد، والقوة والفتور؛ إذ كان عمر - رضى الله عنه - فضلاً عن قرابته ومصاهرته، صاحب مقام مرموق، ومكانة عالية، وكلمة مسموعة، لدى العامة والخاصة.

ومع سليمان بن عبد الملك:

كانت العلاقة بين سليمان وعمر أشد وثاقا، وأقرب رُحما؛ فعندما تولى سليمان الخلافة بعد أخيه الوليد جعل عمر عنده مقام الوزير الأول، فى كل شأن وأمر، سواءً فى الإدارة والحكم، أو فى القضاء، أو فى العلم والفتوى، وكان سليمان يأنس كثيراً لما يقوله عمر ويعجب به.

يروى عثمان بن زبَرَ فيقول: أقبل سليمان بن عبد الملك وهو أمير المؤمنين، ومعه عمر بن عبد العزيز على معسكر لسليمان، وفيه الخيول والجمال والبغال والأثقال والرجال. فقال سليمان: ما تقول يا عمر فى هذا؟ فقال: أرى دنيا يأكل بعضها بعضا، وأنت المسؤول عن ذلك كله. فلما اقتربوا من المعسكر إذا غراب قد أخذ لقمه فى فيه من فسطاط سليمان وهو طائر بها، ونعب نعبه. فقال له سليمان: ما هذا يا عمر؟ فقال: لا أدرى. فقال سليمان: ما ظنك أنه يقول؟ قال كأنه يقول: من أين جاءت؟ وأين يذهب بها؟ فقال له سليمان: ما أعجبك!

فقال عمر: أعجب ممَّن عرف الله فعصاه، ومن عرف الشيطان فأطاعه، ومن عرف الدنيا فركن إليها.

وفى ذات حج(١) وقف سليمان وعمر بعرفة، ورأى سليمان كثرة الناس، فقال له عمر: هؤلاء رعيتك يا أمير المؤمنين، وأنت مسئول عنهم غداً، وهم خصماؤك يوم القيامة. فبكى

(١) سنة سبع وتسعين من الهجرة.

سليمان، وقال: بالله نستعين.

وأصابهم برق ورعد ومطر غزير ففزع سليمان وضحك عمر، فقال له سليمان: أتضحك؟! فقال له عمر: نعم، هذه آثار رحمته ونحن فى هذا الحال، فكيف بآثار غضبه وعقابه ونحن فى تلك الحال؟

ومرة تقاولا، فاشتد سليمان واحتد، وقال لعمر فى معرض كلامه: كذبت. فغضب عمر وقال: تقول كذبت! والله ما كذبت منذ عرفت أن الكذب يضر أهله، ثم هجره عمر، وجفا مجلسه. وعزم الرحيل إلى مصر، فعرف سليمان بذلك، فاسترضاه، وبعث إليه فصالحه، فلما حضر إليه عانقه، وقال: ما عرض لى أمر يهمنى إلا خطرتَ على بالى، وعادت المياه إلى مجاريها.

الخليفة من غير طلب ولا سعى ولا علم:

يحدثنا التابعى الجليل رجاء بن حيوة - رضى الله عنه - عن ذلك فيقول: استشارنى سليمان بن عبد الملك - وهو مريض - أن يولى ابنًا صغيرًا له، لم يبلغ الحكم، فقلت: إن مما يحفظ الخليفة فى قبره أن يولى على المسلمين الرجل الصالح. ثم شاورنى فى ولاية ابنه داود، فقلت إنه غائب عنك بالقسطنطينية، ولا تدرى أحى هو أو ميت. فقال: من ترى؟ فقلت: رأيك يا أمير المؤمنين. فقال: فكيف ترى فى عمر بن عبد العزيز؟ فقلت: أعلمه - والله - خيرًا فاضلاً مسلمًا، يحب الخير وأهله، ولكن أتخوف عليه إخوتك أن لا يرضوا بذلك. فقال: هو والله على ذلك.

وأشار رجاءُ أن يجعل يزيد بن عبد الملك ولى العهد من بعد عمر بن عبد العزيز؛ ليرضى بذلك بنو مروان، فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عبد الله سليمان بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز، إنى قد وليته الخلافة من بعدى، ومن بعده يزيد بن عبد الملك، فاستمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله، ولا تختلفوا؛ فيطمع فيكم عدوكم.

وختم الكتاب، وأرسل إلى كعب بن حامد العبسى، صاحب الشرطة، فقال: اجمع أهل بيتى، فمرهم فليبايعوا على ما فى هذا الكتاب مختومًا، فمن أبى منهم فاضرب عنقه.

فاجتمعوا ودخل رجال منهم فسلموا على أمير المؤمنين، فقال لهم: هذا الكتاب عهدى إليكم، فاستمعوا له وأطيعوا وبايعوا من وليت فيه. فبايَعوا لذلك رجلاً رجلاً. فلما تفرقوا جاءنى عمر بن عبد العزيز فقال: أنشدك الله حرمتى ومودتى، إلا أعلمتنى إذا كان كتب لى ذلك حتى أستعفيه الآن، قبل أن يأتى حال، لا أقدر فيها على ما أقدر عليه الساعة. فقلت: والله لا أخبرك حرفًا واحدًا.

ودخلت على سليمان فإذا هو يموت، فجعلت إذا أخذتْه السَّكْرة من سكرات الموت أحرِّفه إلى القبلة، فإذا أفاق يقول: لم يأت لذلك بعد يا رجاء. فلما كانت الثالثة قال: منَ الآنَ يا رجاءُ إن كنت تريد شيئا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فحَرفته إلى القبلة، فمات، رحمه الله.

فغطيته بقطيفة خضراء، وأغلقت الباب عليه، وأرسلت إلى كعب بن حامد، صاحب الشرطة، فجمع الناس في مسجد دابق[1]، فقلت: بايعوا لمن في هذا الكتاب. فقالوا: قد بايعْنا، فقلت: بايعوا ثانيةً. ففعلوا. ثم قلت: قوموا إلى صاحبكم؛ فقد مات.

وقرأت الكتاب عليهم، فلما انتهيت إلى ذكر عمر بن عبد العزيز تغيرت وجوه بني مروان، فلما قرأت: وأن يزيد بن عبد الملك بعده، تراحبوا بعض الشيء.

ونادى هشام بن عبد الملك: لا نبايعه أبدًا. فقلت: أضرب عنقك والله، قم فبايع.

ونهض الناس إلى عمر بن عبد العزيز - وهو في مؤخر المسجد، فلما تحقق ذلك قال: إنا لله وإنا إليه راجعون. ولم تحمله رجلاه، حتى أخذوا بضبعيْه[2]، فأصعدوه المنبر، فسكت حينًا. ثم قام فخطب الناس خطبة بليغة، وبايعوه، فكان فيما قال في خُطبته: أيها الناس، إني لست بمبتدع، ولكني متبع، وإن خولكم من الأمصار والمدن إن أطاعوا كما أطعتم فأنا واليكم، وإن هم أبَوا فلست لكم بوال[3].

وكان مما قال أيضا: يا أيها الناس إن لي نفسا تواقة، لا تُعطى شيئا إلا قامت إلى ما هو أعلى منه، وإني لما أعطيت الخلافة تاقت نفسي إلى ما هو أعلى منها، وهي الجنة، فأعيوني عليها يرحمكم الله.

أول الغيث:

وقُدِّمت لعمر - رضي الله عنه - مراكب الخلافة، وهي الجياد المُطَهَّمة، ففزع عنها، وردها، وركب دابّته. وحين عاد إلى دمشق ذهبوا به إلى دار الخلافة، فأبى أن يدخلها حتى تفرغ من آل بيت سليمان. وقصد إلى داره.

وبدأت عملية الإصلاح الكبرى.. أمَر ببَيع مراكب الخلافة، وكانت من أثمن الجياد، وجعل أثمانها في بيت المال، وخيَّر زوجته فاطمة بنت عبد الملك بين أن تقيم معه على أنه لا فراغ له إليها، وبين أن تلحق بأهلها، فبكت، وبكى جواريها لبكائها، ثم اختارت البقاء معه.

وبدا مهمومًا مغمومًا، فقال له مولاه: مالك هكذا مغتما مهمومًا، وليس هذا بوقت هذا؟ فقال له: ويحك وما لي لا أغتم، وليس أحد من أهل المشارق والمغارب من هذه الأمة إلا وهو يطالبني بحقه أن أرده إليه، كتب إليَّ في ذلك، أو لم يكتب، طلبه مني أو لم يطلب. وأنشد:

قد جاء شغل شاغل وعدلت عن طرق السلامه
ذهب الفراغ فلا فرا غ لنا إلى يوم القيامه

وكانت أول خطبة له في المسجد الجامع في دمشق، قال فيها: أيها الناس، من صحبنا فليصحبْنا بخمس وإلا فليفارقنا: يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها، ويعيننا على الخير

(١) مكان عند حلب وقنّسرين في أقصى شمال سوريا.

(٢) بضبعيه: بساعديه.

(٣) يريد - رضي الله عنه - أن تأتيه البيعة أيضا من الأمصار.

بجهده، ويدلنا من الخير على ما لا نهتدى إليه، ولا يغتابن عندنا أحدًا، ولا يعرض فيما لا يعنيه.

وبهذا وضع - رضى الله عنه - القواعد الأساسية فى الأمة، مستلهمًا نهج السلف الصالح من الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم. فكان أن قال سفيان الثورى: الخلفاء خمسة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهم.

وعليه فإن تسميته - رضى الله عنه - بخامس الراشدين لم تأت من فراغ. وأجمع العلماء قاطبة على أنه من أئمة العدل، وأحد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين.

ولقد كانت إصلاحاته متوزعة الجوانب، متعددة الأطراف، وعبئًا جسيمًا، وثقلا عظيما، قام بها خير قيام، مستعينًا بالله تعالى.

فى المال العام:

قام برد المظالم؛ إذ أتاح الفرصة لكل مظلوم سطت عليه يد السلطة - على حين غفلة - أن يبدى شكواه ومظلمته، فينتصف له، ويرد إليه حقه.

وكذلك فعل مع الولاة على الأمصار، يحاسبهم على كل كبيرة وصغيرة، حتى ولو كانت درهما، حتى إنه - رضى الله عنه - رد بعض الحقوق الخاصة به إلى بيت المال.

روى الأجمعى فقال: جمع - عمر - يوما رءوس الناس فخطبهم، فقال: إن فدْكًا[١] كانت بيد رسول الله ﷺ يضعها حيث أراه الله، ثم وليها أبو بكر وعمر كذلك، ثم إن مروان أقطعها، فحصل لى منها نصيب، ووهب لى الوليد وسليمان نصيبهما، ولم يكن من مالى شىء أرده أغلى منها، وقد رددتها فى بيت المال على ما كانت عليه فى زمان رسول الله ﷺ. ثم أمر بأموال جماعة من بنى أمية، فردها إلى بيت المال، وسماها: أموال المظالم، فاستشفعوا إليه بالناس، وتوسلوا إليه بعمته فاطمة بنت مروان، فلم ينجع فيه شىء، وقال لهم: لَتَدَعُنِّى وإلا ذهبت إلى مكة، فنزلت عن هذا الأمر لأحق الناس به، والله لو أقمت فيكم خمسين عاما ما أقمت فيكم إلا ما أريد من العدل.

يقول ابن كثير - رحمه الله[٢]: وقد اجتهد - رحمه الله - فى مدة ولايته - مع قصرها [٣]- حتى رد المظالم، وصرف إلى كل ذى حق حقه. وكان مناديه فى كل يوم ينادى: أين الغارمون؟ أين الناكحون؟ أين المساكين؟ أين اليتامى؟ حتى أغنى كل هؤلاء.

فى بيته مع أهله وخلوته:

حدّثت زوجته فاطمة بنت عبد الملك، فقالت: دخلت عليه يوما وهو جالس فى مُصَلاَّه، واضعًا خده على يده، ودموعه تسيل على خديه، فقلت: ما لك؟ فقال: ويحك يا فاطمة! قد

(١) أرض زراعية كانت لرسول الله ﷺ.

(٢) البداية والنهاية، ج٩، ص٢٢٥.

(٣) كانت مدة خلافته ثلاثين شهراً.

وُلِّيت من أمر هذه الأمة ما وليت، فتفكرت فى الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعارى المهجور، واليتيم المكسور، والأرملة الوحيدة، والمظلوم المقهور، والغريب الأسير، والشيخ الكبير، وذى العيال الكثير والمال القليل، وأشباههم فى أقطار الأرض وأطراف البلاد، فعلمت أن ربى - عز وجل - سيسألنى عنهم يوم القيامة، وأن خَصمى دونهم محمد ﷺ، فخشيت أن لا يثبت لى حجة عند خصومته، فرحمت نفسى، فبكيت.

وكان - رحمه الله - قبل الخلافة - تعجبه جارية من جوارى زوجته فاطمة، فسألها مراراً أن تتنازل له عنها إما بيعًا أو هبةً، فكانت تأبى عليه ذلك، فلما ولى ألبستْها وطيَّبتها وأهدتها إليه هبةً، فلما أدخلتها به أعرض عنها، فتعرضت له، فصدف عنها، فقالت له: يا سيدى، فأين ما كان يظهر لى من محبتك إياى؟ فقال لها: والله إن محبتك لباقية كما هى، ولكن لا حاجة لى فى النساء؛ فقد جاءنى أمر شغلنى عنك وعن غيرك. ثم سألها عن أصلها، ومن أين جلبوها؟ فقالت: يا أمير المؤمنين، إن أبى أصاب جناية ببلاد المغرب، فصادره موسى بن نصير، فأخذت فى الجناية، وبعث بى إلى الوليد، فوهبنى الوليد إلى أخته فاطمة زوجتك، فأهدتنى إليك. فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! كدنا - والله - نفتضح ونهلك! ثم أمر بردِّها مكرمة إلى بلادها وأهلها.

وخرج ابن له وهو صغير يلعب مع الغلمان، فشجَّه صبى منهم، فاحتملوا الصبى الذى شج ابنه وجاءوا به إلى عمر، فسمع الجلبة، فخرج إليهم، فإذا مُرَيّئة[1] تقول: إنه ابنى، وإنه يتيم. فقال لها عمر: هونى عليك. ثم قال لها: أله عطاء فى الديوان؟ فقالت: لا، قال: فاكتبوه فى الذرية. فقالت زوجته فاطمة: أتفعل هذا به وقد شج ابنك؟ فعل الله به وفعلَ. . ، المرة الأخرى يشج ابنك ثانية. فقال: ويحك! إنه يتيم، وقد أفزعتموه.

سياسته مع الوُلاة والعمَّال والقادة:

قال ميمون بن مهران رضى الله عنه: ولاّنى عمر بن عبد العزيز عمالةً، ثم قال لى: إذا جاءك كتاب منى على غير الحق فاضرب به الأرض.

وكتب إلى بعض عماله: إذا دعتك قدرتك على الناس إلى مظلمة، فاذكره قدرة الله عليك، ونفاد ما تأتى إليهم، وبقاء ما يأتون إليك.

وكتب إلى عدى بن عدى - أحد ولاته - فقال: إن للإسلام سننًا وفرائض وشرائع، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن أعشْ أبيِّنها لكم ليعملوا بها، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص.

وكتب إلى عامل آخر: عليك بتقوى الله؛ فإنها هى التى لا يقبل غيرها، ولا يرحم إلا أهلها، ولا يثاب إلا عليها، وإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل.

وكلمه رجل يومًا حتى أغضبه، فهمَّ به عمر، ثم أمسك نفسه، ثم قال للرجل: أردت أن

---

(١) مُرَيّئة: تصغير امرأة.

يستفزنى الشيطان بعزة السلطان فأنال منك ما تناله منى غدًا! قم عافاك الله! لا حاجة لنا فى مقاولتك.

وروى أبو حازم الأعرج سلمة بن دينار ـ رضى الله عنه ـ قال: قدمت على أمير المؤمنين وخليفة المسلمين عمر بن عبد العزيز وهو بخُناصرة من أعمال حلب، وكانت قد تقدمت بى السن، وبعد بينى وبين لقائه العهد، فوجدته فى صدر البيت، غير أنى لم أعرفه لتغير حاله عما عهدته عليه يوم كان واليا على المدينة، فرحب بى وقال: ادن منى يا أبا حازم. فلما دنوت منه قلت: ألست أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز؟! قال: بلى. فقلت: ما الذى حل بك؟! ألم يكن ثوبك نقيّا، ووجهك رضيّا، وطعامك شهيّا، ومركبك وطيّا؟! فقلت: بلى. قلت: فما الذى غير ما بك بعد أن غدوت أميراً للمؤمنين تملك الأصفر والأبيض؟ قال: وما الذى تغير بى يا أبا حازم؟ قلت: جسمك الذى نحل، وجلدك الذى اخشوشن، ووجهك الذى اصفر، وعيناك اللتان خبا ومضهما! فبكى، وقال: فكيف لو رأيتنى فى قبرى بعد ثلاث وقد سألت حدقتاى على وجنتى، وتفسخ بطنى وتشقق، وانطلق الدود يرتع فى بدنى؟! إنك لو رأيتنى آنذاك ـ يا أبا حازم ـ لكنت أشد إنكاراً لى من يومك هذا.

ثم رفع بصره إلىَّ وقال: أما تذكر حديثًا كنت حدّثتنى به فى المدينة يا أبا حازم؟ فقلت: لقد حدثتك بأحاديث كثيرة يا أمير المؤمنين، فأيهما تقصد؟ فقال: إنه حديث لأبى هريرة! فقلت: نعم، أذكره يا أمير المؤمنين. فقال: أعده على؛ فإنى أريد أن أسمعه منك ثانية. فقلت: سمعت أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن بين أيديكم عقبة كؤودًا[1] مضرسة لن يَجوزها إلا كل ضامر مهزول». فبكى عمر بكاء شديد، خشيت معه أن تنشق مرارته، ثم كفكف دموعه، والتفت إلى، وقال: فهل تلومنى يا أبا حازم إذا أنا أهزلت نفسى لتلك العقبة رجاء أن أنجو منها، وما أظننى بناج.

كانت خشيته من الله تعالى، لا من الموت؛ فالموت حق، وهو نهاية كل حى. لذا كان يردد قول الشاعر:

تجرد من الدنيا فإنك إنما ... خرجت إلى الدنيا وأنت مجرد

وكثيرا ما كان يتمثل الشعر الذى يذكره بذلك، ومن تمثُّله:

فما تزوّد مما كان يجمعه ... سوى حنوط غداة البين فى خرق
وغير نفحة أعواد تشب له ... وقلّ ذلك من زاد لمنطلق
بأيما بلد كانت منيته ... إن لا يسرْ طائعًا فى قصدها يُسَق
تجهزى بجهاز تبلغين به ... يا نفس قبل الردى، لم تخلقى عبثا

* * *

ولا تكدّى لمن يبقى وتفتقرى ... إن الردى وارث الباقى وما ورثا
واخشى حوادث صرف الدهر عن مهل ... واستيقظى لا تكونى كالذى بحثا

(١) العقبة الكئود: الشاقة الصعود.

عن مــدية كــان منهــا قطع مــدته ... فــوافت الحـرث مـوفـورا كـمـا حُـرثا
لا تأمنى فــجع دهر مــتــرف خــيل ... قــد اســتـوى عنده من طاب أو خـبـثـا
يـا رُبَّ ذى أمل فــيــــه علـى وجل ... أضــحى به آمنًا أمــسى وقــد حــدثا
من كـان حـين تصيب الشـمس جبهتـه ... أو الغـبـار يخـاف الشَّـين والشـعـثـا
ويألف الظل كى تبــقى بشــاشــتــه ... فكيف يسكن يومــا راغــمًــا جــدثا
قــفــراء مــوحــشــة، غــبـراء مظلمـة ... يطيل تحت الثرى من قـصـرها اللبـثـا

الزاهد الورع:

كان دخله فى كل سنة ـ قبل أن يلى الخلافة ـ أربعين ألف دينار، فترك ذلك كله حتى لم يبق له دخل سوى أربعمائة دينار فى كل سنة. وكان حاصله فى خلافته ثلاثمائة درهم(١).

وكان قبل الخلافة يؤتى بالقميص الرفيع اللين جدًا فيقول: ما أحسنه لولا خشونة فيه، فلما ولى الخلافة بعد ذلك كان يلبس القميص الغليظ المرقوع، ولا يغسله حتى يتسخ جدا، ويقول: ما أحسنَه لولا لينه.

وقال ميمون بن مهران رضى الله عنه: خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى القبور(٢)، فقال لى: يا أبا أيوب، هذه قبور آبائى بنى أمية، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى لذتهم وعيشهم، أما تراهم صرعى، قد حلت بهم المَثُلات، واستحكم فيهم البلاد؟! ثم بكى حتى غُشى عليه، ثم أفاق، فقال: انطلقوا بنا؛ فوالله لا أعلم أحدًا أنعم ممن صار إلى هذه القبور، وقد أمن عذاب الله، ينتظر ثواب الله.

وقال مالك بن دينار رضى الله عنه: يقولون مالك بن دينار زاهد، أى زهد عندى؟ إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز، أتته الدنيا فاغرةً فاها فتركها جملةً.

وأهدى له رجل من أهل بيته تفاحًا فاشتمه، ثم رده مع الرسول، وقال له: قل له قد بلغت محلَّها.

فقال له رجل من جلسائه: يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ كان يقبل الهدية، وهذا رجل من أهل بيتك. فقال عمر: إن الهدية كانت لرسول الله ﷺ هدية، فأما نحن فهى لنا رشوة.

وقال رجاء بن حيوة ـ رضى الله عنه: سمرت عند عمر بن عبد العزيز ذات ليلةَ، فعشى(٣) السراج، فقلت: يا أمير المؤمنين، ألا أنبه هذا الغلام يصلحه؟ فقال: لا، دعه ينام، لا أحب أن أجمع عليه عملين. فقلت: أفلا أقوم فأصلحه؟ فقال: لا، ليس من المروءة استخدام الضيف. ثم قام بنفسه فأصلحه، وصب فيه زيتًا ثم جاء. فقال: قمتُ وأنا عمر بن عبد العزيز، ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز.

---

(١) مرتبه من بيت المال.

(٢) قبور بنى أمية.

(٣) ضعف نوره لقله الوقود.

وبلغه أن رجلاً من أصحابه تُوُفِّي، فجاء إلى أهله يعزِّيهم فيه، فلما رأوه داخلاً عليهم، علت أصواتهم بالبكاء والنحيب والصراخ، فقال لهم: مه، إن صاحبكم لم يكن يرزقكم، وإن الذى يرزقكم حى لا يموت، وإن صاحبكم هذا لم يسدّ شيئًا من حفركم، وإنَّما سد حفرة نفسه، ألا وإن لكل امرئ منكم حفرة لا بد - والله - أن يسدها. إن الله - عز وجل - لما خلق الدنيا حكم عليها بالخراب، وعلى أهلها بالفناء، وما امتلأت دار خبرة إلا امتلأت عبرة، ولا اجتمعوا إلا تفرقوا. حتى يكون الله هو الذى يرث الأرض ومن عليها، فمن كان منكم باكيا فليبك على نفسه؛ فإن الذى صار إليه صاحبكم كل الناس يصيرون إليه غداً.

قائم الليل:

مع جهده ليله ونهاره، وحرصه على أمور الناس، ومعالجته لشئون المسلمين فى شتى بقاع الأرض كان - رضى الله عنه - يجفو النوم، يتفكرْ ويتدبر، يتعبد ويتهجد، ولا تفتر قدماه عن الوقوف بين يدى الله تعالى. فإذا ما كل وتعب، وداعبه النعاس خاطب نفسه:

أيقظان أنت اليوم أم أنت نائم ... وكيف يطيق النوم حيران هائم
فلو كنت يقظان الغداة لحرقت ... محاجر عينيك الدموع السَّواهم
أصبحت فى النوم الطويل وقد دنت ... إليك أمور مفظعات عظائم
وتكدح فيما سوف تكره غبّه ... كذلك فى الدنيا تعيش البهائم
فلا أنت فى النُّوَّام يومًا بسالم ... ولا أنت فى الأيقاظ يقظان حازم

الراعى الصالح:

«كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته».

ولا يستغرقنا الحديث عن زهد عمر وتقشفه وخشيته وسلوكه الشخصى، وعبادته؛ فإن هناك جانبًا مهمًا فى خلافته الراشدة رضى الله عنه؛ إذ وضع المسؤولية فى الحكم نصب عينيه، وجعل حديث رسول الله ﷺ ديدنه. ومبدأه فى الإدارة، والضبط والربط.

يروى أنه - رضى الله عنه - حين ولَّى سليمان بن أبى السَّرسى على بلاد الصّغْد فى أواسط آسيا - أرسل إليه كتابا قال فيه: اتخذ فى بلادك فنادق لاستضافة المسلمين، فإذا مر بها أحد منهم فاستضيفوه يومًا وليلةً وأصلحوا شأنه، وتعهَّدوا دوابه. فإذا كان يشكو نصبًا فاستضيفوه يومين وليلتين وواسوه. فإذا كان منقطعًا لا مؤونة عنده ولا دابة تحمله فأعطوه ما يسد حاجته، وأوصلوه إلى بلده. فصدع الوالى لأمر أمير المؤمنين، وأقام الفنادق التى أمره بإعدادها. وسرت أخبارها فى كل مكان، وطفق الناس من مشارق الأرض ومغاربها يتحدثون عنها، ويشيدون بعدل الخليفة وتقواه، وحسن رعايته لرعيته.

وهذا ما دعا وفدا من أهالى سمرقند أن يقدُموا على الوالى شاكين، قائلين: إن سلفك قتيبة ابن مسلم قد دهم بلادنا من غير إنذار، ولم يسلك فى حربنا ما تسلكونه يا معشر المسلمين، فقد عرفناكم تدعون أعداءكم إلى الدخول فى الإسلام، فإن أبَوا دعوتموهم إلى دفع الجزية، وتركتم

لهم حرية معتقدهم، فإن أبوا أعلنتم الحرب. وإنا قد رأينا من عدل خليفتكم ما أغرانا بشكوى جيشكم إليكم، والاستنصار بكم على ما أنزل بنا قائد من قوادكم، فأذن أيها الأمير لوفد منا أن يفد على الخليفة، ويرفع إليه هذه الظلامة، فإن كان لنا حق رُد علينا، وإن لم يكن عدنا من حيث أتينا.

فأذن لهم الوالى، ولم يكن يملك إلا هذا، فأتوا دمشق، ودخلوا على الخليفة عمر بن عبدالعزيز، وعرضوا عليه شكواهم، فاستمع إليهم، ثم كتب إلى واليه سليمان يقول: أما بعد، فإذا جاءك كتابى هذا فأجلسْ إلى أهل سمرقند قاضيًا ينظر فى شكواهم، فإن قُضى لهم فمر جيش المسلمين أن يغادر مدينتهم، وادع المسلمين المقيمين بينهم إلى النزوح عنهم، وعودوا كما كنتم وكانوا، قبل أن يدخل ديارهم قتيبة بن مسلم.

وعاد الوفد إلى سمرقند، ودفعوا الكتاب إلى الوالى سليمان، فلما قرأه عين لهم قاضى القضاة جُميع بن حاضر الناجى. فنظر فى شكواهم، واستقصى خبرهم، واستمع إلى شهادة الجند، فلما تبين له صحة مُدَّعاهم قضى لهم. وعندها أمر الوالى جند المسلمين أن يخلوا لهم بلدهم، ويعودوا إلى معسكراتهم، ثم مناجزتهم بما عُرف من قواعد الحرب فى الإسلام، فلما سمعوا ذلك، قال بعضهم لبعض: ويحكم! لقد خالطتم هؤلاء القوم، وأقمتم معهم، ورأيتم من سيرتهم وعدلهم وصدقهم ما رأيتم، فاستبقوهم عندكم، وطيبوا بصحبتهم ومعاشرتهم. وقال آخرون: بل نكون أول المسلمين، وهذا ما كان.

انصحنى يا أمير المؤمنين:

بينما كان عمر - رضى الله عنه - يطوف أسواق حمص مستطلعًا أحوال الناس، فى البيع والشراء، إذ قام إليه رجل عليه بُرْدان أحمران قطريان وقال: يا أمير المؤمنين لقد سمعت أنك أمرت من كان مظلوما أن يأتيك. فقال: نعم. قال الرجل: وها قد أتاك رجل مظلوم بعيد الدار. فقال له عمر: وأين دارك وأهلك؟ قال: فى عدن. فقال عمر: والله إن مكانك من مكان عمر لبعيد. ثم نزل عن دابته، ووقف أمامه، وقال: ما ظلامتك؟ فقال: ضيعة لى وثب عليها رجل، ممن يلوذون بك وانتزعها منى.

فكتب عمر كتابا إلى واليه على عدن عروة بن محمد يقول فيه: أما بعد، فإذ جاءك كتابى هذا فاستمع بيِّنة حامله، فإن ثبت له حق، فادفع إليه حقه. ثم ختم الكتاب، وناوله للرجل.

فلما هم الرجل بالانصراف قال له عمر: على رسْلك، إنك قد أتيتنا من بلد بعيد، ولا ريب فى أنك قد استزدت فى رحلتك هذه زادًا كثيرًا، وأخلقت ثيابا جديدة، ولعله نفقت لك دابة. ثم حسب ذلك كله، فبلغ أحد عشر دينارًا، فدفعها إليه وقال: أشع ذلك فى الناس حتى لا يتثاقل مظلوم عن رفع ظلامته بعد اليوم، مهما كان بعيد الدار.

على فراش الموت:

ويروى ابن عبد الحكم فى كتابه (سيرة عمر بن عبد العزيز) ما كان من شأن عمر - رضى الله

عنه - مع بنيه وهو على فراش الموت، فيقول: لما حضرت عمرَ الوفاةُ دخل عليه مسلمة بن عبدالملك[1] وقال: إنك - يا أمير المؤمنين - قد فطمت أفواه أولادك عن هذا المال، فحبذا لو أوصيت بهم إليّ، أو إلى من تفضله من أهل بيتك.

فلما انتهى من كلامه قال عمر: أجلسونى، فأجلسوه، فقال: قد سمعت مقالتك يا مسلمة. أما قولك إنى قد فطمت أفواه أولادى عن هذا المال، فإنى والله ما منعتهم حقا هو لهم، ولم أكن لأعطيهم شيئا ليس لهم. وأما قولك: لو أوصيت بهم إلى أو إلى من تفضله من أهل بيتك، فإنما وصيى ووليى منهم الله الذى نزَّل الكتاب بالحق، وهو يتولى الصالحين.

واعلم يا مسلمة، أن أبنائى أحد رجلين: إما رجل صالح متق، فسيغنيه الله من فضله، ويجعل له من أمره مخرجًا، وإما رجل طالح، مكبٌّ على المعاصى، فلن أكون أول من يعينه بالمال على معصية الله تعالى.

ثم قال ادعوا لى بنى. فدعوهم وهم بضعة عشر ولدًا، فلما رآهم ترقرقت عيناه، وقال: بنفسى فتية تركتهم عالةً لا شيء لهم. وبكى بكاء صامتًا. ثم التفت إليهم وقال: أى بنى، إنى قد تركت لكم خيراً كثيراً، فإنكم لا تمرون بأحد من المسلمين، أو أهل ذمتهم، إلا رأوا أن لكم عليهم حقا. يا بنى إن أمامكم خياراً بين أمرين: فإما أن تستغنوا ويدخل أبوكم النار، وإما أن تفتقروا ويدخل الجنة. ولا أحسب إلا أنكم تؤثرون إنقاذ أبيكم من النار على الغنى، ثم نظر إليهم فى رفق، وقال: قوموا عصمكم الله، قوموا رزقكم الله.

فالتفت إليه مسلمة وقال: عندى ما هو خير من ذلك يا أمير المؤمنين. قال عمر: ما هو؟ قال: لدى ثلاثمائة ألف دينار، وإنى أهبها لك، ففرقها عليهم، أو تصدَّق بها إذا شئت. فقال له عمر: أوَخيرٌ من ذلك يا سلمة؟ فقال: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: تردها إلى من أخذت منه؛ فإنها ليست لك بحق. فترقرقت عينا مسلمة وقال: رحمك الله يا أمير المؤمنين حيّا وميتًا؛ فقد ألنت منا قلوبًا قاسية، وذكرتها وقد كانت ناسية، وأبقيت لنا فى الصالحين ذكراً.

السيرة العمرية:

ويطول الحديث، وتتشعب الأقوال، وتكثر الوقائع والأحداث، وفى كل منها موقف عظيم، وعبرة جليلة، تأخذ بالعقول، وتهيم بها الأفئدة، وتستعبر العيون. وتستمطر على روح هذا الخليفة، الحاكم الراعى، شآبيب الرحمة.

---

(١) مسلمة: أحد أمراء بنى أمية، شهامة ومروءة وقيادة جيش، وكان خالاً لأولاد عمر.

مجاهد

(ابن جبير - المكى)

رضى الله عنه

(٢١ - ١٠٣ هـ)

شيخ القراء والمفسرين.

الذهبى

أحد أئمة التابعين والمفسرين، وكان أعلم أهل زمانه بالتفسير.

ابن كثير

رن إبليس أربع رنات:

حين لعن، وحين أهبط، وحين بعث النبى ﷺ، وحين أنزلت ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ وأنزلت بالمدينة.

مجاهد

مجاهد مولى السائب بن أبى السائب

أفسحوا لأمير المؤمنين، أفسحوا لأمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان.

هكذا كان نداء الشرطة أمام معاوية وهو يطوف بالبيت العتيق حاجا، وكانوا يدفعون الناس يمنة ويسرة.

وفى إحدى دفعاتهم سقط السائب بن أبى السائب أرضا، وخشى عليه قائده مجاهد بن جبير أن يقضى تحت الأرجل، فحماه بنفسه.

وكان السائب قد أضر[1]؛ وتقدمت به السن، وضعفت قواه فجعل من مولاه مجاهد بن جبير قائدا، ورفيقا، وصاحبا.

ولكنه - أى السائب - كان يحتفظ بوعيه التام، وحسه المرهف وصلابته فى دينه، وجرأته فى الحق..

فصرخ فى وجه الشرط، وفى وجه معاوية يقول: هيه يا معاوية، أجئتنا بأوباش الشام يصرعوننا حول البيت؟ أما والله لقد أردتُ أن أتزوج أمك[2].

فوقف معاوية عند رأس السائب وساعده على النهوض، وقال: ليتك فعلت، فجاءت بمثل أبى السائب (يعنى ولده عبدالله بن السائب بن أبى السائب، قارئ أهل مكة.

والسائب هذا، كان شريكا لرسول الله ﷺ قبل البعثة. ولم يسلم إلا عام الفتح؛ إذ أتى النبى ﷺ وسلم عليه، وأعلن إسلامه بين يديه، وقال: هل تذكرنى؟ فقال له رسول الله ﷺ: نعم.. ألم تكن شريكى؟

وكان للسائب غلام من الموالى، هو مجاهد بن جبير، فهو - أى مجاهد - قرشى مخزومى بالولاء، واشتهر بكنيته «أبى الحجاج».

التلميذ النجيب

ظهرت مخايل النجابة على مجاهد فى سن مبكرة، وتأججت بين جوانحه رغبته فى طلب العلم؛ وغشى حلقات الدرس فى المسجد النبوى الشريف، يغترف العلوم من رجالاتها وأساتذتها، ولقد أعجب بحلقة ابن عباس رضى الله عنهما إعجابا كبيرا، فكان أكثر جلوسه وسماعه فيها.

ولحظ ابن عباس إقبال الفتى مجاهد على العلم والفهم فخصه بعنايته ورعايته، واتخذه صفيا له، وقربه منه وأدناه؛ حتى قيل إنه كان من أخصاء ابن عباس.

وابن عباس رضى الله عنهما كان من أعلم الصحابة فى التفسير والتأويل، وقد حصل له ذلك ببركة دعاء النبى ﷺ له: «اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل»، «اللهم بارك فيه وانشر منه»، ومن هنا أيضا قيل فيه: كان أعلم أهل زمانه بالتفسير.

مع ابن عمر

صادفه عبدالله بن عمر فى موسم حج، وكان أسن منه، وأرفع حسبا، ومن الصحابة الأجلاء

(١) أضر: عمى.

(٢) أم معاوية هند بنت عتبة، وكانت من أشد الجاهليِّين على الإسلام، ثم أسلمت يوم الفتح وحسن إسلامها.

رضوان الله عليهم فلما رآه مقبلا بادر إليه وأمسك بزمام ناقته يجرها، ولا يرى فى ذلك بأسا، فإن إجلال العلماء إجلال للعلم، تستوى فيه السادة والموالى.

لكن مجاهدا آلمه ذلك وآذاه، فطلب من ابن عمر أن يترك الزمام قائلا: خل عنك.. ودع الزمام، وما يحق لى أن أرضى عما تفعل.

كان ابن عمر قد قارب الثمانين من عمره، ومجاهد فى ريعان الشباب. وابن عمر صحابى له مكانته وفضله؛ ومجاهد مولى من التابعين. هناك فروق كثيرة بين الشخصيتين، يزيد فيها ابن عمر عن مجاهد ويفضله. ولو اختلف الموقف، فكان ابن عمر الراكب، ومجاهد القائد، لم يكن فى ذلك بأس أبدا.

ترى ماذا كان جواب ابن عمر لمجاهد؟

قال: لن أدع الزمام، ولن تنزل أنت، كذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا، وودت أن ابنى سالما وغلامى نافعا يحفظان حفظك.

شغفه بالقرآن

كان مجاهد رضى الله عنه شديد الشغف بالقرآن الكريم. ومن خلال هذه الكُوَّة النورانية كان تعلقه بابن عباس رضى الله عنهما.

ولم يكن شغفه هذا عاديا ومألوفا، بل تجاوزه إلى درجة الاختصاص؛ إذ استغرق كل مشاعره وأحاسيسه، وملك عليه لبه وعقله.

يقول رحمه الله: عرضت القرآن على ابن عباس مرتين أو ثلاث مرات، أقفه عند كل آية وأسأله عنها: كيف نزلت؟ وكيف كانت؟

وهذا العرض يتطلب وقتا، وزمنا طويلا. ويتطلب من المعلم صبرا وسعة معرفة. كما يتطلب من التلميذ جهدا فى الحفظ والإتقان، والاستيعاب. وعليه فقد كان المعلم والتلميذ كلاهما مؤهلين للدور وللمسؤولية.

تنوع العلوم ومصادرها

إلى جانب الاختصاص بالتفسير والتأويل كان مجاهد رضى الله عنه ينوع معارفه، ومصادر هذه المعرفة؛ خصوصا الحديث النبوى الشريف، فقد أخذ عن جملة من علماء الصحابة وحفظ، وروى.

ومن أبرزهم: عبدالله بن عمر وأبى هريرة وعبدالله بن عمرو وأبى سعيد الخدرى، ورافع بن خديج، وابن عباس.

واستفرغ رضى الله عنه علمه الذى حصله فى أوعية كبار التابعين، أمثال: عطاء وطاووس وعكرمة وغيرهم، ممن اتصل به، ونقل عنه.

علاقته بابن عمر

ذكرنا طرفا منها. وتضيف بأن مجاهدا رحمه الله كان يرى فى ابن عمر أستاذا له بعد ابن عباس، يأتيه ويستنطقه ويستفتيه. وكان ابن عمر يرى فى مجاهد طالب علم نبيهاً، وعالما

نحريرا، فى آن معا؛ فلا يقصر فى جواب له عما يسأل، ويقدمه على نفسه فى المرتبة أحيانا كثيرة، تواضعا وأدبا.

يقول مجاهد فى هذا الصدد: كنت أصحب ابن عمر فى السفر، فإذا أردت أن أركب أمسك ركابى، فإذا ركبت سوى على ثيابى، فرآنى مرة كأنى كرهت ذلك فىّ، فقال لي: يا مجاهد إنك لضيق الخلق.

ويقول أيضا: صحبت ابن عمر وأنا أريد أن أخدمه، فكان يخدمنى. وابن عمر فى هذا التصرف إنما يكرم العلم، ويكسب الأجر.

ويقص علينا مجاهد رضى الله عنه قصة درس تلقاه من ابن عمر، فيقول: قلت لابن عمر: أى حجاج بيت الله أفضل وأعظم أجرا؟

قال: من جمع ثلاث خصال: نية صادقة، وعقلا وافرا(١)، ونفقة من حلال. فذكرت ذلك لابن عباس فقال: صدق.

فقلت: إذا صدقت نيته، وكانت نفقته من حلال فماذا يضره قلة عقله؟ فقال: يا أبا حجاج.. سألتنى عما سألت عنه رسول الله ﷺ فقال: «والذى نفسى بيده ما أطاع العبد الله بشىء أفضل من حسن العقل، ولا يقبل الله صوم عبد ولا صلاته، ولا شيئا مما يكون من عمله من أنواع الخير إن لم يعمل بعقل، ولو أن جاهلا فاق المجتهدين فى العبادة، كان يفسد أكثر مما يصلح».

الطواف

تنقل مجاهد رضى الله عنه فى الديار والأمصار، يأخذ ويعطى، يأخذ قليلا ويعطى كثيرا، فى العراق والشام والحجاز واليمن وحضرموت. وإلى جانب هذا السعى فى العلم، كانت لدى مجاهد نزعة المغامرة والمخاطرة.

يقول الأعمش نقلا عن مجاهد: كان مجاهد لا يسمع بأعجوبة إلا ذهب فنظر إليها. وعند زيارته لبابل - وكان واليها صديقا لمجاهد - طلب أن يرى هاروت وماروت، وقد طبقت شهرة وجودهما - فى قلعة من القلاع - الآفاق، وملأت الأسماع. فدعا الوالى رجلا من السحرة، يهوديا، وقال له: اذهب بهذا فاعرض عليه هاروت وماروت.

فقال اليهودى: بشرط أن لا تدعو الله عندهما.

فذهب بى إلى قلعة فقطع منها حجرا، ثم قال: خذ برجْلى. فهوى بى حتى انتهى إلى حوبة، فإذا هما معلّقان منكسّان، كالجبلين العظيمين، فلما رأيتهما قلت: سبحان الله خالقكما. فاضطربا، فكأن جبال الدنيا قد تدكدكت، فغشى علىَّ وعلى اليهودى، ثم أفاق اليهودى قبلى فقال: قم، كدت أن تهلك نفسك وتهلكنى(٢).

لا حجة لكم

وفى مجلس علم لمجاهد سأله أحد الحضور - وكان مريضا عليلا - أن يبين له حدود الإعفاء

(١) يقصد بالعقل هنا: الوعى وحضور الذهن.

(٢) نروى هذه الحكاية الأسطورة كما جاءت على لسان مجاهد فى أكثر من مصدر، ولا نراها إلا افتئاتا وتزويرا على التابعى الجليل مجاهد بن جبير رضى الله عنه. وخلطا غير مقبول والله أعلم.

من العبادات المفروضة. فقال له مجاهد رضى الله عنه: يؤتى يوم القيامة بثلاثة نفر: بالغنى، والمريض، والعبد المملوك، فيقول الله عز وجل للغنى: ما شغلك عن عبادتى التى إنما خلقتك لها[١]؟ فيقول: يا رب أكثرت لى من المال فطغيت[٢]. فيؤتى بسليمان عليه السلام فى ملكه، فيقول للغنى: أنت كنت أكثر مالا وأشد شغلا من هذا؟ فيقول: بل هذا يا رب. فيقول الله له: فإن هذا لم يمنعه ما أوتى من الملك والمال والشغل عن عبادتى.

ويؤتى بالمريض، فيقول الله تعالى له: ما منعك عن عبادتى التى خلقتك لها؟ فيقول: يا رب شغلنى عنها مرض جسدى. فيؤتى بأيوب عليه السلام، فى ضره وبلائه، فيقول الله تعالى للمريض: أأنت كنت أشد ضرا ومرضا أم هذا؟ فيقول: بل هذا. فيقول له سبحانه: إن هذا لم يشغله ضره ومرضه عن عبادتى.

ثم يؤتى بالعبد المملوك، فيقول الله له: ما منعك عن عبادتى التى خلقتك لها؟ فيقول: يا رب فضلت على أربابا فملكونى وشغلونى عن عبادتك. فيؤتى بيوسف عليه السلام فى رقِّه وعبوديته، فيقول الله تعالى للعبد المملوك: أأنت كنت أشد فى رقك وعبوديتك أم هذا؟ فيقول: بل هذا يا رب. فيقول الله له: فإن هذا لم يشغله ما كان فيه من الرق عن عبادتى. فلا عذر لأحد منكم.

تأويله وتفسيره

لا يقتصر تفسيره لآيات القرآن الكريم على ما نقله عن أستاذه عبدالله بن عباس رضى الله عنهما، بل نراه يضيف إلى ما سمع وتلقى، ما فاضت به قريحته، وجاد به فهمه، واستنبطه بعقله وذكائه، وما تفتقت عنه فطنته.

طائفة من أقواله وتفسيره

ولا نرى ذلك إلا من خلال دروسه التى كان يعقدها، أو مجالسه التى كانت تسعد الطالبين والراغبين، من المتعلمين أو السائلين.

﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ (سورة المؤمنون) الآية: ١٩٦.

قال: يسلم عليه إذا لقيه؛ أو يصافحه. عندها تذوب نيران الجفاء، مع حلاوة وبرد اللقاء؛ وحكى مجاهد رضى الله عنه هذه الطرفة؛ فقال: كان بالمدينة أهل بيت ذوى حاجة. وكان عندهم رأس شاة، أصابوا منها شيئا. ثم قالوا: لو بعثنا بهذه الرأس إلى من هو أحوج منا إليها، فبعثوا بها، فلم تزل تدور فى المدينة حتى رجعت إلى أصحابها الذين خرجت من عندهم أولا. لقد أزال الإيثار ما كان بين بعض البيوت من عداوات وخصومات. ﴿ **فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴾ سورة (فصلت) الآية: ٣٤. وصدق الله العظيم.

﴿ **يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ** ﴾ سورة (آل عمران) الآية ٤٣: اطلبى الركود.

﴿ **وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ** ﴾ سورة (الإسراء) الآية ٦٤. قال: الصوت: المزامير.

---

(١) استنتاجا من قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.

(٢) استنتاجا من قوله تعالى: ﴿كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾.

﴿ أَنكَالاً وَجَحِيماً ﴾سورة (المزمل) الآية ١٢ . قال : ثبورا .

﴿لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾سورة (الشورى) الآية ١٥ . قال : لا خصومة .

﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ سورة (التكاثر) الآية ٨ . قال : عن كل لذة فى الدنيا .

وعند الحديث عن (فاتحة الكتاب) قال : رن [١] إبليس أربع رنات : حين لُعن ، وحين أهبط ، وحين بعث النبى ﷺ وحين أنزلت ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[٢] وأنزلت بالمدينة .

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾ سورة (الشعراء) الآية١٢٨ . قال : هى بروج الحمام .

﴿أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ سورة (البقرة) الآية ٢٦٧ . قال : التجارة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ سورة (فصلت) الآية ٣٠ . قال : استقاموا ، فلم يشركوا حتى ماتوا .

﴿سَأَلَ سَائِلٌ ﴾ سورة (المعارج) الآية١ . قال : دعا داع .

﴿مَاءً غَدَقًا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ سورة (الجن) الآيات (١٦ - ١٧) . قال : حتى يرجعوا إلى علمى فيه .

﴿لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾سورة (النور) الآية ٥٥ . قال : لا يحبون غيرى .

﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ سورة (فاطر) الآية ١٠ . قال : هم المراءون .

﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾سورة (الجاثية) الآية ١٣ . قال : هم الذين لا يدرون أنعم الله عليهم أم لم ينعم .

﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾ سورة (إبراهيم) الآية٥ . قال : أيامه نعمه ونقمه .

﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾سورة (النساء) الآية ٥٩ . قال : فردوه إلى كتاب الله تعالى وإلى رسوله ما دام حيا ، فإذا مات فإلى سنته .

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ سورة (لقمان) الآية٢٠ . قال : أما الظاهرة : فالإسلام والقرآن ، والرسول ، والرزق ، وأما الباطنة : فما ستر من العيوب والذنوب .

قال مجاهد : لما قدمت مكة نساء ، على سليمان عليه السلام رأت حطبا جزلا ، فقلن لغُلام لسليمان : هل يعرف مولاك وزن دخان هذا الحطب؟ فقال الغلام : دعن مولاى ، أنا أعرفَ كم وزن دخانه ، فكيف مولاى؟ فقالت : كم وزنه؟ قال الغلام : يوزن الحطب ، ثم يحرق ، ويوزن رماده ، فما نقص فهو وزن دخانه .

﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ سورة (الحجرات) الآية ١١ . قال : من لم يتب إذا أصبح وإذا أمسى ، فهو من الظالمين؛ وما من يوم ينقضى من الدنيا ، إلا قال ذلك اليوم : الحمد لله الذى أراحنى من الدنيا وأهلها ، ثم يطوى عليه فيختم إلى يوم القيامة ، حتى يكون الله عز وجل هو الذى يفض خاتمه .

---

(١) رن : صوَّت .

(٢) فاتحة الكتاب ، والسبع المثانى ، وأم الكتاب .

﴿ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾سورة (الأنعام) الآية ١٥٣ . قال : هي البدع والشهوات .

﴿ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ ﴾سورة (البقرة) الآية ١٥٩ . قال : تلعن عصاة بني آدم دوابُّ الأرض ، وما شاء الله من الحيات والعقارب ، يقولون : مُنعنا القطر بذنوب بني آدم .

﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ سورة (المطففين) الآية ١٤ . ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾سورة (البقرة) الآية ٨١ . قال : الذنوب تحيط بالقلوب كالحائط المبنى على الشيء ، كلما عمل ذنبا ارتفع حتى يغشى القلب ، حتى تكون هكذا - ثم قبض يده - وقال : هو الران) .

طائفة من درر حكمه

من أكرم نفسه وأعزها أذل دينه ، ومن أذل نفسه أعز دينه .

لو لم يصب المسلمَ من أخيه شيء إلا حياء يمنعه من المعاصى لكان ذلك خير .

ذهبت العلماء ، فما بقى إلا المتعلمون ، وما المجتهد فيكم إلا كاللاعب فيمن كان قبلكم .

الفقيه من يخاف الله وإن قل علمه ، والجاهل من عصى الله وإن كثر علمه .

كانت وفاته رحمه الله ورضى عنه وقد تجاوز الثمانين من عمره ، عام ثلاثة ومائة ، قبض فى صلاته وهو ساجد .

رضى الله عنه وأرضاه ، وجعل رَبَضَ الجنة مثواه ، وألحقنا به فى الصالحين من عباده .

* * *

عامر الشعبى

رضى الله عنه

(١٩ـ ١٠٤هـ)

قال عامر رضى الله عنه:

ما كتبت سوداء فى بيضاء قط، ولا حدثنى رجل بحديث إلاحفظته،

ولا سمعت من امرئ كلاما ثم أحببت أن يعيده على.

عبد الملك بن مروان وعامر:

إن المرحلة الأولى من حياة عبد الملك بن مروان قبل الخلافة جديرة بالتوقف عندها طويلا، ومتابعة فصولها لأنها؛ مرحلة التكون والنشأة والأساس الذى قامت عليه شخصيته.

فقد كبر ونشأ بالمدينة، وتتلمذ على عدد جم وغفير من صحابة رسول الله ﷺ، يغترف العلم اغترافا، يحفظ كتاب الله تعالى فى إقبال وتدبر، ويتقن فى حرص ووعى وتفكر سنة رسول الله ﷺ، حتى عد فى الطبقة الأولى من التابعين - رضوان الله عليهم.

روى عن نافع بن جبير[١] - رضى الله عنه - قوله:

«لقد رأيت المدينة وما فيها شاب أشد تشميرا ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبدالملك بن مروان».

وروى الأعمش عن أبى الزناد قوله: «كان فقهاء المدينة أربعة: سعيد بن المسيب وعروة وقبيصة بن ذؤيب وعبد الملك بن مروان - قبل أن يدخل الإمارة».

وقال الشعبى: «ما جالست أحدا إلا وجدت لى الفضل[٢] عليه إلا عبد الملك بن مروان؛ فإنى ما ذاكرته حديثا إلا زادنى منه، ولا شعراً إلا زادنى فيه».

ولم يكن طلب العلم والأدب هما ديدَن عبد الملك وحدهما، بل كان طراز فريدا فى الجهاد فى سبيل الله، فارسًا غازيا ومقاتلا. فلقد طلب معاوية الخليفة - إلى واليه على المدينة مروان بن الحكم - والد عبدالملك - أن يسيِّر ولده عبد الملك فى بعث المدينة إلى بلاد المغرب تحت قيادة معاوية بن خديج - السكونى - فانضم عبدالملك إلى البعث، وعرف ذلك الجيش بجيش العبادلة؛ إذ كان فيه عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبدالملك. وشهد معاوية بن خديج - قائد الجيش لعبد الملك بالكفاية والإقدام، مما حفلت به أخبار تلك الحملة.

عبد الملك والسلطان:

الحُكم والسلطان إرث موروث، يسرى من الأجداد إلى الأحفاد مسرى الدم فى العروق، فلا عجب ولا غرابة أن تكون أمنية عبد الملك أن يلى الخلافة[٣] وهو فى المسجد الحرام، بجوار الكعبة الشريفة، والأمويون سفيانيون ومروانيون كانوا جميعا من طبقة أصحاب السلطان والحكم فى قريش قبل الإسلام.

ويروى عن عبد الملك أنه قال: «كنت أجالس بريدة بن الحصيب - رضى الله عنه - فقال لى يوما: يا عبد الملك إن فيك خصالا، وإنك لجدير، أن تلى أمر هذه الأمة فاحذر الدماء؛ فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرجل ليدفع عن باب الجنة بعد أن ينظر إليها على محجمة من دم يريقه من مسلم بغير حق».

---

(١) أحد أعلام العلم فى المدينة، كانت وفاته سنة تسع وتسعين من الهجرة.

(٢) أى: الزيادة فى العلم.

(٣) عندما كان أحد أربعة هم: عبد الله بن الزبير وعروة ومصعب وعبد الملك يتناجون، وذكر كل منهم أمنيته.

إذًا كان التطلع إلى السلطة والسلطان رغبة أصيلة فى أعماق ذاته، وخصوصًا أنه عايش ظهور الأمويين كخلفاء بدءًا من معاوية بن أبى سفيان، وتسلسل ذلك فيهم، والعهد بذلك قريب، وقد اتخذوا من استشهاد ذى النورين ـ عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ تكئة لهم ومعذرة.

ومن ثم تهيأت الظروف والأسباب لعبدالملك أن يبلغ هدفه وغايته، وأن يصبح خليفة وأميرًا للمؤمنين. وكان ذلك مع استهلال شهر رمضان من سنة خمس وستين للهجرة.

ومما هو مشهور وبلغ حد الاستفاضة، أنه عندما سُلِّم عليه بالخلافة بعد وفاة أبيه مروان، وكان جالسا يتلو كتاب الله تعالى ـ أغلق المصحف وقال: «هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ». وفى رواية: «هذا آخر العهد بك». ولا يعنى ذلك القطيعة أو الإدبار كلية، بل الانصراف عن التلاوة الدائمة، التى كانت ديدنه، إلى شئون الحكم، ومسئولية الخلافة، فإن فى ذلك شغلاً شاغلاً عن الملازمة، وحاش لله أن يهجر عبد الملك كتاب الله تعالى. وكيف يفعل ذلك وهو الذى خطب الناس فى المدينة فقال: «يا أهل المدينة، أنا أحق الناس أن يلزم الأمر الأول، وقد سالت علينا أحاديث من قبَل هذا المشرق، ولا نعرف منها إلا قراءة القرآن، فالزموا ما فى مصحفكم» إلخ. وهو الذى أثر عنه أنه وقع منه فلس[1] فى بئر قذرة، فاكترى لإخراج هذا الفلس عمالاً دفع لهم ثلاثة عشر دينارا، فلامه بعض الناس على ذلك، وتعجبوا من تصرفه، فقال لهم: إنه كان عليه اسم الله عز وجل!

لما آلت الخلافة إلى عبد الملك كتب إلى الحجاج بن يوسف عامله على العراق: ابعث إلى برجل يصلح للدين والدنيا، أتخذه سميرًا وجليسًا. فبعث إليه بعامر بن شراحيل ـ الشعبى ـ فجعله من خاصته، ويلجأ إليه فى المعضلات، ويعمل برأيه ومشورته، ويبعثه سفيرا بينه وبين الملوك، هذا ما حدثتنا به وقائع التاريخ، وتلك كانت بداية الصلة بين الشعبى وعبد الملك رضى الله عنهما.

فمن هو عامر الشعبى؟ ولِمَ حاز تلك المنزلة؟ وكيف كانت مسيرته؟

الكوفى السباعى:

ولد عامر ـ رضى الله عنه ـ فى الكوفة فى السنة السادسة من خلافة سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وكانت ولادته عسيرة، ولم يتم حمله إلى تسعة شهور؛ إذ خرج إلى الدنيا فى الشهر السابع. وهو على هذا سباعى، ونشأ ضعيف البنية الجسمانية، نحيلا رقيقًا قميئًا، وما إن وعى وتفتحت بصيرته على الأشياء حتى ظهرت عليه مخايل النجابة والذكاء، والإقبال الشديد على طلب العلم.

وكانت الكوفة آنذاك من المدن المهمة فى الدولة الإسلامية الناشئة، حافلة بالحركة والحيوية، قد أمَّها العدد الوفير من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ للسكنى والإقامة والانتشار، أو للانطلاق مع كتائب الجهاد والغزو فى سبيل الله باتجاه المشرق.

(١) الفلس: وحدة عملة كانت متداولة آنذاك، وفى عهد عبد الملك ضربت أول عملة فى الدولة الإسلامية.

عامر بين الكوفة والمدينة:

ولقد عبَّ عامر - رضى الله عنه - من حفظ وعلم العشرات من الصحابة الأماجد، فكان ينفق أكثر وقته فى لقياهم فى مسجد الكوفة الجامع ينهل من نمير وغزير علمهم، حتى غدا فى غضون أعوام قلائل حافظة علم وواعية فهم، وعلما يشار إليه بالبنان.

ومع مقامه فى الكوفة كان قلبه يهفو إلى المدينة، معدن العلم ومرتكز الإسلام، ومهوى القلوب والأفئدة، فلما بلغ أشُدَّه، واستوفى ما فى الكوفة من علوم رجالها انطلق إلى المدينة، التى كان يأتيها على الدوام، بين الحين والحين.

ولقد قيل عن تحصيل عامر - رضى الله عنه - إنه لقى قرابة خمسمائة من الصحابة الكرام، جالسهم وحدثهم وأخذ عنهم. منهم: على بن أبى طالب وسعد بن أبى وقاص وزيد بن ثابت وعبادة بن الصامت، وأبو موسى الأشعرى وأبو سعيد الخُدْرى والنعمان بن بشير وعبد الله بن عمر وعبدالله بن عباس وعدى بن حاتم وأبو هريرة وأم المؤمنين عائشة.. وغيرهم، رضوان الله عليهم.

العالم الذكى النابه:

قيل عنه: كان الشعبى - رضى الله عنه - فتى متوقد الذهن، حاد الذكاء، يقظ الفؤاد، مرهف الحس، سريع الفهم، آية فى قوة الحافظة.

وقال - رضى الله عنه - عن نفسه: «ما كتبت سوداء فى بيضاء[1] قط، ولا حدَّثنى رجل بحديث إلا حفظته، ولا سمعت من امرئ كلامًا ثم أحببت أن يعيده علىَّ»؛ إذ كان يكتفى بالحفظ عند السماع من المرة الأولى. وهذا أقصى ما يتصور فى قوة الحافظة.

أما الرحلة فى طلب العلم فهى عنده غاية الغايات، للتلقى والضبط. يحدثنا عن ذلك فيقول: «لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن، فيحفظ كلمة واحدة تنفعه فيما يستقبل من عمره لرأيت أن سفره لم يضع».

فى حضور الصحابة:

بلغ من علم عامر - رضى الله عنه - وثقته بما يحمل وإتقانه له، أنه كان يحدث الناس فى حلقات العلمْ، فى مسجد الكوفة الجامع والصحابة - رضوان الله عليهم - أحياء، يغدون ويروحون بين الناس، وتلك - لعمرى - ثقة بالغة، ومنزلة كريمة سامية.

ولقد استمع إليه ذات يوم عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - وهو يحدث الناس بأخبار المغازى والسرايا، وبكل دقائقها وخفاياها ووقائعها، فقال فى ذلك: «لقد شهدت بعض ما يقصد بعينىَّ، وسمعته بأذنىَّ، ومع ذلك فهو أروى له منى». وهذه الشهادة من عبد الله بن عمر مع تقدمه ورفعه درجته، من أعظم ما امتن الله تعالى به على عامر فى المكانة العلمية.

---

(١) أى كلمة فى ورقة.

حضور الذهن والبديهة:

ومن مزايا شخصية عامر - رضى الله عنه - العلمية، فى الذكاء والنجابة، حضور بديهته وسرعة خاطره. وها هو يحدثنا عن ذلك بنفسه من غير خيلاء ولا مبالغة، ولا اعتداد أجوف. فيقول: أتانى رجلان يتفاخران، أحدهما من بنى عامر والآخر من بنى أسد، وقد غلب العامرى صاحبه وعلا عليه، وأخذه من ثوبه، وجعل يجره نحوى جراً، والأسدى مخذول أمامه، يقول له: دعنى دعنى. والعامرى يقول له: والله لا أدعك حتى يحكم الشعبى لى عليك.

فالتفتُّ إلى العامرى، وقلت له: دَعْ صاحبك حتى أحكم بينكما. ثم نظرت إلى الأسدى وقلت: ما لى أراك تتخاذل له ولقد كانت لكم مفاخر ست لم تكن لأحد من العرب؟!

أولها أنه كانت منكم امرأة خطبها سيد الخلق محمد بن عبد الله - ﷺ، فزوجه الله إياها من فوق سبع سماوات، وكان السفير بينهما جبريل عليه السلام. إنها أم المؤمنين زينب بنت جحش. فكانت هذه المأثرة لقومك، ولم تكن لأحد من العرب غيركم.

والثانية أنه كان منكم رجل من أهل الجنة يمشى على الأرض، هو عكاشة بن محصن وكانت هذه لكم يا بنى أسد، ولم تكن لسواكم من الناس.

والثالثة أن أول لواء عقد فى الإسلام كان لرجل منكم، هو عبدالله بن جحش.

والرابعة أن أول مغنم قسم فى الإسلام كان مغنمه.

والخامسة أن أول من بايع بيعة الرضوان[1] كان منكم، فقد جاء صاحبكم أبو سنان بن وهب[2] إلى رسول الله ﷺ، وقال: يا رسول الله ابسط يدك أبايعك. فقال ﷺ: على ماذا؟ قال: على ما فى نفسك. فقال عليه الصلاة والسلام: وما فى نفسى؟ قال: فتح أو شهادة قال: نعم. فبايعه، فجعل الناس يبايعون على بيعة أبى سنان.

والسادسة أن قومك بنى أسد كانوا سُبع المهاجرين يوم بدر. فبهت العامرى وسكت.

منزلته العلمية:

وتقدم الشعبى شأوا بعيد على غيره من علماء عصره فى الكوفة حتى عُدَّ عالمها وإمامها.

يقول محمد بن شهاب الزهرى - رضى الله عنه -: العلماء أربعة: سعيد بن المسيب فى المدينة وعامر الشعبى فى الكوفة والحسن البصرى فى البصرة، ومكحول فى الشام.

ومع هذه المنزلة السامية وإقرار العلماء الأعلام بفضله وتقدمه، كان متواضعا إلى أبعد حد، فيذكر فى هذا الشأن أن أحدهم سأله فقال: أجبنى أيها العالم الفقيه. فانتفض عامر غاضبا وقال: ويحك لا تُطْرنا بما ليس فينا؛ فالفقيه من تورع عن محارم الله، والعالم من خشى الله، وأين نحن من ذلك؟!

---

(١) كانت يوم الحديبية، سنة ست من الهجرة.

(٢) قيل اسمه عبد الله، وقيل وهب بن عبيد الله.

ويذكر أيضا أن آخَر سأله فى مسألة، فأجابه قائلا: قال فيها عمر بن الخطاب كذا، وقال فيها على بن أبى طالب كذا. وتوقف، فقال له السائل: وأنت يا شعبى ما تقول؟ فارتسمت على ثغر عامر ابتسامة هادئة، تنم عما فى قلبه من تواضع، ثم قال فى استحياء: وما تصنع بقولى بعد أن سمعت مقالة عمر وعلى؟!

ما لى والسياسة؟

هذا المنحى العلمى الصرف لدى عامر الشعبى جعله ينأى بنفسه عن متاهات الخصومات السياسية التى استعرت، واشتد أوارها فى عصره؛ لأنها فى نظره صراع على الدنيا، فلم ينطق بكلمة تشهد لطرف على طرف، أو تُؤْثر شخصًا على آخر، فإذا ما تكلم ففى شئون الدين، أو الإصلاح بين المسلمين. ولقد روى أن أحد أصحابه أراد أن يستدرجه إلى الخوض فى شأن خصومات سلفت، أو فتن مرت، فقال له: يا أبا عمرو، فقال الشعبى: لبَّيْك. فقال السائل: ما تقول فيما يتكلم فيه الناس من أمر هذين الرجلين؟ فقال الشعبى: أى رجلين تعنى؟

فقال له صاحبه وهو يحاوره: عثمان وعلى فأطرق أبو عمرو هنيهة، ثم رفع رأسه وتنهد، ثم قال للسائل المستدرج: إنى والله لفى غنًى عن أن أجىء يوم القيامة خصما لعثمان بن عفان أو على بن أبى طالب رضى الله عنهما.

فكانت تلك الإجابة منه - رضى الله عنه - حجرا ألقمه فم السائل، وأفواه من يتكلمون من بعده، وإلى يومنا هذا؛ فتلك أمة قد سلفت، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ولا تُسألون عما كانوا يفعلون.

المهذَّب الحليم:

ولقد أورثه العلم والفقه - إلى جانب التواضع - أدبًا فى السلوك، فكان مهذب اللسان، لا فاحشا ولا متفحشا، وقورًا حليمًا، لا يستثار إلا لله تعالى، أما لنفسه فبينه وبين الغضب لها آمادا وأبعادا.

روى أن رجلا شتمه وأفحش له وقبح، وأسمعه قارص الكلام وأقذعه، وهو ساكت لا يرد عليه، فلما انتهى قال له: إن كنت - يا أخى - صادقا فيما ترمينى به غفر الله لى، وإن كنت كاذبا غفر الله لك.

الحكمة ضالة المؤمن:

وكان عامر - رضى الله عنه - لماحًا ذكيا، دقيق الملاحظة، فلقد استرعى انتباهه بدوى من الأعراب يحضر دائما مجلسه فى المسجد، لا ينطق بكلمة، ولا يحرك شفتيه أو فمه بسؤال، فأراد أن يعرف سره، فسأله: ألا تتكلم؟ فأجاب: أسكت فأسلم، وأسمع فأعلم، وإن حظ المرء من أذنه يعود عليه، أما حظه من لسانه فيعود على غيره. فتلقى الشعبى هذه الحكمة البالغة بكثير من الرضا والاقتناع والإعجاب، وظل يرددها ما عاش، لنفسه ولغيره.

الوساطة والشفاعة:

وأثر عن عامر الشعبى رقة فى الطبع، ولين فى الفؤاد، مما جعله مقصد أهل الحق فى رفع الظلم عنهم، ورفع الحيف أيضا.

ولقد استصرخه جماعة منهم لدى أمير العراقين ـ عمر بن هبيرة ـ فأتاه فقال: أيها الأمير إن كنت قد حبستهم بالباطل فالحق يخرجهم، وإن كنت حبستهم بالحق فالعفو يسعهم. فأعجب ابن هبيرة ببلاغة الشعبى وحسن تصرفه وصياغة شفاعته ووساطته، فأطلق سراحهم وعفا عنهم، إكراما وتقديراً لعامر.

سفير عبد الملك إلى إمبراطور الروم:

وهذه السفارة تشهد للشعبى بمنزلته لدى عبد الملك بن مروان ـ أمير المؤمنين ـ وتشهد له أيضا ـ من خلال أحداثها ـ بما احتوته هذه الشخصية الفذة من سمو الأدب، وتوقد الذهن، وعلو الهمة.

لقد لازم الشعبى ـ رضى الله عنه ـ دار الخلافة فى دمشق سنين عددا، ومع مرورها كان يزداد رفعة وارتقاء، بما كان يقدمه من مشورة صادقة صائبة، ونصيحة غالية مسددة. وذات مرة أوكل إليه عبد الملك مهمة السفارة إلى جوستنيان إمبراطور الروم. فلما أتاه وأدى ما عليه، أخذ جوستنيان بذكائه ودهائه، وأعجب بسعة اطلاعه وحسن بيانه. واستبقاه عنده أيامًا فوق ما تحتمل المهمة؛ زيادة فى إكرامه، ومبالغة فى ضيافته، لكن الشعبى ضاق بالمقام ذرعا، وتلطف فى الإلحاح بالإذن فى العودة إلى دمشق. فسأله جوستنيان: أمن أهل بيت الملك أنت؟ فقال: لا، وإنما أنا رجل من جملة المسلمين. وعندما أذن له بالرحيل حمله كتابا مختوما إلى الخليفة، وقال له: إذا رجعت إلى صاحبك، وأبلغته جميع ما يريد معرفته فادفع إليه هذا الكتاب.

وعندما رجع الشعبى إلى دمشق، ودخل على الخليفة، أفضى إليه بكل ما رآه وسمعه، وأجابه عن جميع ما سأله عنه، وحدثه عن مهمته، وما ترتب عليها، ثم قام يريد الانصراف، ومد يده بالكتاب المختوم إلى أمير المؤمنين، وقال: يا أمير المؤمنين، إن ملك الروم حملنى لك هذا الكتاب. ثم دفعه إليه وانصرف.

وما كاد الشعبى يبلغ باب الخروج من دار الخلافة حتى نودى عليه، فارتد إلى مجلس الخليفة، فقال له عبدالملك وهو يبتسم: أعلمت ـ يا شعبى ـ ما فى هذا الكتاب؟ فقال عامر: كلا يا أمير المؤمنين. فقال عبد الملك: لقد كتب إلى ملك الروم يقول: عجبت للعرب كيف ملَّكت عليها رجلا غير هذا الفتى. فقال الشعبى فى أدب جم: إنما قال هذا ـ يا أمير المؤمنين ـ لأنه لم يرك، ولو رآك لما قاله. فقال عبد الملك: أتدرى لم كتب إلىَّ ملك الروم بهذا؟ فقال الشعبى: كلا يا أمير المؤمنين. قال عبد الملك: إنما كتب بذلك لأنه حسدنى عليك، فأراد أن يغرينى بقتلك والتخلص منك! فضحك الاثنان، ومضى الشعبى إلى سبيله.

ومما يذكر فى هذا الصدد أن ملك الروم عندما بلغه ما كان من شأن الخليفة والسفير قال: لله أبوه ـ أى عبد الملك بن مروان ـ والله، ما أردت غير ذلك.

عذوبة الرُّوح وحب المفاكهة:

هذه الشخصية على جلالة قدرها وجديتها، وعلو كعبها فى العلم، حملت فى جانب منها عذوبة فى الروح، وحبا فى الفكاهة، وخفة فى الظل، فمتى حضرتها النكتة لم تجد سبيلا إلى دفعها إلا بإطلاقها.

يروى أن رجلا دخل على الشعبى بيته، وهو جالس مع امرأته، دون استئذان، ثم قال: أيكما الشعبى؟ وأدرك عامر - رضى الله عنه - أن الرجل بليد الذهن، فى غباء ظاهر، فأشار إلى امرأته، فى سخرية ودعابة.

وسأله أحدهم فى مجلس علم: ماذا كانت تسمى زوجة إبليس؟ فقال: ذلك عرس لم نشهده.

شهادة الحسن البصرى لعامر:

وعاش عامر الشعبى - رضى الله عنه - عقودا طويلة، حتى جاوز الثمانين، وهو يسجل فى كل يوم صفحة مجيدة حميدة فى سجل التاريخ. وعندما نُعى إلى الحسن البصرى قال: «يرحمه الله؛ فلقد كان واسع العلم، عظيم الحلم، وإنه من الإسلام بمكان».

رأس العلم:

قال داود الأودى[١]: «قال لى الشعبى: قم معى ها هنا حتى أفيدك علما، بل هو رأس العلم. قلت: أى شىء يفيدنى؟ قال: إذا سئلت عما لا تعلم فقل: الله أعلم؛ فإنه علم حسن.

وقال: لو أن رجلا سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن يحفظ كلمة تنفعه فيما يستقبل من عمره ما رأيت سفره ضائعا. ولو سافر فى طلب الدنيا أو الشهوات إلى خارج هذا المسجد، لرأيت سفره عقوبة وضياعا.

وقال: العلم أكثر من عَدَد الشَّعر، فخذ من كل شىء أحسنه.

❊ ❊ ❊

(١) كان من الذين تربوا على علم عامر بن شراحيل الشعبى، وحفظوا عنه. البداية والنهاية، ج٩، ص٢٥٧.

طاووس بن كيسان

رضى الله عنه

(٣٣- ١٠٦ هـ)

قال ابن عيينة:

متجنبو السلطان ثلاثة:

أبو ذر وطاووس والثورى

الإيمان يمان

هذا ما وصف به رسول الله ﷺ بلاد اليمن، وصدق رسول الله ﷺ، فقد كانت تلك الديار الواقعة فى أقصى الجنوب الشرقى من شبه الجزيرة العربية موئل حضارة وعلم وهدى، على مر التاريخ. .

تقلب عليها خلال دهور طويلة ألوان وأشكال من السلطان مختلفة المصادر، وتلاقحت فيها الحضارات، فأنتجت وأبدعت ونبغت. فكانت مفرخا ومستودعا لعقول وأفهام بلغت شأوا ساميا، ودويا فى أسماع التاريخ.

وازداد ذلك التألق والبريق والظهور إشعاعا ونورا مع بزوغ فجر الإسلام، إذ تمخض الإيمان فى صدور ورؤوس أبنائها عن نوابغ كانوا من بعد مشاعل هدى، تركوا بصماتهم فى أنصع صحات التاريخ. من هؤلاء الأعلام طاووس بن كيسان، صفوة التابعين رضى الله عنه.

من ذرية أبناء فارس

كان طاووس[1] بن كيسان من سلالة أبناء فارس الذين أرسلهم كسرى مع سيف بن ذى يزن لتحرير بلاد اليمن من حكم الحبشة؛ فأقاموا هناك وتناسلوا وتوالدوا، وتكاثروا، وعاشوا مستعربين لغة وموطنا؛ ثم إنهم انخرطوا فى دين الله تعالى على أيدى رجال كرام من صحابة رسول الله ﷺ، أبى موسى الأشعرى وعلى بن أبى طالب ومعاذ بن جبل رضى الله عنهم، حين بعث بهم رسول الله ﷺ دعاة وهداة.

ومن بعد ظهرت فيهم أسماء بلغت مرتبة القدوة والأسوة فى ميدان العلوم والفنون المختلفة، من ثم اعتبرت اليمن مَصراً يقصد لطلاب الفقه والحديث، بما احتوت بين جناحيها من جهابذة تلك العلوم.

طاووس

والطاووس طائر أرضى جميل الشكل، رائع الكسوة من الريش الناعم الملون، أنيق المظهر، متميز الحضور، وحيث إن التابعى الجليل ذكوان بن كيسان كان مقدما على كثير من علماء عصره، وسيما. . أنيقا، مفردا، متميزا، فقد لقب بطاووس[2]؛ وغلب اللقب على الاسم، وبه اشتهر وعرف.

وكان رضى الله عنه مع كل ما حباه الله تعالى من صفات، أشد الناس تواضعا وخفض جناح، لا يستعلى على أحد من خلق الله تعالى، لين الجانب، رقيق الحاشية، من غير ذل ولا خنوع، أو ضعف، خصوصا مع أصحاب السلطان، وذوى الأمر والنهى، فهو معهم صادق اللهجة، قوى الشخصية، قاسى العبارة أحيانا من غير فحش ولا إيذاء، من غير رغبة أو رهبة.

وقفة مع أمير اليمن

وهذه الوقفة لم تأت من خواء، ولم تظهر من فراغ، فقد كان أمير اليمن محمد بن يوسف

(١) قيل فى اسمه: ذكوان، والأول أشهر.

(٢) أطلق هذا اللقب أيضا على كثير من العلماء والصلحاء.

الثقفى - وهو أخو الحجاج - يحمل بين جنبيه قلبا أشد من الحجارة قسوة، ونفسا لا ترتدع عن الظلم والعسف، وقد اشتد على الناس اشتدادا ضاقوا معه ذرعا، وباتوا فى عذاب ونصب.

فأراد طاووس رضى الله عنه أن يواجهه بالنصيحة، ورفع الحيف عن الناس. وإحقاق الحق؛ فأتاه فى دار الإمارة، ومعه التابعى الجليل وهب بن منبه.

ودخلا عليه، فلما أخذا مجلسيهما، بادره طاووس بالكلام، وراح يعظه وينصحه، يرغبه تارة ويرهبه تارة أخرى، ويتدفق فى كلامه ووعظه كالنهر السيال لا يحجزه حاجز . . والأمير ساكت سامع؛ فلما انتهى طاووس أو قارب الانتهاء، نادى الأمير على غلام له من حجابه وقال: يا غلام . . أحضر طيلسانا[1] وألقه على كتفى أبى عبدالرحمن.

ولم يكن الأمير محمد بن يوسف الثقفى يريد مكافأة على مقال، أو جزاء لطاووس على ما قدم من نصيحة، ولكن كان يريد الإغراء والغواية والتجربة؛ فهو يعرف عن طاووس بأنه أرفع العلماء العاملين عن قبول الهدايا، أو مواصلة السلطان، لقاء ثمن بخس دراهم معدودات، مهما كثرت.

وأحس طاووس أبو عبدالرحمن كأن ثقلا ثقيلا يكاد ينوء بحمله قد وضع على كتفيه، وراح وهو ينهى موعظته يحرك كتفيه ليزيح عنهما الطيلسان؛ فلما وقع قام هو وصاحبه وهب مستأذنين، ثم انصرفا.

وحدِّث ولا حرج عما اعتملت به نفس الأمير الظالم من ثورة وحقد وغضب، ولكنه كتم ذلك، وانتوى أن يدخل على نفس طاووس لإذلالها بطريقة أخرى، وأسلوب مغاير.

وبينما كان التابعيان طاووس ووهب عند الباب، قال وهب لصاحبه: والله يا أخى لقد كنا فى غنى عن إثارة غضب الأمير علينا؛ فما كان عليك من بأس لو أخذت الطيلسان، ثم بعته، وأنفقت ثمنه على المحتاجين، من الفقراء والمساكين.

فرد عليه طاووس: هو ما تقول يا أخى، والحق معك، ولكننى راجعت نفسى وخشيت أن يقول العلماء من بعدى: نأخذ كما أخذ طاووس، ثم لا يصنعون فيما أخذوه ما تقول.

ثم إن الأمير محمد بن يوسف الثقفى صر[2] على سبعمائة دينار ذهبا فى سرقة[3] من حرير، ونادى أحد أعوانه من جنده، ممن يثق بحذقهم ومهارتهم، وقال له:

امض بهذه الصرة إلى طاووس بن كيسان فى داره، واحتل عليه فى أخذها، ولا تقصر، فإن استطعت ذلك كافأتك وقربتك.

ومضى الرجل بما يحمل، حتى دخل على طاووس بيته، وقد استأذن، فلما جلس واستأنس، قال: يا أبا عبدالرحمن لقد بعث لك الأمير بهذه الصرة نفقة لك، راجيا قبولها، وأنت عنده أعظم منزلة مما فيها، وأكبر قدرا.

لكن طاووسا رد قائلا: ما لى بها من حاجة، ردها إلى صاحبها، واشكره نيابة عنى.

---

(١) الطيلسان: رداء باهظ الثمن من الحرير، وهو لباس الخاصة.

(٢) صر: جعلها فى صرة

(٣) سرقة حرير: قطعة قماش من حرير.

وحاول الرجل أن يثنى طاووسا عما قال، واحتال عليه بكل وجه ومقال، لكن طاووسا أصر وأبى. وفى غفلة من طاووس، وقد شغله الحديث، ألقى الرجل بالصرة فى كوة[1] من الجدار خلفه، ثم استأذن وانصرف. وعاد إلى مولاه وقال له: لقد أخذ طاووس الصرة، أيها الأمير. فسر لما سمع، وقد نجح فى التدبير للإيقاع بطاووس.

ومضت على الحادثة أيام طوال؛ ثم إن الأمير محمد بن يوسف أرسل اثنين من خاصته، ومعهما الرجل الذى حمل الصرة، وأمرهم أن يقولوا: إن رسول الأمير إليك قد أخطأ، فدفع إليك الصرة، وهى مرسلة إلى غيرك، فهاتها.. فقال لهم طاووس: ما أخذت من مال الأمير شيئا حتى أرده. فقالوا: بل أخذته. فالتفت طاووس إلى الرجل الذى حمل الصرة، وسأله: هل أخذت منك شيئا؟ فارتبك الرجل، وانعقد لسانه من الذعر، وقال متلعثما: صدقت. لم تأخذ منى شيئا. ولكننى ألقيت بالصرة فى هذه الكوة. واستخرجت الصرة من الكوة وقد علاها نسج العنكبوت، ولفها الغبار، وإذا هى بتمامها عدا ونقدا، عندها فتحها الأمير وعد دنانيرها. وأسقط فى يده، وباء مسعاه بالفشل، ورد الله تعالى كيده إلى نحره.

إن الله يدافع عن الذين آمنوا

ويدفع عنهم، ويريهم آياته فى عدوهم. تبكيتا وحسرانا.

فلقد قيض الله تعالى لطاووس أن يعاين النصرة له على محمد بن يوسف.

يحدثنا طاووس رضى الله عنه عن ذلك، فيقول: بينا أنا فى مكة حاجا، بعث إلى الحجاج بن يوسف، فلما دخلت عليه رحب بى، وأدنى مجلسه منى، وطرح لى وسادة، ودعانى لأن أتكئ عليها. ثم راح يسألنى عما أشكل عليه من مناسك الحج، وغيرها. وفيما نحن كذلك، سمع الحجاج ملبيا حول البيت، ويرفع صوته بالتلبية، وله نبرة تهز القلوب هزا، فقال: على بهذا الملبى. فأتى به، فقال له: ممن الرجل؟ فقال: من المسلمين. فقال الحجاج: لم أسألك عن هذا، وإنما سألتك عن البلد. فقال الرجل: من أهل اليمن. قال الحجاج: كيف تركت أميركم؟ (يعنى أخاه: محمد بن يوسف الثقفى). فقال الرجل: تركته عظيما.. جسيما. لباسا ركابا. خراجاً، ولاجا. قال الحجاج: ليس عن هذا سألتك. فقال الرجل: عم سألتنى إذاً؟ قال الحجاج: عن سيرته فيكم؟ فقال الرجل: تركته ظلوما غشوما، مطيعا للمخلوق، عاصيا للخالق. فاحمر وجه الحجاج خجلا من جلسائه، وقال للرجل: ما حملك على أن تقول فيه ما قلت، وأنت تعلم مكانه منى؟

فقال الرجل: أتراه بمكانه فيك أعز بمكانى من الله عز وجل؟ وأنا وافد بيته، ومصدق نبيه، وقاض دينه؟ فسكت الحجاج ولم يحر جوابا.

ثم ما لبث الرجل أن قام وانصرف من غير أن يستأذن، أو يؤذن له.

فقمت فى إثره، وقلت فى نفسى: إن الرجل صالح، فأتبعه وأظفر به قبل أن تغيبه عن عينيك جموع الناس، فتبعته فوجدته قد أتى البيت (الكعبة)، وتعلق بأستاره، ووضع خده على جداره، وجعل يقول: اللهم بك أعوذ، وبجانبك ألوذ؛ اللهم اجعل لى فى الاطمئنان إلى جورك،

(١) الكوة: فتحة صغيرة فى الجدار كالنافذة.

والرضا بضمانك مندوحة عن منع الباخلين، وغنى عما فى أيدى المستأثرين، اللهم إنى أسألك فرجك القريب، ومعروفك القديم، وعادتك الحسنة، يا رب العالمين.

ثم ذهبت به موجة من الناس، وأخفته عن عينى، فأيقنت أن لا سبيل إلى لقائه بعد ذلك.

فلما كانت عشية عرفة رأيته وقد أفاض مع الناس، فدنوت منه، فإذا هو يقول: اللهم إن كنت لم تقبل حجى، وتعبى ونصبى، فلا تحرمنى الأجر على مصيبتى، بتركك القبول منى.

ثم ذهب فى الناس، وستره الظلام عنى، فلما يئست من لقائه، قلت: اللهم اقبل دعائى ودعاءه، واستجب رجائى ورجاءه، وثبت قدمى وقدميه يوم تزل الأقدام، واجمعنى معه على حوض الكوثر، يا أكرم الأكرمين.

بين عطاء وطاووس

عطاء بن أبى رباح قمة فقهاء عصره من التابعين رضوان الله عليهم، وأوحد زمانه علما وفضلا، كان صديقا لطاووس ومن خلصائه، ومن المقربين إليه، وعلى الرغم مما بلغه من منزلة ومكانة، فقد كان يعتبر نفسه تلميذا لطاووس يتعلم منه، ويأخذ عنه، فى غير غضاضة ولا استعلاء؛ وتلك لعمرى خلة فى الأولين، قصر عنها الآخرون ونبذوها وراء ظهورهم، فأصبح العلم مضيعة، وقانا الله تعالى وشرورها.

يقول عطاء رضى الله عنه: جاء لى طاووس فقال لى: يا عطاء، إياك أن ترفع حوائجك إلى من أغلق دونك بابه، وجعل دونه حجابه، وعليك بطلب من بابه لك مفتوح إلى يوم القيامة، طلب منك أن تدعوه ووعدك بالإجابة[1].

طاووس وابن عباس رضى الله عنهم

يقول ابن كثير رحمه الله[2]: أدرك طاووس جماعة من الصحابة وروى عنهم، وكان أحد الأئمة الأعلام، قد جمع العبادة والزهادة، والعلم النافع والعمل الصالح، وقد أدرك خمسين من الصحابة، وأكثر روايته عن ابن عباس، وروى عنه خلق من التابعين وأعلامهم، منهم مجاهد وعطاء وعمرو بن دينار وإبراهيم بن ميسرة وأبو الزبير ومحمد بن المنكدر والزهرى وحبيب بن أبى ثابت وليث بن أبى سليم والضحاك بن مزاحم، وعبدالملك بن ميسرة وعبدالكريم بن المخارق ووهب بن منبه والمغيرة بن حليم الصنعانى وعبدالله بن طاووس وغير هؤلاء.

ولقد تأثر طاووس بمنهجية ابن عباس رضى الله عنهم فى العلم وفى المواقف أيضا.

فكانت أكثر روايته فى الحديث عنه، وكذلك فى تفسيره لكتاب الله تعالى، لا يخرج فيهما جميعا عن رأيه وقوله، حتى عد أكثر تلامذته حفظا للمأثور عنه، ورواية له.

وكذلك سار على دربه فى تجنب خلفاء بنى أمية، اللهم إلا ما افترضته عليه أمانة النصيحة والطاعة لولى الأمر، كما سبق وحدثنا عن وقفته مع محمد بن يوسف وأخيه الحجاج.

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾.

(٢) (البداية والنهاية) ج: ٩، ص. ٢٦٣.

ووقفة مع سليمان بن عبدالملك

وكان ذلك فى موسم الحج. فبعد أن طاف سليمان وسعى، ملبيا وداعيا، طلب إلى أحد حجابه من أفراد حاشيته أن يستدعى إليه فقيها عالما يعظه ويذكره، ويبين له.

وبينما الحاجب فى طلب أمير المؤمنين، يسأل الناس، ويستدلهم، قيل له: هذا طاووس بن كيسان سيد فقهاء عصره، وعالم زمانه، فعليك به.

فأتاه وقال له: أجب أمير المؤمنين أيها الشيخ. فقال له طاووس: اعفنى.

فأبى الحاجب عليه عذره، وقال: لا بد من ذلك. فأطاعه طاووس، وذهب معه؛ وفى نفس طاووس قناعة بأن الدين النصيحة، وأن نصيحة ولى الأمر أوجب الواجبات.

فلما دخل على أمير المؤمنين سلم وجلس.

وكان سليمان على علم سابق بمكانة طاووس لما اشتهر عنه من العلم والفضل، فأحسن استقباله، وأكرم مجيئه، فقربه منه وأدناه، وراح يسأله فى المناسك ويصغى إليه فى إجلال واحترام؛ مما شرح صدر طاووس وأطلق لسانه.

قال طاووس: فلما شعرت بأن أمير المؤمنين قد بلغ بغيته، ولم يبق لديه ما يسأل عنه، قلت فى نفسى: إن هذا المجلس لمجلس يسألك الله عنه يا طاووس.

ثم توجهت إليه وقلت: يا أمير المؤمنين. إن صخرة كانت على شفير بئر فى قاع جهنم، وقد ظلت تهوى فى هذه البئر سبعين خريفا حتى بلغت قرارها، أتدرى لمن أعد الله هذه البئر من آبار جهنم يا أمير المؤمنين؟

فقال من غير روية: لا، ثم عاد إلى نفسه وقال: ويلك لمن أعدها؟

فقلت: أعدها الله عز وجل لمن أشركه فى حكمه فجار.

فأخذت سليمان لذلك رعدة، ظننت معها أن روحه ستصعد من بين جنبيه، وجعل يبكى، ولبكائه نشيج يقطع نياط القلب.

فتركته وانصرفت، وهو يجزينى خيرا.

وكان سليمان رحمه الله وغفر له، بكاء من خشية الله، وقافا عند حدوده، مراعيا لما استرعاه من عباده.

موعظته لعمر بن عبدالعزيز رضى الله عنهما

وآلت الخلافة بعد سليمان بوصية منه إلى عمر بن عبدالعزيز.

وعمر رضى الله عنه فضلا عن ولايته الخلافة، وقيامه بأعباء السلطان، كان أحد أعلام التابعين فقها وعلما، وحفظا لسنة رسول الله ﷺ، ولا تُنسى مآثره فى تدوين السنة الشريفة، ونشوء علوم الحديث.

وقبل هذا كله كان عمر رضى الله عنه ممن يتزودون لآخرتهم من دنياهم، بالاستماع إلى النصيحة الصادقة والموعظة الحسنة.

وهو على دراية صميمة بما يضطلع به طاووس من هداية وإرشاد ووعظ، فكتب إليه يقول: أوصنى يا أبا عبدالرحمن.

فبعث إليه طاووس بكتاب فيه سطر واحد، معدود الكلمات، يقول: إذا أردت أن يكون عملك خيرا كله، فاستعمل أهل الخير؛ والسلام.

وحين فض عمر الكتاب وقرأ، قال: كفى بها موعظة.. كفى بها موعظة..

ووقفة مع هشام بن عبدالملك

قدم هشام بن عبدالملك إلى مكة حاجا؛ فلما قضى نسكه، وأتم حجه، قال لبعض خاصته من حشمه: التمسوا لنا رجلا من صحابة رسول الله ﷺ. فقالوا: لم يبق أحد من الصحابة رضوان الله عليهم. فقال: إذاً من التابعين.

فأتى بطاووس رضى الله عنه؛ فلما دخل عليه، خلع نعليه عند حاشية البساط، وسلم دون أن يدعو هشاما بأمير المؤمنين؛ ثم راح يخاطبه باسمه، دون أن يكنيه، كما أنه جلس دون أن يؤذن له.

هذه المتابعات أثارت غضب هشام، حتى احمرت عيناه، وكاد ينفجر غيظا، ولكنه كتم ذلك مستدركا أنه فى حرم الله تعالى؛ ثم قال لطاووس: ما حملك على ما فعلت يا طاووس؟

فقال: وما الذى صنعته؟! وزاد هذا التجاهل غيظ هشام، فقال فى حدة: خلعت نعليك بحاشية بساطى، ولم تسلم على بإمرة المؤمنين، وسميتنى باسمى ولم تكننى، ثم جلست من غير إذنى.

فرد طاووس بهدوء وثقة وثبات: أما خلع نعلى بحاشية بساطك، فأنا أخلعهما بين يدى رب العزة كل يوم خمس مرات، فلا يعاتبنى، ولا يغضب على. وأما قولك بأنى لم أسلم عليك بإمرة المؤمنين، فلأن جميع المؤمنين ليسوا راضين بإمرتك، وقد خشيت أن أكون كاذبا إذا دعوتك بأمير المؤمنين [1]، وأما ما أخذته علىّ من أنى ناديتك باسمك ولم أكنك. فإن الله عز وجل نادى أنبياءه بأسمائهم، فقال: يا داود.. يا يحيى.. يا عيسى.. وكنى أعداءه فقال: ﴿تبت يدا أبى لهب...﴾، وأما قولك بأنى جلست قبل أن تأذن لى، فإنى سمعت أمير المؤمنين على بن أبى طالب يقول: إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام بين يديه. فكرهت أن تكون ذلك الرجل.

وكأنما صب من فوق رأس هشام ذنوبا من ماء بارد، ونضح منه العرق خجلا، ولم يحر جوابا؛ ثم تواضع فقال: عظنى يا أبا عبدالرحمن.

فقال: إنى سمعت على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول: إن فى جهنم حيات كالقلال[2]، وعقارب كالبغال، تلدغ كل راع لا يعدل فى رعيته. ثم قام وانصرف.

جنازة طاووس

ولقد قدر للخليفة هشام بن عبدالملك بعد بضع سنين من لقائه الأول بطاووس أن يشهد جنازته، ويصلى عليه.

(١) كان طاووس رضى الله عنه ميالا إلى آل البيت، ودعوتهم إلى أنفسهم بالخلافة، والولاية على المسلمين، دون أن يترجم ذلك إلى مناهضة سياسية أو قتال.

(٢) القلال: الأعمدة الطويلة الغليظة.

ففي موسم الحج، سنة ست ومائة؛ أفاض طاووس رضي الله عنه من عرفة مع جموع الحجيج إلى مزدلفة، وصلى فيها المغرب والعشاء جمع تأخير؛ اقتداء بسنة رسول الله ﷺ، ثم وضع جنبه للراحة، وقبيل الفجر كان رضي الله عنه قد أسلم الروح، حين أتاه اليقين؛ ملبيا محرما. وكانت جنازته حاشدة، وصلى عليه الخليفة هشام بن عبدالملك.

من مأثور كلامه ووعظه

روى عنه أنه قال: ما تعلمت من العلم فتعلمه لنفسك؛ فإن الأمانة والصدق قد ذهبا من الناس. وقيل له: إن منزلك قد بلى وأوشك أن ينهدم.

فقال: لقد أمسينا (انتهينا من حياتنا الدنيا؛ كإدبار النهار وقدوم الليل).

وقال لابنه عبدالله: يا بنى، صاحب العقلاء تنسب إليهم وإن لم تكن معهم، ولا تصاحب الجهال فتنسب إليهم وإن لم تكن معهم، واعلم أن لكل شيء غاية، وغاية المرء حسن عقله.

وكان رضي الله عنه رغم قلة مال يده، حريصا على مظهره الحسن، أناقة وسمتا ونظافة، وهذا شعار المؤمن ودثاره. لقى ذات يوم مسكينا، فى عينية عمش، وفى ثوبه وسخ، فصاح فى وجهه: إن الفقر من الله. فأين أنت من الماء؟

ويروى عن لقائه بسليمان بن عبدالملك أن ولدا لسليمان جاء فجلس إلى جنب طاووس فلم يلتفت إليه، فقيل له: جلس إليك ابن أمير المؤمنين فلم تلتفت إليه؟

فقال: أردت أن يعلم هو وأبوه أن لله عباداً يزهدون فيهم وفيما فى أيديهم.

وروى أبو عبدالله الشامى قال: أتيت طاووسا فاستأذنت عليه، فخرج إلى ابنه، شيخ كبير، فقلت: أنت طاووس؟ فقال: لا، أنا ابنه، فقلت: إن كنت أنت ابنه فإن الشيخ قد خرفَ. فأجابنى: إن العالم لا يخرف.. فدخلت عليه، فقال طاووس: سل فأوجز. فقلت: إن أوجَزتَ أوجزتُ لك. فقال: تريد أن أجمع لك فى مجلسى هذا التوراة والإنجيل والفرقان؟ قلت: نعم.. فقال لى: خف الله مخافة لا يكون عندك شيء أخوف منه، وارْجُه رجاء هو أشد من خوفك إياه، وأحب للناس ما تحب لنفسك.

وقال له رجل: ادع الله لى.

فقال: بل ادع لنفسك، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه.

سالم بن عبدالله بن عمر

رضى الله عنه

(٣٠ـ١٠٦هـ)

أحد فقهاء المدينة السبعة

أبناء الخالة:

كما كانت معركة اليرموك مفتاح بلاد الشام، كانت معركة القادسية مفتاح بلاد فارس، وصدقت نبوءة رسول الله ﷺ التى بشّر بها المسلمين يوم الخندق. ودخل الفاتحون المدائن - عاصمة كسرى - واستولوا على ما فيها من كنوز، وحازوا كثيراً من السبايا والغنائم، وأرسلت جميعها إلى المدينة. وكان من بينها سَفط[1] مرصّع بالأحجارالكريمة، لم تر العيون مثله. وحين وقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ينظر إلى المغانم، هملت عيناه بالدمع وقال: إن قوما أدوا هذا لأمناء. وكان على - رضى الله عنه - يقف إلى جانبه يرقب حاله ويسمع قوله، فقال له: يا أمير المؤمنين لقد صدقت فصدقوا، ولو رتعت لرتعوا.

وكان فى السَّبْى ثلاث بنات لكسرى يزدجرد، اشتراهن على رضى الله عنه، ثم عرض عليهن الزواج ممن يخترن من شباب المسلمين. فاختارت الأولى الحسين بن على وولدت له عليا - زين العابدين. واختارت الثانية محمد بن أبى بكر، وولدت له القاسم بن محمد. واختارت الثالثة عبد الله بن عمر بن الخطاب، وولدت له سالما.

فكان زين العابدين والقاسم بن محمد وسالم أبناء خالة، أمهاتهم أمهات ولد، وكان كل منهم آية فى الدين والخلق والعلم والفضل.

سالم على خطى الفاروق جده:

ولد سالم - رضى الله عنه - وقد اغتالت يد الأئمة والمكر والتآمر جدّه العظيم عمر، وهو قائم يصلى فى المحراب، قتله أبو لؤلؤة - المجوسى.

ودرج سالم فى رحاب المدينة المنورة (طيبة) الطيبة، وتنشق من نسيم عطرها الفواح. العابق بشذا النبوة، وتفتحت عيناه على ربوعها الفينانة وقد تجلببت بجلباب السلطان والنفوذ؛ إذ كانت عاصمة الإسلام الزاحف شرقا وغربا، وفى كل اتجاه.

وألف منذ يفاعته مسجد رسول الله ﷺ حيث يجتمع الصحابة ويتحلقون، ويتحدثون ويتذاكَرون، ويتناقشون ويتباسطون.

وكان فيه نباهة وذكاء، ووعى وحضور وسمت أخاذ اكتسبه من أصالته العدوية[2] والفارسية، وعليه فقد ظهرت مخايل رجولته ونضوجه فى سن مبكرة، مما لفت إليه الأنظار وجعله موضع الاهتمام والاحترام.

المعلم الأول:

كان والده عبد الله معلمه الأول، وأكرِمْ به من معلم؛ فلقد حاز عبد الله - رضى الله عنه - قصب السبق على أقرانه وأترابه، وبرَز من بينهم، وقلما كان واحد من الصحابة -

---

(١) وعاء توضع فيه قوارير الطيب، وقيل قطف كسرى، وهو البساط.
(٢) العدوية: نسبة إلى بنى عدِىّ قوم جده الفاروق.

رضوان الله عليهم ـ يفوقه حفظا لكتاب الله تعالى، وسنة رسول الله ﷺ، وضلوعا فى الفقه والفهم، والحكمة ينطق بها لسانه أبدًا، حتى إن والده الفاروق ـ رضى الله عنه ـ كان يجله، ويقدر علمه، ويحترم شخصه.

ومن ثم أغدق عبد الله على ولده سالم العطاء، يستفرغ فى صدره وعقله خلاصة ما حصل، ويفيض فى ذلك، وسالم فى هذا كله خير من يستظهر ويحفظ ويؤدى.

الصحابة الكرام:

وأقبل سالم بكل طاقته وقدرته، الذهنية والنفسية، على مجالسة الأعلام من الصحابة الكرام، الذين عرفوا فيه رغبته العلمية، وذكاءه المفرط، وأدبه الجَمَّ، فلم يقصروا فى عطاء، ولم يتأففوا من سؤال، وتجاوبوا معه بكل ما فى ذواتهم من إقبال وحنان، فاستقى من أبى هريرة وأبى أيوب الأنصارى وأبى لبابة وأبى رافع وزيد بن الخطاب. . وغيرهم ـ رضى الله عنهم.

حب عبد الله لسالم ـ رضى الله عنهما:

ولقد أنجب عبد الله أكثر من ولد: حمزة و بلال و زيد و سالم و عبدالله و عبيد الله وعمر، وكان فى كل منهم نجابة، لكن سالمًا كان أبرزهم على الإطلاق، فكان ميله إليه أشد وأعظم؛ لما تحلى به من خلال، ولما تجلى فيه من نبوغ، حتى إن بعض أهله وأقربائه ومعارفه الخلص كانوا يلومونه على ذلك الإيثار والتفضيل.

فكان يقول:

يلومونني فى سالم وألومهم   وجلدة بين العين والأنف سالم

صاحب الشورى:

وقدر لسالم ـ رضى الله عنه ـ بما تأهل له، أن يكون فى حياة أبيه، ومن بعده، علما فى التابعين، وواحدا من سبعة من فقهاء المدينة، يشار إليه بالبنان، ومحل فتوى يؤخذ بقوله ويعتمد على رأيه، واشتهر عنه أنه صاحب مشورة ونصيحة فى دين الله، وأمور الناس.

فما من وال قدم المدينة أو أمير عليها، إلا اتخذ سالمًا فى جملة ثقاته الذين يستشيرهم، وينصحهم ويعمل وفق آرائهم. أولئك هم الأكثرون. أما الأقلون فإن مخالفتهم تعود عليهم بالويل والثبور، من الناس عامتهم، ومن ولى الأمر أمير المؤمنين.

سالم و عبد الرحمن بن الضحاك:

فى زمن الخليفة يزيد بن عبد الملك[1] عهد إلى عبد الرحمن بن الضحاك بإمارة المدينة، وكان فظا قاسيا مستبدا فيه غرور، وحمق وصلف.

وكانت فاطمة بنت الحسين بن على ـ رضى الله عنه ـ قد ترملت من زوجها، وآثرت أن تنقطع إلى أولادها ترعاهم وتربيهم، وتحنو عليهم.

---

(١) بين: ١٠١ ـ ١٠٥ هـ.

ولقد طمع عبد الرحمن بن الضحاك بمكانتهما من بيت النبوة، وبجمالها، فراودها عن نفسها أن تهجر الترمل، وترضى به زوجا لها، وألح فى ذلك، فقالت: والله ما أبغى الزواج ولقد قعدت على بَنِىَّ، ووقفت نفسى عليهم. وحاول أكثر من مرة، وهى تصده برفق ولين اتقاء شره وأذاه.

ثم أنذرها وتهددها، وبعث إليها يقول: والله لئن لم ترضينني زوجها لآخذن أكبر بنيك ولأجلدنه متهما إياه بشرب الخمر.

مشورة سالم:

فزعت فاطمة إلى سالم بن عبد الله وهو يومئذ عالم المدينة وفقيهها، والمقدم على غيره، وموضع ثقة الجميع، فأشار عليها أن تكتب كتابا إلى الخليفة فى دمشق تذكر فيه حالها وأمرها، وتذكره بقرابتها من رسول الله ﷺ، وتبسط فيه شكايتها من أمير المدينة.

فعلت فاطمة ـ رضى الله عنها ـ بما أشار عليها سالم، وبعثت بالكتاب مع رسول إلى الخليفة يزيد بن عبد الملك فى دمشق.

وصادف فى حينه أن الخليفة قد بعث إلى ابن هرمز القائم على ديوان المال فى المدينة يأمره بموافاته إلى دمشق ليطلع منه على مجريات الموارد والمصادر.

هل لك من حاجة:

وطاف ابن هرمز ـ المسئول المالى ـ على أصحاب الحقوق، يصفى معهم حساباته، وليخلى طرفه من المسئولية.. وساقته قدماه إلى بيت فاطمة، وبعد أن ودعها، سألها: إنى ماض غدا ـ إن شاء الله تعالى ـ إلى دمشق، فهل لك من حاجة أبلغها أمير المؤمنين؟ فقالت: نعم. تُخبر الخليفة بما ألقاه من الأمير ابن الضحاك، وبما يثقل على، وما يستكرهنى عليه، وأنا عنه راغبة، وليكف عنى شره وأذاه. وأيضا تخبره بما يلقاه أهل العلم والدين من سوء معاملته لهم، وخصوصا فقيههم وإمامهم سالم بن عبد الله. ولم تخبره بكتابها الذى أرسلته من قبل.

وكان ابن هرمز ممالئًا، فلما طلبت إليه ذلك شعر بالحرج، ولام نفسه على مقابلتها وزيارتها، وسماعه لشكواها بحق الأمير، وانتوى أن لا يبلغ الرسالة، ولا يؤدى الأمانة.

رب صدفة:

وصادف وصول ابن هرمز وصول رسول فاطمة بنت الحسين إلى دمشق، وكلاهما لا يعلم شيئا من أمر صاحبه وغرضه.

وقُدِّم ابن هرمز بالدخول على الخليفة، الذى راح يسأله فى كل شأن ذى بال يتعلق بأحوال أهل المدينة، كما سأله عن سيرة أميرهم عبد الرحمن بن الضحاك فيهم، وعن شئون علمائهم وأئمتهم، وركز على اسم سالم بن عبد الله؛ لما عرفه عنه، وعهد فيه، من علم ودين وقدوة صالحة، وجرأة فى مواجهة الباطل والشذوذ عن الصراط السوى. وأخيرا سأله: هل من حدث جدير بالاهتمام والاطلاع؟

فنفى ابن هرمز أن يكون غير ما أخبر به، وأجاب عنه وكتم فى صدره ماكلفته به فاطمة ـ رضى الله عنها ـ من رسالة إلى الخليفة، حول شأن ابن الضحاك معها ومع سالم بن عبد الله. ثم أمر الخليفة حاجبه أن يأذن بالدخول عليه لأصحاب الحاجات.

فقال الحاجب: يا أمير المؤمنين إن بالباب رسولا من عند فاطمة بنت الحسين، يحمل إليك كتابًا منها، وقد طال انتظاره، فأمره الخليفة أن يعجل به، ولا يؤخره. وهنا أحس ابن هرمز بالحرج وسوء العاقبة، فاستدرك، وقال: أطال الله بقاء الأمير، إن فاطمة بنت الحسين قد حملتنى رسالة إلى أمير المؤمنين. . وحكى القصة بتمامها. فغضب الخليفة يزيد بن عبد الملك غضبا شديدا، ونزل عن سريره[1]، وحرج من وجه ابن هرمز وقال له: وَيْحَكَ لا أمَّ لك، ألم أسالك عن شئون المدينة وأخبارها، فكيف تكتم عنى هذا الخبر بما فيه من سوء وتجاوز؟

ثم أذن لرسول فاطمة بالدخول، وتناول الخليفة الكتاب وقرأه، فازداد اضطرابا وغضبًا، واحمر وجهه، وقدحت عيناه بالشرر، ووضع الكتاب جانبا، وراح ينكت الأرض بخيزرانة فى يده ويقول:

ـ لقد اجترأ ابن الضحاك على آل بيت رسول الله ﷺ، ولم يسمع لسالم بن عبد الله، وكلنا نستمع له. هل من رجل يُسمعنى صوت ابن الضحاك وهو يعذب فى المدينة وأنا على فراشى هذا من دمشق؟ فانبرى أحد رجال الحاشية يقول: نعم يا أمير المؤمنين، ليس للمدينة إلا عبد الواحد بن بشر النضرى فولِّه إياها، وهو الآن بالطائف. فقال يزيد: نعم، والله نعم، إنه لها.

وكتب أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك بيده وخطه: «من أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك إلى عبد الواحد بن بشر النضرى، السلام عليك، أما بعد، فإنى قد وليتك المدينة. فإذا جاءك كتابى هذا فتوجه إليها، واعزل عنها ابن الضحاك، وافرض عليه غرامة مقدارها أربعون ألف دينار، وعذبه حتى أسمع صوته من المدينة».

وتوجه رسول الخليفة بكتابه إلى الطائف، وكان عليه أن يمر بالمدينة أولاً؛ لأنها فى طريقه، فلما أتاها نزل فيها للراحة، ولم يسلم على واليها ابن الضحاك، ولم يزره فى ديوانه، ولقد حدثت ابنَ الضحاك نفسُه بأن فى الأمر سوءًا، فأرسل إلى الرسول يدعوه لزيارته، وأولم له، فلما جاءه حاول أن يعرف منه سبب قدومه، فلم يبح له بشىء، فدفع إليه صرة فيها ألف دينار وقال له: لك على عهد الله إن أنت أخبرتنى أن أكتم أمرك.

سال لعاب الرسول أمام بريق الدنانير، وزلت به قدم الخيانة، فأفضى إلى ابن الضحاك بمضمون الكتاب وقبض الدنانير إليه.

قال له ابن الضحاك: لا تتحرك من المدينة قبل ثلاث ليال، حتى أبلغ دمشق، وأسوِّى الأمر مع أمير المؤمنين.

---

(١) السرير: الكرسى الذى يجلس عليه، وهو مميز بالصنعة والزخرفة.

شفاعة مردودة:

وصل ابن الضحاك إلى دمشق، وقصد توا إلى صاحبه وصديقه مسلمة بن عبد الملك أخى الخليفة، فلما دخل عليه قال: أنا فى جوارك أيها الأمير. فأجابه مسلمة: أبشر بخير يا ابن الضحاك. ما حاجتك؟ فأخبره الخبر، وسأله الشفاعة عند أمير المؤمنين.

وفى اليوم التالى جاء مسلمة إلى أخيه فى ديوان الخلافة، وقال له: إن لى عند أمير المؤمنين رجاءً وشفاعةً. وأدرك الخليفة أن أخاه مسلمة قد جاء شفيعًا لابن الضحاك؛ إذ كان يعرف الصلة الوثيقة بينهما، والصداقة الحميمة التى تجمعهما، فقال له: كل حاجة لك مقضية ما لم تكن فى ابن الضحاك. فقال مسلمة: والله ما جئتك يا أمير المؤمنين إلا من أجله. فرد الخليفة: والله لا أعفيه أبدًا، لقد تعرض لفاطمة بنت الحسين وهدها وتوعدها وأرهقها، وناصب سالم بن عبدالله العداء، وأبَى نصحه فيها. ولقد أهاج عليه بفعلته هذه الناس فى المدينة، فهجاه شعراؤها، وعابه علماؤها وصلحاؤها، أتراني أسكت عنه، وأغض طرفى عن آل بيت رسول الله ﷺ، وقد أوذوا؟! لا، والذى نفس بيده!

فسكت مسلمة ثم قال: أنت وشأنك فيه يا أمير المؤمنين. فقال يزيد: مره أن يعود إلى المدينة لينفذ فيه واليها الجديد العقوبة المقررة.

عودة المياه إلى مجاريها:

وتسلم الوالى الجديد منصبه، ونفذ العقوبة فى ابن الضحاك، فارتاح الناس إلى ذلك، وحمدوا الله تعالى.

وسار عبد الواحد بن بشر النضرى - الوالى الجديد - سيرة حميدة طيبة، وجعل سالم بن عبدالله والقاسم بن محمد من خاصة مستشاريه، لا يبرم أمرا ولا يعقده من دونهما، فأحبه الجميع واحترموه، وقدروا للخليفة يزيد بن عبد الملك مأثرته الطيبة فيهم، وإنصافه لهم.

ومن قبل سليمان:

كان سالم - رضى الله عنه - فى غنى عن الدنيا بكل ما فيها من مغريات، زاهدًا فى متاعها وزخرفها، قانعا بما يسَّره الله تعالى له من أسباب المعاش.

ولقد حاول الخلفاء والكبراء وذوو النفوذ والسلطان أن يكسبوه إلى صفوفهم ويجعلوه من خاصتهم، لما له من مكانة عند الناس، لكنه كان ينأى عن كل ذلك، ويجتنبه، ويؤثر رضا الله على رضا خلقه، مهما كان بأسهم، وعلو شأنهم.

ولقد سمعت ووعيت ما كان من شأنه مع الخليفة يزيد بن عبد الملك، وكيف أنصفه الخليفة من واليه على المدينة (ابن الضحاك). هذا الاحترام والتقدير، وتلك المكانة، كانوا جميعا بسبب واحد، هو حترام سالم لذاته ولنفسه. وقد عرف عنه ذلك، واشتهر به، على مدى ولاية أكثر من خليفة أموى، بدءًا من الوليد بن عبد الملك.

يروى أن سليمان بن عبد الملك كان فى حجة[1]، وبعد أن طاف بالكعبة الشريفة، وركع وسجد، قصد إلى حيث يجلس سالم فى طرف قصى يقرأ القرآن، ثم جلس إلى جانبه حتى كانت ركبتاه تمس ركبتَىْ سالم، ولم يقطع عليه قراءته، وانتظره حتى فرغ، ثم سلم عليه: السلام عليك يا أبا عمر ورحمة الله وبركاته. فرد عليه سالم: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، وتباسطا فى الحديث هنيهة، ثم قال سليمان وهو يهم بالنهوض وبصوت خفيض: سلنى حاجة أقضها لك يا أبا عمر. فلم يرد سالم. فظن الخليفة سليمان أنه لم يسمعه، فأعاد السؤال أكثر وضوحا من ذى قبل، وقال: فقال سالم: والله إنى لأستحى أن أكون فى بيت الله تعالى وحرمه، ثم أسأل أحداً غيره، فأدرك الخليفة مدى حساسية سالم ونقاء وجدانه وصفاء روحه، فسكت وعاد إلى الجلوس. وبعد أن قضيت الصلاة قام سالم يريد الانصراف، فتكوكب الناس من حوله يسألونه ويستفتونه ويستنصحونه، وهو يرد عليهم بأناة وصبر، والابتسامة لا تفارق ثغره.

وتبعه سليمان، فأفسح له الناس، حتى حاذى منكبه منكب سالم. ثم إن الخليفة سليمان مال على أذن سالم وهمس له قائلا: ها نحن الآن يا أبا عمر قد أصبحنا خارج المسجد، فسَلْنى حاجةً أقضها لك. فنظر إليه سالم، وقال: من حوائج الدنيا أم من حوائج الاخرة، يا أمير المؤمنين؟ وَكاد الخليفة يرتبك، فقال: بل من حوائج الدنيا! فهز سالم رأسه وضحك قليلا، ثم قال: يا أمير المؤمنين، إننى لم أطلب حوائج الدنيا ممن يملكها، فكيف أطلبها ممن لا يملكها؟

فسكت سليمان خجلاً، ثم حيًّا سالمًا، وقال له: ما أعزكم آل الخطاب بالزهد والتقى! وما أغناكم بالله جل جلاله! بارك الله لكم وعليكم من آل بيت. ثم ودعه وانصرف.

ومن قبل سليمان الوليد:

فى آخر حجة حجها الوليد بن عبد الملك ـ وهو خليفة ـ التقى سالمًا ـ رضى الله عنه ـ فى المزدلفة، وقد أفاض الناس من عرفات، وهم لا يزالون فى إحرامهم، فأقبل على سالم وحياه واحتفى به، ثم نظر إلى ما انكشف من بدنه فرآه تام البنية، ملتف العضلات، فأعجب بذلك، وقال له: إنك لحسن الجسم يا أبا عمر! فما أكثر طعامك؟ فقال سالم: الخبز والزيت، وإذا وجدت اللحم ـ أحيانا ـ آكله. فدهش الوليد وقال: الخبز والزيت! قال سالم: نعم. فسأله الخليفة الوليد: أوتشتهيه؟! فأجابه سالم: إذا لم أشتهه أتركه حتى أجوع فأشتهيه.

هذا اللقاء العابر، وتلك المحاورة، لم يكونا وحدهما مدعاة حب واحترام الوليد بن عبدالملك لسالم بن عبد الله بن عمر؛ فإن فى علم ومكانة سالم ما أهَّله لأن يكون صاحب صيت طيب يسبقه إلى قلوب الخلفاء والعلماء وعامة الناس.

ومع الحجاج بن يوسف:

وما أدراك ما الحجاج فى سطوته وجبروته، ولكنها تتضاءل أمام وقفه عالم شجاع.

(١) كان سليمان ـ رحمه الله ـ كثير الحج إلى بيت الله الحرام.

لقد نزل الحجاج المدينة، فأتاه سالم فى حوائج الناس، فرحب به الحجاج، وأدنى مجلسه وبالغ فى إكرامه، وأفسح له، وتبسط معه. . وبينما هما فى ذلك إذ جيء الحجاج بنفر مقرَّنين فى الأصفاد، غبر الوجوه، شعث الرءوس، قد سُلسلوا فى الحديد، يحيط بهم الجند. فقال الحجاج لسالم: هؤلاء بغاة مفسدون فى الأرض قد استباحوا حرمات الله من أموال الناس ودمائهم وأعراضهم، وجزاؤهم ـ كما علمت ـ أن يقتَّلوا أو يصلَّبوا أو يُنفَوْا من الأرض. وعليك بأولهم ورئيسهم هذا ـ وأشار بيده إليه ـ فاضرب عنقه بيدك أنت. ثم ناوله السيف. وأدرك سالم ـ رضى الله عنه ـ ما يريد الحجاج من إحراجه، فأخذ السيف، وتقدم من الرجل، وقد استيقن الحضور أن سالمًا سينفذ فى الرجل ما يستحق من العقاب. .

فلما حاذاه سأله: أسليم أنت؟ فقال الرجل: نعم، ولكن ما لك ولهذا السؤال؟ امضى لما أمرت به، وأضرب عنقى. ثم سأله سالم بهدوء: هل صليت الصبح؟ فقال الرجل: قلت لك إنَى مسلم، ثم تسألنى إن كنت صليت الصبح؟ وهل تظن أن هناك مسلمًا لا يصلى؟! عجبا لك!

فقال له سالم: أسالك: هل صليت صبح هذا اليوم؟ فرد الرجل قائلا: هداك الله، قلت لك: نعم، وسألتك أن تنفذ ما أمرك به هذا الظالم. فارتد سالم عنه واتجه إلى حيث يجلس الحجاج، ورمى بالسيف بين يديه، وقال له: إن الرجل يقر بأنه مسلم، ويقول إنه صلى صبح هذا اليوم. وقد بلغنى أن رسول الله ﷺ قال: «من صلى صلاة الصبح فهو فى ذمة الله»، وإنى لا أقتل رجلاً دخل فى ذمة الله تعالى.

فاغتاظ الحجاج، وهاج وثار، وقال: إننا لا نقتله على ترك صلاة الصبح، وإنما نقتله لأنه ممن أعان على قتل الخليفة عثمان بن عفان. فقال سالم للحجاج: إن فى الناس من هو أولى منك ومنى بدم عثمان. فسكت الحجاج ولم يجر جوابا.

كتابه إلى عمر بن عبد العزيز:

وفى أرومة عمر بن عبد العزيز جذور من آل الخطاب؛ فجده لأمه عاصم بن عمررضى الله عنهم أجمعين، فعندما آلت الخلافة من سليمان بن عبد الملك بعهد منه إلى عمر بن عبد العزيز كتب عمر إلى سالم كتابًا قال فيه: «أما بعد، فإن الله عز وجل ابتلانى بما ابتلانى به من ولاية أمر المسلمين، عن غير مشورة منى ولا طلب، فأسال الله ـ تعالى ـ الذى ابتلانى بهذا الأمر أن يعيننى عليه. فإذا جاءك كتابى هذا، فابعث لى بكتب عمر بن الخطاب وأقضيته وسيرته، فإنى عازم على أن أتبع سيرته، وأسير على نهجه، إن أعاننى الله على ذلك. . والسلام».

فبعث إليه سالم يقول: «أما بعد، فقد جاءنى كتابك الذى تذكر فيه أن الله ـ عز وجل ـ ابتلاك بإمارة المسلمين، من غير طلب منك ولا مشورة، وأنك تريد أن تسير سيرة عمر، فلا يفتْك أنك فى زمان غير زمان عمر، وأنه ليس فى رجالك من يماثل رجال عمر، ولكن اعلم أنك إن نويت الحق وأردته أعانك الله عليه، وأتاح لك عمالاً يقومون لك به، وآتاك

بهم من حيث لا تحتسب، فإن عون الله للعبد على قدر نيته، فمن تمت نيته فى الخير، تم عون الله له، ومن قصرت نيته نقص من عون الله له بقدر ما نقص من نيته. وإذا نازعتك نفسك إلى شيء مما لا يرضى الله - عز وجل - فاذكر من كان قبلك من ذوى السلطان الذى سبقوك إلى الرحيل عن هذه الدنيا، وسل نفسك: كيف تفقأت عيونهم التى كانوا يشهدون بها اللذات! وكيف عزفت بطونهم التى كانوا لا يشبعون بها من الشهوات، وكيف صاروا جيفا لو تركت إلى جانب مساكننا ولم توارها آكام الأرض لضججنا من ريحها، ولمسنا الضر من نتنها. . والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته».

وحسن أولئك رفيقا:

لقد حبا الله تعالى سالم بن عبد الله بن عمر قلبا خاشعا، ولسانا صادقا، وبدنًا على االبلاء صابرا، وظل طوال عمره المديد قدوة صالحة وأسوة حسنة لمن عاصره وعايشه، ولمن أتى بعده، يهدى إلى الحق وإلى طريق الرشاد.

ثم طويت الصفحة المشرقة بالعلم والتقوى، لتنضم إلى موكب الإيمان والنور مع النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. واستوفى الله تعالى حياة سالم واسترد أمانته!

القاسم بن محمد

ابن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنهم

(٣٧ - ١٠٧ هـ)

قال ابن عيينة:

كان القاسم أفضل أهل زمانه.

مدرسة عائشة:

كانت أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ أحفظ نساء رسول الله ﷺ وأكثرهن حديثا، ولقد وهب لها الله تعالى قلبًا مفعمًا بالفضل والخير، وبصيرة نافذة، وذكاء حادا، ونفسا حانية. ولقد اختصت بشطر كبير من تراث النبوة هو خصوصيات البيت الشريف، تفوقت فيه وانفردت، ولولاها لما قُدِّر لهذا الكنز العلمى أن ينتشر ويظهر، ويصل إلينا.

وكانت ـ رضى الله عنها ـ مرجعًا لكبار الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يأخذون عنها، ويعتدون بقولها، حتى إنها استدركت على كثير من أقوال ونقول ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى أدب جم، وأسلوب مهذب، دونما تجريح، أو مغالطة جافة يمقتها الذوق السليم.

فكانت، إذا ما سمعت قولا لابن عباس غير مطابق لما تحفظ، وما هو بحق، قالت: رحم الله ابن عباس! ما قال رسول الله ﷺ كذا، بل قال كذا وكذا، وتدعم ذلك ببسبب ورود القول أو الفعل.

وقدر لعدد كبير من صغار الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ وكبار التابعين أن يلازموا بيتها، بعد وفاة رسول الله ﷺ يشافهونها، ويحفظون عنها تحدثهم وتبين لهم، وترعاهم، بعضهم من وراء حجاب، وآخرون مواجَهةً. ولا نعدو الحقيقة التاريخية إذا ما قلنا إن بيتها (حجرتها) كان مدرسة، بكل ما فى كلمة المدرسة من معنى وحضور ومؤهلات، مدرسة لها أستاذها ومؤدبها ومنهجها وتلامذتها.

النابغون والنابهون:

ولقد برز من بين تلامذتها الكثيرين نفرٌ من جلة التابعين، علمًا وفضلاً وسلوكًا، حتى عُدّوا رموزًا وأعلامًا يشار إليهم بالبَنان، وخلَّفوا من بعدهم ذخيرة علمية وكنوز معرفة تزخر بنفيس العطاء. من هؤلاء: عُروة بن الزُّبير، وعَمْرة بنت عبد الرحمن الأنصارية، والقاسم بن محمد بن أبى بكر.. وغيرهم، رضى الله عنهم.

القاسم بن محمد:

ولقد تميز القاسم بن محمد من غيره من التلامذة النابغين النابهين بأنه رُبِّى فى حجرها. ولكن كيف؟!

كان القاسم ابن أخيها محمد بن أبى بكر، من غير أمها، فأمها أم رُومَان رضى الله عنها، وأم محمد هى: أسماء بنت عُمَيْس رضى الله عنها، تزوجها أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ بعد استشهاد زوجها جعفر بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ يوم موته، فولدت له محمداً، وبعد أبى بكر تزوجها على رضى الله عنه. وعليه فقد ربى محمد فى نشأته الأولى فى بيت على، ومن هنا كان تعلق محمد بعلى، وكان ولاؤه له بغير حدود.

الوالى على مصر:

وفى زمن الفتنة كان محمد بن أبى بكر فى طليعة القوم الذين تسوَّروا الدار على عثمان رضى

الله عنه، وقتلوه. وبعد أن بويع لعلى بالخلافة عين محمد بن أبى بكر واليا على مصر، وكان يومئذ فى السادسة والعشرين من عمره تقريبًا، فتًى يمتلئ حماسا، ويتقد حيوية، فاستهان به أشياع معاوية بن أبى سفيان - رضى الله عنه - وناصبوه العداء، وتحيَّنوا الفرص للخلاص منه.

فلما دخل عمرو بن العاص مصر على رأس قوات من أهل الشام لاستردادها، وهُزم محمد ابن أبى بكر ومن معه، فرَّ هاربا، لا يلوى على شىء، لكنه قبض عليه، وقتل صبرًا، ثم وضعت جثته فى جيفه حمار وأحرق. وكانت نهاية مؤلمة، جزعت لها أم المؤمنين عائشة جزعًا شديدًا، ومن ثم احتضنت ولده القاسم، وكان ما يزال طفلاً صغيرًا، لم يبلغ الحُلُم. وتولته عمته بالعناية والرعاية، وأغدقت عليه من عطفها وحنانها، واستفرغت فى صدره وفؤاده كل ما لديها من عطاء.

حديث القاسم - رضى الله عنه:

ويحدثنا القاسم عن ذلك بنفسه فيقول: لما قتل أبى بمصر جاء عمى عبد الرحمن بن أبى بكر[1] فاحتملنى أنا وأختى الصغيرة، ومضى بنا إلى المدينة.

فما أن بلغناها حتى بعثت إلينا عمتى عائشة - رضى الله عنها - فحملتنا من منزل عمى إلى بيتها، وربتنا فى حجرها، فما رأيت والدة قط ولا والداً أكثر منها برًا، ولا أوفر شفقة، كانت تطعمنا بيديها، ولا تأكل معنا، فإذا بقى من طعامنا شىء أكلته. وكانت تحنو علينا حنو المرضعات على الفطيم، فتغسل أجسادنا، وتمشط شعورنا، وتلبسنا الأبيض الناصع من الثياب، وكانت لا تفتأ تحضنا على الخير، وتمرِّسنا بفعله، وتنهانا عن الشر، وتحملنا على تركه. وقد دأبت على تلقيننا ما نطبقه من كتاب الله، وترويتنا ما نعقله من حديث رسول الله ﷺ.

وكانت تزيدنا بّرا وارتحامًا فى العيدين، فإذا كانت عشية عرفة حلقت لى شعرى وغسلتنى أنا وأختى، فإذا أصبحنا ألبستنا الجديد، وبعثت بنا إلى المسجد لنؤدى صلاة العيد، فإذا عدنا منه جمعتنى أنا وأختى وضحَّت بين أيدينا.

وفى ذات يوم ألبستنا ثيابًا بيضًا، ثم أجلستنى على إحدى ركبتيها، وأجلست أختى على ركبتها الأخرى، وكانت قد دعت عمى عبد الرحمن، فلما دخل عليها حيَّته، ثم تكلمت، فحمدت الله تعالى، وأثنت عليه بما هو أهله.

فما رأيت متكلمًا قط من رجل أو امرأة قبلها ولا بعدها أفصح منها لسانًا ولا أعذب بيانًا، ثم قالت: أى أخى، إنى لم أزال أراك معرضًا عنى منذ أخذت هذين الصبيين منك وضممتهما إلىَّ، ووالله ما فعلت ذلك تطاوُلاً عليك، ولا سوء ظن بك، ولا اتهامًا لك بالتقصير فى حقهما، ولكنك رجل ذو نساء، وهما صبيان صغيران لا يقومان بأمر نفسيهما، فخشيت أن يرى نساؤك منهما ما يتقذرنه، فلا يطبن بهما نفسا، ووجدت أنى أحق منهن بالقيام على أمرهما فى هذه الحال، وها هما الآن قد شبا وأصبحا قادرين على القيام بأمر نفسيهما، فخذهما وضمهما إليك.

فأخذنا عمى عبد الرحمن، وضمنا إلى بيته.

(١) عبد الرحمن وعائشة من أم واحدة، هى أم رومان، وكان مع عمرو بن العاص فى جيش الشام.

القلب المعلق وحنين الطفولة:

لكن قلب القاسم ظل معلقا ببيت عمته عائشة، فلا يطيق فراقها، يأتيها مع كل غداة، ليأنس إلى قلبها الزاخر بالحنان، ويستمع إلى حديثها المضمَّخ بشذا النبوة، فيسألها وتجيبه، ويستنطقها فتحدثه. وهي تعلم علم اليقين شبوب عقله وقلبه إلى المعرفة والعلم، وتألق ذهنه ووعيه إلى الاستزادة، فلا تبخل عليه، ولا تحجب عنه.

ويحدثنا القاسم - رضى الله عنه - عن ذكريات طفولته فيقول: قلت ذات يوم لعمتى عائشة - رضى الله عنها: يا أمَّه[1]، اكشفى لى عن قبر النبى ﷺ وقبرى صاحبيه، فإنى أريد أن أراها. وكانت القبور الثلاثة ما زالت داخل بيتها، وقد غطتها بما يسترها عن العين، فكشفت لى عن ثلاثة قبور لا مشرفة ولا واطئة[2]، قد مهدت بصغار الحصى الحمر، فما كان فى باحة المسجد، فقلت: أين قبر رسول الله ﷺ؟ فأشارت بيدها وقالت: هذا. ثم تحدرت على خديها دمعتان كبيرتان، فبادرتْ فمسحتْهما حتى لا أراهما. وكان قبر النبى ﷺ، مقدما على قبر صاحبيه، فقلت: وأين قبر جدى أبى بكر؟ فقالت: هو ذا. وكان مدفونا عند رأس النبى ﷺ. فقلت: وهذا قبر عمر؟ فقالت: نعم. وكان رأس عمر - رضوان الله عليه - عند خصر جدى، قريبا من رجل النبى ﷺ.

هذا الوصف المتواتر عن القاسم - رضى الله عنه - يعد من أهم المصادر الموثوق بها عن الكيفية للقبور الشريفة، والذى تناقلته الألسن كابراً عن كابر، وراويًا عن راوٍ، حتى بلغَنا.

الكتاب والسنة:

إن حفظ كتاب الله تعالى، وإتقان السنة الشريفة كان أساس الإجازة لمن أراد أن يدخل فى حوزة العلماء، وأن يغدو واحداً منهم، مع حسن الفهم والتلبس السلوكى. لذا أقبل القاسم على كتاب الله تعالى، يحفظ ويتقن ويتدبر، ومال إلى السنة الشريفة، فوعى عن عمته عائشة - رضى الله عنه - ما قدر له أن يعى ويحفظ. وكان قد بلغ مرحلة الشباب والفتوة. ومن بعد، كان لا يفتأ يجالس بقية الصحابة فى مسجد رسول الله ﷺ، ينهل من فيض علمهم وحفظهم، وكان المسجد آنذاك جامعة العلم، ومعدن الإسلام، تتوزع فيه الحلقات هنا وهناك، فكان القاسم - رضى الله عنه - يتنقل بينها، ويلم من كل حلقة طيب القول، وكأنه فى روضة فينانة يجمع من زهرها كل جميل ومفيد وشذىّ.

لقد جالس القاسم أبا هريرة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبدالله بن جعفر بن أبى طالب وعبد الله بن خبَّاب ورافع بن خديج وأسلم مولى عمر بن الخطاب.. وغيرهم، رضى الله عنهم، فحفظ وأتقن، ووعى فأجاد، وفهم فبرز، وأصبح مؤهلاً ليكون فى عداد علماء عصره، بل سيداً من سادات أهل المدينة وعلمًا من أعلامها.

(١) يعنى: يا أمى. وكان هذا نداءه ونداء غيره أيضا من الصحابة وكبار التابعين؛ امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾. وعائشة وسائر أزواج النبى ﷺ أمهات للمؤمنين رضى الله عنهنَّ.

(٢) لا مشرَفة: ليست عَالية مرتفعة. ولا واطئة: منخفضة. أى: مسوَّاة مع الأرض.

ثانى اثنين:

ورث العلم فصانه، وقدر له الناس هذه المنزلة والمكانة. وتربع على كرسى الأستاذية، فكانت له حلقته فى مسجد رسول الله ﷺ، وفى موعد محدد لا يتخلف عنه، يأتى المسجد الشريف ويجلس عند خوخة عمر فى الروضة، ويجتمع الناس من حوله، من طلاب العلم والمعرفة، يتلقون عنه ما يفيضه عليهم من مذخور حفظه وفهمه، وعلمه الثر، فى تواضع وأدب وحسن سمت وسلوك.

ولم تمض إلا سنوات قلائل حتى غدا القاسم ثانى اثنين فى الريادة العلمية، والمكانة الاجتماعية. أما الثانى فكان ابن خالته سالم بن عبد الله بن عمر[1] ـ رضى الله عنهم. وكانا فى العلم والعطاء كفرسى رهان، دون أن يجحف أحدهما بحق الآخر، أو يغض من قيمته، فلا تنازع بينهما ولا خصام، ولا حقد ولا حسد.

السيادة:

ليست السيادة تسلطًا أو استبدادًا، أو مالاً أو جاهًا، أو قوة ونفوذًا، ليست فرضا، ولكن نسبًا واحترامًا. فمن خلال القيم والمعرفة، ومتانة الدين، وقوة اليقين، ومن خلال الخلق القويم والصلابة فى الحق والجرأة به، والسلوك السوى، استطاع القاسم وسالم أن يكونا سيدين فى المدينة يؤخذ برأيهما، ويرجع إليهما، ويسمع لقولهما، فما من وال أتى المدينة إلا وقدرهما وأنزلهما ما يليق بهما من المكانة، مهما كان جوره وانحرافه.

الوليد بن عبد الملك ـ توسعة الحرم النبوى الشريف:

كان مما يميز به الخليفة الوليد بن عبد الملك اهتمامه ببيوت الله. والذى يطلع على أعماله يرى ذلك بوضوح. ومن جليل أعماله المسجد الأموى فى دمشق، ومسجد قبة الصخرة فى القدس الشريف، وكذلك توسعة الحرم النبوى.

كان الوالى على المدينة فى أيامه ابن عمه عمر بن عبد العزيز، ولكن توسعة الحرم النبوى الشريف لها محاذيرها المعنوية والمادية، فلا بد من إزالة بيوت أزواج النبى ﷺ، وهدم الجدران القائمة من الجهات الأربع؛ وذلك أمر عسير، حيث لا تطيب نفوس الناس بذلك، وتشق عليهم وتخشى الفتنة.

فكتب الوليد إلى واليه على المدينة، يقول: لقد رأيت أن أوسع مسجد رسول الله ﷺ حتى يصبح مائتى ذراع فى مائتى ذراع ـ طولا وعرضا ـ، فاهدم جدرانه الأربعة، وأدخل فيه حجرات أزواج النبى ﷺ، واشتر ما فى نواحيه من البيوت، وقدِّم القبلة إن قدرت، وإنك تستطيع ذلك لمكان أخوالك آل الخطاب ومنزلتهم فى قلوب الناس.

فإذا أبى عليك أهل المدينة، ذلك، فاستعن عليهم بالقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله بن

---

(١) كانت أمه وأم سالم بنتى كسرى يزدجرد، وكذلك أم علىّ زين العابدين.

عمر وأشركهما معك في الأمر، وارفع إلى الناس أثمان بيوتهم سخاء، وإن لك في ذلك سلَفَىْ صدق: عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان[1].

العاملان بأيديهما:

وقبل أن يبدأ عمر بن عبد العزيز بتنفيذ أمر الخليفة الوليد استدعى إليه القاسم وسالما، وقرأ عليهما كتاب أمير المؤمنين، وكان معهما بعض وجوه أهل المدينة، فسُرا جميعا لما سمعوا، ومن غير تردد وافقوا؛ فإن في ذلك العمل من الخير ما يحمد عليه المرء.

وعندما بدأ العمل في هدم الجدران كان القاسم وسالم يعملان مع العمال والأجراء بأيديهما، فلما رأى الناس ذلك منهما أقبلوا يساعدون ويعاونون، واندفعوا اندفاعا.

مال ساقه الله ـ تعالى ـ وسخرة:

كانت جيوش الإسلام الظافرة بقيادة مَسلمة بن عبد الملك تسيح في آسيا الصغرى، وتفتح حصون الروم ومدنهم، وتكتسح في زحفها كل ما يواجهها وتدكه دكا، وتتجه إلى القسطنطينية لفتحها ولَنعْمَ الأمير ُأمير ُذلك الفتح[2].

وأراد هَرقلها أن يصانع الخليفة ويداهيه، ليخفف الوطأة، وقد علم أن الخليفة الوليد يريد توسعة الحرم النبوي الشريف، فبعث إليه بمائة ألف مثقال من الذهب، ومائة ألف عامل وحرفي ومهني، وزود رسله إلى الخليفة بأربعين جملاً من الفسيفساء.

فلما كان هذا المال والقدرات والإمكانات بين يدي الخليفة الوليد سيره من فوره إلى المدينة. ولقد كان ذلك رزقا من عند الله تعالى ساقه إلى أصحابه.

بين الجد والحفيد:

الجد هو أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ والحفيد هو القاسم، ولقد كان القاسم ـ رضي الله عنه ـ شديد التأسِّي بجده الصديق؛ قولاً وعملاً، إيمانًا وسلوكًا.

وتدلَّى إلى القاسم بحكم الوراثة كثير من شمائل أبي بكر رضي الله عنه، ومن أبرزها التواضع الجم. فقد أثر عنه ـ رضي الله عنه ـ أنه كان في درس له في المسجد الشريف، عند خوخة عمر كما تعوَّد، وكان في الحلقة أحد الأغراب من المتمردين بين حلقتي سالم والقاسم يسمع من كليهما، فخطر له أن يسأل القاسم: أيكما أعلم، أنت أم سالم بن عبد الله؟ فتشاغل عنه القاسم، وكأنه لم يسمع السؤال. فألح الأعرابي، مرة ومرتين، فقال له القاسم: يا سبحان الله! ذاك سالم، يا ابن أخي في حلقته يجلس هناك فاتئه.

وعلق بعض الحضور على جواب القاسم فقال: لله أبوه[3]، لقد كره أن يقول: أنا أعلم منه فيزكِّي نفسه. وكان القاسم أعلم من سالم، وكره أن يقول: هو أعلم مني فيكذب، فلا مديح

(١) كلاهما ـ رضي الله عنهما ـ أجريا بعض التوسعة للحرم النبوي الشريف.
(٢) كما روى عن رسول الله ﷺ.
(٣) عبارة استحسان ومدح.

النفس مقبول، ولا الكذب مستساغ، فهرب منهما القاسم بتواضع وأدب إلى رده الهادئ.

كلمة «لا أعلم» نصف العلم، ومن قال: لا أعلم ـ فقد أفتى:

ومن أهم ما تميزت به شخصية القاسم ـ رضى الله عنه ـ فى الفتوى أنه لا يفتى بغير علم، وكثيرا ما كان يرد على السائل بقوله: لا أعلم، أو: لا أدرى.

وتلك هى أمانة العلم، والتقوى فيه، حتى وإن تعجب الناس ودهشوا. وحدث مرة ـ وكان فى منى، فى موسم الحج ـ أن أطبق الناس عليه يسألونه ويجيبهم، فلما قال لبعضهم: لا أعلم، أخذهم العجب، فقال لهم: ما نعلم كل ما تسألون عنه، ولو علمناه ما كتمناه ولا يحل لنا أن نكتمه، ولأنْ يعيشَ الرجل جاهلاً ـ بعد أن يعرف حق الله عليه ـ خير له من أن يقول ما لا يعلم.

تأديبه لولده:

يروى أنه كلف ذات يوم بتوزيع الصدقات على مستحقيها من أهل المدينة، بعد قسمتها، فقام بالمهمة خير قيام، واجتهد وُسْعه، إلا أن واحدًا من الناس لم تعجبه القسمة، ولم يرض عن نصيبه، ورأى فيه إجحافًا بحقه؛ فأتى المسجد ليَلقى القاسم ويعاتبه، فرآه يصلى، ولكنه لم يسكت، فقام يتكلم، وينال من القاسم. وكان ابن للقاسم حاضراً، فأخذته الحمية على أبيه، فقال للرجل: والله، إنك لتتكلم فى رجل ما نال من صدقتكم درهمًا ولا دانقًا[1]، ولا أصاب منها تمرة واحدة. عندئذ فقط خفَّف القاسم من صلاته، وتجوَّز فيها، ثم التفت إلى ابنه ـ لا إلى الرجل المعترض ـ وقال: يا بنى لا تتكلم بعد اليوم فيما لا تعلم.

وقال أحد الحضور الراوى للحادثة: صدق ابنه فيما قال فى رده على الرجل المعترض، ولكنه أراد أن يربى ولده كى يحفظ لسانه عن التوسع فى الكلام.

حتى أتاه اليقين:

وعاش القاسم ـ رضى الله عنه ـ زيادة على السبعين، ولكنه كُفَّ بصره، وظل رائدًا من رواد العلم والتقوى. وفى طريقه إلى الحج، فى آخر سنة من عمره، مرض مرض الموت، فلما أحسَّ بدُنُوِّ الأجل قال لولده: يا بُنَى، إذا أنا متُّ فلفَّنى بثيابى التى كنت أصلى بها: قميصى وإزارى وردائى؛ فذلك كان كفن جدك أبى بكر. ثم سوِّ علىَّ لَحْدى والحقْ بأهلك، وإياكم أن تقفوا على قبرى، وتقولوا: كان وكان، فما كنت شيئًا.

ونفذت وصيته وبقىَ ذكره مشعلاً هاديا فى الظلمات لمن أراد أن يذَّكَّر أو أراد نشوراً.

---

(١) الدانق سدس الدرهم.

عكرمة

مولى ابن عباس رضى الله عنهم

(٣٥ - ١٠٧ هـ)

خذوا المناسك عن سعيد بن جبير وعكرمة والضحاك.

سفيان الثورى

إن الشيطان ليزين للعبد الذنب، فإذا عمله تبرأ منه، فلا يزال يتضرع إلى ربه، ويتمسكن. ويبكى حتى يغفر الله له ذلك وما قبله.

عكرمة

ما بقى أحد أعلم بكتاب الله تعالى من عكرمة.

عامر الشعبى

مولى ابن عباس رضى الله عنهم..

بعد أن بويع لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه بالخلافة؛ ولّى على البصرة ابن عمه عبدالله بن عباس رضى الله عنهما، لا لقرابته ونسبه، ولكن لما كان ابن عباس يتمتع به من علم وفهم وحزم، وقوة شخصية، ولما أبداه من مناصرة وتأييد.

فلما أتاها وباشر مهمته التف حوله كبراؤها، وتعاونوا معه.

وكان للحصين بن الخير العنبرى غلام بربرى الأصل، وقع فى السبى عندما فتح المسلمون الشمال الإفريقى، أسمر شديد السمرة، خفيف الحركة، لماحا ذكيا.

وحبا من الحصين لابن عباس أهداه هذا الغلام، وكان فى نحو السادسة أو السابعة عشرة من عمره، فقبله شاكرا، وأدخله فى زمرة العاملين عنده. وسماه عكرمة[1].

عكرمة

وهو اسم عربى، له مدلول لغوي، يعنى: أنثى الحمائم. .

ولعل ابن عباس رضى الله عنهما قد وجد فى طبع وسجية مولاه الجديد وداعة ورقة فاختار له هذا الاسم؛ بحيث يتطابق الشكل مع المضمون.

المعلم والتلميذ

تجاوزت العلاقة بين ابن عباس وعكرمة حدود السيد والمولى إلى مرتبة المعلم والتلميذ. إذ وجد ابن عباس فى الغلام البربرى ذكاء وقادا، ونباهة حادة، من خلال التواصل والتجربة والاختبار، فأولاه اهتمامه بجذبه إلى ميدان العلم وحمل أمانته.

وأعظم بابن عباس من معلم. وأكرم به من صحابى، دعا له رسول الله ﷺ فقال: «اللهم علمه التأويل، وفقهه فى الدين»، «اللهم بارك فيه وانشر منه».

يقول الإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله فى ترجمة ابن عباس رضى الله عنهما: . . . حبر هذه الأمة، ومفسر كتاب الله وترجمانه، كان يقال له: الحبر والبحر. وروى عن رسول الله ﷺ شيئا كثيرا[2]، وعن جماعة من الصحابة، وأخذ عنه خلق كثير من الصحابة، وأمم من التابعين.

وله مفردات ليست لغيره من الصحابة، لاتساع علمه، وكثرة فهمه، وكمال عقله، وسعة فضله، ونبل أصله. وشهد له عمر رضى الله عنه - فقال: إنك لأصبح فتياننا وجها، وأحسنهم عقلا، وأفقههم فى كتاب الله عز وجل. وكان يقربه منه ويدنيه، ويستشيره فى معضلات العلم، رغم وجود أكابر الصحابة عنده، ثقة منه به، ومعرفة لفضله؛ وتقديرا لعلمه وفهمه ونباهته.

(١) لم أجد ما يشير إلى اسمه البربرى فى مختلف المراجع.

(٢) زيادة على ألف حديث.

هذا هو المعلم

أما التلميذ عكرمة فقد كان ما يزال فى طور الفتوة، يستبد به لهوها وتغريرها، فكان غير ميال إلى طلب العلم، فقسره المعلم عليه، وشده إليه، رغما عنه، إذ وجد فيه ابن عباس طاقة هائلة من الوعى والاستيعاب، والحفظ مع الفهم، وحسن التلقى، فأراد له أن يكون مستودع علم، وينبوع معرفة.

فكان المعلم يقيد رجلى التلميذ، ليمنعه من الحركة، ثم يلقى عليه الدروس.

يقول عكرمة رضى الله عنه: كان ابن عباس يضع فى رجلى الكبل[1]، يعلمنى القرآن والسنن. ولعل ذلك كان من ابن عباس فى بادئ الأمر، حتى إذا ما أنس عكرمة إلى جو العلم، ورغب فيه عن طواعية وحب، توقف ابن عباس عن هذا الأسلوب القسرى.

أربعين سنة

رافق عكرمة مولاه ابن عباس عقودا من السنين، بلغت أربعا، يأخذ عنه، ويتفقه على يديه، فى كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، وعلوما كثيرة غير ذلك.

يقول عكرمة: طلبت العلم أربعين سنة.

وكما تلقى عن ابن عباس، أخذ عن غيره أيضا وتلقى عن عبدالله بن عمر وعبدالله بن عمرو وأبى هريرة وأبى سعيد الخدرى وعائشة والحسن بن على رضوان الله عليهم أجمعين.

فلما استوى على عوده ونضج، وتبين للمعلم ابن عباس أنه بلغ مداه، وقد أنس فيه القدرة والكفاءة على العطاء أجازه، قائلا: انطلق فأفت الناس، فمن سألك عما يعنيه فأفته، ومن سألك عما لا يعنيه فلا تفته، فإنك تطرح عنى ثلثى مؤونة الناس.

وكان هذا القول من ابن عباس رضى الله عنهما شهادة التخرج لعكرمة. وهكذا قدر لعكرمة أن يكون هو أيضا معلما فى حياة سيده ومولاه عبدالله بن عباس رضى الله عنهما، ونقول: سيده ومولاه؛ لأن ابن عباس لم يعتق عكرمة فى حياته؛ إنما جاءه العتق بعد وفاته، وإليك الحكاية.

المولى المحرر

آل أمر الولاية على عكرمة لعلى بن عبدالله بن عباس. وقد رغب فيه خالد بن يزيد بن معاوية، فعرض على على أن يشتريه منه، بمبلغ أربعة آلاف دينار، فوافق.

وكان عكرمة آنذاك شديد الحنين إلى آل بيت ابن عباس، محبا لهم، كثير التعلق بهم، لا يريم عنهم بديلا، فأتى عليا وعاتبه عتابا رقيقا، فحرك فيه نخوته العائلية والعلمية، فقال: ما خير لك، بعت علم أبيك بأربعة آلاف دينار. فأحس على بخطأه، وأغضى حياء، ودمعت عيناه. ثم استقاله عكرمة من هذه الصفقة، فأقاله على وأعتقه حرا لوجه الله تعالى.

---

(١) الكبل: القيد.

التحرر البدنى والجغرافى

ما إن استعاد عكرمة أبو عبد الله حريته، وانعتق من رقِّه، حتى تحرر أيضا من مقامه فى البصرة؛ وقد طال أمدا بعيدا.

فبدأ يجول فى بلاد الله هنا وهناك وهنالك، ويستفرغ ما عنده من علم وتحصيل، على الخاصة والعامة؛ للأمراء والحكام والولاة فى مجالسهم ودواوينهم، وللناس عامة فى المساجد والجوامع، وقد أعجب به الجميع، وأنزلوه من أنفسهم مكانة عالية، وأضحى مقدما على غيره من علماء عصره؛ خاصة فى التأويل والتفسير، الذى اكتسبه من معلمه ابن عباس؛ وبما وقف عليه هو من ابتكاراته العلمية.

زار الشمال الإفريقى، حتى بلغ أقصاه عند المغرب، وأتى اليمن؛ وطاف بالشام؛ وكذلك مدن العراق؛ وأيضا زار خراسان؛ وبث علمه فى كل تلك الديار.

وكان رضى الله عنه يقبل من طبقة الحكام جوائزهم وصلاتهم.

يبز أقرانه

روى حبيب بن أبى ثابت فقال:

اجتمع عندى خمسة لا يجتمع عندى مثلهم أبدا: عطاء وطاووس وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد.

فأقبل سعيد ومجاهد يلقيان على عكرمة التفسير، فلم يسألاه عن آية إلا فسرها لهما؛ فلما نفد ما عندهما جعل يقول: أنزلتْ آية كذا فى كذا.

ولقد أقر له كثير من أقرانه بسبقه العلمى فى التفسير والتأويل، وفى غيره أيضا.

قال جابر بن زيد[١]: عكرمة أعلم الناس. وقال عامر الشعبى: ما بقى أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة. وقال قتادة[٢]: أعلمهم بالتفسير. أى: علماء عصره. وقال ابن علية عن أيوب: سأل رجل عكرمة عن آية، فقال: نزلت فى سفح ذلك الجبل - وأشار إلى سلع[٣]. وحدثنا عكرمة عن نفسه فى علم التفسير، فقال: لقد فسرت ما بين اللوحين- يريد دفتى المصحف .

ويأتيه طلبة العلم

والعلماء أيضا يسألونه فيجيبهم، ويستقرئونه فيبين لهم. قال الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه: حدثنا عبدالرزاق قال: سمعت معمرا يقول: سمعت أيوب[٤] يقول: كنت أريد أن أرحل

---

(١) جابر بن زيد الأزدى، البصرى - أبو الشعثاء، تابعى فقيه، من الأئمة. صحب ابن عباس؛ وكان من بحور العلم. (٢١-٩٣هـ).

(٢) قتادة بن دعامة السدوسى، مفسر حافظ، ضرير أكمه. قال عنه أحمد بن حنبل: قتادة أحفظ أهل البصرة؛ وكان لغويا نحويا نسابة. (٦١ - ١١٨هـ).

(٣) سلع · أحد جبال المدينة المنورة.

(٤) هو ابن القِرِّيَّة من العلماء البلغاء والخطباء النصحاء، ولم يكن قارئا ولا كاتبا.

إلى عكرمة؛ إلى أفق من الآفاق، وإنى لفى سوق البصرة فإذا رجل، على حمار، فقيل: هذا عكرمة، واجتمع إليه الناس، فما قدرت أنا على شيء أسأله عنه، ذهبت منى المسائل، وشردت عنى، فقمت إلى جنب حماره، فجعل الناس يسألونه وأنا أحفظه.

من فتاويه

حدث عبدالعزيز بن أبى رواد فقال: قلت لعكرمة بنيسابور: الرجل يريد الخلاء، وفى أصبعه خاتم فيه اسم الله تعالى؛ ماذا يفعل؟ قال: يجعل فصه فى باطن كفه ثم يقبض عليه.

العالم بالتاريخ والسير والمغازى

لم يتوقف تحصيل عكرمة العلمى عند حدود التفسير والحديث والفقه؛ إنما اشتهر عنه أيضا اطلاعه الواسع على التاريخ، والسير، والمغازى؛ فى دقة وضبط.

ولقد روى بعض معاصريه طائفة مما كان يحدث به فى هذا الصدد، ويعلق على طريقة عكرمة فى الرواية بإعجاب وتقدير، فيقول: كنت إذا سمعت عكرمة يحدث عن المغازى، فكأنه مشرف عليهم، ينظر كيف يصنعون ويقتتلون. وعلى هذا الأسلوب التوثيقى الدقيق، كان منهج عكرمة فى الإخبار والسرد.

حتى فى التفسير

فإنه رضى الله عنه قد سلك هذا السبيل، فلم يكتف بالبيان اللغوى، والشرح، واستنباط المعنى والحكم، بل غاص إلى أبعد من ذلك مستحضرا القرائن من الواقع التاريخى، تأكيدا للمعنى؛ فأتى تفسيره وافيا. وشهد له بذلك الإنجاز العلمى أكثر علماء عصره وقَرَّظوه.

حتى إن أئمة التفسير وعلماءه الفحول لا تخلو كتبهم من آراء عكرمة وأقواله، فى مختلف المواضيع؛ والاستشهاد بها. بعضها نقلا عن أستاذه ابن عباس؛ وبعضها من ابتكاره مما تفتق عنه ذهنه، ونضحت به قريحته وملكته.

نماذج من تفسيره..

﴿ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾(النساء الآية ١٧).

قال: الدنيا كلها قريب، وكلها جهالة.

﴿لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ ﴾(القصص الآية ٨٣).

قال: عند سلاطينها وملوكها.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾.

قال: أى تركوا ما وعظوا به.

﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾.

قال: أى شديد.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ .

قال : أى تمادوا وأصروا .

﴿خَاسِئِينَ﴾

قال : أى صاغرين .

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالا لمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾

قال : أى من الأمم الماضية .

﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾

قال : أى من الأمم الآتية من أهل زمانهم وغيرهم .

﴿وَمَوْعِظَةً﴾

قال : تقى من اتعظ بها : الشرك والمعاصى .

المفسر فى حضور ابن عباس

يقول عكرمة : قال ابن عباس : إذا كان يوم القيامة ، بعث الله الذين اعتدوا ، ويحاسب الذين تركوا الأمر والنهى .

كان المسخ لهم عقوبة فى الدنيا حين تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، هلك والله القوم جميعا .

فالذين أمروا ونهوا نجوا ؛ والذين لم يأمروا ولم ينهوا هلكوا فيمن هلك من أهل الماضى . وذلك – هم – أهل أيلة[1] . وهى قرية على شاطئ البحر .

وكان الله تعالى قد أمر بنى إسرائيل أن يتفرغوا ليوم الجمعة ؛ فقالوا : بل نتفرغ ليوم السبت ، لأن الله فرغ من الخلق يوم السبت ، فأصبحت الأشياء مسبوتة .

وذكروا قصة أصحاب السبت ، وتحريم الصيد عليهم ، وأن الحيتان [2] كانت تأتيهم يوم السبت ولا تأتيهم فى غيره من الأيام ، وذكروا احتيالهم على صيدها يوم السبت ، فقال قوم : ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ (الأعراف الآية : ٦٣) ، قال الناهون : ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الأعراف الآية : ٦٣) ، أى ينتهون عن الصيد يوم السبت .

وذكر عكرمة أنه لما قال لابن عباس : إن المداهنين هلكوا مع الغافلين ، كساه ثوبين .

ويحكى لنا عكرمة فى معرض حديثه عن بنى إسرائيل طرفة ، فيقول : كانت القضاة ثلاثة – يعنى فى بنى إسرائيل – فمات واحد فجعل آخر مكانه ، فقضوا ما شاء الله أن يقضوا .

فبعث الله تعالى ملكا على فرس ، فمر على رجل يسقى بقرة معها عجل ؛ فدعا الملك العجل فتبع الفرس .

---

(١) أَيْلة : العقبة .

(٢) الحيتان : السمك .

فجاء صاحبه ليرده، – وقال للفارس – : يا عبدالله . . . عجلى وابن بقرتى . فقال له الملك : بل هو عجلى وابن فرسى .

فخاصمه حتى أعيا .

فقال الملك : القاضى بينى وبينك . قال – صاحب العجل : رضيت .

فارتفعا إلى أحد القضاة الثلاثة .

فتكلم أولا صاحب العجل فقال : مر بى هذا الرجل على فرس، فدعا عجلى فتبعه، وأبى أن يرده إلى .

يقول عكرمة : وكان مع الملك ثلاث درات لم ير الناس مثلها . فأعطى القاضى درة، وقال : اقض لى . . فقال صاحب العجل : كيف يسوغ هذا؟

قال القاضى : نرسل العجل خلف الفرس والبقرة، فأيهما تبعها . . فهو ابنها .

ففعل ذلك .

فتبع العجل الفرس، فقضى القاضى للفارس . فقال صاحب العجل : لا أرضى، بينى وبينك القاضى الآخر .

وحدث مثل ذلك مع القاضى الثانى .

ثم أتيا الثالث، فقصا عليه قصتهما . وناوله الملك الدرة الثالثة، فلم يأخذها . ثم التفت إليهما وقال : لا أقضى بينكما اليوم . عودا إلىَّ فى يوم آخر .

فقالا كلاهما : ولم لا تقضى بيننا اليوم؟!

قال القاضى : لأننى حائض .

فقال الملك : سبحان الله ، رجل يحيض!

فقال القاضى : بل أنا أقول : سبحان الله، فهل تنتج الفرس عجلا؟!

ثم قضى بالعجل لصاحب البقرة .

عندئذ كشف الملك عن حقيقته بأنه إنما أرسل للامتحان والفتنة . وقال : إنما ابتليتم – معشر القضاة . لقد رضى الله عنك، وسخط على صاحبيك .

ويحكى لنا رضى الله عنه قصة أخرى فى معرض الحديث عن قوله تعالى : ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا** ﴾ (المؤمنون الآية ١٠٠) .

يقول عكرمة : إن الله تعالى أخرج رجلين، رجلا من الجنة ورجلا من النار

فقال لصاحب الجنة : عبدى . كيف وجدت مقيلك؟

قال : خير مقيل .

ثم قال لصاحب النار : عبدى كيف وجدت مقيلك؟

فقال : شر مقيل قاله القائلون .

ثم ذكر من عقاربها وحياتها وزنابيرها، ومن أنواع ما فيها من العذاب وألوانه. فيقول الله تعالى لصاحب النار:

عبدى، ماذا تعطينى إن أنا أعفيتك من النار؟

فيقول العبد: إلهى، وماذا عندى ما أعطيك؟

فقال له الرب تعالى: لو كان لك جبل من ذهب أكنت تعطينى فأعفيك من النار؟

فقال: نعم..

فيقول له الرب تعالى: كذبت. لقد سألتك فى الدنيا ما هو أيسر من ذلك، أن تدعونى فأستجيب لك، وتستغفرني فأغفر لك، وتسألنى فأعطيك، فكنت تتولى ذاهبا.

* * *

محمد بن كعب القرظى

رضى الله عنه

(.. - ١٠٨ هـ)

إذا أراد الله بعبد خيرا جعل فيه ثلاث خصال: فقها فى الدين، وزهادة فى الدنيا، وبصرا بعيوب نفسه.

الدنيا دار قلق، رغب عنها السعداء، وانتزعت من أيدى الأشقياء، فأشقى الناس بها أرغب الناس فيها، وأزهد الناس فيها أسعد الناس بها.

هى الغاوية لمن أطاعها، المهلكة لمن اتبعها، الخائنة لمن انقاد لها.

علمها جهل، وغناؤها فقر، وزيادتها نقصان، وأيامها دُوَل..

محمد بن كعب القرظى

القرظى

ما إن وطئت قدما رسول الله ﷺ أرض المدينة، بعد عودته من غزوة الخندق، وقد دخل بيته، حتى نزع عنه ثيابه يغتسل، ليزيل عن جسده الشريف آثار غبار المعركة ورهقها طوال أيام وليال شداد.

وبينما هو فى غسله نادته عائشة رضى الله عنها قائلة: يا رسول الله. إن بالباب من يسأل عنك، ويلح فى الطلب.

فبادر قبل أن يتم غسله، فارتدى ثوبه، ومضى نحو الباب، فوجد فارسا يمتطى صهوة جواده، وقد اعتجر[1]، وبيده السيف مشرعا، يطلب إليه أن يسرع ويأمر المسلمين بالسير إلى بنى قريظة.

فدخل ﷺ ليرتدى درعه ثانية، ويتوشح سيفه. فسألته عائشة متعجبة: من الفارس؟ وماذا يريد؟ فقال لها ﷺ: هل رأيته؟ قالت: نعم.. قال: ومن هو؟ هل تعرفينه؟ قالت رضى الله عنها: يشبه دحية بن خليفة الكلبى. فقال ﷺ: إنه أخى جبريل فى جيش من الملائكة، جاءنى يأمرنى بالزحف إلى بنى قريظة لتأديبهم على ما كان منهم[2]. وقال: أوقد وضعت السلاح يا رسول الله؟ فقلت: نعم. فقال لى: إن الملائكة لم تضع السلاح بعد، إن الله يأمرك يا محمد بالسير إلى بنى قريظة، فإنى عامد إليهم بمن معى من الملائكة، فمزلزل بهم الحصون.

فقلت: إن فى أصحابى جهدا، فلو أنظرتهم أياما. فقال لى: انهض إليهم، فوالله لأدقنهم كدَقّ البيض على الصفا[3]، ولأدخلن عليهم فى حصونهم، ثم لأضعضعنّها.

ثم دعا رسول الله ﷺ بلالا رضى الله عنه. وأمره أن ينادى فى الناس: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، ومن كان سميعا مطيعا، فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة. واستجاب المسلمون لنداء رسول الله ﷺ.

وبعث رسول الله ﷺ على بن أبى طالب رضى الله عنه، فى طليعة من الجند. فأحاطوا بحصون بنى قريظة. وطال أمد الحصار أياما وليالى. واليهود من بنى قريظة داخل حصونهم، لا يخرجون لقتال.

واختلفوا فيما بينهم، حتى استقروا على الاستسلام، وأرادوا أن يشترطوا، فأبى عليهم رسول الله ﷺ، حتى نزلوا على حكمه. وقبلوا أن يحكم فيهم سعد بن معاذ حليفهم فى الجاهلية، لعلَّه يرفق بهم، ويحنو عليهم، ويذكر سالف عهدهم وأيامهم.

وجىء بسعد الجريح، رضى الله عنه، فحكم فيهم أن تضرب أعناق المحاربين، وكانوا سبعمائة، وأن تصادر أموالهم، وتسبى نساؤهم وذراريهم.

وكان كعب القرظى أحد الغلمان الذين سبوا.

---

(١) اعتجر: لف عمامة على رأسه.

(٢) كانوا قد نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ وتحالفوا مع الأحزاب.

(٣) الصفا: الصخرة الملساء.

قال ابن حجر فى الإصابة[1] : كعب بن سليم بن أسد ؛ ويقال : كعب بن حبان القرظى - والد محمد - كان من سبى بنى قريظة الذين لم ينسبوا ، ولا نعرف له رواية . قاله ابن عبدالبر ، وذكره ابن حبان فى ثقات التابعين . وأورد ابن منده فى ترجمته حديثا وَهِمَ فيه ، وقد ذكر فى ترجمته عبدالرحمن الخطمى .

وقال ابن عبدالبر فى الاستيعاب [2] : كعب بن سليم القرظى ، ثم الأوسى ، وبنو قريظة حلفاء الأوس ، كان من سبى قريظة الذين استُحيوا إذا وجدوا لم يثبتوا[3] ، بحكم سعد بن معاذ فيهم ؛ لا أحفظ له رواية ، وأما ابنه محمد فمن العلماء الجلة التابعين .

من كعب إلى محمد

أسلم كعب ، وحسن إسلامه ؛ وعاش فى المدينة التى ولد فيها ؛ ولم يحظ بذكر واسع فى ميدان الجهاد والغزو والفتح ، وكذلك فى مجال التلقى عن رسول الله ﷺ ، أو الرواية عنه .

ولم ينبه له ذكر إلا من خلال ولده محمد ، ولولاه لظل اسم كعب فى طى النسيان ؛ شأن غيره . أما محمد فقد ألف ابن عباس رضى الله عنهما ، وأحبه ، وتتلمذ على يديه ، وأخذ عنه الكثير . وكان ابن عباس يرى فى محمد بن كعب نجابة ورغبة فى التعلم ، وذكاء ووعيا ، فاختصه ، وجعله من المقربين .

محمد بن كعب والقرآن

أقبل ابن كعب على كتاب الله تعالى إقبال ذى الغُلة على النبع الرقراق ، يشرب حتى يرتوى . ويطفئ لهيب الظمأ .

ولم يكتف محمد بن كعب بما سمع ووعى عن ابن عباس - ترجمان القرآن - بل غاص هو أيضا فى مضامين الآيات وأعماق أعماقها ، وحلَّق معها فى آفاقها ، يستخرج المعانى والحكم والأحكام ، ويقدمها مَجْلوَّةً مضيئة . واتبع أسلوبا مفردا فى فهم المعانى ، هو : إطالة النظر ، والتفكر والتدبر .

رأى ذات يوم فى المسجد أناسا يتحلقون حول تال لكتاب الله ، يردد آياته ، وهم يرجعون ، وتكررت تلك الرؤية لهذا المشهد ؛ وتكرر وقوف ابن كعب عليهم . ثم إنه أراد أن يطلع على ما فهموه مما حفظوا ؛ فسأل أحدهم عن معنى آية ، فسكت ولم يحر جوابا .

فقال له ابن كعب : لأن أقرأ فى ليلة حتى أصبح : ﴿إذا زلزلت﴾ و﴿القارعة﴾ لا أزيد عليهما ، وأردد فيهما الفكر ، أحَبّ إلى من أن أهذَّ القرآن هذا [4] .

العلم والسلوك

والعالم عند محمد بن كعب ليس الذى امتلأت جعبته بالعلم ، وأفاض على الناس منها ، بل

---

١) (ج : ٣) (ص : ٢٨) .

٢) (ج : ٣) (ص : ٢٧٩)

٣) أى أبقوا أحياء ، لأنه دون سن البلوغ ، ولم يكن من المحاربين .

٤) وفى رواية : (أنثره نثرا) ؛ وهى القراءة السريعة دون تدبر وتفكر .

الذى يتلبس القول بالعمل، فيكون فى سلوكه مع نفسه وربه والناس صورة حية ناطقة لما اختزن من العلم، وحدَّث به الناس من بعد.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ سورة (الصف) الآيات (٢ - ٣). من الآية الكريمة اتخذ محمد بن كعب مفهوم تلازم العلم والسلوك تلازما عمليا موضوعيا.

الذكر والعبادة

ما كان ابن كعب ليفرق بين الذكر والعبادة، فهو يرى الذكر عنصرا أساسيا فى العبادة إلى جانب الصلاة والزكاة والصوم والحج. وكأنه فرض من الفروض.

والذكر عنده ليس نطقا باللسان، أو اهتزازا فى الأبدان، بل هو تعايش مع المعنى. وسبحات للفكر فى أجواء المحبة لله تعالى، والطاعة له سبحانه، والخضوع لقدرته وإرادته. فكان رضى الله عنه يذكر الله ذكرا كثيرا، فى جوف الليل، ودبر كل صلاة، آناء الليل وأطراف النهار.

ويقول لمريديه ومحبيه: لو رخص لأحد فى ترك الذكر لرخص لزكريا عليه السلام. قال تعالى: ﴿ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾سورة (آل عمران) الآية (٤١)؛ فلو رخص لأحد فى ترك الذكر لرخص له، ولرخص للذين يقاتلون فى سبيل الله؛ قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ سورة (الأنفال) الآية (٤٦).

ما علامة الخذلان؟

وكان رضى الله عنه ذات يوم فى درسه فى المسجد النبوى الشريف، يحدث تلامذته حول مفهوم الخذلان، فأفاض وأجاد؛ ونبه وحذر بأن الطواعية للشيطان هى المنزلق إلى مهاوى الضلالة؛ ذلك أن الشيطان يزين المعصية ثم يخذل صاحبه ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ سورة (الفرقان) الآية (٢٩).

وهذا الخذلان من الشيطان، يدعو إلى التمسك بطاعة الرحمن؛ لأنها سبيل النصرة والظفر، ولأنها من عند الله تعالى، فهو وحده جل جلاله القادر على ذلك ﴿ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ ﴾ سورة (آل عمران) الآية (١٦٠).

فسأله أحد الحضور: وما علامة الخذلان - يا أبا حمزة؟

فقال له ابن كعب: أحسنت السؤال، وإليك الجواب. أن يقبح الرجل ما كان يستحسن، ويستحسن ما كان قبيحا.

وهذا يعنى: الطواعية للنفس الأمارة بالسوء، والتجاوب مع نداءات الشيطان، فإذا وقع ذلك، دخل صاحبها فى نفق الخذلان المظلم، إلى مهاوى الشر والرذيلة وسوء العاقبة.

حب الدنيا

إياكم وحب الدنيا فإنها رأس كل ضلالة، ومبعث كل فتنة، واجعلوها جسرا تعبرون عليه

لآخرتكم، فهي الباقية، وهذه الدنيا هي الفانية. اجعلوا نصيبكم من الحياة الدنيا ذخرا لآخرتكم. ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ سورة (القصص) الآية (٧٧).

هذا ما حدث به الناس فى المسجد ذات يوم. فسأله أحد الحضور: هل لأبى حمزة أن يبين لنا أكثر، ويحدد لنا معالم حب الدنيا؟ فقال ابن كعب لصاحبه وهو يحاوره: الدنيا - يا أخى - دار قلق، رغب عنها السعداء، وانتزعت من أيدى الأشقياء، فأشقى الناس بها أرغب الناس فيها، وأزهد الناس فيها أسعد الناس بها. هى الغاوية لمن أطاعها، المهلكة لمن اتبعها، الخائنة لمن انقاد لها. علمها جهل، وغناؤها فقر، وزيادتها نقصان، وأيامها دول.

تجلى الحكمة

لقد استغرق ابن كعب رضى الله عنه فى كتاب الله تعالى وآياته، استغرق بكل كيانه ووجدانه، وعقله وحسه؛ وقد خف منه ثقل البدن، اللحم والدم، حتى أضحى روحا شفافة؛ تحلق فى أجواء الحكمة، متخلصا من مادية الأرض.

ويتبدى ذلك فيما أثر عنه فى تفسيره للآيات البينات. ولقد روى عنه الكثير من الإضافات على ما حفظه عن ابن عباس؛ نلحظ ذلك فى أقوال المفسرين، أصحاب الكتب، فما من رأى فى رواية إلا ويستشهد بقول لابن كعب رضى الله عنه؛ لم يُسبق إليه.

غيض من فيض

قال رضى الله عنه فى تفسير قوله تعالى: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾سورة (آل عمران) الآية (٢٠٠). اصبروا على دينكم، وصابروا لوعدكم الذى وُعدتم، ورابطوا عدوكم الظاهر والباطن[1]، واتقوا الله فيما بينى[2] وبينكم، لعلكم تفلحون إذا لقيتمونى.

وقال فى قوله تعالى: ﴿ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾سورة (هود) الآية (١٠٤): القائم ما كان من بنائهم قائما، والحصيد: ما حصد فهدم. وقال فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾سورة (الفرقان) الآية (٦٥): غرموا ما نعموا به من النعيم فى الدنيا، أو: سألهم ثمن نعمة فلم يقدروا عليها، ولم يؤدوها، فأغرمهم ثمنها، فأدخلهم النار.

وقال فى قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾سورة (الروم) الآية (٣٩): هو الرجل يعطى الآخر من ماله ليكافئه به، أو يزداد، فهذا الذى لا يربو عند الله، والمضعفون هم الذين يعطون لوجه الله، لا يبتغى مكافأة أحد.

وقال فى قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ﴾ سورة (الدخان) الآية (٢٩): إن الأرض لتبكى من رجل، وتبكى على رجل، تبكى على من كان يعمل على ظهرها بطاعة الله، وتبكى ممن كان يعمل على ظهرها بمعصية الله.

(١) العدو الباطن: وسوسة «إبليس».

(٢) أى بين رسول الله ﷺ والمؤمنين من عهد وميثاق.

وقال فى قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ سورة (الزلزلة) الآيات (٧ - ٨). من يعمل مثقال ذرة خيرا من كافر يرى ثوابها فى نفسه وأهله وماله حتى يخرج من الدنيا وليس له خير، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره، من مؤمن يرى عقوبتها فى نفسه وأهله وماله، حتى يخرج من الدنيا وليس له شر.

الوقاف عند الآيات

قلنا فيما سبق إن محمد بن كعب القرظى رضى الله عنه كان وقافا عند الآيات، لا يجاوز قراءة آية من آيات ربه إلا دقق النظر فيها، وأجال العقل والفكر فى معانيها، وأغراضها، ومدلولاتها، حتى تطمئن نفسه إلى الفهم والإدراك، وإن كان قد قرأها من قبل وفهم، فإنه مع تجديد التلاوة يجدد التفكر والتدبر، ويجد دائما معنى جديدا يضيفه إلى رصيده.

وهذا مصداق قول رسول الله ﷺ عن القرآن الكريم: «هو الذى لا تنقضى عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد». وها هو يقول فى هذا الصدد: ما يؤمننى أن يكون الله قد اطلع على فى بعض ذنوبى فمقتنى، وقال: اذهب لا أغفرلك، مع أن عجائب القرآن ترد بى على أمور، حتى إنه لينقضى الليل ولم أفرغ من حاجتى. ويقول: من قرأ القرآن مُتع بعقله وإن بلغ من العمر مائتى سنة.

بين محمد بن كعب القرظى وعمر بن عبدالعزيز رضى الله عنهما

كان التواصل والترابط بين محمد بن كعب وعمر بن عبدالعزيز قويا مستمرا، منذ أن كان عمر واليا على المدينة إلى أن تولى الخلافة؛ كلاهما معجب بالآخر، بعلمه وعبادته وخلقه، يعرف له فضله ومكانته، وقدره.

وكان لمحمد بن كعب غلام اسمه سالم على قسط كبير من العلم، تلقاه من سيده، كما تأثر بسلوكه ونهجه، فكان عنوانا فى الخير والزهد.

فلما آلت الخلافة إلى عمر بعد سليمان بن عبدالملك، بعث إلى محمد بن كعب يريد شراء سالم ليستزيد من بره وخيره، وعلمه. فرد عليه محمد بن كعب يقول: إنى قد دبرته [١]. فبعث إليه عمر يقول: ازدد فيه (أى أزيد على ما تم الاتفاق عليه من ثمن). وتم الأمر، ونزل سالم فى كنف عمر.

فقال له يوما: يا سالم إنى قد ابتليت بما ترى - من مهام الخلافة والحكم - وأنا والله أتخوف أن لا أنجو. فقال سالم: إن كنت كما تقول. فهذا (التخوف) نجاته، وإلا فهو الأمر الذى يخاف منه.

فقال عمر: يا سالم عظنى. قال سالم: إن آدم عليه السلام أخطأ خطيئة واحدة خرج بها من الجنة، وأنتم - أيها الحكام - مع عمل الخطايا ترجون دخول الجنة؟ وسكت.

بعض ما قال محمد بن كعب من حكم

إذا أراد الله بعبد خيرا جعل فيه ثلاث خصال: فقها فى الدين، وزهادة فى الدنيا، وبصرا

(١) التدبير: شكل من أشكال العتق.

بعيوب نفسه. وقال: الكبائر ثلاثة: أن تأمن مكر الله، وأن تقنط من رحمة الله، وأن تيأس من روح الله.

الدرة اليتيمة

يقول الحافظ ابن كثير رحمة الله عن محمد بن كعب القرظى[1]: له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة. وقال أيضا[2]: قال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى: حدثنا ابن عبدالعزيز، حدثنا أبو عبيد القاسم بن سلام، حدثنا عباد بن عباد، عن هشام بن زياد أبى المقدام، قالوا كلهم: حدثنا محمد بن كعب القرظى قال:

حدثنا ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: من أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما فى يد الله أوثق مما فى يده، ألا أنبئكم بشراركم؟ قالوا: نعم يا رسول الله، قال: من نزل وحده، ومنع رفده، وجلد عبده. أفأنبئكم بشر من هذا؟ قالوا: نعم يا رسول الله. قال: من لا يقيل عثرة، ولا يقبل معذرة، ولا يغفر ذنبا. ثم قال: ألا أنبئكم بشر من هذا؟ قالوا: نعم يارسول الله. قال: من لا يرجى خيره، ولا يؤمن شره.

إن عيسى بن مريم قام فى بنى إسرائيل خطيبا، فقال: يا بنى إسرائيل لا تكلمونا بالحكمة عند الجهال فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموها، لا تظلموا ظالما، ولا تطاولوا ظالما، فيبطل فضلكم عند ربكم.

يا بنى إسرائيل، الأمور ثلاثة، أمر تبين رشده فاتبعوه، وأمر تبين غيه فاجتنبوه، وأمر اختلف فيه فردوه إلى الله.

وهذه الألفاظ لا تحفظ عن النبى ﷺ بهذا السياق إلا من حديث محمد بن كعب عن ابن عباس[3].

وتلكم هى الدرة اليتيمة، مبنى ومعنى. لا يماثلها ولا يضارعها فى كتب الصحاح أو كتب السنة أى رواية لحديث يساويها أو يحمل مضامينها.

رحم الله تعالى، ورضى عن محمد بن كعب القرظى، الذى يذكرنا نسبه بحديث رسول الله ﷺ: الناس معادن، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا. فهو طينة طيبة ومعدن كريم، تلبس بالإسلام دينا وفقها وعلما فأضاءت نفسه، وأشرق فؤاده، وسُمى بأكرم اسم، فبزغ نجمه، وعلا فى العالمين سهمه.

(١) (البداية والنهاية) (ج: ٩) (ص: ٢٨٤).
(٢) (البداية والنهاية) (ج: ٩) (ص: ٢٨٦).
(٣) وقد تفرد بهذا الحديث الإمام الطبرانى.

الحسن البصرى

رضى الله عنه

(٢١-١١٠هـ)

كان الحسن البصرى أشبه الناس كلامًا بكلام الأنبياء، وأقربهم هديًا من الصحابة، وكان غاية فى الفصاحة، تتصبب الحكمة من فمه.

أبو حامد الغزالى

وقال مالك بن دينار:

قلت للحسن: ما عقوبة العالم إذا أحب الدنيا؟

قال: موت القلب، فإذا أحب الدنيا طلبها بعمل الآخرة، فعند ذلك ترحل عنه بركات العلم، ويبقى عليه رسمه.

خيرة ويَسَار:

خَيْرة مولاة أم المؤمنين أم سلمة ـ رضى الله عنها ، ويسار مولى الصحابى الجليل ، حافظ كتاب الله تعالى وجامعه ، زيد بن ثابت رضى الله عنه . من هذين الأبوين الكريمين ولد الحسن .

وأم سلمة هى : هند بنت سهيل المخزومى ، الذى اشتهر بزاد الراكب لجوده وخيره . وكانت ـ رضى الله عنها ـ من أكمل النساء عقلاً ، وأوفرهن فضلاً ، وأشدهن حزمًا ، ومن أوسع زوجات النبى ﷺ حفظًا وروايةً عنه . رضع الحسن من أم سلمة فسرى إلى بدنه وقلبه فيض من لبنها وسمو إيمانها وعلمها ، ورفعة خلقها . كانت أمه خيرة تنشغل عنه أحيانا ، فيبكى ويصرخ ، فتلقمه أم سلمة ثديها ، وتحتضنه بحنان وحب ، فيدر لبنها ، فيسكن ويهدأ ويتغذى .

لذا كانت سنواته الأولى فى محضن عطاء وغذاء ، لبدنه ولروحه ، وتبين مخايل نبوغه ورجاحة عقله ، وسَوِىّ سلوكه . وبحكم هذا النشأة كان ـ رضى الله عنه ـ من زوار بيوت أمهات المؤمنين جميعًا ، وأكرم بها من بيوت تشع فى جنباتها أنوار النبوة ، وتفيض بالتقوى والهداية ، يتردد عليها ، ويجالس ويسمع ، ويتأدب . ويملأ تلك الدور حيوية بنشاطه وحركته ، ولعبه البرىء ، حتى إنه كان يقفز أحيانًا فيلامس سُقوف تلك الحجرات بيديه ، كما حدَّث عن نفسه .

بين البيوت الشريفة والمسجد:

وكان ـ رضى الله عنه ـ تلميذًا نجيبًا ، تقعدت فى ثنايا جوارحه وأعماق فؤاده الأصول والأسس ، من خلال الرحاب الطاهرة ، فلما بلغ السعى انطلق إلى المسجد الشريف يلازم الكبار ، كبار الصحابة الكرام رضوان الله عليهم ، ويجالسهم ، ويسمع إليهم ، ويحفظ عنهم . وكان من أجلِّهم : عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وأبو موسى الأشعرى وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وأنس بن مالك وجابر بن عبد الله وغيرهم .

وهؤلاء الكرام ـ رضى الله عنهم ـ كانوا أساتذة كرامًا ، تربَّوْا فى المدرسة المحمدية أعظم تربية ، وتلقَّوا أسمى المبادئ والدروس ، ثم استفرغوها فى أوعية طالبها ، صافيةً نقيةً ، كما أخذوها . وعليه فقد قُدِّر للحسن أن ينهل من النبع النمير الرقراق ، أعذب الحكمة ، وأصدق الكلمة ، وأسطع البيان .

ومن طريف ما يروى أنه ـ رضى الله عنه ـ عندما ولد حملته أمه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ، فوضعه فى حجره ، وبرَّك عليه ، وحَنَّكه ، فكان ريق عمر ـ الفاروق ـ من أول ما طعم وذاق . وها نحن نرى عوامل النجابة والنبوغ تتواكب فى شخصيته الحسن منذ نعومة أظفاره ، وتتأصل فى ذاته وكيانه ، وهو لا يزال فى مَيْعة الصِّبا .

البصرى:

ما كاد الحسن يبلغ الرابعة عشرة من عمره حتى قدم البصرة مع أبويه : يسار وخيرة ؛ حيث استقرت فيها الأسرة . أما البصرة فى ذلك الحين فحدِّثْ عنها ولا حرج . كانت موئل العلم والعلماء ، من الصحابة والتابعين ، وقاعدة الفتح فى المشرق ، ومنارة تشيع بالهدى ، وتأتلق

بكبار الرموز من قادة الجيوش، وتمور مَوراً بالحركة والنشاط. وكان مسجدها الجامع قطب الرحى، يضج بالناس من مختلف الديار والأمصار، تتلاقح فيه العقول والأرواح، والأفكار والعلوم، وتتربى فيه الطبقات، يأخذ بعضها عن بعض. فأمَّه الحسن، ولزم حلقاته، يغترف من أصحابها ما تنضح به عقولهم، وتنطق به ألسنتهم.

وكانت حلقة عبد الله بن عباس - حبر الأمة وترجمان القرآن - مهوى فؤاد الحسن، ومرتعه النضر، فأخذ عن صاحبها التفسير والحديث والقراءات، وتنوعت مصادره فى الفقه واللغة والأدب.

ولم تمض عليه سنوات قلائل حتى عدَّ عَلَمًا بارزًا، جامعًا فقيهًا ثقةً، أوحد زمانه، وفريد عصره ومصره، حتى إذا قيل البصرى عرف دون ذكر الاسم. والتفَّ عليه الطلاب، معجبين مأخوذين بحكمته وسيرته وغزير علمه، وفيض عطائه، وطار صيته، وذاعت شهرته، حتى أصبح حديث مجالس الخلفاء، والولاة والحكام.

صاحب المروءة وحاملها ومعلمها:

كان - رضى الله عنه - ذروة فى حسن الخلق، وكان يرى المروءة واسطة العقد فى محاسن الأخلاق، فكان من أقواله: لا دين إلا بمروءة.

روى الخرائطى أنه كان إذا اشترى شيئًا أو باع وكان فى ثمنه كسرٌ جبَرَه لصاحبه؛ إذ يعتبر الإتمام من المروءة، حتى لا تهون نفس البائع أو المشترى، وهذا من حسن التعامل والسماحة، اقتداء برسول الله ﷺ القائل: «رحم الله امرءاً سَمْحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى».

وقف ذات يوم على عبد الأعلى - السِّمسار - فقال له: يا عبد الأعلى، أما يبيع أحدكم الثوب لأخيه فينُقص درهمين أو ثلاثة؟ فقال له عبد الأعلى: لا والله، ولا دانق[1] واحد. فقال له الحسن: إن هذه الأخلاق، فما بقى من المروءة إذًا؟

واشترى أحد الناس من الحسن بغلة، وقال: أما تحط لى شيئًا يا أبا سعيد؟ فقال الحسن: لك خمسون درهمًا. أزيدك؟ قال: لا، رضيت. فقال الحسن: بارك الله لك.

وروى حمزة الأعمى فقال: ذهبت بى أمى إلى الحسن، فقالت: يا أبا سعيد: ابنى هذا قد أحببت أن يلزمك، فلعل الله تعالى أن ينفعه بك. قال حمزة: فكنت أختلف إليه، فقال لى يوما: يا بُنَىَّ أدم الحزن على خير الآخرة؛ لعله أن يوصلك إليه، وابك فى ساعات الليل والنهار، فى الخلوة، لعل مولاك أن يطَّلع عليك فيرحم عبرتك، فتكون من الفائزين. وكنت أدخل على الحسن منزله وهى يبكى، وربما جئت إليه وهو يصلى، فأسمع بكاءه ونحيبه، فقلت له يوما: إنك تكثر البكاء. فقال: يا بنى ماذا يصنع المؤمن إذا لم يبك؟! يا بنى: إن البكاء داع إلى الرحمة، فإذ استطعت أن تكون عمرك باكيًا فافعل؛ لعله تعالى أن يرحمك، فإذا أنت نجوت من النار.

---

(١) الدانق: سُدُس الدرهم.

ولقد بلغنا أن الباكى من خشية الله لا تقطر من دموعه قطره حتيتعتق رقبته من النار . ولو أن باكيا بكى فى ملأ من خشية الله لرُحموا جميعًا ، وليس شيء من الأعمال إلا له وزن ، إلا البكاء من خشية الله ؛ فإنه لا يقوِّم الله بالدمعة منه شيئًا .

روى ابن أبى الدنيا [١] عن الحسن قوله : من علامات المسلم قوة دين ، وحزم فى لين ، وإيمان فى يقين ، وحكم فى علم ، وحبس فى رفق ، وإعطاء فى حق ، وقصد فى غنى ، وتحمل فى فاقة ، وإحسان فى قدرة ، وطاعة معها نصيحة ، وتورع فى رغبة ، وصبر فى شدة . لا ترديه رغبته ، ولا يبدره لسانه ، ولا يسبقه بصره ، ولا يغلبه فرحه ، ولا يميل به هواه ، ولا يفضحه لسانه ، ولا يستخفه حرصه ، ولا تقصرٌ به نيته .

أيحبُّ أحدُكم أن يأكلَ لحم أخيه مَيْتًا؟

وما أكثر ما ذم الحسن الغيبة ! قال رضى الله عنه : «والله لَلغيبة أسرع فى دين المؤمن من الأكلة فى جسده» . يا بن آدم إنك لن تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تصيب الناس بعيب هو فيك ، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب ، فتصلحه من نفسك ، فإذا فعلت ذلك كان ذلك شغلك فى طاعة نفسك ، وأحب العباد إلى الله من كان هكذا . ليس بينك وبين الفاسق حرمة ، وليس لمبتدع غيبة . ثلاثة لا تحرم عليك غيبتهم : المجاهر بالفسق ، والإمام الجائر ، والمبتدع .

فلا أقسم بالنفس اللَّوَّامة:

وقال الحسن رضى الله عنه : المؤمن قوام على نفسه ، يحاسب نفسه لله عز وجل ، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم القيامة على أقوام أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة .

إن المؤمن يفجأه الشيء ويعجبه فيقول : والله إنك لمن حاجتى وإنى لأشتهيك ، ولكن والله ما من صلة إليك ، هيهات حيل بينى وبينك ، ويفرط منه الشيء ، فيرجع إلى نفسه فيقول : ما أردت إلى هذا أبدًا إن شاء الله .

إن المؤمنين قوم قد أوثقهم القرآن ، وحال بينهم وبين هلكهم . إن المؤمن أسيرٌ فى الدنيا ، يسعى فى فكاك رقبته ، لا يأمن شيئا حتى يلقى الله عز وجل ، يعلم أنه مأخوذ عليه فى سمعه وبصره ولسانه ، وفى جوارحه كلها .

لا تلقى المؤمن إلا يلوم نفسه ، ما أردت بكلمة كذا؟ ما أردت بأكلة كذا؟ ما أردت بمجلس كذا؟ وأما الفاجر فيمضى قُدمًا قدما لا يلوم نفسه .

تصبروا وتشددوا ، فإنما هى ليال تعد ، وإنما أنتم ركب وقوف ، يوشك أن يدعى أحدكم فيجيب ولا يلتفت ، فانقلبوا لصالح ما بحضرتكم . إن هذا الحق أجهد الناس وحال بينهم وبين شهواتهم ، وإنما يصبر على هذا الحق من عرف فضله وعاقبته . ولا يزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت المحاسبة من همته .

---

(١) فى كتاب اليقين .

إن المنافقين فى الدَّرْك الأسفل من النار:

سئل الحسن عن النفاق فقال : هو اختلاف السر والعلانية ، والمدخل والمخرج ، ما خافه إلا مؤمن ، ولا أمنه ـ أى النفاق ـ إلا منافق . ووالله ما مضى مؤمن ، ولا بقى إلا وهو يخاف النفاق ، ولا مضى منافق ولا بقى إلا وهو من النفاق آمن .

بين الدنيا والآخرة:

وقال الحسن رضى الله عنه : ما سمع الخلائق بعَوْرة بادية ، وعين باكية مثل يوم القيامة . يا ابن آدم ، إنك ناظر غداً إلى عملك يوزن خيره وشره ، فلا تحقرنَّ من الخير شيئا وإن هو صغر ، فإنك إذا رأيته سرك مكانه ، ولا تحقرنَّ من الشر شيئاً ؛ فإنك إذا رأيته ساءك مكانه . ذهبت الدنيا وبقيت أعمالكم قلائد فى أعناقكم .

يا ابن آدم بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعا .

وكان ـ رضى الله عنه ـ يتمثل بقول الشاعر عندما يصبح :

وما الدنيا بباقية لحى ولا حى على الدنيا بباق

وإذا أمسى كان يردد :

يسر الفتى ما كان قدم من تقى إذا عرف الداء الذى هو قاتله

إننا ـ مع ما قدمنا ـ من أقوال الحسن ـ رضى الله عنه ـ لا نستطيع فى هذه العجالة أن ندرك سبقه ، أو نلحق به ، ولا تزال نلهث من جرينا وراءه ، فهناك الكثير الكثير من مأثور قوله وفعله مما يضيق به المجال ، وتبصر عنه المقال .

ولقد كان ـ رحمه الله ـ ملء الأسماع والأبصار ، رائداً فذّاً فى الوعظ والإرشاد ، وسيداً من سادات الحكمة والقول الفصل . ولقد امتدت آثاره حتى غطت مساحات شاسعة من الزمن ، فما يزال إلى يومنا هذا ذات دوىّ فى الإسماع ، وجرس طيب فى الآذان ، ورقة تخالط القلوب وتغشاها من غير استئذان .

وحق للإمام الغزالى ـ رحمه الله ـ وقد باعدت بينهما السنين والأعوام ـ أن ينصف الحسن فيقول فيه : كان الحسن البصرى أشبه الناس بكلام الأنبياء ، وأقربهم هدياً من الصحابة .

قال خالد بن صفوان[١] : لقيت مسلمة بن عبد الملك فى الحيرة[٢] فقال لى : أخبرنى يا خالد عن حسن البصرة فإنى أظن أنك تعرف من أمره ما لا يعرف سواك . فقلت : أصلح الله الأمير ، أنا خير من يخبرك عنه ، فأنا جاره فى بيته ، وجليسه فى مجلسه ، وأعلم أهل البصرة به . إنه امرؤ سريرته كعلانيته ، وقوله كفعله ، إذا أمر بمعروف كان أعمل الناس به ، وإذا نهى عن منكر كان أتركَ الناس له . ولقد رأيته مستغنيا عن الناس ، زاهدا بما فى أيديهم ، ورأيت الناس محتاجين إليه ، طالبين ما عنده . فقال مسلمة : حسبك يا خالد ، حسبك ، كيف يضل قوم فيهم مثل هذا؟!

---

(١) كان من فصحاء العرب ، وكان مقربا من الخلفاء والحكام .

(٢) كانت قريبة من الكوفة . اشتهرت زمنًا طويلاً ثم بادت .

أفضل الجهاد:

وأفضل الجهاد كما قال رسول الله ﷺ: «كلمة حق عند سلطان جائر».

ولقد كان الحسن - رضى الله عنه - صاحب ذلك الموقف، وحامل تلك الشهادة.

لم يقعد به زهده وورعه وتقواه عن مواجهة الظلم والطغيان، ولم يقصر فى ذلك أبدا، ومَن أعتى وأقسى، وأشد جبروتًا من الحجاج بن يوسف الثقفى؟! ومع ذلك تصدَّى له الحسن، وأى تصدٍّ؟

لم يكتف الحسن فى التعريض بالحجاج وسوء فعاله وغشمه وظلمه على ملأ من الناس، بل واجهه، فكان أجرأ الناس وأشجعهم، من غير خوف ولا رهبة ولا فتور.

وإليك الحكاية الأولى: عندما فرغ الحجاج من بناء مدينة واسط فى العراق، وجعل لنفسه منها قصراً مَنيفًا يأخذ بالعقول والألباب، دعا الناس إلى الفرجة على القصر، كى يدعو له ويباركوه. ولم يشأ الحسن - رضى الله عنه - أن يفوت عليه فرصة اجتماع الناس، لوعظهم وتذكيرهم، وتزهيدهم فى عرض الدنيا، وابتغاء ما عند الله تعالى؛ فهو خير وأبقى. فلما أتاهم وقف فيهم خطيبا، وقال: لقد نظرنا فيما ابتنى أخبث الأخبثين(١)، فوجدنا فرعون شيد أعظم مما شيد، وبنى أعلى مما بنى، ثم أهلك الله فرعون وأتى على ما بنى وشيد. ليت الحجاج يعلم أن أهل السماء قد مقتوه، وأن أهل الأرض قد غروه. ومضى الحسن - رضى الله عنه - فى خطبته مسترسلاً، فى عدل وحزم وشدة، حتى إن أحد السامعين من محبيه صرخ من الخوف عليه، فقال: حسبك يا أبا سعيد، حسبك. فرد الحسن - رضى الله عنه: يا هذا لقد أخذ الله الميثاق على أهل العلم ليبيننه للناس ولا يكتمونه.

وقفة العالم:

وبلغ مسامع الحجاج ما كان من شأن الحسن، وما قاله عنه، وما وعظ به الناس، فأخذته العزة بالإثم. ودخل مجلسه فى اليوم التالى وقد استشاط غيظًا وغضبًا، ونوى الشر بالحسن، وكان فى حضرته العديد من الأتباع والزوار، فقال لهم فى حدة:

تبا لكم وسحقا، يقوم عبد من عبيد أهل البصرة ويقول فينا ما شاء أن يقول، ثم لا يجد منكم من يرده، أو ينكر عليه؟! والله لأسقينكم من دمه يا معشر الجبناء.

ثم أمر بالنطع والسيف، فوضعا بين يديه، ودعا بالجلاد فحضر ومثل، واستعد لتنفيذ ما يأمره به سيده، وبعث رجال شرطته إلى الحسن، فأتوا به. فلما دخل وجفت القلوب، وشخصت الأبصار، وحبست الألسن، وتحجرت الدموع فى المآقى، وسكنت الجوارح.

دخل الحسن فرأى النطع والسيف والجلاد، وأدرك ما فى نفس الحجاج من نية السوء والغدر، فحرك شفتيه بالدعاء الصامت، واستلهم عزة الله تعالى فى ذاته، وتقدم رافع الرأس، عالى الجبين، وقورا مهيبا، عليه الجلال والكمال، ثابت الخطو والجَنان.

---

(١) الملاحظ أن الحسن لم يسمِّ الحجاج باسمه، ونعته بنعت هو أهله.

صَغار الجبروت:

ما بال الحَجَّاج وقد تصاغر؟ ما باله وقد ارتجف؟ ما باله وقد لان منه القلب واللسان؟ ما باله وقد أخذ بهيبة المؤمن وشجاعة العالم، فإذا به يقول: ها هنا يا أبا سعيد ها هنا.

وما زال يوسع له، حتى أجلسه على فراشه بجانبه لصيقًا به، ودهش الحاضرون، كانوا من قبل خرسا لا ينطقون، فازدادوا بُكْمًا، كانوا فى هم فازدادوا حيرة وجبنًا.

وبعد أن أخذ الحسن مجلسه التفت إليه الحجاج، وأخذ يسأله فى كثير من أمور الدين، وفاض لسان الحسن بالإجابة على كل ما سئل، وفتح الله عليه أبوابا كثيرة، وكانت إجاباته يغلِّفها البيان الساحر، والعلم الواسع، والفصاحة والبلاغة.

ومع ما عرف عن الحجاج من البلاغة والبيان فقد أخذ بروعة منطق الحسن، فقال له: أنت سيد العلماء يا أبا سعيد. ثم دعا الحجاج بغالية [(١)] وطيَّب بها لحية الحسن، وقام معه فودعه.

وما كاد الحسن يخطو بضع خطوات خارج باب المجلس، حتى لحق به حاجب الحجاج، فاستوقفه وسأله: يا أبا سعيد لقد دعاك الحجاج لغير ما فعل بك، وإنى رأيتك عندما أقبلت، ورأيت السيف والنطع، قد حركت شفتيك، فماذا قلت بالله عليك؟ قال الحسن: لقد قلت: يا ولى نعمتى، وملاذى عند كربتى، اجعل نقمته بردًا وسلاماً علىّ كما جعلت النار بردًا وسلامًا على إبراهيم.

يا ابن هبيرة:

على هذا المنوال من الصدوع بكلمة الحق ومواجهة السلطان مضت مسيرة حياة الحسن رضى الله عنه، فكان يخرج من كل منها أعظم قدرًا وأرفع منزلة. وكم تعددت تلك المواقف والمواجهات وتوالت وتشعبت.

فعندما تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز، ولَّى على العراق عمر بن هبيرة، وأضاف إليه خرسان.

تباينت سيرة يزيد عن سلفه عمر بَونًا شاسعًا، وركب متن الشطط، وعاد بالخلافة كسروية قيصرية كما كان آباؤه وأجداده من بنى أمية. وحدث أن توالت إلى ابن هبيرة يردف بعضها بعضا، يأمره فيها بإنفاذ رغباته ولو كانت مجافية للحق.

وأراد ابن هبيرة أن يخلى طرفه من مسئولية ما فى تلك الأوامر من جنوح إلى الظلم والبغى، فاستدعى إليه عالم البصرة وسيدها الحسن رضى الله عنه، وكذلك قاضيها عامر بن شراحيل الشعبى، يستشيرهما ويستعين برأيهما.

فلما جلس عنده قال لهما: إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك قد استخلفه الله على عباده، وأوجب طاعته على الناس، وقد ولاَّنى ما ترون من أمر العراق وخُراسان، وهو يرسل إلى أحيانًا كتبًا يأمرنى فيها بإنفاذ ما لا أطمئن إلى عدالته، فهل أجد عندكما مخرجًا فى الدين مما أنا فيه؟

---

(١) الغالية: أفخر أنواع الطِّيب.

فتكلم الشعبى أولا؛ إذ كان القاضى، فقال كلامًا فيه ملاطفة للخليفة يزيد ومسايرة للوالى ابن هبيرة. وظل الحسن ساكتًا صامتًا سامعًا.

فالتفت إليه ابن هبيرة وقال: وما تقول أنت يا أبا سعيد؟ فقال رحمه الله ورضى عنه: يا ابن هبيرة، خَف اللهَ فى يزيد، ولا تخف يزيد فى الله، واعلم أن الله - عز وجل - يمنعك من يزيد، ولا يمنعك يزيد من الله.

يا ابن هبيرة، إنه يوشك أن ينزل بك ملَك غليظ شديد لا يعصى الله ما أمره، فينزلك عن سريرك هذا، وينقلك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، حيث لا تجد هناك يزيد، وإنما تجد عملك الذى خالفت فيه رب يزيد.

يا ابن هبيرة، إنك إن تكن مع الله تعالى وفى طاعته يكْفك بائقة يزيد بن عبد الملك فى الدنيا والآخرة، وإن تك مع يزيد فى معصية الله تعالى فإن الله يكلك إلى يزيد. واعلم - يا ابن هبيرة - أنه لا طاعة لمخلوق كائنًا من كان فى معصية الخالق عز وجل.

ولم يملك ابن هبيرة نفسه من البكاء خشيةً ورقةً، حتى بللت دموعه لحيته، ثم مال عن الشعبى إلى نصيحة الحسن، وعمل بها، كما بالغ فى إكرامه وتعظيمه وتقديمه.

أقصانى الله وأدنى الحسن:

وعاد الرجلان إلى المسجد، حيث ينتظرهما الجمع الغفير من الناس، ليسمعوا منهما ما كان من شأنهما مع الوالى ابن هبيرة.

لم يتفوه الحسن بكلمة، بل تولى بيان الواقعة ومجرياتها الشعبى، فقال: أيها الناس من استطاع منكم أن يؤثر الله - عز وجل - على خلقه فى كل مقام فليفعل، فوالذى نفسى بيده، ما قال الحسن لعمر بن هبيرة قولاً أجهله، ولكنى أردت فيما قلته وجه ابن هبيرة، وأراد فيما قاله وجه الله تعالى، فأقصانى الله من ابن هبيرة، وأدناه منه، وحبَّبه إليه.

وقام رجل فقال للحسن: يا أبا سعيد، أسألك بالله تعالى أن توجز لنا أمر الدنيا والآخرة.

فقال الحسن رضى الله عنه: تسألنى عن الدنيا والآخرة؟ إن مثل الدنيا والآخرة كمثل المشرق والمغرب، متى ازددت من أحدهما قربًا ازددت من الآخر بُعدًا. أما الدنيا فماذا أصف لك من شأنها؟ إنها - يا أخى - دار أولها عناء وآخرها فناء، وفى حَلالها حساب، وفى حرامها عقاب، من استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن.

وضيَّع الناس صلاة العصر:

كيف؟ لقد أسلم أبو سعيد الروح ليلة الجمعة غرة شهر رجب - الفرد - سنة عشر ومائةمن الهجرة، ومع الفجر تناقل الناس الخبر، وارتجت البصرة وما حولها. واحتشد الناس، وتجمعوا حتى ضاقت بهم الطرقات، وبعد أن غُسِّل وكُفِّن، وصُلِّى عليه بعد صلاة الجمعة، سار كل الناس فى موكب جنازته إلى مثواه، ولم يبق أحد إلا انضم إلى الجنازة، وخلت المساجد والمصليات من الناس، ولم تقم صلاة العصر فى ذلك اليوم المشهود!

محمد بن سيرين

رضى الله عنه

(٣٣ ـ ١١٠هـ)

«إذا أراد الله بعبدٍ خيراً جعل له واعظًا من قلبه يأمره وينهاه».

محمد بن سيرين

وقال محمد بن سعد:

«كان ثقة مأمونًا عالمًا رفيعًا، فقيهًا إمامًا، كثير العلم، ورعًا».

وقال مورق العجلى:

«ما رأيت رجلاً أفقه فى ورعه، ولا أورع فى فقهه منه».

سيرين:

كان سيرين غلامًا صغيرًا حين وقع فى السَّبْى على يد خالد بن الوليد رضى الله عنه، فى قرية تدعى عين التمر، في الأنبار، قريبا من الكوفة، في العراق. وكان سيرين في جملة أربعين غلاما قد أغلق عليهم باب[1]، ويتعلمون الإنجيل، فسألهم: ما أنتم؟

فقالوا: رُهُنٌ. فأخرجهم، ووزعهم فى البلاد. فوقع سيرين فى نصيب الصحابى الجليل أنس بن مالك رضى الله عنه، خادم رسول الله ﷺ، فشب سيرين وكبر بين جنبات بيت زاخر بالدين والعلم، وترعرع في جو ما يزال عبق النبوة يفوح فى أرجائه بأطيب الشذى وأعطره.

وحين بلغ أشُدَّه كاتَبَه[2] سيده أنس، وحرر رقبته. وكان سيرين قد تعلم مهنة النحاسين، وأتقنها وبرع فيها، ودرَّت عليه مالاً وفيرًا، ورزقًا حسنًا، فأراد أن يتزوج.

صفية:

وكانت شابة تدعى صفية قد رُبِّيت فى بيت الصديق رضى الله عنه، تأتلق نضارة وحُسنًا، وفهمًا وعلمًا، زينة أترابها، ومهوى قلوب أمهات المؤمنين، لأخلاقها ودينها وأدبها، وخصوصا عائشة، رضى الله عنهن جميعا. فمال قلب سيرين إليها؛ إعجابًا وإكبارًا، فخطبها، وحين سئل عنه، تقصيًا لأخباره وسيرته شهد له أنس رضى الله عنه، وقال: زوجوها له، ولا تخشَوا عليها بأسًا؛ فما عرفته إلا صحيح الدين، رضىّ الخلق، وافر المروءة.

وتم الزواج:

واقترن الخير بالخير، والفضل بالفضل، والدين بالدين. وشهد القرانَ طائفةٌ من الصحابة الكرام، فيهم من البدريين ثمانية عشر.

وكان محمد بن سيرين - رضى الله عنه - أول ثمرة طيبة لهذا الزواج، وكانت ولادته قبل عامين من انقضاء خلافة ذى النورين، عثمان الشهيد رضى الله عنه، وتبعه فى الولادة إخوة له هم: أنس ومعبد ويحيى وحفصة وكريمة، وكلهم تابعيون أجلاّء.

فى المسجد النبوى الشريف:

كانت بواكر شخصية الفتى محمد بن سيرين تنبئ عن حدة ذكاء، وقوة نباهة، وشغف بالعلم. وكان المسجد النبوى الشريف ما يزال يضم حلقات بقية الصحابة رضوان الله عليهم، أمثال زيد بن ثابت وأنس بن مالك وعمران بن الحصين وأبى هريرة، والعبادلة: ابن عمر وابن عباس وابن الزبير. . وغيرهم.

فأقبل محمد على تلك الحلقات، أو ينابيع العلم والمعرفة، ينهل من موردها العذب أصفى الشراب وأحلاه، فحفظ القرآن الكريم، والحديث الشريف، وتفقَّه فى الأحكام، وتنوعت علومه.

---

(١) وكان من بينهم أيضا نصير، والد موسى بن نصير.

(٢) المكاتبة أن يتفق العبد مع سيده أن يؤدِّى إليه مبلغًا من المال على أن يعتق، ويصير حرا.

إلى البصرة:

وما أدراك ما البصرة؟ فقد كانت فى حينها قاعدة من أهم الثغور الإسلامية . وقد تميزت بأمرين : أولهما أنها كانت مركز قيادة الجيوش الإسلامية المنطلقة إلى الشرق، إلى أقاصى فارس وخراسان وما وراء النهر، وبلاد ما وراء النهرين سيحون وجيحون . وثانيهما أنها زخرت بطائفة واسعة العدد من الصحابة وكبار التابعين، يُربُّون فيها الأجيال والرجال على الإسلام الحنيف .

انتقلت إليها أسرة سيرين، وأقامت فيها، واستوطنتها، وأخذتها داراً وسكنًا . وكان محمد ـ رضى الله عنه ـ قد أنس فى والده حب العمل، وكسب اليد، فاتخذ له مهنة يتكسب منها عيشه، وعمل بزّازًا[١] .

لذلك فقد قسم يومه شطرين، شطر للعلم والعبادة، وشطر للعمل . فإذا ما جن عليه الليل صف واقفاً، مصليًا، متعبدًا، تاليًا، ومُتهجِّدًا، ولا ينام إلا القليل، سُوَيْعات يريح بها جسده . ومع الفجر يغدو إلى المسجد الجامع ؛ ليؤدى الفريضة، ثم يجلس للتعلم أو التعليم، وحيث يجلس تكتظ الحلقة بالجموع . وعند الضحى، وقد ارتفعت شمس النهار، يأتى السوق للعمل والجد، والاجتهاد فى السعى .

أما دخوله السوق فكان موضع حديث الناس، واستئناسهم، وتجمعهم حوله . لا يفتأ يذكر الله تعالى، يكبره ويسبحه ويذكره، ويقول : إنها ساعة غفلة الناس؛ إذ شغلتهم أموالهم، فنسوا حظا مما ذكروا به، يذكِّر الناس بالآخرة، ويبصرهم بالدنيا، ويرشدهم إلى الحق وإلى الصراط المستقيم، وقد يفصل فى خلافاتهم ومشاجراتهم .

ويطيب له ولهم أحيانًا أن يروى لهم مُلْحة تسرِّى عنهم همومهم، وتذهب كدَّهم وغمهم، مع احتفاظه ـ رضى الله عنه ـ بكامل هيبته ووقاره .

اذكروا محاسن موتاكم:

وسواء فى الأحياء أم فى الأموات لم يكن لسان محمد بن سيرين لينال أحدًا بسوء أبدًا، فإذا ما ذكر عنده أحد الناس بسوء، ونيل منه بادر إلى ذكر المحاسن، قاطعًا على الذاكر سبيلَه . ويروى أنه سمع ذات يوم أحد جُلاسه يسب الحجاج بن يوسف بعد وفاته ويلعنه ويفحش، فقال له : صه يا ابن أخى ؛ فإن الحجاج مضى إلى ربه، وإنك حين تقدم على الله تعالى ستجد أن أحقر ذنب ارتكبته فى الدنيا أشد على نفسك من أعظم ذنب اجترحه الحجاج ؛ فلكل منكما يومئذ شأن يغنيه . واعلم يا ابن أخى أن الله ـ عز وجل ـ سوف يقتص من الحجاج لمن ظلتهم، كما سيقتص للحجاج ممن يظلمونه . فلا تشغلنَّ نفسك بعد اليوم بسب أحد .

ومن يَكْتُمْها فإنَّه آثِمٌ قلبُه:

إنها الشهادة، كلمة الحق والصدق، وهى محور حياته رضى الله عنه، فقد دعاه إلى زيارته

(١) البزاز : تاجر الأقمشة والثياب .

والى العراقَين عمر بن هبيرة، فأتاه ومعه ابن أخ له.

فلما دخل عليه رحَّب به ابن هبيرة ترحيبًا عظيمًا، وأكرم وفادته، ورفع مجلسه، وقربه منه وأدناه، ثم أخذ يسأله فى كثير من الشئون، فى الدين والدنيا، ثم قال: كيف تركتَ أهل بلدك يا أبا بكر؟ قال محمد: تركتهم والظلم فيهم فاش، وأنت عنهم لاه يا ابن هبيرة. فارتعد ابن أخيه خوفًا عليه، ولكزه بمنكبه كى لا يتمادى. فالتفت محمد إليه وقال له: إنك لست الذى تسأل عنهم، إنما أنا الذى أسأل، وإنها لشهادة ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ﴾. ولم يعلق ابن هبيرة الوالى بكلمة قط، بل سكت وأغضى.

وعندما انتهى اللقاء قام ابن هبيرة مودعًا لابن سيرين حتى باب الديوان، وهو يزفه برقيق العبارة، وسلاسة المنطق، وأعذب الكلام، ثم بعث إليه مع حاجبه بكيس فيه ثلاثة آلاف دينار، فردَّها شاكرًا. فقال له ابن أخيه فى دهشة واستغراب: ما يمنعك يا عم من قبول هبة الأمير؟ فقال له: إنما أعطانى لخير ظنه بى، فإن كنت من أهل الخير - كما ظن - فما ينبغى لى أن أقبل، وإن لم أكن كما ظن فأحرى بى أن لا أستبيح قبول ذلك.

قال ربِّ السِّجن أحبّ إلىَّ:

ودخل صاحبنا السجن فى قضية كان فيها عنوانا على الصدق مع النفس، وطهارة اليد، وبراءة الذمة. وسبب ذلك أنه بحكم عمله فى التجارة اشترى ذات يوم زيتًا بأربعين ألف درهم، ولم يكن معه الثمن كله، فأجَّلها من بائعها، وقبل البائع، وحدَّدا مدة الدَّين بوقت معلوم وتراضيًا. وبعد أن استقرت زقاق[1] الزيت فى داره قام إلى أحدها ففتحه، ففاحت منه رائحة كريهة نتنة، وتبين له أن فأرًا ميتًا منتفخًا قد استقر فى قعر الزق فأقفله، ثم عاين بقيه الزقاق، فوجدها سليمة.

لكن نفس ابن سيرين الدقيقة الرقيقة حدثته قائلة: إن الزيت كله كان فى المعصرة فى مكان واحد، وإن النجاسة والفساد ليسا خاصين بهذا الزِّقِّ دون سواه، ولو أننى رددتها بعيبها إلى البائع، فلعله يبعيه فاسداً للناس، فيؤذيهم، ثم أراق الزيت كله.

وقد وقع منه ذلك فى وقت عسر، كان يشكو فيه من خسارة كبيرة حلَّت به، فركبه الدَّين، وطالبه صاحب الزيت بالسداد، فلم يقدر على ذلك، فشكاه إلى القاضى الذى أمر بحبسه إلى أن يقضى ما عليه من حق.

لا أعينك على خيانة ولىّ الأمر:

طالت مدة مكوثه فى السجن، وكان القيم على السجن عارفًا به، مقدراً لفضله، فأشفق عليه وأراد أن يقدم له خدمة، فقال له: يا أبا بكر إذا كان الليل تركتك تذهب إلى أهلك وتبيت معهم، وفى الصباح الباكر تعود إلىّ، إلى أن يقضى الله أمرًا كانَ مفعولاً، فيطلق سراحك. فأجابه ابن سيرين: لا والله، لا أفعل. فقال السجان: ولمَ؟ هداك الله. قال ابن سيرين: حتى لا أعينك على خيانة ولى الأمر.

(١) المفرد: زق، وهى أوعية جلدية، توضع فيها السوائل.

وصية أنس بن مالك ـ رضى الله عنه.

وكان سيدنا أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قد شاخ وكبر، وتقدمت به السن، وأشفق على الموت، فلما احتضر أوصى أن يغسله ويكفنه ويصلى عليه محمد بن سيرين، ثقة منه به، واعترافًا بعلمه وفضله ونقائه، ولما كان بينه وبين أبيه سيرين من ولاية وحضانة وتربية.

فلما وقعت الوفاة جاء الناس إلى الوالى، وأخبروه بوصية أنس رضى الله عنه، فأذن لمحمد بإخلاء سبيله وتنفيذ وصيته.

لكن محمداً رضى الله عنه قال: لا أخرج حتى تستأذنوا صاحب الدين، فإنما حُبست بما له علىَّ من الحق، فأذن له صاحب الدَّين أيضا. فخرج إلى دار أنس، فغسَّله، وكفَّنه، وصلَّى عليه، وترحم، ثم عاد إلى السجن، دون أن يمر على أهله فى بيته.

لقد كان ابن سيرين ـ رضى الله عنه ـ على مستوى رفيع من الذمة، والحساسية المفرطة، فى أمور تبدو فى ظاهرها عادية لا غبار عليها، لكنه بميزان الإيمان الراقى كان يتوجس منها، ويباعد بينه وبينها، ويترك الناس فى عجب وذهول واستغراب.

نعم أحلف:

بعد أن فرج الله تعالى كربته، ورد عليه حريته، وخرج من السجن حدثت له واقعة أغرب من الخيال، فى نظر العامة؛ إذ ادعى عليه أحد الناس ـ كذباً وزوراً ـ أن له فى ذمته درهمين، فأنكر هذه الدعوى، وأبى أن يصدقه فيعطيه. فقال الرجل: أتحلف على ذلك؟ ـ قالها فى تحدٍّ وهو يعلم أن ابن سيرين يرفض الحلف، ويستنكره من الناس. قال ابن سيرين: نعم أحلف! وحلف له. فاستعظم السامعون مقولته، ودهشوا لجوابه وحلفه، وقالوا: يا أبا بكر أتحلف من أجل درهمين، وأنت الذى تركت بالأمس أربعين ألف درهم فى شيء رابَك، مما لا يرتاب فيه أحد غيرك. فقال لهم: نعم أحلف، فإنى لا أريد أن أطعمه حرامًا، وأنا أعلم أنه حرام.

لك الله يا أبا بكر، يا ابن سيرين! فلقد حلفت وعلوت، وبلغت العَنان رقةً وطهراً، وحدبًا حتى على خصومك.

فراسة المؤمن:

وكان ـ رضى الله عنه ـ قد حفظ القرآن الكريم وأتقنه، وعلمه وعلمه، وغاص فى معانيه، وارتقى إلى معاليه، فأورثه كل ذلك شفافية رُوحية لا تبارَى ولا تجارَى.

ومن طريف ما يذكر فى هذا الصدد، أنه عندما سجن بالدَّين الذى عليه، كان يقول: ليس هذا هو السبب؛ فأنا أعرف الحقيقة، لقد ابتليت بذنب، فامتحنت بالسجن من أجله. لقد قلت يومًا لرجل: يا مفلس.

وعندما ذُكرتْ تلك الرواية لأبى سليمان الدارانى، قال: رحمه الله وأمثاله! لقد قلَّت ذنوبُهم فعرفوا من أين أتُوا، ومثلنا قد كثرت ذنوبنا فلم ندر من أين نؤتَى، ولا بأى ذنب نؤخَذ.

وكان إذا دعى إلى وليمة يقول لأهله : ايتونى بشربة سويق[١]، فيشربها، ويقول : إنى أكره أن أحمل جوعى إلى موائدهم وطعامهم .

وغلبت شهرة ابن سيرين - رضى الله عنه - فى تعبير الرؤيا على ما عداها من علمه وورعه وفقهه . وهو على تقدمه فى هذا المجال كان يقول لمن يأتيه ويستفتيه فى رؤيا رآها : اتق الله فى اليقظة، ولا يغرَّك ما رأيت فى المنام .

ولا يفوتنا أن نعرض لبعض تأويله وتعبيراته، فإنها جزء وحيز من علمه، وبما أفاء الله تعالى عليه، ووهبه له .

يقول ابن كثير رحمه الله[٢]: قال له رجل : رأيت كأنى أصب الزيت فى الزيتون؟ فقال : فتش على امرأتك؛ فإنها أمك، ففتش فإذا هى أمه . وذلك أن الرجل أخذ من بلاده صغيرا سبيا، ثم مكث فى بلاد الإسلام إلى أن كبر، ثم سُبيت أمه، فاشتراها جاهلاً أنها أمه، فلما رأى هذه الرؤيا، وذكرها لابن سيرين، فأمره أن يفتش على ذلك، ففتش فوجد الأمر على ما ذكره[٣] .

وقال له آخر : رأيت كأنى دست - أو قال : وطئت - تمرة، فخرجت منها فأرة . فقال له : تتزوج امرأة - أو قال : تطأ امرأة - صالحة فتلد بنتا فاسقة . فكان كما قال .

وقال آخر : رأيت كأنَّ على سطح بيتى حبات شعير، فجاء ديك، فلقطها؟ فقال له : إن سُرق لك شىء فى هذه الأيام فأتنى . فوضعوا بساطا على سطحهم فسرق، فجاء إليه فأخبره، فقال : اذهب إلى مؤذن محلتك فخذه منه . فجاء إلى المؤذن، فأخذ البساط منه .

وقال له رجل : رأيت الحمام تلقط الياسمين . فقال : مات علماء البصرة .

وأتاه رجل فقال : رأيت رجلا عريانا واقفا على مزبلة وبيده طنبور[٤] يضرب به . فقال له ابن سيرين : لا تصلح هذه الرؤيا فى زماننا هذا إلا للحسن البصرى . الحسن - والله - هو الذى رأيت؛ لأن المزبلة الدنيا، وقد جعلها تحت رجليه، وعريه تجرده عنها . والطنبور يضرب به هى المواعظ التى يقرع بها آذان الناس .

وقال له آخر : رأيت كأننى أستاك والدم يسيل . فقال له : أنت رجل تقع فى أعراض الناس، وتأكل لحومهم .

وقال له آخر : رأيت كأننى أرى اللؤلؤ فى الحمأة . فقال له : أنت رجل تضع القرآن والعلم عند غير أهله، ومن لا ينتفع به .

وجاءته امرأة فقالت : رأيت كأن سنوراً[٥] أدخل رأسه فى بطن زوجى، فأخذ منه قطعة؟ فقال لها ابن سيرين : سرق لزوجك ثلاثمائة وستة عشر درهما . فقالت : صدقت من أين أخذته؟

---

(١) السويق : نقيع الحنطة والشعير بالماء .

(٢) البداية والنهاية، ج٩، ص٣٠٣ .

(٣) لقد بولغ كثيراً فى تأويل ابن سيرين، حتى تقَوَّل عليه ما لم يقل .

(٤) آلة موسيقية .

(٥) السِّنَّوْر : الهر .

قال : من هجاء حروفه ، وهى حساب الجمل ، فالسين ستون ، والنون خمسون ، والواو ستة ، والراء مائتان ، وذلك ثلاثمائة وستة عشر . وذكرت السنور أسود . فقال : هو عبد فى جواركم . فألزموا عبدا أسود كان فى جوارهم ، وضرب ، فأقر بالحال المذكور .

وقال له رجل : رأيت لحيتى قد طالت ، وأنا أنظر إليها . فقال له : أمؤذن أنت؟ قال : نعم . فقال له : اتق الله ولا تنظر إلى دور الجيران .

وقال له آخر : رأيت كأن لحيتى قد طالت حتى جززتها ونسجتها كساء ، وبعته فى السوق . فقال له : اتق الله ، فإنك شاهد زور .

ويطول بنا الحديث لو رحنا نستقصى تأويل ابن سيرين رضى الله عنه ، مما صدر عنه حقا ، أو قيل عليه . ويكفينا ما قدمنا من أمثلة ونماذج ، يتبين من خلالها فراسته فى رد الرموز إلى الأصول ، واتباعه النهج القرآنى .

وهو - رحمه الله ورضى عنه - يعدُّ لدى العلماء رأسًا فى التابعين ، علمًا وسلوكًا ، وأثرًا طيبًا حميدًا ، وقدوةً صالحةً .

* * *

عروة بن الزبير

رضى الله عنه

كـان عروة ثقـة، كثـير الحـديث، عالمـا مأمونا، ثبتا

محمد بن سعد

فرع من دوحة

إن من أرقى النماذج التى تشد العقل والعاطفة والمشاعر عامة، شخصية عروة بن الزبير رضى الله عنهما، إذ يقف المطالع لسيرته والمطلع عليها، وقد طأطأ رأسه، وخشع قلبه، واستسلمت جوارحه، إجلالا وإكبارا. إنه ابن الزبير بن العوام بن خويلد. فرع من دوحة كريمة.

والزبير رضى الله عنه من السابقين إلى الإسلام وهو فى ريعان الشباب، حماسا وغيرة، بل شعلة تتوقد ثم تغدو نورا وضياء يسفح ظلمة الجهل والجاهلية، عن قلبه وعقله وعمن حوله. فتراه مارداً، ويضطرم فيكون فارسا، ويغضب لله تعالى فيكون أول من استل سيفا..

شحنته أمه صفية بنت عبدالمطلب - عمة رسول الله ﷺ - بطاقة هائلة من العنفوان، وذخرته بفيض من الشهامة والاندفاع، وهو لا يزال فتى غضا فى مقتبل الشباب، ومن ثم كان رجلا مبكرا. ذلكم هو أبو عروة.

أما أمه... الوعاء الذى ضمه نطفة، والحجر الذى احتضنه وليدا، والثدى الذى غذاه رضيعا، فهى أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما، ذات النطاقين، أول المسلمات المؤمنات مغامرة فى سبيل الله.

وأما مدرسته التى تعلم فيها، وتلقى المعرفة منها، وتربى فكريا ووجدانيا بين جنباتها، ونعم بظلالها وأفيائها، وتنشّق عطر نسيمها، وشذا أزاهيرها، وتخرج على يديها علما فى التابعين، علما وفقها وسلوكا، وقدوة، إنما هى خالته عائشة بنت أبى بكر أم المؤمنين رضى الله عنها وعن أبيها الصديق.

ولا ننسى امتداد جذور هذه الدوحة الكريمة إلى أول أمهات المؤمنين، وأول المسلمات: خديجة بنت خويلد رضى الله عنها، والعوّام والد الزبير أخوها، وهى على هذا عمة الزبير.

والناس، كما قال رسول الله ﷺ: «الناس معادن، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا».

ومن سنام خيارهم، وذروة ممتدهم: عروة رضى الله عنه.

الولادة والنشأة

أطل عروة على الدنيا فى أواخر خلافة الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ودرج ومشى فى خلافة عثمان بن عفان ذى النورين رضى الله عنه.

فكان شبوبه فى المدينة المنورة، وقد استقام عود الإسلام، وامتدت أفياء ظلال أغصانه الوراقة إلى كثير من بقاع الدنيا؛ شرقا وغربا، شمالا وجنوبا.

ولقد كانت المدينة آنذاك ذات طابعين: عاصمة الدولة الإسلامية، ومركز سلطانها السياسى، وأيضا موئل كبار الصحابة رضوان الله عليهم، وقد تفتحت العقول والبصائر على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، فباتت مهدا علميا ومعهدا لكل ذى نباهة وقصد.

انغمس طرف من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم فى ميدان الجهاد، وباتوا لا يلوون على دار ولا أهل، وقد اشتط ببعضهم هذا السبيل، فملك عليه كل وجدانه ومشاعره، ومن ثم تناءت

بهم الديار عن الوطن الأم، فكم من صحابى وتابعى رقد الرقدة الأخيرة فى الشام والعراق وفارس وما وراءها، وفى مصر وفى الشمال الإفريقى؛ شهودا فى قبورهم على ما قدموا وما بذلوا.

وانغمس طرف آخر فى جهاد من نوع آخر. أكبوا على العلم والدرس والتحصيل، والبحث والتنقيب، والحفظ والإتقان، والضبط والربط، سواء فى كتاب الله عز وجل، أو فى سنة رسول الله ﷺ، باذلين الجهد الجهيد فى هذا السبيل، وقد تأقلموا به، وتجاوبوا معه، حتى أصبحوا نماذج راقية فى القيم والفهم والسلوك.

بيت عائشة رضى الله عنها

وكان بيت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها موئلا وملاذا لكل طالب علم، ومفرخا للعدد العديد من مقدمى التابعين فى هذا المضمار.

وما أعظم ما ورثته أم المؤمنين رضى الله عنها من خصوصيات بيت النبوة، وهو جزء كبير لا يستهان به من العلم. أضف إلى ذلك نباهة شخصيتها، وذكاءها، وأمانتها، وصدق حديثها، وحفظها.

ولقد كانت رضى الله عنها شغوفة بأولاد أختها أسماء بنت أبى بكر، أولاد الزبير بن العوام رضى الله عنه إلى حد بعيد، حتى إن رسول الله ﷺ كناها بأم عبدالله، نظرا لما كانت تفيضه على عبدالله بن الزبير من حب بالغ، وتعلق كبير، فكان أكثرهم بل كلهم يأنس إلى صدرها وقلبها وعطفها.

وتفتحت عينا عروة على بيت خالته عائشة، وفى أكنافه التى يشع كل ركن فيها بأنوار التنزيل وتتراءى كلمات وأقوال وأفعال رسول الله ﷺ.

ورأت عائشة رضى الله عنها فى عروة باكورة نجابة وذكاء وتقى، فأفاضت عليه مما تختزنه فى صدرها ورأسها، ولم تكن لتبخل أبدا، ولم يكن هو ليمل، فقد عشق العلم والتقوى، ودب فيهما إلى أقصى حد.

قيادة سياسية وقيادة عسكرية وقيادة علمية

وكان لعروة أكثر من شقيق، ولكن أشهرهم كان عبدالله ومصعب رضى الله عنهما ولقد تأثر عبدالله - البكر - بشخصية أبيه الزبير، أيما تأثر، فى الفروسية والشجاعة والطموح، وغلب ذلك عليه، فكان الرمز فى القيادة السياسية من آل الزبير وشهدت عليه حياته بذلك.

وأما مصعب فقد حاز قصب السبق فى القيادة العسكرية، سواء فى المبارزة، أو فى تدبير الخطط وإحكامها، وعُدَّ مصعب فى حينه من أبرز القادة العسكريين. أضف إلى ذلك وسامته وحسن خلقه ودونما تفريط فى جنب الله تعالى.

ومن هنا كان التواصل بين عبدالله ومصعب، والتآلف أيضا.

أما عروة رضى الله عنه فقد استغرقه العلم، وملك عليه ذاته، قلبا وقالبا، وانصرف إليه بكليته. حتى إذا ما أدرك الشباب والرجولة فاق أقرانه، وتقدم الصفوف، وعد رجل العلم

والموقف، والحكمة والرأى، دون منازع.

ولقد كان معه فى مدرسة عائشة كثير من التلامذة النجباء، من أبرزهم القاسم بن محمد بن أبى بكر وعمرة بنت عبدالرحمن الأنصارية، لكنهم جميعا لم يبلغوا مرتبة عروة.

عروة والفتن

أطلت الفتن برأسها الخبيث على المجتمع الإسلامى مع نهاية عهد عثمان رضى الله عنه، إذ بدأ المكر والدس اليهودى يأخذان سبيلهما إلى كثير من الناس، فى الشام وفى مصر وفى غيرهما.

والذى تولى إثم ذلك وكبره عبدالله بن سبأ[١]. اليهودى الأصل والنزعة، فأخذ ينفث سمومه ويؤلب الناس على عثمان رضى الله عنه، كما اتخذ هذا اليهودى الماكر من على رضى الله عنه وشيعته ترسا ومجنا، ونقصد بالشيعة هنا المؤيدين لعلى بأحقية تولى الخلافة دون عثمان، ومن بينهم سلمان وأبو ذر وعمار وقيس بن سعد بن عبادة وغيرهم رضى الله عنهم؛ ولا نقصد الشيعة بالمفهوم المذهبى.

ولقد تأثر عروة رضى الله عنه بذلك، ولكن من خلال التقوى التى تأصلت فى قلبه، وسكنت بين جوانحه، فلم ينحز إلى فئة، ولم تجره الفتنة إلى أتونها، وظل متماسكا داعيا إلى الترفع عن الخصومات الدنيوية، ووحدة الكلمة والصف.

ونراه طائرا فى غير سربه

لقد اتخذت عائشة رضى الله عنها بعد استشهاد عثمان والبيعة لعلى موقفا سياسيا، متضامنا مع الزبير وطلحة؛ وكان موقفها هذا نابعا - كما يقول بعض المؤرخين - من حبها لابن اختها عبدالله بن الزبير، وتوافقها مع رأيه. الذى كان أيضا عاملا رئيسيا فى الضغط على أبيه فى نقض البيعة لعلى حتى يقتص من قتلة عثمان.

ويشهد التاريخ بأن الزبير رضى الله عنه قد ترك ميدان معركة الجمل، بعد أن تحادث مع على[٢] وذكّر علىٌّ الزبير بحديث الرسول ﷺ أنه يقاتل عليا وهو ظالم له، فما كان من الزبير إلا أن رجع، وفى الطريق غدر به ابن جرموز التميمى.

ومما تذكره روايات التاريخ أن سهما غربا مجهول المصدر قد أصاب طلحة فاستشهد، ومن ثم نشب القتال: وما لبث أن انهزم أصحاب الجمل، وأعيدت عائشة رضى الله عنها إلى المدينة.

والسهم الغرب المجهول المصدر يصيب طلحة بالذات، يشهد بنفسه على الأيدى الخفية التى كانت تدس بين المسلمين، وتهيج قلوبهم، وتثير ثائرتهم؛ بعضهم على بعض.

ما أحببنا أن نفيض فى الحديث فى ذلك الجانب، ولكن موضوعية البحث تفرضه علينا، وخصوصا ونحن نتحدث عن شخصية التابعى الجليل عروة بن الزبير رضى الله عنه. فأين كان

---

(١) عرف ابن سبأ بابن السوداء، وكان يمنيا.

(٢) «الزبير» و«على» أولهما ابن عمة الثانى، والآخر ابن خال الأول.

من تلك الفتنة؟ وماذا كان موقفه؟

كان رضى الله عنه ما يزال شابا، فى مقتبل الشباب، قد انغمس إلى قمة رأسه فى العلم، وملك عليه الورع كل حواسه، وحشاشة فؤاده. فأخذ الموقف السلبى من كل ما من شأنه أن يصدع وحدة المسلمين ويشق صفهم، ولم يترك ذلك يقبع فى أعماقه من غير أن ينطق به، ويعلنه؛ قناعة وطمأنينة.

لذا دمغه كتاب السير فى أعلام الرجال بأنه يؤثر السلامة على الفتنة، السلامة للأمة لا على نفسه وشخصه، فما أهون الذات عنده أمام كيان المسلمين.

قال عنه العجلى[1]: مدنى، تابعى، رجل صالح، لم يدخل فى شىء من الفتن.

وعلى هذا النهج سار عروة رضى الله عنه ما بقى من أيامه وعمره، وطيلة حياته.

وتمر الأيام والأعوام

وتمضى مسيرة التاريخ، وعروة يزداد تألقا وبريقا فى العلم والتقوى، دون غيرهما، لقد ازداد تألقا حتى عُدَّ أحد فقهاء المدينة الكبار من التابعين، يشار إليه بالبنان، ويقصد للسؤال والفُتيا.

كان عالما بالأنساب، وليس هذا بمستغرب، فجده الصديق رضى الله عنه كان أعلم قريش بأنسابها وأحسابها.

وكان عالما بالفقه، تلقاه عن كبار الصحابة، وعلى رأسهم أم المؤمنين عائشة؛ حافظا لكتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ؛ درس ذلك وأتقنه على يد زيد بن ثابت رضى الله عنه، وعبدالله ابن عمر وأبيه الزبير وأبى هريرة وأمه أسماء وأم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنهم أجمعين.

وكانت له حافظة واعية، متين الحفظ، غزير الشعر رواية، لا تخونه الذاكرة.

ويذكره لنا الواقدى صاحب فتوح الشام بقوله: كان فقيها عالما حافظا، ثبتا، حُجةً، عالما بالسير، وهو أول من صنف فى المغازى.

والعبارة الأخيرة فى مقوله الواقدى رحمه الله ذات دلالة خاصة؛ فالتصنيف هنا لا يعنى التأليف كتابة، بل حفظا مبوبا مسلسلا، مؤرخا، مع إحاطة شاملة.

ونستخلص من هذا أن صاحبنا عروة رضى الله عنه يعتبر أول من فعل ذلك فى هذا الباب من العلم، وله أسبقية فيه، ويعد مرجعا يعتمد عليه. وهذا ولا شك من سمات شخصية عروة العلمية.

ويضيف الواقدى قائلا: . . وكان من فقهاء المدينة المعدودين، ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه، وكان أروى الناس للشعر[2].

عروة وكتاب الله تعالى

إن من أعظم ما امتن به الله تعالى على عروة رضى الله عنه هو الصلة الوشيجة بينه وبين القرآن

(١) (البداية والنهاية) ج:٩، ص:١١٩

(٢) (البداية والنهاية) ج:٩، ص:١١٩.

الكريم، فقد كان دائم التلاوة، حافظا متقنا، شديد التأثر والانفعال، رطب اللسان به، يحنو بنفسه، ويخشع بقلبه، وتهمل عيناه.

ولقد تواترت الأخبار والنقول أنه رضى الله عنه كان يقرأ كل نهار ربع القرآن نظرا فى المصحف، ويقوم به الليل تلاوة عن ظهر قلب.

وما أقرب ما يستحضر الآية، بل الآيات، فى كل المناسبات دونما عسر أوتلكؤ، لنفسه ولغيره، يذكرها ويذكر بها.

أمنية عروة

فى موسم من مواسم الحج، وفى زمن خلافة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه، تلاقى فى المسجد الحرام أربعة نفر بجوار الكعبة الشريفة، وقد أدوا مناسكهم، فجلسوا يتجاذبون أطراف الحديث، فى الدين والدنيا والآخرة. وهم عبدالملك بن مروان بن الحكم، وأبناء الزبير بن العوام: عبدالله ومصعب وعروة.

فقال أحدهم: ليتمن كل منا على الله ما يحب.

وما من شك أنهم فى هذا الجوار الكريم وقد شعروا بقدسية المكان، وتجلى رحمة الله تعالى عليهم، قد آثروا أن يتمنوا ويدعوا.

فقال أكبرهم سنا عبدالله بن الزبير: أمنيتى أن أملك الحجاز وأنال الخلافة.

وقال أخوه مصعب: أما أنا فأتمنى أن أملك العراقين[1] فلا ينازعنى فيهما منازع.

وقال عبدالملك بن مروان: إذا كنتما تقنعان بذلك فأنا لا أقنع إلا بأن أملك الأرض كلها[2]. وأن أنال الخلافة بعد معاوية بن أبى سفيان.

وساد الصمت الجميع، ولم ينبس عروة ببنت شفة؛ وهو يتأمل الكعبة الشريفة فى شغف المؤمن، وخشوعه.

فقالوا له: وأنت، ماذا تتمنى يا عروة؟

فنظر إليهم طويلا، ثم قال: بارك الله فيما تمنيتم من أمر دنياكم، أما أنا فأتمنى أن أكون عالما عاملا، يأخذ الناس عنى كتاب ربهم وسنة نبيهم وأحكام دينهم، وأن أفوز فى الآخرة برضا الله، وأحظى بجنته. ثم تفرقوا.

لقد كانت أمانيهم من خلال قناعاتهم، منطلقة من أغوار وأعماق ذواتهم ونفوسهم، أما عبدالله ومصعب وعبدالملك رضى الله عنهم، مع علو كعبهم، وصدق إيمانهم وإسلامهم، فقد غلبتهم فى تلك اللحظة شهوة الحياة الدنيا، وما جبلوا عليه من حب الرياسة والسلطان.

لكن عروة رضى الله عنه وأرضاه استعلى على ذلك كله، جاعلا من دنياه جسرا يعبر عليه لآخرته، ليس غير.

---

(١) العراقين: العراق وفارس.

(٢) يقصد «عبدالملك» أرض الدولة الإسلامية وما يجد من فتح.

من كان يريد العاجلة

وبعد أن تفرق الجمع ، وانفض السامر ، وعاد كل إلى موقعه ومسيرته من الحياة الدنيا ، ومضت أعوام التاريخ يردف بعضها بعضا . . تبوأ عبدالله الخلافة ، بعد يزيد بن معاوية ، وبسط سلطانه على الحجاز واليمن والعراق ومصر . لكنه واجه رفيقه فى الأمانى عبدالملك بن مروان مواجهة دامية ، انتهت باستشهاد عبدالله . كما استطاع عبدالملك أن يستعيد السلطان ، ويوحد الأقطار ، بعد أن أنهى مقاومة مصعب بن الزبير فى العراق ، وقد دس عليه من جنده من قتله .

أما عروة رضى الله عنه فقد ظل مستمسكا بحبل الله تعالى ، وولائه لكتابه ، لم تستفزه الفتن ، ولم تستثره العاجلة ، وبقى ما بقى صواما قواما ، عالما عاملا ، فوق الشبه ، وفوق لعاعات الدنيا ، محترما معززا مكرما .

وصدق الله تعالى إذ يقول :

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ...﴾

وأما ﴿مَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فأولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً﴾ .

الصدق مع النفس

لقد كان عروة رضى الله عنه عندما تمنى أمنيته فى ظل الكعبة الشريفة ؛ وفى رحاب البيت الحرام ما يزال فتى شابا ، ومن ثم تابع رحلة العلم والعمل ، وأتقن ذلك ، ونهل من فيض علوم ما بقى من صحابة رسول الله ﷺ ، يلازمهم ويأخذ عنهم ، ولم يبلغ ما بلغ من مكانة علمية إلا وقد استوى عوده ونضج ، ونافس غيره من الفقهاء ممن كانوا معه على صعيد واحد فى المدينة المنورة ؛ منافسة العلم والاقتداء الحسن ، لا منافسة الخصومة والشحناء .

ومما يذكر فى هذا الصدد ما روى عن ابنه هشام بن عروة[1] إذ قال : العلم لواحد من ثلاثة : لذى حسب يزين به حسبه ، أو ذى دين يسوس به دينه ، أو مختلط بسلطان يتحفه بنعمه ويتخلص منه بالعلم ، فلا يقع فى هلكة . ولا أعلم أحدا اشترطه لهذه الثلاثة إلا عروة بن الزبير وعمر بن عبدالعزيز .

يقول هشام ذلك ، وقد عاصر وعايش ولاية عمر بن عبدالعزيز على المدينة ، وقد رأى منه ما رأى ، كما أنه فى نفس الوقت كان تلميذا نجيبا لأبيه عروة .

بستان عروة

المدينة المنورة روضة الحجاز بما حباها الله تعالى من أرض خصبة ، ومياه عذبة ، ولقد كان لعروة فيها بستان ، أقصى ما يملكه فى الحياة الدنيا من متاعها ؛ ولكنه رضى الله عنه كان له شأن وأى شأن فى هذا البستان .

كان يرفع له حائطا يسوره به طوال السنة ، حفاظا عليه كى لا تدخله قطعان الماشية فتنفش فيه وتخربه ، أو يتخذه الغلمان ملعبا لهم فيؤذون أشجاره ونباته .

فإذا ما أثمر نخيله ونضج ، هدم السور وتركه للناس يأكلون منه ويحملون ما طاب لهم ،

(١) ورث العلم عن أبيه ، وكان علما بارزا من أعلامه .

صدقة جارية وقربى إلى الله تعالى .

وأثر عنه أنه كلما دخل بستانه كان يردد قول الله تعالى ، فى إجلال وإكبار : ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ . . .﴾ (الكهف : الآية : ٣٩) .

عروة فى صلاته

من حقائق المعانى فى الصلاة أنها صلة بين العبد وربه ، ومن خلال ذلك كان عروة رضى الله عنه يتوجه بها إلى الله عز وجل بكليته ، وينأى بها عن دنيا الناس ، ويسمو إلى أعلى عليين ، ولقد ذكر أنه اجتمع عنده بعض الضيوف ذات يوم ، وقام هو إلى نافلته ، فانقطعوا عن حديثهم ، وما اتصل من كلامهم ، فلما أتم ركعتين وسلم ، سألهم عن سبب توقفهم ، فاعتذروا إليه بصلاته ، فقال لهم : أتموا حديثكم فإنى لست معكم ، أنا فى نجوة عنكم ، فأنا مع الله تعالى .

كان يطيل الصلاة ، ويتم ركوعها وسجودها ويتقن ذلك غاية الإتقان ، حتى إن الرائى له - وهو فى السجود - يظن به الظنون ، ويتصور أنه قد فارق الحياة .

ولا عجب ، فإن العبد وهو ساجد أقرب ما يكون إلى ربه سبحانه ، فيكثر من الدعاء ؛ ويرقى إلى عنان السماء .

ورأى عروة رضى الله عنه ذات مرة رجلا يصلى ، وكانت صلاته خفيفة ، فلما انتهى دعاه إليه ، وقال له : يا ابن أخى ، أما كانت لك عند ربك حاجة؟ والله إنى لأسأل الله تبارك وتعالى فى صلاتى كل شىء . . . حتى الملح .

شفافية الروح عند عروة

وإلى جانب علمه الغزير ، سمت روحه إلى الدرجات العلى ، زاخر القلب والنفس والوجدان بأصفى المعانى ، ولا أدل على ذلك من تلك الواقعة التى مرت به وهو فى زيارته إلى دمشق زمن الخليفة الوليد بن عبدالملك . وكانت من أقسى الامتحانات وأشدها بلاء ؛ وأعظم دليل على مدى الشفافية التى بلغتها روح عروة .

جاءته الدعوة من أمير المؤمنين الوليد بن عبدالملك ، فلباها ؛ واصطحب معه أكبر بنيه محمدا ؛ وكان من أحب أبنائه إليه ، وأعزهم لديه .

وصادف أن دخل محمد إلى اصطبل الخليفة لمشاهدة أنواع الجياد الصافنات ، فرفسه أحدها رفسة كانت القاضية ، وأودت بحياته . ولم يزد عروة على أن ردد : رضينا بقضاء الله وقدره ﴿ إِنَّا لله وإِنَّا إِلَيْه رَاجِعُونَ ﴾ .

وقبل أن تنتهى مدة الإقامة فى دمشق ، وقد لقى من الوليد كل ترحيب وإكرام وحفاوة ، داهمت الآكلة[١] إحدى رجلى عروة ، وتورمت ساقه .

فاهتم لذلك الوليد ، واستدعى كل طبيب عنده لمعالجة عروة فأشاروا جميعا ببتر الساق ضرورة ، حتى لا يمتد ذلك المرض الخبيث إلى أنحاء الجسم .

وأذعن عروة ، وأسلم أمره لله تعالى . واقترح الطبيب الجراح أن يسقى عروة مسكرا كى لا

(١) الآكلة : مرض يصيب اللحم والعظم معا ؛ ويعرف بالغرغرينا .

يشعر بألم المبضع والمنشار، عند قطع الرجل، فرفض عروة غاضبا وقال: هيهات. إنى لا أستعين بحرام على ما أرجوه من العافية.

فعدل الطبيب من المسكر إلى المخدر[٢]، فأصر عروة على الرفض، وقال: ما أحب أن أسلب عضوا من أعضائى دون أن أشعر بألمه، وأحتسب ذلك عند الله. وعندما هم الجراح بالقطع، حلقت حول عروة طائفة من الرجال الأشداء، فسأل: ما هؤلاء؟ فقيل له: لقد جيء بهم ليمسكوك، حتى لا تتحرك، إن شعرت بالألم، فيحدث ما لا تحمد عقباه.

فقال: ردوهم عنى، لا حاجة لى بهم، وإنى لأرجو أن أكفيكم ذلك بالذكر والتسبيح.

وأخذ عروة فى الذكر. وأى ذكر!؟ ليس اهتزازا، ولا رقصا، ولا تمايلاً، بل استغراقا فى معانى ما يردد، وذوبا فيما يقول، وانعدام إحساس بأية مادية أرضية!

وكان أكثر قوله: لا إله إلا الله، والله أكبر...

وبترت الساق، وما صدر عن عروة أنة ولا ونة، ولا تأوه ولا حركة. وجيء بالزيت المغلى فى مغارف الحديد، فغمست به ساق عروة لمنع النزيف وتدفق الدم، وراح عروة رضى الله عنه فى إغماءة امتدت ساعات بعدها؛ وقد بلله العرق كأنه خارج من حمام. فلما أفاق - والبسمة لا تفارق ثغره - طلب أن يأتوه بساقه التى بترت، ثم أمسك بها يقلبها - على ضعفه - بيديه، ثم خاطبها فقال: أما والذى حملنى عليك فى عتمات الليل إلى المساجد، إنه ليعلم أننى ما مشيت بك إلى حرام قط.

وأنشد:

لعمرك.. ما أهويت كفى لريبة ... ولا حملتنى نحو فاحشة رجلى
ولا قادنى سمعى ولا بصرى لها ... ولا دلنى رأيى عليها ولا عقلى
ولست بماش ما حييت لمنكر ... من الأمر لا يمشى إلى مثله مثلى
ولا مؤثر نفسى على ذى قرابة ... وأوثر ضيفى ما أقام على أهلى
وأعلم أنى لم تصبنى مصيبة ... من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلى

أعظم مصيبة

كان الخليفة الوليد بن عبدالملك مهموما مغموما لما أصاب ضيفه عروة؛ إذ كان يؤمل له الراحة والسعادة عنده؛ وقد انقلب الأمر على غير ما يرجو.

وصادف أن جاء دمشق وفد من بنى عبس زائرا، ودخلوا على الخليفة الوليد مسلمين؛ وكان فيهم رجل ضرير فى جبينه شجة، فسأله الوليد عن سببها؛ فقال الرجل: يا أمير المؤمنين لم يكن فى بنى عبس رجل أوفر منى مالا، ولا أكثر أهلا وولدا. تنزلت مع مالى وعيالى فى بطن واد من منازل قومى، فطرقنا سيل[١] لم نر مثله قط. فذهب السيل بما كان لى من مال وأهل وولد، ولم يترك لى غير بعير واحد وطفل صغير، حديث الولادة.

وكان البعير صعبا فنَدَّ منى، فتركت الصبى على الأرض ولحقت بالبعير، فلم أجاوز مكانى

(١) الأبيات لمعن بن أوس.

قليلا حتى سمعت صيحة الطفل، فالتفت فإذا رأسه فى فم ذئب، وهو يأكله، فبادرت إليه، غير أنى لم أستطع إنقاذه إذ كان قد أتى عليه، فلحقت بالبعير، فلما دنوت منه رمانى برجله على وجهى رمية حطمت جبينى، وذهبت ببصرى، وهكذا وجدت نفسى قد غدوت فى ليلة واحدة من غير أهل ولا ولد ولا مال ولا بصر.

تعجب الوليد مما سمع، ووقع ذلك من نفسه موقع الدهشة، وتذكر ضيفه عروة، فنادى حاجبه، وقال له: انطلق بهذا الرجل إلى ضيفنا عروة بن الزبير، وليقص عليه قصته، ليعلم أن فى الناس من هو أعظم منه بلاء.

والواقع أن عروة رضى الله عنه كان على مستوى رفيع من البلاء، والصبر عليه، ولم يكن سماعه قصة العبسى إلا نوع من المواساة، لا أكثر.

لله ما أعطى، ولله ما أخذ

وعاد عروة إلى المدينة، فجزع أهله لما رأوا من حاله، وسمعوا من مقاله، فقال لهم: لا يهولنكم ما ترون، فلقد وهب لى الله عز وجل أربعة من البنين، ثم أخذ فيهم واحدا وأبقى لى ثلاثة، فله الحمد. وأعطانى أربعة من الأطراف، ثم أخذ منها واحدا وأبقى لى ثلاثة، فله الحمد. وايم الله، لئن أخذ الله منى قليلا فلقد أبقى لى كثيرا؛ ولئن ابتلانى مرة فلطالما عافانى مرات.

أبشر يا أبا عبدالله

وتقاطر عليه أصحابه وتلامذته ومحبوه، يهنئونه بسلامة العودة، ويعزونه فى ولده ورجله.

ولقد قال قائلهم[1]: أبشر يا أبا عبدالله فقد سبقك عضو من أعضائك، وولد من أبنائك إلى الجنة، والكل يتبع البعض إن شاء الله تعالى، ولقد أبقى الله لنا منك ما نحن إليه فقراء، وعنه غير أغنياء من علمك وفقهك ورأيك، نفعك الله وإيانا به، والله ولى ثوابك، والضمين بحسن حسابك.

أأدخل كلى؟!

وكان أخوه عبدالله قد حدثت بينه وبين خالته عائشة أم المؤمنين جفوة، فأقسمت أن لا يدخل عليها، وعانى عبدالله من جراء ذلك معاناة شديدة، ولبث فترة محروما من عطفها وحبها وحنانها؛ وهو الذى لا يطيق البعد عنها، وبكى من أجل ذلك بكاء مرا لان له قلب عروة، فحاول استرضاءها والشفاعة لعبدالله عندها، ولكنه لم يفلح، وأخيرا تفتق ذهنه عن حيلة..

طلب إلى عبدالله أن يختبئ تحت عباءته، ثم قرع باب حجرة خالته مستأذنا بالدخول، فأذنت له، فسألها: أأدخل كلى؟!

فتعجبت من قوله، ولم تفطن إلى ما وراء ذلك؛ ثم قالت: ادخل كلك.

فدخل عليها وتحت عباءته عبدالله، ثم كشف الستر، وأسقط فى يد عائشة؛ وأقبل عبدالله على يديها الكريمتين يلثمهما ويبللهما بدموع الندم والتوبة، حتى لانت له، وعفت عنه.

(١) هو إبراهيم بن محمد بن طلحة

الأب .. المعلم.. الناصح

وكان عروة رضى الله عنه خير أب لأولاد، وخير معلم ناصح لأبناء المسلمين عامة، يدلهم على الخير، ويهديهم سبيل الرشاد.

وأول ما كان يهتم له طلب العلم؛ فكان يقول: يا بنى تعلموا العلم، وابذلوا له حقه، فإنكم إن تكونوا صغار قوم فعسى الله أن يجعلكم بالعلم كبراءهم.

ويقول: واسوأتاه، هل فى الدنيا شىء أقبح من شيخ جاهل؟!

وكان رضى الله عنه يرى فى الصدقة هدية إلى الله تعالى، فيجب أن تكون فى معاناها ومبناها مستوحاة ممن تهدى إليه؛ فيقول: يا بنى لا يهدين أحدكم إلى ربه ما يستحى أن يهديه إلى عزيز قومه، فإن الله تعالى أعز الأعزاء، وأكرم الكرماء، وأحق من يختار له.

ويبصرهم بالناس، فيقول: يا بنى، إذا رأيتم من رجل فعلة خير رائعة فأملوا به خيرا، ولو كان فى نظر الناس رجل سوء، فإن لها عنده أخوات، وإذا رأيتم من رجل فعلة شر فظيعة فاحذروه، وإن كان فى نظر الناس خير رجل، فإن لها عنده أخوات أيضا، واعلموا أن الحسنة تدل على أخواتها، وأن السيئة تدل على أخواتها أيضا.

ويهذب من سلوكهم بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، فيقول: يا بنى، مكتوب فى الحكمة: لتكن كلمتك طيبة، وليكن وجهك طلقا، تكن أحب إلى الناس ممن يبذل لهم العطاء.

وتظل هذه المواعظ والحكم دروسا وعبراً على مدى القرون والأجيال، يتلقونها من قلب عروة النقى الصفى الطاهر، قبل لسانه.

❊ ❊ ❊

وهب بن منبه

(٣٤- ١١٠هـ)

مثل من تعلم علما لا يعمل به كمثل طبيب معه شفاء لا يتداوى به.

وهب بن منبه

أعون الأخلاق على الدين: الزهادة فى الدنيا، وأسرعها ردا اتباع الهوى وحب المال والشرف، ومن حب المال والشرف تنتهك المحارم، ومن انتهاك المحارم يغضب الرب. وغضب الله ليس له دواء!

وهب بن منبه

إذا دخلت الهدية من الباب خرج الحق من الكُوَّة.

وهب بن منبه

اليمانى الصنعانى

كان وهب رضى الله عنه من ذرية أبناء فارس الذين أرسلهم كسرى إلى اليمن مع سيف بن ذى يزن، الحميرى القحطانى ؛ إذ استنجده سيف فأنجده بجماعة من عنده للخلاص من حكم الحبشة الذين طغوا فى البلاد، فأكثروا فيها الفساد. وكانوا قرابة ثمانمائة. واستطاع سيف بمعونتهم أن يستعيد ملك آبائه وأجداده، ويقضى على سلطان الحبشة، ويطهر البلاد من رجسهم وغشمهم وظلمهم. وكان ذلك قبل البعثة المحمدية بقليل.

بعضهم آثر العودة إلى فارس، والبعض الآخر طابت له الحياة فى اليمن فأقام فيها؛ وكان ممن بقى آل وهب. اختلطوا بأهل البلاد، وامتزجوا بهم، وتزوجوا من نسائهم، وعاشوا عيشهم، وتأثروا بنمطهم، فغلبت عليهم نزعة العربية فى أكثر أمورهم. وكانت أم وهب عربية صميمة.

وحيث إن اليمن كانت مسرحا لتقلب الحضارات من «قحطانية» إلى «يهودية» إلى «نصرانية»، فقد حفلت بالكثير من مخلفات تراث تلك الأمم، ومعتقداتها، وأساطيرها. واطلع الكثيرون من أبنائها على ذلك التراث وتأثروا به، ومن ثم ظهر فى أقوالهم.

الإسرائيليات

ومع بزوغ فجر الإسلام انضوت اليمن فى مسيرته، وأصبحت ركنا مهما من أركان دولته، ومرجعا علميا لمن أراد أن يستزيد من المعرفة، خصوصا فى أواخر الخلافة الراشدة.

إذ أتاها بعض الصحابة رضوان الله عليهم وأقام فيها، وكذلك الطبقة الأولى من التابعين.

ونبغ فيها طائفة من العلماء الأفذاذ، وظهرت ظاهرة الإسرائيليات على ألسنة الكثيرين من هؤلاء، إذ تأثروا بما شاع وذاع وانتشر فى ربوع البلاد على مدى حقبات طوال من السنين.

وهى آراء تمس جانبا من العقيدة، أو التفسير، أو التاريخ، بينة النسبة، واضحة الأصل والمنبع، طابعها العام الأسطورة. والرواية المقطوعة السند. كثيرها فج ممقوت، وقليلها مقبول غير مردود.

وعليه، فقد انشغل نفر من علماء التابعين، ومن جاء بعدهم، فى تنقية العلوم الإسلامية من شوائب الإسرائيليات وتصنيفها، ورد الغث منها، ونفيه.

وكان وهب رضى الله عنه ممن حملوا علوما كثيرة، وذخيرة وفيرة، جلها إسرائيلى المورد والمصدر، ولكنه لم يتورط، كما تورط غيره، فى الدس والافتراء؛ إذ عول فى أكثر ما خلفه على الاهتمام بالتاريخ، والموعظة، والنصح والإرشاد.

الصنعانى

ولد وهب بن منبه فى صنعاء، وكانت أمه - كما أسلفنا - عربية حميرية، وكان مولده سنة أربعة وثلاثين للهجرة ؛ مع قرب نهاية خلافة عثمان ذى النورين رضى الله عنه.

وعاش طفولته الأولى مكبا على طلب العلم. ولقد أوتى ذهنا وقادا، وحافظة واعية، وميلا شديدا إلى دراسة التاريخ.

فاطلع اطلاعا واسعا على كتب الأوائل، واستغرق فيها، وتأثر ببعضها، وبدا ذلك فيما خلفه

لنا من تراث واسع عريض.

وكانت صنعاء موطنه الأول والأخير، ولئن خرج منها أحيانا فى طلب علم، أو ملاقاة عالم، أو معاينة حدث، لكنه كان يعود إليها، إذ شغفته حبا.

أجلاء الصحابة:

لقى وهب رضى الله عنه رجالا من أجلاء الصحابة رضى الله عنهم، منهم عبدالله بن عباس وجابر بن عبدالله والنعمان بن بشير ومعاذ بن جبل وأبو هريرة. تلقى عنهم، وحفظ منهم، ودرس عليهم، وكان ذلك عند بلوغه سن الشباب والرجولة، والنضوج.

لكن شخصية ابن عباس رضى الله عنه كانت أشد تأثيرا عليه، خصوصا فيما برع فيه، وهو التفسير؛ هذا من الناحية العلمية، أما من الناحية السلوكية فقد قيل إن وهبا لازم ابن عباس طيلة ثلاث عشرة سنة، وهى فترة ولا شك كافية للدلالة على مدى تعلق وهب بابن عباس رضى الله عنه؛ والحذو حذوه.

شهرته

وأخذت الحكمة والموعظة طريقها من قلب وهب ولسانه إلى أسماع وآذان الناس، ليس فى صنعاء أو اليمن وحدهما، بل طارت فى الآفاق والأنصار، ومختلف الديار؛ وتناقلها الناس، ورووها كابرا عن كابر، مما جعله ملء الأسماع، وتردد اسمه فى محافل المجتمعات، ودواوين الولاة.

ذات يوم..

جلس ذات يوم للموعظة والدرس، فتجمع الناس من حوله، خاصة وعامة، كل يريد أن يجنى من شهى ثمر علمه وفضله، ويتغذى من مائدة معرفته.

وسأله أحدهم: كيف تكون الطاعة فى الدين؟ وقد أمرنا بها على لسان خاتم النبيين ﷺ؟ فقال وهب وقد اشرأبت نحوه الأعناق، وتطاولت الرءوس: يا أخى إذا أردت أن تعمل بطاعة الله عز وجل فاجتهد فى نصحك وعملك لله، فإن العمل لا يقبل ممن ليس بناصح، والنصح لله لايكمل إلا بطاعة الله، كمثل الثمرة الطيبة، ريحها وطعمها، كذلك مثل طاعة الله، النصح ريحها، والعمل طعمها.

ثم زين طاعتك بالحلم والعقل، والفقه والعمل، ثم أكبر نفسك عن أخلاق السفهاء، وعبيد الدنيا، وعبدها على أخلاق الأنبياء، والعلماء العاملين، وعودها فعل الحكماء، وامنعها عمل الأشقياء، وألزمها سيرة الأتقياء، وأعزبها عن سبل الخبثاء، وما كان لك من فضل فأعن به مَن دونك؛ وما كان من نقص فيمن دونك فأعنه عليه حتى يبلغه؛ فإن الحكيم من جمع فواضله وعاد بها على من دونه؛ وينظر فى نقائص من دونه فيقويها ويرجيها حتى يبلغه.

إن كان فقيها حمل من لا فقه له. إذا رأى أنه يريد مصاحبته ومعونته، وإذا كان له مال، أعطى منه من لا مال له. وإذا كان مصلحا استغفر للمذنب. ورجا توبته. وإذا كان محسنا أحسن إلى من أساء إليه، واستوجب بذلك أجره، ولا يقتصر بالقول حتى يحسن منه الفعل، فإذا أحسن الفعل

نظر إلى فضل الله وإحسانه إليه، ولا يتمنى الفعل حتى يفعله، فإذا بلغ من طاعة الله مبلغا حمد الله على ما بلغ منها، ثم طلب ما لم يبلغ منها.

وإذا ذكر خطيئة سترها عن الناس، واستغفر الله الذى هو قادر على أن يغفرها، وإذا علم من الحكمة شيئا لم يشبعه، بل يطلب ما لم يبلغ منها. ثم لا يستعين بشىء من الكذب.

فإن الكذب كالأكلة (١) فى الجسد، تكاد تأكله؛ أو كالأكلة فى الخشب، يُرى ظهرها حسنا، وجوفها نخراً. تغر من يراها، حتى تنكسر على ما فيها، وتهلك من اغتر بها.

وكذلك الكذب فى الحديث، لا يزال صاحبه يغتر به، يظن أنه معينه على حاجته، ورائد له فى رغبته، حتى يعرف ذلك منه، ويتبين لذوى العقول غروره، فتستنبط الفقهاء ما كان يستخفى عنه، فإذا اطلعوا على ذلك من أمره، وتبين لهم، كذبوا خبره، وأباروا شهادته، واتهموا صدقه، وحقروا شأنه، وأبغضوا مجلسه، واستخفوا منه بسرائرهم، وكتموه حديثهم، وصرفوا عنه أماناتهم، وغيبوا عنه أمرهم، وحذروه على دينهم ومعيشتهم، ولم يحضروه شيئا من محاضرهم، ولم يأمنوه على شىء من سرهم، ولم يحكموه فيما شجر بينهم(٢).

لقد سئل رضى الله عنه، فأفاض وأجاد، وصال وجال، وألم إلماما واسعا وعميقا بكل مرتكزاتها وقواعدها، وبين وأفصح، وقرب البعيد، حتى يسهل على الجاهل والمتعلم أخذ ذلك، ومن غير عسر. ثم أضاف رضى الله عنه يقول: وجدت فى بعض الكتب: يقول الله تعالى: إذا أطاعنى عبدى استجبت له من قبل أن يدعونى، وأعطيته من قبل أن يسألنى، وإن عبدى إذا أطاعنى. لو أن أهل السماوات والأرض أجلبوا عليه. جعلت له المخرج من ذلك. وإن عبدى إذا عصانى قطعت يديه من أبواب السماء وجعلته فى الهواء.

ويضيف: يقول الله تعالى فى بعض كتبه: إنى إذا أطعت رضيت، وإذا رضيت باركت، وليس لبركتى نهاية. وإذا عصيت غضبت، وإذا غضبت لعنت، وإن اللعنة تبلغ السابع من الولد.

من الطاعة إلى الرحمة، فإن رحمة الله قريب من المحسنين

وحدث عقيل بن معقل قال: سمعت وهب بن منبه يقول: إن الله ليس يحمد أحدا على طاعة، ولا ينال أحد من الله خيرا إلا برحمته، وليس يرجو الله خير الناس ولا شرهم، ولا يعطف الله على الناس إلا برحمته إياهم. إن مكروا به أباد مكرهم. وإن خادعوه رد عليهم خداعهم. وإن كاذبوه كذب بهم. وإن أدبروا قطع دابرهم. وإن أقبلوا قبل منهم، ولا يقبل منهم شيئا من حيلة ولا مكر ولا خداع ولا سخط ولا مشادة، وإنما يأتى بالخير من الله تعالى رحمته.

ومن لم يبتغ الخير من قبل رحمته لا يجد بابا غير ذلك يدخل منه، فإن الله تعالى لا ينال الخير منه إلا بطاعته. ولا يعطف الله على الناس شىء إلا تعبدهم له، وتضرعهم إليه حتى يرحمهم. فإذا رحمهم استخرجت رحمته منه حاجتهم. وليس ينال الخير من الله إلا من هذا الوجه.

وليس سبيل تؤتى الرحمة من قبله إلا تعبُّد العباد له، وتضرعهم إليه، فإن رحمة الله عز وجل باب كل خير يبتغى من قبله، وإن مفتاح ذلك الباب التضرع إلى الله عز وجل والتعبد له، فمن

(١) الأكلة: السوس.

(٢) روى ذلك عنه الإمام الطبرانى.

ترك المفتاح لم يفتح له، ومن جاء بالمفتاح فتح له به، وكيف يفتح الباب بغير مفتاح؟!

ولله خزائن الخير كله، وباب خزائن الله رحمته، ومفتاح رحمة الله التذلل والتضرع والافتقار إلى الله، فمن حفظ ذلك المفتاح فتحت له الخزائن ودخل. فله فيها ما تشتهى الأنفس، وتلذ الأعين. وفيها ما تشاؤون وما تدعون، فى مقام أمين، لا يحولون عنه ولا يخافون، ولا ينصبون ولا يهرمون. ولا يفتقرون ولا يموتون، فى نعيم مقيم وأجر عظيم وثواب كريم، نزلا من غفور رحيم.

ويحك يا عطاء

والتقى وهبٌ عطاء الخرسانى؛ وكانا متعاصرين ومتواطنين فى اليمن، وكان وهب حريصا على رد عطاء ونصيحته؛ وعطاء فى نفس الوقت من أعلام التابعين علما وفضلا، غير أنه اتصل بسليمان بن عبدالملك أيام خلافته.

فجاءه وهب يعنفه ويلومه، ويقول له: ويحك يا عطاء. ألم أخبر أنك تحمل علمك إلى أبواب الملوك، وأبناء الدنيا، وأبواب الأمراء؟

ويحك يا عطاء. أتأتى من يغلق عنك بابه، ويظهر لك فقره، ويوارى عنك غناه، وتترك باب من يقول: ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر: الآية ٦٠).

ويحك يا عطاء. إن كان يغنيك ما يكفيك، فأوهى ما فى الدنيا يكفيك، وإن كان لا يغنيك ما يكفيك، فليس فى الدنيا شيء يكفيك.

ويحك يا عطاء. إنما بطنك بحر من البحور، وواد من الأودية، لا يملأه شيء إلا التراب.

يا عطاء، كان العلماء قبلكم قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم، فكانوا لا يلتفتون إلى أهل الدنيا، ولا إلى ما فى أيديهم، فكان أهل الدنيا يبذلون إليهم دنياهم رغبة فى علمهم، فأصبح أهل العلم فينا اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة فى الدنيا، فأصبح أهل الدنيا قد زهدوا فى علمهم لما رأوا من سوء موضعه عندهم. فإياك يا عطاء وأبواب السلطان، فإن عند أبوابهم فتنا لمبارك الإبل، لا تصيب من دنياهم شيئا إلا أصابوا من دينك مثله.

وقال عطاء: لقيت وهبا فى الطريق، فقلت له: حدثنى حديثا أحفظه عنك فى مقامى هذا، وأوجز.

فقال: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود، أما وعزتى وعظمتى، لا ينتصر بى عبد من عبادى دون خلقى أعلم ذلك من نيته، فتكبده السماوات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن، إلا جعلت له فيهن فرجا ومخرجا.

أما وعزتى وجلالى، لا يعتصم عبد من عبادى بمخلوق دونى أعلم ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماوات من يده، وأسخت الأرض من تحته، ولا أبالى على أى واد هلك.

رجل من بنى إسرائيل:

كان علم وهب رضى الله عنه واطلاعه على كتب الأولين، وإلمامه الواسع بالتاريخ مدعاة له، وذخيرة فى الاستشهاد بالوقائع والأحداث، ومدخلا إلى الموعظة. وكثيرا ما نراه يقول:

كان رجل من بنى إسرائيل كذا وكذا.

وفى رواياته وأحاديثه كثير من الطرائف ورقائق المواعظ. ويجدر بنا ونحن نسرح مع وهب رضى الله عنه فى مجريات حياته، وما فيها من مواقف وعبر، أن نعول على طرف من تلك الروايات. وها هو - رضى الله عنه - يتحدث إلينا عن وفاة موسى عليه السلام فى سور سيناء، واختفاء معالم قبره، ويتبع ذلك بالحكمة من القبور، فيقول:

قام موسى عليه السلام.. فلما رأته بنو إسرائيل قاموا. فقال: على مكانكم.. ثم ذهب إلى الطور، فإذا بنهر أبيض، فيه مثل رءوس الكثبان كافور، محفوف بالرياحين؛ فلما رآه أعجبه، فدخل فيه فاغتسل، وغسل ثوبه، ثم خرج وجفف ثوبه، ثم رجع إلى الماء فاستنضح فيه إلى أن جف ثوبه، فلبسه، ثم أخذ نحو الكثيب الآخر الذى فوق الطور. فإذا هو برجلين يحفران قبرا، فقام عليهما فقال: ألا أعينكما؟؟ قالا: بلى، فنزل فحفر، فقال لهما، لتحدثانى مثل من الرجل؟ فقالا: على طولك وهيئتك.

فاضطجع فيه لينظروا. فالتأمت عليه الأرض، فلم ينظر إلى قبر موسى عليه السلام إلا الرخم[1]، فأصمها الله وأبكمها.

قال وهب رضى الله عنه: يقول الله عز وجل: لولا أنى كتبت النتن على الميت لحبسه الناس فى بيوتهم. ولولا أنى كتبت الفساد على اللحم لحرمه الأغنياء على الفقراء.

عابد وراهب

ويقول وهب: مر عابد براهب فقال له: منذ كم أنت فى هذه الصومعة؟ قال الراهب: منذ ستين سنة. قال العابد: وكيف صبرت فيها ستين سنة؟ قال: مرت، فإن الزمن يمر، وإن الدنيا تمر. ثم قال له: يا راهب كيف ذكرك للموت؟ قال: ما أحسب عبدا يعرف الله تأتى عليه ساعة، إلا يذكر الموت فيها، وما أرفع قدما إلا وأنا أظن أن لا أضعها حتى أموت، وما أضع قدما وأنا أظن أن لا أرفعها حتى أموت.

فجعل العابد يبكى، فقال له الراهب: هذا بكاؤك إذا خلوت؟!

فقال العابد: إنى لأبكى عند إفطارى فأشرب شرابى بدموعى، ويصرعنى النوم فأبل متاعى بدموعى! فقال له الراهب: إنك إن تضحك وأنت معترف بذنبك خير لك من أن تبكى وأنت تدل على الله بعلمك.

فقال العابد: أوصنى بوصية. قال: كن فى الدنيا بمنزلة النحلة. إن أكلت أكلت طيبا، وإن وضعت وضعت طيبا، وإن سقطت على شىء لم تضره، ولا تكن فى الدنيا بمنزلة الحمار. إنما همه أن يشبع. ثم يرمى نفسه فى التراب، وانصح نصح الكلب لأهله، فإنهم يجيعونه ويطردونه، وهو يأبى إلا أن يحرسهم ويحفظهم.

عالم متعلم

والعالم عند وهب رضى الله عنه هو الذى يطلب العلم إلى أن يلقى الله تعالى؛ لا يغرنه

---

(١) مفردة: رخمة، وهى من كواسر الطيور.

علمه، أبدا، فمن قال: إننى علمت فقد جهل.

ويعطى على ذلك مثلا مما قرأ وحفظ ووعى.

يقول رحمه الله: لقى عالم عالما - هو فوقه فى العلم- فقال له: رحمك الله. ما هذا البناء الذى لا إسراف فيه؟ قال: ما سترك من الشمس، وأكنَّك [1] من الغيث.

قال: فما هذا الطعام الذى لا إسراف فيه؟ قال: فوق الجوع ودون الشبع، من غير تكلف.

قال: فما هذا اللباس الذى لا إسراف فيه؟ قال: هو ما ستر العورة، ومنع الحر والبرد، من غير تنوع ولا تلون.

قال: فما هذا الضحك الذى لا إسراف فيه؟ قال: هو ما أسفر وجهك، ولا يسمع صوتك.

قال: فما هذا البكاء الذى لا إسراف فيه؟ قال: لا تمل من البكاء من خشية الله عز وجل. ولا تبك على شىء من الدنيا.

قال: كم أخفى من عملى؟ قال: ما أظن بك أنك لم تعمل حسنة.

قال: ما أعلن من عملى؟ قال: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وما يأتم بك الحريص، واحذر النظر إلى الناس.

واعلم أن لكل شىء طرفين ووسطًا، فإذا أمسكت بأحد الطرفين مال الآخر، وإذا أمسكت بالوسط اعتدلا، فعليكم بالوسط من الأشياء.

من آفات العلماء

أن يُحمدوا، ويعظموا. ويغتروا، وتميل بهم الدنيا. يحذر وهب رضى الله عنه من ذلك، ويحكى لنا قصة، فيقول: إن أحد الملوك قد زهد فى الدنيا بسبب موعظة سمعها من عالم واعظ، وخرج عن الملك طلبا لما عند الله تعالى فى الدار الآخرة، وقد وافقه جماعة من بنيه، وأهله ورءوس دولته، وخرجوا برمتهم من ديارهم؛ لا يدرى أحد أين ذهبوا.

وكان هذا الملك من أهل العدل والخير، والخوف من الله عز وجل؛ وكان متسع الملك والمملكة، كثير الأموال والرجال. فساروا حتى أتوا جبلا فى أطراف مملكته، كثير الشجر والمياه، فأقاموا به حينا.

قال الملك ذات يوم لمن معه: إن نحن طال أمرنا ومقامنا فى هذا الجبل، سمع بنا الناس من أهل مملكتنا فلا يدعونا، وإنى أرى أن نذهب إلى غير مملكتنا فننزل مكانا بعيدا عن الناس، لعل أن نسلم منهم، ويسلموا منا.

فوافقوه، وساروا من ذلك المكان طالبين بلادا لا يعرفون فيها، فوجدوا جبلا نائيا عن الناس، كثير الأشجار والمياه، قليل الطوارق، وإذا فى ذروته عين ماء جارية، وأرض متسعة، تزرع لمن أراد الزرع بها.

فنزلوا به، وبنوا أماكن للعبادة والسكنى، وزرعوا لهم على ماء تلك العين بعض بقول يأتدمون بها، وأشجار زيتون.

وكان الملك يعظ قومه وينصح لهم، ليستمروا على ما هم عليه؛ ويردد عليهم حين يرى بادرة

(١) أكنك من الغيث: حفظك من المطر.

انحراف: إنا قد خرجنا عن الدنيا وفارقنا الأهل والأموال مخافة الطغيان (طغيان النفوس). ولقد خفت أن يكون قد دخل علينا فى حالنا هذه من الطغيان أعظم وأكثر مما يدخل على أهل الأموال فى أموالهم، وعلى الملوك فى ملكهم.

أرانا يحب أحدنا أن تقضى له الحاجة، وإذا اشترى شيئا أن يحابى لمكان دينه، وأن يعظم إذا لقى الناس لمكان دينه أيضا. فالحذر الحذر، وإياكم وفتنة الدنيا، وغرور الشيطان!

سمع ملك تلك البلاد بهذا الزحف المقدس على أرضه ودياره، فلم يزعجه ذلك، ورحب به وبلغته أنباء ما يقوله رئيس القوم من مواعظ وحكم، فازداد إعجابا، وقال لكبار رجال دولته: ينبغى لهذا أن يزار.

ثم اتعدوا يوما لزيارته، والسلام عليه، والترحيب به. فلما بلغوا سفح الجبل، أطل عليهم الملك الزاهد العابد، فراعه الموكب، وقد سددت الأرض بالخيل فقال: ما هذا؟ فقيل له: هذا ملك البلاد قاصد إليك يسلم عليك، لما بلغه من حسن كلامك.

فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، وما أصنع به؟

هلكنا والله إن لم نلقن الحجة من عند الله مع هذا الرجل، لينصرف عنا وهو ماقت لنا. ثم نادى طباخه وسأله: هل عندك طعام؟ قال: نعم، قال: فأت به فضعه بين أيدينا. فقال الطباخ: هو شيء من تمر الشجر. من بقل وزيتون. قال: فأت به.

فأتى به، ثم أمر بجماعته، فاجتمعوا حول ذلك الطعام، وقال: إذا دخل عليكم هذا الرجل فلا يلتفت أحد إليه، ولا يقم له أحد، وأقبلوا على الأكل العنيف، لعل الله يصرفه عنا وهو كاره لنا، فإنى أخاف الفتنة والشهرة، وامتلاء القلب منهما، فلا نخلص إلا بنار جهنم!

فبكى القوم، وبكى معهم واعظهم. فلما اقترب الملك من ذروة الجبل الذى هم فيه، ترجل ومعه أعيان دولته، ودخل عليهم وهم يأكلون، ولم يرفعوا رؤوسهم.

وكان واعظهم وملكهم من قبل يلف البقل مع الزيتون فى كسرة كبيرة ويحشو بها فمه. سلم عليهم الملك، وقال: أيكم العابد الواعظ؟

فأشاروا إليه؛ فقال له الملك: كيف أنت أيها الرجل؟

فقال العابد الواعظ: كالناس. (وهو يأكل)

فاستنكر الملك هذا المنظر، وأسقط فى يده، ورأى غير ما سمع، ثم التفت إلى من معه من الأعيان والكبراء وقال: لقد اغتررنا، ما عند هذا من خير كما زعم!

ثم ارتد منصرفا لتوه.

فلما اعتلى جواده، وهم بالسير، نظر إليه العابد الزاهد من شرفة وقال: أيها الملك.. الحمد لله الذى صرفك عنى وأنت لى كاره.

الدرهم والدينار:

سئل رضى الله عنه عن المال، الدرهم والدينار، ما هيئتهما؟

فقال: هى خواتيم رب العالمين، فالأرض لمعايش بنى آدم، لا تؤكل ولا تشرب، فأينما ذهبت بخاتم رب العالمين قضيت حاجتك. وهى أزقة المنافقين. بها يقادون إلى الشهوات.

محبة الله ومحبة الناس

وكتب وهب رضى الله عنه إلى مكحول الدمشقى، وكان من رؤوس التابعين علما وفضلا يقول له: إنك قد أصبت بما ظهر من علم الإسلام عند الناس محبة وزلفى، فاطلب بما بطن من علم الإنسان عند الله محبة وزلفى، واعلم أن إحدى المحبتين تمنع الأخرى.

نسق لم يسبق

وعلى هذا النسق الذى لم يسبق يفيض علم وهب على لسانه وسلوكه حكما بليغة، ومواقف مشهودة، وعبرا غير معدودة.

ويظل رضى الله عنه فى التابعين الأولين نموذجا متميزا. غزير العلم، فياض الحكمة، شديد التواضع لله تعالى، ولعباده المؤمنين، قدوة من الزاهدين، الراغبين عن الدنيا وزينتها إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

القاضى

لولا أن الخليفة هو عمر بن عبدالعزيز لما قبل وهب منصب القضاء؛ فقد كان لعمر فى نفس وهب منزلة سامية، كما كان لوهب عند عمر مكانة راقية عالية. فلقد رغب إليه عمر فى تولى منصب قضاء صنعاء، فقبلها بعد تمنع وتردد، وإلحاح من عمر. فكان رحمه الله أنموذجا لا يعدل به، ولا يماثله أحد من القضاة. جرأة فى الحق، وعدلا فى الأحكام.

فلما مات عمر استعفى وهب من القضاء.

ولما حان حينه ودنت ساعته، وكان عنده الكثيرون من أحبابه وأصحابه وتلامذته، سأله أحدهم فقال: علمنى شيئا ينفعنى الله به.

قال: أكثر من ذكر الموت، وأقصر أملك. وخصلة ثالثة إن أنت أصبتها بلغت الغاية القصوى، وظفرت بالعبادة الكبرى.

قال: ما هى؟ قال: التوكل. ومن يتوكل الله فهو حسبه، وكفى بالله وكيلا.

***

رجاء بن حيوة

(٣٧- ١١٢ هـ)

رضى الله عنه

كان مكحول الدمشقى إذا سئل يقول:

سلوا شيخنا وسيدنا رجاء بن حيوة.

وقال مسلمة بن عبدالملك:

إن فى كندة لثلاثة رجال ينزل الله بهم الغيث، وينصر بهم على الأعداء، أحدهم رجاء بن حيوة.

كان أبو المقدام ثالث ثلاثة هم رواد عصرهم:

ابن سيرين فى العراق، والقاسم بن محمد فى الحجاز، ورجاء بن حيوة فى الشام.

التابعى الأريب والوزير اللبيب

بين هذين الوصفين، وتلكما الخلتين كانت تدور حياة رجاء بن حيوة وتمضى، فى مسيرة نيرة كريمة، ولم تخدشها جارحة، ولم تصبها وصمه مادحة، حتى ولا هنة بسيطة فاضحة.

عاش سنين عمره كلها رجل علم وتقوى، يغترف من معين من بقى من صحابة رسول الله ﷺ ممن لقيهم أو قصدهم، فسمع منهم، وحفظ عنهم، وتأثر بهم.

وترجم كل ذلك العلم وأخضعه لمصلحة الأمة، لا يبتغى أجرا ولا مقاما رفيعا، بل يحتسبه كله فى ميزان حسابه عند الله تعالى، جزاء طيبا وعفوا، وقبولا حسنا ورجحانا فى كفة الحسنات. والله تعالى لا يضيع أجر المحسنين.

تتلمذ رضى الله عنه على أبى سعيد الخدرى [١] وأبى الدرداء[٢] وأبى أمامة[٣] وعبادة بن الصامت ومعاوية بن أبى سفيان وعبدالله بن عمرو بن العاص والنواس بن سمعان، وغيرهم رضى الله عنهم.

وكان هؤلاء الأعلام متغايرى الأوطان، فمنهم من هو فى الحجاز، ومنهم من هو فى فلسطين ومنهم من هو فى دمشق وهكذا. ولقد التقاهم جميعا فى ظروف وأحوال اضطرته إليها مجريات الأيام.

البيسانى:

والنسبة إلى بيسان، وهو أحد سهول فلسطين، يشتهر بخصوبته وجودة تربته. ووفرة عطائه، وهناك كان مولد رجاء رضى الله عنه ومدرج طفولته الأولى؛ إذ كان والده حيوة بن جرول الكندى فى جيش عمرو بن العاص رضى الله عنه الذى فتح فلسطين من الديار الشامية؛ وقد استقر حيوة هناك مرابطا.

وكان أول تفتح صبا رجاء وذهنه الوقاد، ورغبته فى طلب العلم، على يد الصحابى الجليل عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما.

فأقبل عليه إقبال الظامئ على النبع الرقراق، يشرب حتى يرتوى ويطفئ لظى غلته.

حفظ كتاب الله تعالى، وحديث رسول الله ﷺ وتأثر بسلوك عبدالله، فانعكس كل ذلك على صفحة فؤاده وجوارحه، فنشأ سويا قويا، وضاء الحكمة، جريئا فى الحق. لا يخشى فى الله لومة لائم.

أبو المقدام

وإلى جانب غزارة علمه، ووفرة تحصيله، كان رضى الله عنه جنديا شجاعا، إلى أبعد حدود الشجاعة، ينتظم فى كل حملة وغزوة، ويبدى من البطولة والفروسية فى الميادين ألوانا وأنواعا، لذا لم تأت شهرته وكنيته بأبى المقدام من فراغ.

---

(١) اسمه سعد بن مالك بن سنان.

(٢) اسمه : عويمر بن مالك بن قيس.

(٣) أبو أمامة بن سهل الأنصارى.

ولقد عرفه القاصى والدانى من الناس، عامتهم وخاصتهم. ومع تقدمه ونضوجه أقر له أقرانه من التابعين بعلو الكعب، فقرظوه ومدحوه، وقالوا فيه حسنا، وعلى رأس هؤلاء سعيد بن المسيب رضى الله عنهم أجمعين؛ فكان فيهم كوكبا ساطعا، ونجما لامعا؛ ودرة ثمينة.

دستوره

يروى عنه أنه قال: ما أحسن الإسلام يزينه الإيمان، وما أحسن الإيمان يزينه التقى، وما أحسن التقى يزينه العلم، وما أحسن العلم يزينه العمل، وما أحسن العمل يزينه الرفق.

ومن ثم جعل هذه القواعد دستورا له فى حياته كلها، فى شأنه الخاص والعام، وما عرفت عنه نَبْوة عن قاعدة من تلك القواعد. وأعظم بها وأكرم!

كان فى إسلامه مؤمنا، وكان فى إيمانه تقيا نقيا، وكان فى تقواه عالما نحريرا، وكان فى علمه عاملا، إيجابيا لا سلبيا، مقداما جريئا منصفا، وكان فى عمله رفيقا لينا؛ لا يعرف العنف أو الشدة أو القسوة.

الوزير الناصح.. والمشير الأمين

كان لنشأته الشامية تأثير فى ميله السياسى. فكان أموى النزعة، ولكن فى تؤدة وحذر، ودعوة إلى الخير، ودون ممالأة ولا ضعف، يصرح بكلمة الحق عند الضرورة والحاجة، ويواجه بها فى أناة ورفق.

ولقد عرف له بنو أمية مقامه ومكانته، وقوة شخصيته، ورجاحة عقله، وسعة علمه، وحسن تقديره للأمور، وصواب رأيه فى المعضلات، فاتخذوه وزيرا ومشيرا، فكان ناصحا وأمينا.

اعلم يا رجاء

وبالإضافة إلى الدستور الذى وضعه لنفسه، واختطه لسلوكه، فقد وقعت له حادثة طريفة، زادته وعيا وإدراكا فى تعامله مع الخلفاء والحكام، وحددت له حدودا.

يقول رضى الله عنه: إنى لواقف مع سليمان بن عبدالملك فى جموع الناس[١]، إذ رأيت رجلا يتجه نحونا وسط الزحام. وكان حسن الصورة، جليل الهيئة، فما زال يشق الصفوف وأنا ما أشك أنه يروم الخليفة، حتى حاذانى، ووقف إلى جانبى، ثم حيانى وقال: يا رجاء، إنك قد ابتليت بهذا الرجل - وأشار إلى الخليفة - وإن فى القرب منه والخير الكثير أو الشر الكثير. فاجعل قربك منه خيرا لك وله وللناس. واعلم يا رجاء أنه من كان له منزلة من السلطان، فرفع إليه حاجة امرئ ضعيف لايستطيع رفعها، لقى الله عز وجل - يوم يلقاه - وقد ثبت قدميه للحساب. واذكر يا رجاء أن من كان فى حاجة أخيه المسلم كان الله فى حاجته. واعلم يا رجاء أن من أحب الأعمال إلى الله عز وجل إدخال الفرح على قلب امرئ مسلم.

وفيما كنت أتأمل كلامه، وأترقب أن يزيدنى منه، نادى الخليفة قائلا: أين رجاء بن حيوة؟!

فانعطفت نحوه، وقلت: ها أنا ذا يا أمير المؤمنين.

فسألنى عن شىء، فما كدت أفرغ من جوابه حتى التفت إلى صاحبى فلم أجده. فنفضت

---

(١) ويبدو أن ذلك كان فى موسم حج.

المكان عنه نفضا [١]، فلم أقع له على أثر بين الناس.

مع الوليد بن عبدالملك

ومن قبل أن يستوزر رجاء رضى الله عنه لسليمان بن عبدالملك، كان وزيرا للوليد أيضا. فمكانته عند بنى مروان قديمة وأصيلة.

لم يكن رضى الله عنه من الذين استخفتهم الفتنة فوقع فى شراكها وحبائلها، ولم يقف موقفا فيه تأييد أو مناصرة لطرف فى النزاع على السلطة، بين آل البيت رضى الله عنهم أو الزبيريين، أو حتى بنى أمية الذين عمل معهم، بل كان داعية حب وخير ووئام، يعرف لكل قدره، ومن ثم ظل منصرفا إلى العلم والنصح، لا يتعاطى قتالا أو عداء؛ إذ كان فى مطلع الفتنة ما يزال فتى صغير السن، غير مؤهل لاتخاذ موقف مستقل.

فلما استوى على عوده ونضج كانت الأمور قد انعقد لواؤها لعبدالملك، فدخل رجاء فى زمرة العاملين مع الخليفة، وظهرت منه آراء ومواقف قدمته على غيره، وأخذ نجمه يعلو. ويظهر!

وكان اتصاله بالمروانيين رحمة من الله تعالى لهم؛ إذ دعاهم إلى الخير، ودلهم عليه. وحجز بينهم وبين الشر، قدر طاقته وتأثيره. وبين لهم الحق وحفزهم عليه. فكان ناصحا لله ورسوله، وأئمة المسلمين وعامتهم.

كان ذات يوم فى مجلس عبدالملك بن مروان، وقد جيء برجل من أتباع عبدالله بن الزبير رضى الله عنه. وأوقف بين يديه.

وكان الخليفة قد تهدد وتوعد من قبل لئن تمكن من الرجل ليفعلن به الأفاعيل، لما عرف عن هذا الرجل من شدة عداوة وسوء فعال، وكراهية شديدة لبنى مروان.

فلما وقعت عينا الخليفة على الرجل هم أن ينفذ به وعيده، وقد اشتد غيظه وثارت ثائرته.

فقام رجاء رضى الله عنه وقال: يا أمير المؤمنين، إن الله عز وجل قد صنع لك ما تحبه من القدرة، فاصنع لله تعالى ما يحبه من العفو.

فسكنت نفس الخليفة بعد ثورة، وهدأت بعد فورة، وذهب عنه ما كان به من غضب وهياج، ثم عفا عن الرجل، وأطلق سراحه، وأحسن إليه أيضا.

هكذا كان دأب رجاء رضى الله عنه وتلك كانت سيرته، وعلى هذا النسق من النصح واللين كان منهجه وسلوكه.

وفى سنة إحدى وتسعين، حج إلى بيت الله الحرام مع الخليفة الوليد بن عبدالملك، فلما أتما حجهما وقضيا تفثهما، توجها إلى المدينة المنورة لزيارة المسجد النبوى الشريف، والسلام على رسول الله ﷺ، وكان الوالى عليها آنذاك عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه.

فاستقبلهما ورحب بهما، وكان اللقاء بينه وبين رجاء بالغ الحرارة، لما كان بينهما من ود سابق، وصلات وطيدة قديمة وصداقة وألفة.

وأبدى الخليفة الوليد رغبته فى النظر إلى الحرم الشريف وهو خال من الناس، إذ كان عازما

(١) نفضت المكان: بحثت فيه وفتشت.

على توسعته، فأخرج الناس منه إلا واحدا. . أبى الخروج.

وكان ذلك الرجل هو شيخ فقهاء المدينة وعلمائها سعيد بن المسيب رضى الله عنه.

إذ ابتعد عنه الحرس، ولم يجرؤوا على قسره، وهمسوا بذلك إلى الوالى عمر بن عبدالعزيز، الذى أرسل إليه رسولا يقول له بلطف ولين: لو خرجت من المسجد كما خرج الناس.

فقال سعيد لرسول الوالى: لا أغادر المسجد إلا فى الوقت الذى تعودت أن أغادره فيه.

فقيل له: إذاً. فقم فسلم على أمير المؤمنين.

فقال: إنما جئت إلى هنا لأقوم لرب العالمين.

فلما عرف عمر ما دار بين رسوله وسعيد أخذ يعدل بالخليفة عن المكان الذى يجلس فيه سعيد.

كما أن رجاء رضى الله عنه راح يشاغل الوليد بالكلام ليصرفه عن المواجهة مع سعيد، لما يعرف من صلابة سعيد وعنفوان الوليد.

ولمح الوليد سعيدا. وقد انفرد بالمسجد، فقال لصاحبيه: من ذلك الشيخ؟ أليس هو سعيد ابن المسيب!؟

فقالا: بلى، يا أمير المؤمنين. وراح كل منهما يعدد فضائل سعيد، وأفاضا فى ذكر دينه وعلمه وتقواه، ليخففا من سورة غضب الخليفة، وقد ظهرت ملامحها فى عينيه، وعلى قسمات وجهه.

وكان مما قاله رجاء: لو علم الشيخ بمكان أمير المومنين لقام إليه وسلم عليه. ولكنه قد بلغ من الكبر عتيا، وضعف سمعه وبصره.

فقال الوليد: إنى لأعلم من حاله ما تذكران، وهو أحق أن نأتيه نحن ونسلم عليه.

وأكمل الوليد دورته فى المسجد الشريف، وأبدى ملاحظاته فى التوسعة المطلوبة، حتى بلغ مجلس سعيد؛ فوقف عليه وحياه، ثم سأله: كيف الشيخ؟

فرد سعيد وهو جالس لم ينهض: بنعمة من الله تعالى، وله الحمد والمنة، فكيف أمير المؤمنين، وفقه الله لما يحبه ويرضاه؟

فقال الوليد: بخير إن شاء الله، ثم انفتل، وقال لمن معه: هذا بقية الناس، هذا بقية سلف هذه الأمة!

أخلد الذكر

لئن كان لرجاء بن حيوة مواقف كثيرة، يذكر بها فيشكر عليها ويحمد، وتسجل له فى ديوان رؤوس التابعين ورجالاتهم المعدودين، إلا أن موقفه من خلافة عمر بن عبدالعزيز يعد قمة من القمم الشامخة، وعملا رائعا، وأداء أمينا متميزا. ولنصغ إليه وهو يحدثنا عن ذلك، وهو أجدر وأولى. .

قال رحمه الله ورضى عنه: لما كان أول يوم جمعة من شهر صفر سنة تسع وتسعين، كنا مع أمير المؤمنين سليمان بن عبدالملك بدابق[1].

(١) دابق: قرية قرب مدينة حلب، وإليها ينسب مرج دابق.

وكان قد أرسل جيشا لجباً[(١)] إلى القسطنطينية بقيادة أخيه مسلمة بن عبدالملك، ومعه ابنه داود بن سليمان وطائفة كبيرة من أهل بيته.

وقد آلى[(٢)] على نفسه على ألا يبرح مرج دابق حتى يفتح الله عليه القسطنطينية أو يموت هناك مرابطا! فلما اقترب موعد صلاة الجمعة، توضأ الخليفة، ثم لبس حلة خضراء، واعتم بعمامة خضراء.

ونظر فى المرآة نظرة فعجب بنفسه مزهواً بشبابه، وكان فى نحو الأربعين من عمره، ثم خرج ليصلى بالناس الجمعة، فلم يرجع من المسجد إلا وهو موعوك. ثم أخذ يثقل عليه المرض يوما بعد يوم، وقد سألنى أن أظل قريبا منه. فدخلت عليه ذات مرة فوجدته يكتب كتابا، فقلت: ما تصنع يا أمير المؤمنين؟ فقال: أكتب كتابا أعهد به إلى ابنى أيوب. فقلت: يا أمير المؤمنين: إن ما يحفظ الخليفة فى قبره، ويبرئ ذمته عند ربه، أن يستخلف على الناس الرجل الصالح، وإن ابنك أيوب غلام لم يبلغ الحلم بعد، ولم يتبين لك صلاحه من طلاحه. فتراجع وقال: إنه كتاب كتبته. وأنا أريد أن أستخير الله فيه، ولم أعزم عليه.

ثم مزق الكتاب. ومكث بعد ذلك يوما أو يومين، ثم دعانى وقال: ما رأيك فى ولدى داود يا أبا المقدام؟ فقلت: هو غائب مع جيوش المسلمين فى القسطنطينية. وأنت لا تدرى الآن أحى هو أم ميت؟ فقال: فمن ترى إذاً يا رجاء؟ فقلت: الرأى لك يا أمير المؤمنين!

وكنت أريد أن أنظر فيمن يذكرهم لكنى أستبعدهم واحدا واحدا، حتى أصل إلى عمر بن عبدالعزيز.

فقال: كيف ترى عمر بن عبدالعزيز؟

فقلت: ما علمته - والله - إلا فاضلا، كاملا، عاقلا، دينا.

فقال: صدقت. إنه والله لكذلك، ولكننى إن وليته وأغفلت أولاد عبدالملك[(٣)] لتكونن فتنة، ولا يتركونه يلى عليهم أبدا.

فقلت: أشرك واحدا منهم، واجعله بعده.

فقال: أصبت، فإن ذلك مما يسكنهم، ويجعلهم يرضونه.

ثم أخذ الكتاب، وكتب بيده: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من عبدالله سليمان بن عبدالملك أمير المؤمنين لعمر بن عبدالعزيز إنى وليته الخلافة من بعدى، وجعلتها من بعده ليزيد ابن عبدالملك. فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع الطامعون فيكم.

ثم ختم الكتاب وناولنى إياه. ثم أرسل إلى كعب بن حامد العبسى صاحب الشرطة، وقال له: ادع آل بيتى فليجتمعوا، وأعلمهم أن الكتاب الذى فى يد رجاء بن حيوة هو كتابى، ومرهم بأن يبايعوا لمن فيه.

ويضيف رجاء: فلما اجتمعوا قلت لهم: هذا كتاب أمير المؤمنين قد عهد فيه للخليفة من

---

(١) لجباً. كثير العدد

(٢) آلى: أقسم وحلف

(٣) يعنى إخوته: هشاما ويزيد

بعده، وقد أمرنى أن آخذ منكم البيعة لمن ولاه، فقالوا: سمعا لأمير المؤمنين، وطاعة لخليفته من بعده. وطلبوا أن أستأذن لهم على أمير المؤمنين للسلام عليه. فقلت: نعم. فلما دخلوا عليه قال لهم: إن هذا الكتاب الذى فى يد رجاء بن حيوة هو كتابى، وفيه عهدى للخليفة من بعدى، فاسمعوا وأطيعوا لمن وليت، وبايعوا لمن سميت فى هذا الكتاب. فطفقوا يبايعون رجلا رجلا.

ثم خرجت بالكتاب مختوما، لا يعلم أحد من الخلق ما فيه غيرى، وغير أمير المؤمنين.

فلما تفرق الناس، جاءنى عمر بن عبدالعزيز فقال: يا أبا المقدام، إن أمير المؤمنين رجل حسن الظن بى، وكان يولينى من كريم بره وصافى وداده الشىء الكثير، وأنا أخشى أن يكون قد أسند إلى من هذا الأمر شيئا، فأنشدك الله، وأسألك بحرمتى ومودتى أن تعلمنى إن كان فى كتاب أمير المؤمنين شىء يخصنى حتى أستعفيه من ذلك، قبل فوات الفرصة. فقلت له: لا والله ما أنا بمخبرك حرفا واحدا مما سألت عنه. . فتولى عنى وهو غضبان.

ثم ما لبث أن جاءنى هشام بن عبدالملك وقال: يا أبا المقدام، إن لى عندك حرمة ومودة قديمة، وإن لك عندى شكرا جزيلا، فأعلمنى بما فى كتاب أمير المؤمنين، فإن كان هذا الأمر إلى سكت، وإن كان لغيرى تكلمت، فليس مثلى من ينحى عن هذا الأمر، ولك عهد الله ألا أذكر اسمك أبدا.

فقلت له: لا والله لا أخبرك بحرف واحدا مما أسر به إلى أمير المؤمنين.

فانصرف وهو يضرب كفا بكف ويقول: لمن يكون هذا الأمر إذا أنا نحيت عنه؟ أتخرج الخلافة من بنى عبدالملك؟! والله إنى لعين أولاد عبدالملك.

ثم دخلت على سليمان بن عبدالملك فإذا هو يجود بروحه، فجعلت إذا أخذته السكرة من سكرات الموت أحرفه نحو القبلة، فكان يقول لى وهو يشهق: لم يأن ذلك بعد يا رجاء. حتى فعلت ذلك مرتين، فلما كانت الثالثة، قال: الآن يا رجاء إن كنت تريد أن تفعل شيئا فافعله، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. فحرفته نحو القبلة، فما لبث أن أسلم روحه. عند ذلك أغمضت عينيه، وسجيته بقطيفة خضراء، وأغلقت الباب عليه، وخرجت.

فأرسلت إلى زوجته تسألنى عنه، وتطلب أن تنظر إليه. فشققت عنه الباب، وقلت لرسولها: انظر إليه، لقد نام الساعة بعد سهر طويل، فدعوه. فرجع فأخبرها، فقبلت ذلك، وأيقنت أنه نائم.

ثم أحكمت إغلاق الباب، وأجلست عنده حارسا أثق به، وأوصيته أن لا يتزحزح عن مكانه حتى أعود، وألا يدخل على الخليفة أحدا أبدا. كائنا من كان. ومضيت. . فلقينى الناس وقالوا: كيف أمير المؤمنين؟ فقلت: لم يكن منذ مرض أسكن منه الآن ولا أهدأ. . فقالوا: الحمد لله.

ثم أرسلت إلى كعب بن حامد صاحب الشرطة، فجمع أهل بيت أمير المؤمنين جميعا فى مسجد دابق. فقمت وقلت: بايعوا لمن فى كتاب أمير المؤمنين. فقالوا: قد بايعنا مرة، ونبايع أخرى؟! فقلت: هذا أمر أمير المؤمنين، بايعوا على ما أقر به، ولمن سمى فى هذا الكتاب المختوم. فقاموا، فبايعوا، رجلا رجلا.

فلما رأيت أنى قد أحكمت الأمر قلت: إن صاحبكم قد مات. . وإنا لله وإنا إليه راجعون. .

وقرأت عليهم الكتاب، فلا انتهيت إلى ذكر عمر بن عبدالعزيز . . نادى هشام بن عبدالملك : لا نبايعه أبدا . . فقلت : إذاً – والله – أضرب عنقك، قم فبايع . فقام يجر رجليه، فلما انتهى إلى عمر قال : إنا لله وإنا إليه راجعون . . (لا ترحما على سليمان وأسفا بل استنكارا وأسى من ولاية عمر). وقال عمر رضى الله عنه يجيبه : إنا لله وإنا إليه راجعون . . (استرجاعا منه لضخامة المسؤولية وعظيم التبعة).

خامس الراشدين

وبفضل من الله تعالى وتقدير وتدبير، آلت الخلافة إلى عمر بن عبدالعزيز، وكان لرجاء بن حيوة رضى الله عنه دور وأى دور.

وعاد عمر رضى الله عنه بالخلافة إلى النهج الراشدى، وظهر المجتمع الإسلامى فى شتى دياره وأقطاره بالصورة المشرقة الوضاءة، وكأن الأمة استعادت شبابها وحيويتها، بعد أن عانت من انحرافات كثيرة، وعلل وأدواء، أظهرُها الكسروية فى السلطان، والبغى والظلم والعدوان.

وقدر لرجاء رضى الله عنه أن يكون الساعد الأيمن، وزيرا مخلصا ومشيرا ناصحا، للخليفة عمر بن عبدالعزيز، فى حضور دائم وعمل متصل.

ومن ثم ترك بصمته النيرة فى انقلاب أعاد الحق إلى نصابه، والسيف إلى قرابه؛ فلا يذكر التاريخ تلك المرحلة المهمة، إلا ويترحم على التابعى الجليل رجاء بن حيوة.

عطاء بن أبى رباح

رضى الله عنه

(٣٧ ـ ١١٤ هـ)

قال عطاء رضى الله عنه:

ما قال العبد: يا رب ـ ثلاث مرات ـ إلا نظر الله تعالى إليه.

الرقيق الحبشي:

ونادت السيدة على غلامها : عطاء . . عطاء . . أين أنت؟ فلم تسمع جوابا . . فقامت تسعى إليه، فوجدته في صلاته ساجدا خاشعا مستغرقا، فعادت من حيث أتت .

فلما انتهى جاءها ووقف بين يديها، وقال: نعم يا سيدتى مُرينى بما شئت؛ فأنا طوع أمرك ورهن إشارتك .

كان الغلام عطاء عبدا رقيقا مملوكا لسيدة قرشية من بنى فهر، وكان نعم الخادم الأمين المهذب، لا يتوانى ولا يقصر، وكان ـ أيضا ـ مشبوب الفؤاد بحب الله تعالى، وفيه ذكاء ونباهة قد استفرغهما فى طلب العلم، بغشى المسجد الحرام، كلما سنحت له الفرص، فيقف على حلقات العلم يسمع ويختزن، وكانت حلقة عبدالله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ مهوى قلبه ولبه، لا يعدلها بغيرها .

أنت حر لوجه الله تعالى:

وعليه فقد قسم وقته أثلاثا ثلاثة، وقتًا لسيدته يخدمها فيه، ووقتًا لعبادته ربه فى صلاة وذكر ودعاء، ووقتًا ليتلقى العلم ينهل فيه من أفواه كبار الصحابة طيب القول وشهى الذخر .

ولقد أوتى حافظة عجيبة غريبة، تدهش العقول وتحير الأفئدة؛ إذ كان لا يحتاج فى الحفظ والاستيعاب إلا لسماع واحد، بحيث تنطبع الكلمات على صفحة قلبه، بحروفها وصداها، نقشا لا يمحى ولا يزول .

وكانت سيدته القرشية الفهرية ترى ذلك منه فتزداد له حبا وتقديرا، وحيث إنه شغلته صلاته عن إجابتها من النداء الأول؛ إذ كان مع الله تعالى، وقد وقع ذلك من نفسها موقعا كريما طيبا، قالت له: يا عطاء أنت حر لوجه الله تعالى؛ فلعله ينفع بك عباده، فأهوى عطاء على يدها يقبلها، ويغمرها بدموع الشكر والفرح .

المسجد الحرام بيته ومدرسته:

وانتقل عطاء نقلة عظمى .

فكان المسجد الحرام بيته، ومقامه، فى ليله ونهاره، وأعظمْ به من بيت! ووجد نفسه قد تفرغ بكليته إلى العلم والعبادة، لا يشغله عن ذلك أى شاغل من أمور الحياة الدنيا . حتى قيل إن عطاء لازم البيت الحرام عشرين عاما، كان فيها سكنه وفراشه ومدرسته، استمع خلالها إلى رؤوس الصحابة الكرام فى العلم، منهم أبو هريرة وابن عمر وابن عمرو وعبد الله بن الزبير وزيد ابن خالد وأبو سعيد الخدرى وغيرهم . رضوان الله عليهم . وكان ابن عباس ـ كما قدمنا ـ أكثر ما يميل إليه قلب عطاء، خصوصا فى علم التفسير .

وهذا ما أهله ذات يوم لأن يكون وريث ابن عباس فى مجلسه، ويا لها من مكانة . ولقد حدثنا بذلك الإمام الطبرانى، فقال: إن الحلقة كانت فى المسجد الحرام لابن عباس، فلما مات ابن عباس كانت لعطاء بن أبى رباح . وهذه الحلقة كانت تفضل غيرها بما يجتمع عليها من الناس، ويحتشدون من حولها .

المحدث الفقيه الحجة:

لقد أتقن عطاء ـ رضى الله عنه ـ الحفظ لحديث رسول الله ﷺ إتقانًا عاليا، وفهمه فهما دقيقا، ونقله إلى من يجلس إليه نقلا أمينا، فى أدب وورع، مع إفاضة فى الشرح والبيان؛ مستشعرا حرمة مجلس الذكر.

وأثر عنه أنه قال: من جلس مجلس ذكر كفر الله عنه بذلك المجلس عشر مجالس من مجالس الباطل، فسأله سامعه: ما مجلس الذكر يا أبا محمد[1]؟ فقال: مجالس الحلال والحرام، كيف تصلى، كيف تصوم، كيف تنكح وتطلق، وتبيع وتشترى. وهذا يعنى معرفة السلوك الحياتى وفق منهج الله تعالى، وهل بعد ذلك من ذكر؟

وكان فقيها وإماما وحجة. فقد حدثنا الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان ـ رضى الله عنه ـ فى هذا، فقال: أخطأت فى خمسة أبواب من المناسك بمكة فعلمنيها حجام[2]، وذلك أنى أردت أن أحلق لأخرج من الإحرام، فأتيت حلاقا وقلت: بكم تحلق لى رأسى؟ فقال: هداك الله، النسك لا يشارط فيه، اجلس وأعط ما يتيسر لك، فخجلت وجلست، غير أنى جلست منحرفا عن القبلة[3]، فأومأ لى بأن أستقبل القبلة، ففعلت وازددت خجلا على خجلى، ثم أعطيته رأسى من الجانب الأيسر ليحلقه، فقال: أدر شقك الأيمن، فأدرته، وجعل يحلق رأسى وأنا ساكت، أنظر إليه وأعجب منه، فقال لى: ما لى أراك ساكتا؟ كبِّر. فجعلت أكبر، حتى قمت لأذهب. فقال: أين تريد؟ فقلت: أريد أن أمضى إلى رحلى. فقال: صل ركعتين ثم امض إلى حيث تشاء، فصليت ركعتين، وقلت فى نفسى: ما ينبغى أن يقع مثل هذا من حجام، إلا إذا كان ذا علم. فقلت له: من أين لك ما أمرتنى به فى المناسك؟ فقال: لله أنت، لقد رأيت عطاء بن أبى رباح يفعله، فأخذته عنه، ووجهت إليه الناس.

ومن ثم قصده أبو حنيفة ليتعرف إليه ويسأله فى بعض أمور العلم. فلما جالسه وسأله، قال له عطاء: من أين أنت؟ فقال أبو حنيفة: من أهل الكوفة. فقال عطاء: أنت من أهل القرية الذين فارقوا دينهم وكانوا شيعا. قال أبو حنيفة: نعم. فسأله عطاء: فمن أى الأصناف أنت؟

فقال أبو حنيفة: ممن لا يسب السلف، ويؤمن بالقدر، ولا يكفر أحدا من أهل القبلة بذنب. فقال له عطاء: لقد عرفت فالزم.

الإمام فى المناسك:

ولقد يسر له مقامه بمكة المكرمة أن يحج كثيرا. ترى كم كان عدد حجاته؟

أجمع المؤرخون على أنه ـ رضى الله عنه ـ حج سبعين حجة. ومن خلال علمه الغزير ودأبه على الحج فى كل موسم، حين يؤذن به، قدر لعطاء أن يكون فى حينه أعلم علماء عصره

---

(١) تلك هى كنيته التى عرف بها ـ رضى الله عنه.

(٢) الذى يفصد الدم على سبيل المداواة. والمراد به هنا الحلاق الذى يحلق أو يقصر.

(٣) أى الكعبة المشرفة.

بالمناسك. شهد بذلك محمد الباقر[١] - رضى الله عنه - وغيره من الأئمة الأعلام، فقالوا: ما بقى أحد فى زمانه أعلم بالمناسك منه.

وفى مواسم الحج تكثر الاستفسارات والأسئلة من قبل العامة ويذكر أن جماعة لما رأوا عبدالله بن عمر - رضى الله عنه - محرما بالحج، وبين ظهرانيهم فى مكة تكوكبوا حوله، وراحو يسألونه، ويستفسرون منه، فقال لهم: عجبا لكم يا أهل مكة، تجمعون لى المسائل وفيكم عطاء بن أبى رباح.

حتى إن عامل الخليفة كان ينادى على الناس يوم الحج أن لا يستفتوا أحدا غير عطاء بن أبى رباح، فإذا لم يوجد فعبدالله بن أبى نجيح[٢].

إلى هذا الحد من الإمامة فى المناسك بلغ علم عطاء رضى الله عنه! وإلى هذا الحد كانت منزلته العلمية لدى العامة والخاصة على السواء.

وصادف أن حج أمير المؤمنين سليمان بن عبدالملك، ومعه ولدان من أبنائه، وكانت تحيط به حاشيته فى طوافه يوسعون له الطريق من الزحام، وقدزاده الحشد من حوله مهابة، وكان فى لباس إحرامه يتساوى مع عباد الله تعالى، فلما انتهى من طوافه وسعيه سأل عن عطاء، فأشير إلى ركن فى المسجد، فأتاه، وكان عطاء فى صلاته، فجلس ينتظره حتى يفرغ، ثم سلم عليه، وراح يسأله، فأخذ عطاء يجيبه فى تدفق ومن غير تلعثم، ويسند الأقوال إلى كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ وكأنه يقرأ من صحيفة أمامه.

وكان سليمان الخليفة يجلس من عطاء مجلس التلميذ إلى أستاذه فى وقار واحترام، إذ تضاءل السلطان على الناس أمام سلطان العلم.

ولقد عجب ولدا سليمان مما رأيا وسمعا؛ فكثيرا ما كان أبوهما يحدثهما عن عطاء وهم فى طريقهم من دمشق إلى مكة، مشيدا بقوة شخصية عطاء، ومادحا لعلمه وفضله. فلما واجهاه فى الحرم الشريف رأيا شخصاً أعور أسود أفطس، لا يملأ العين أبدا، وبعد أن سمعاه محدثا واعظا عجبا، وذكرا ذلك لأبيهما، فقال لهما سليمان: لقد قصدت إلى ذلك قصدا، لتعلما وتتعلما أن:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده   فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

فقالا: صدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «المرء بأصغريه: قلبه ولسانه».

نصحنى عطاء بن أبى رباح:

كان جلاسه فى الحرم المكى طبقات مختلفة من الناس، يستمعون إليه ويحفظون عنه، وكان من بين هؤلاء رجال يعدون أعلاما فى ديارهم وأمصارهم، ولكنهم كانوا يغتنمون فرصة

---

(١) محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب.

(٢) أحد العلماء التابعين الأعلام.

وجودهم فى مكة، فيقبلون على مجالس عطاء ينهلون من غزير علمه ونمير فضله، ويضيفون إلى ذخيرة ما عندهم ما اكتسبوه من عطاء.

ولقد كان من رواد مجلس عطاء عالم من علماء الكوفة، هو محمد بن سوقة، جلس ذات يوم فى مسجد الكوفة ـ الجامع ـ وقد عاد من مكة ـ فقال لمن حوله من محبيه وسامعيه: ألا أسمعكم حديثا لعله ينفعكم كما نفعنى، سمعته من عطاء بن أبى رباح؟

لقد نصحنى عطاء فقال: يا ابن أخى إن الذين من قبلنا كانوا يكرهون فضول الكلام. فقلت: وما فضول الكلام عندهم يا أبا محمد؟ فقال: كانوا يعدون كل كلام فضولا ما عدا كتاب الله تعالى، أن يقرأ ويفهم، وحديث رسول الله ﷺ أن يروى ويدرى[1]، أو أمرأ بمعروف أو نهيًا عن منكر، أو علمًا يتقرب به إلى الله ـ عز وجل ـ أو أن تتكلم بحاجتك ومعيشتك التى لا بد لك منها. ثم حدَّق فى وجهى وقال: أتنكرون: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [سورة الانفطار ـ الآيات ١٠ ـ ١١]. وأن مع كل منكم ملكَين: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [سورة ق ـ الآيات ١٧ ـ ١٨].

ثم قال: أما يستحى أحدنا لو نشرت عليه صحيفته والتى أملاها صدر نهاره فوجد أكثر ما فيها ليس من أمر دينه، ولا أمر دنياه.

وهكذا كان علم عطاء ينتشر فى الآفاق، لينتفع به عباد الله تعالى، ويعلو صيته، فيقدرونه حق قدره، لا يبتغى بذلك أجرًا ولا منفعة، إلا رضى الله تعالى عنه.

الناصح للخلفاء:

هناك فرق بين أن يكون العالم خدينا للخلفاء وأو ناصحا لهم. ولقد كان عطاء من الصنف الثانى. لقد حاول كثير من خلفاء بنى أمية اجتذاب عطاء إلى قصورهم، ليلازمهم ويسامرهم ويعلمهم، ولكنه آثر ركنه ومجلسه فى جوار الكعبة الشريفة فهو عنده أعز مقام وأرفعه.

ولكنه ـ رضى الله عنه ـ كان إذا ما دعا داعى النصيحة، لا يقصر فى القصد والسفر، متحملا كل مشقة وعناء ووعثاء، راجيا من الله تعالى القبول، ومن الخليفة حسن الاستجابة.

ومن أجل وأعظم ما روى فى هذا المجال تلك الحادثة التى جرت لعثمان بن عطاء[2] الخراسانى. يقول عثمان: انطلقت مع أبى نريد هشام بن عبدالملك[3]، فلما غدونا قريبا من دمشق، إذا نحن بشيخ على حمار أسود، عليه قميص صفيق[4] وجبة بالية، وقلنسوة[5] لازقة برأسه، وركاباه[6] من خشب. فضحكت منه، وقلت لأبى: من هذا؟ فقال: اسكت.. هذا سيد فقهاء الحجاز، عطاء بن أبى رباح.

---

(١) إشارة من عطاء ـ رضى الله عنه ـ إلى ضبط الرواية، وحسن الدراية والفهم.

(٢) من أعلام علماء ذلك العصر.

(٣) تولى هشام الخلافة بعد أخيه يزيد بن عبد الملك.

(٤) صفيق: خشين. (٥) القلنسوة. غطاء الرأس (الطاقية).

(٦) الركاب: موضع الرجلين من الدابة.

فلما قرب منا نزل أبى عن بغلته، ونزل هو عن حماره، فاعتنقا وتساءلا، ثم عادا فركبا، وانطلقا حتى وقفا على باب قصر هشام بن عبدالملك. فما أن استقر بهما الجلوس حتى أذن لهما.

فلما خرجا، قلت لأبى: حدثنى بما كان منكما. فقال: لما علم هشام أن عطاء بن أبى رباح بالباب، بادر فأذن له، ووالله ما دخلت إلا بسببه. فلما رآه هشام قال: مرحبا. . مرحبا. . ، هاهنا، هاهنا. ولا زال يقول له هاهنا، هاهنا، حتى أجلسه معه على سريره[1]، ومس بركبته ركبته، وكان فى المجلس أشراف الناس، وكانوا يتحدثون فسكتوا.

ثم أقبل عليه هشام، وقال: ما حاجتك يا أبا محمد؟ قال: يا أمير المؤمنين، أهل الحرمين أهل الله وجيران رسوله، تقسم عليهم أرزاقهم وأعطياتهم، فقال: نعم. يا غلام اكتب لأهل مكة والمدينة بعطاياهم وأرزاقهم لسنة.

ثم قال: هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين، أهل الحجاز وأهل نجد أصل العرب، وقادة الإسلام ترد فيهم فضول صدقاتهم. فقال: نعم يا غلام أكتب بأن ترد فيهم فضول صدقاتهم. هل من حاجة غير ذلك يا أبا محمد؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين، أهل الثغور يقفون فى وجه عدوكم، ويقتلون من رام المسلمين بشر. تجرى عليهم أرزاقا تدرها عليهم؛ فإنهم إن هلكوا ضاعت الثغور. فقال: نعم يا غلام اكتب تحمل أرزاقهم إليهم، هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟

فقال: نعم يا أمير المؤمنين، أهل ذمتكم لا يُكلفون ما لا يطيقون؛ فإنّ ما تجبونه منهم معونة لكم على عدوكم. فقال هشام: يا غلام اكتب لأهل الذمة بألا يكلفوا ما لا يطيقون. هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟

قال عطاء: نعم. اتق الله فى نفسك يا أمير المؤمنين. واعلم أنك خلقت وحدك، وتموت وحدك، وتحشر وحدك، وتحاسب وحدك. ولا والله ما معك ممن ترى أحدا. فأكب هشام ينكت فى الأرض وهو يبكى.

فقام عطاء فقمت معه، فلما صرنا عند الباب إذا رجل، قد تبعه بكيس لا أدرى ما فيه، وقال له: إن أمير المؤمنين بعث لك بهذا. فقال عطاء: هيهات. . ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الشعراء - الآية ١٠٩].

ويقول عطاء الخرسانى: فوالله إنه دخل على الخليفة، وخرج من عنده ولم يشرب قطرة ماء.

من مأثور كلامه وخصاله رضى الله عنه:

قيل لعطاء إن قومًا يقولون: الإيمان لا يزيد ولا ينقص. فقال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [سورة محمد - الآية ١٧].

(١) السرير: كرسى الخليفة.

وسئل عن قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِى الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾ [سورة النمل ـ الآية ٤٨]. فقال: كانوا يقرضون الدراهم، يقصون منها ويقطعونها.

وقيل له: يزعم بعض الناس أن الصلاة والزكاة ليستا من دين الله! فقال: قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [سورة البينة ـ الآية ٥] فجعل ذلك دينا.

وقال فى قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [سورة آل عمران ـ الآية ٢٨]: لا يلهيم بيع ولا شراء عن مواضع حقوق الله تعالى التى افترضها عليهم أن يؤدوها فى أوقاتها وأوائلها.

وكان يقول: احفظوا عنى خمسا: القدر خيره وشره وحلوه ومره من الله عز وجل، وليس للعباد فيه مشيئة ولا تفويض. وأهل قبلتنا مؤمنون، حرام دماؤهم وأموالهم إلا بحقها. وقتال الفئة الباغية بالأيدى والنعال والسلاح؛ والشهادة على الخوارج بالضلالة.

وكان يقول: لأن أرى فى بيتى شيطانا خير من أن أرى فيه وسادة؛ لأنها تدعو إلى النوم. فكان يقف فى الصلاة، ويقرأ مائتى آية من سورة البقرة، وقد قارب المائة سنة من عمره، لا يزول منه شىء ولا يتحرك.

وكان رضى الله عنه يقول: ينبغى للعبد أن يكون كالمريض، لا بد له من موت، وليس كل الطعام يوافقه.

ويقول أيضا: لا تغبطن ذا نعمة بما هو فيه؛ فإنك لاتدرى إلى ماذا يصير بعد الموت!

رضى الله عنه وأرضاه، وأكرم فى الجنة نزله ومثواه، والحقنا به فى الصالحين من عباده.

* * *

عبد الرحمن الغافقى

رضى الله عنه

(... ـ ١١٤هـ)

شهيد بلاط الشهداء

عند نهر اللُّوران فى فرنسا

التلميذ النجيب:

نزح الفتى عبد الرحمن من اليمن إلى الحجاز، وهو يحمل بين ضلوعه قلبًا جياشًا بحب الله ورسوله، ونفسًا تضج بالحيوية والفتوة، تواقةً إلى الجهاد.

وهيأ الله - تعالى - له فى المدينة أستاذًا عظيمًا ممن صحبوا رسول الله ﷺ، وشرفوا بتلك الصحبة، وهو: عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه. أعجب التلميذ بأستاذه، فى عمله وسلوكه وحفظه، فلزمه كظله، يتابعه فى غدواته وروحاته، وحلقاته فى المسجد النبوى الشريف، يأخذ عنه ويحفظ منه، ويتأسى به.

ولم يبخل الأستاذ على التلميذ، وهو يرى فيه نجابة وذكاء، فأفرغ فى واعيته كل ما كان لديه من حذق علم، وكنوز فهم ودراية، حتى استوى الفتى على عوده، تابعيًّا متربعا فى الطليعة.

الانطلاقة الأولى:

ما إن توفر لعبد الرحمن الغافقى العكّى[1] أسباب تناغم العلم والفهم مع روحه الوثابة حتى انطلق إلى ميادين الجهاد فى سبيل الله، يحمل فى فؤاده مصحفًا وبيده سيفًا، ناذرًا نفسه لله - عز وجل - ينتظر إحدى الحسنيين.

وكان أول قدومه على إفريقية، حيث تنطلق منها كتائب النصر إلى الأندلس، فقضى فيها زمنًا يسيرًا.. دارسًا متفحصًا، مثله مثل القائد الذى يعاين خطته قبل مباشرة القتال؛ وخوض المعارك.

ثم ارتد عبد الرحمن إلى دمشق، وقد عرف كل كبيرة وصغيرة حول الشمال الإفريقى، والأندلس، فاتصل بالخليفة سليمان بن عبد الملك الذى رأى فيه قائدًا خبيرًا، وعالمًا ألمعيًّا.. مؤمنًا صادقًا، فقربه منه وأدناه، ثم بعث به إلى الأندلس.

من سليمان إلى عمر بن عبد العزيز:

وتولى عمر بن عبد العزيز الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك، وبدأ عملية الإصلاح حسبما اتفق له ورأى.. وكانت الأندلس آنذاك قد خلت من قيادة موسى بن نصير وولده عبد العزيز بن موسى، فعين عمر بن عبد العزيز عليها واليًا جديدًا هو السمح بن مالك الخولانى، وكان ذلك سنة مائة من الهجرة.

فلما نزل السمح الديار الأندلسية أراد أن يستعين برجال على مستوى المسئولية فى القيادة العسكرية، والإدارية، خصوصًا فى المهمة التى كلفه بها أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز؛ إذ عهد إليه أن يميز أرض الأندلس ويخرج منها ما كان فتحه عنوة، فيأخذ منه الخمس، وأن يكتب إليه بصفة الأندلس، وكأنه يعاينها.

فسأل واستقر ودقق واستخبر وكان من جملة أسئلته: هل فى الناس أحد من التابعين؟ وجاءته الإجابة بأن واحدًا من التابعين النابهين ذوى العلم الغزير والسلوك القويم، والصيت الحسن

(١) نسبة إلى قبيلته فى اليمن.

ممن تتلمذوا على عبد الله بن عمر بن الخطاب ـ ما يزال بين أظهرنا وقد نبه ذكره، وحسن مظهره ومخبره، هو عبد الرحمن الغافقى العُكِّىّ. فاستدعاه إليه وحدثه، وسبر غوره، وامتحنه، فرآه أعظم وأكبر وأقدر مما وصف به وقيل عنه.

وسُرَّ الأمير السمح بما رأى وسمع وعرض على عبد الرحمن أن يوليه عملاً كبيرًا ومهمًا من أعمال الأندلس، فاعتذر عبد الرحمن بأدب وأعلن بين يدى السمح أنه إنما جاء إلى البلاد غازيا مجاهدًا، هدفه رضوان الله تعالى، لا يطلب ولاية ولا إمارة، وأنه سوف يكون مع السمح أطوع له من ظله.

وكان عبد الرحمن ـ رضى الله عنه ـ صادقًا وليس متهربًا من المسئولية؛ فميدان الجهاد عنده أرفع مكانة من كل منصب، وصهوة الجواد أسمى وأرفع من كل كرسى.

من خاصة الأمير:

صدقه السمح فيما قال ورضى، ولكنه جعله من خاصته، وأقرب المقربين إليه، يستشيره ويستوزره، ولا ينطق بأمر قبل أن يسمع رأيه، خصوصا فى ميادين القتال، ومعامع الحروب؛ إذ كان عبد الرحمن مِقدامًا جريئًا، وصاحب خطة فى الحرب والنِّزال، شهدت بها المواقع والوقائع.

السمح والفتح:

وأراد السمح أن ينفذ إرادة الفاتح العظيم موسى بن نصير الذى مات قبل أن يحققها، وأن يصل مشرق الدولة الإسلامية بمغربها عن طريق فتح القسطنطينية من خلال أوربا، ويحقق بذلك الفتح بُشْرَى رسول الله ﷺ.

وكان هدفه الأول فرنسا. فأعد العدة لذلك، وحشد قواته، ثم انطلق على بركة الله. وعبر جبال (البرنيه Pyrenées) وهى من أصعب الجبال وعورة وعلوا، وأشدها مشقة، وتقع من خلفها أولى المدن الفرنسية (أربون Narbonne)، التى كانت غاية فى التحصين، وسدًا منيعًا فى وجوه الطامعين والطامحين، والتى استعصت على كثير من الغزاة فارتدوا عنها.

حاصرها السمح بقواته، وضيق عليها، وقذف أسوارها بالمنجنيقات، وضغط عليها بهجمات متتاليات، وبعد أربعة أسابيع من الحصار فُتحت أربونة على أيدى المسلمين، ودخلوها ظافرين مهلِّلين مكبِّرين.

وأبدى عبد الرحمن الغافقى ـ رضى الله عنه ـ ضروبًا من الشجاعة والإقدام، وتدبير الخطط فى الهجوم ما لفت إليه الأنظار، وتعلقت به الأبصار، وزاده ذلك علوًا ورفعة فى عينى السمح والجند أجمعين.

أمير.. رغمًا عنه:

وتابع الجيش الإسلامى الظافر زحفه فى الأرض الفرنسية باتجاه (تولوز) عاصمة مقاطعة (أوكتانيا) على الساحل الجنوبى فى فرنسا، فلما أتوها ضربوا حولها الحصار، ورموها بقذائف

المجانيق تهدم أسوارها، وتسقط عليها كسَفًا من فوقها. وكادت المدينة تقع فريسة للهزيمة الساحقة، ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان، ولأمر قدره الله وقضاه. إذ كان حاكمها قد استنجد بمن خلفه من الأمراء، والحكام من كل دول أوربا فأتوه زاحفين، ومعهم جيوش تملأ الوديان والسهول، حتى إن غبار الأرض من تحت أقدامهم وسنابك خيولهم كان يتصاعد إلى عَنان السماء، فتحجب نور الشمس عن مقاطعة (الرون Rhone) كلها.

والتقت الجيوش الزاحفة بجيش المسلمين فى ظاهر المدينة، وثبت جند الله ثبوت الجبال الرواسى، بما ألهموا من صبر وإيمان وفداء، لكن سهمًا أصاب السمح بن مالك - القائد - فى صدره فخرَّ صريعًا شهيدًا؛ إذ كان - رحمه الله - لا يفتأ يتنقل بين كتائب جيشه يحثها على القتال ويتفقدها عن يمين وشمال وقلب ومقدمة.

رأى الجند قائدهم يسقط، فدب اليأس إلى قلوبهم، والذعر إلى نفوسهم، وفتَّ فى عَضُدهم، ووقعت البلبلة فى صفوفهم ولاحتْ فى الأفق فوق رؤوسهم الهزيمة الفاجعة، لولا أن تداركتهم عناية الله تعالى، وأبرزت، بل أفرزت، لهم قائدًا شجاعًا محنكًا هو عبد الرحمن الغافقى؛ إذ أعطى أوامره بالاستعداد للانسحاب بأقل قدر ممكن من الخسائر، وعلى عجل، ودون تردد ولا وجل. واستطاع الأمير - رغما عنه - أن يرجع بجيش المسلمين إلى الأندلس دون هزيمة ساحقة، أو إبادة كاملة.

كان الجند يعرفون - حق المعرفة - شخصية عبد الرحمن القائد، فالتفوا حوله وشعروا بشىء من الاطمئنان يعود إلى قلوبهم ونفوسهم وهو يتقهقر بهم رُوَيْدًا رويدًا من الميدان، رغم الجُرح الأليم الذى أصابهم باستشهاد السمح والهزيمة التى حلت بهم، والتى كانت أول هزيمة يلقونها من عدوهم منذ أن وطئت أقدامهم أرض الأندلس.

الأمير:

لم يكن عبد الرحمن يطلب الإمارة ولا القيادة، لكنه وجد نفسه مبايَعًا من الجند، بل جنديًا يتصدر الموقف رغما عنه، فقبل مُكرهًا.

وما إن عاد إلى قُرْطُبَة حتى تبلغ منشور الخليفة بإقراره على إمارة الأندلس، والمقاطعات الفرنسية التى بسط المسلمون يدهم عليها، وإطلاق يده فى إصلاح مختلف الشئون.

الإدارى والسياسى الناجح:

اتجه هم عبد الرحمن إلى: استعادة الجند ثقتهم بأنفسهم، وتحقيق العدل فى المجتمع، والاستعداد للثأر ومتابعة الفتح. وكانت هذه المهام شغله الشاغل؛ لأن الزلزلة التى أصابت الجند كانت مؤلمة وشديدة، ما تعودوها من قبل. فأخذ - رضى الله عنه - يصل ليله بنهاره ليزيل آثارها من قلوبهم، بشحذهم وإذكاء الإيمان فى أرواحهم، وتذكيرهم الدائم بنصر الله تعالى لهم.

والتفت إلى الإصلاح الاجتماعى؛ لبناء القاعدة السليمة التى ينطلق منها، فلا خير فى أمة مهزومة فى نفوسها، مفككة فى بنائها وتواصلها.

وكان من أعماله فى هذا المجال أن طاف البلاد كلها من أقصاها إلى أقصاها، يقوِّم ما اعوجَّ، ويضبط ما شز، ويصلح ما فسد. ونادى فى الناس: من كانت له مظلمة عند وال من الولاة أو قاض من القضاة أو أحد من الناس فليرفعها إلى الأمير، لا فرق فى ذلك بين المسلمين وغيرهم من الذميين المعاهدين. وقام بنفسه بالنظر فى الشكاوى والمظالم، يقتص للمظلوم من الظالم، ويقوِّم ميزان العدل.

ومن أبرز أعماله أن حقق فى موضوع الكنائس المغتصبة والمستحدثة، فرد ما قضت به المواثيق والمعاهدات إلى أصحابها، وهدم ما بُنى رشوة. وكذلك حاسب الولاة على الأقاليم والعمّال والمقاطعات، فأقر منهم فى مناصبهم من ثبت له حسن سلوكه ونصاعة يده، وعزل واستبدل بمن كان ضعيفًا أو منحرفًا غيره من أهل الثقة والكفاءة.

وكان كلما نزل بإقليم دعا الناس إلى الصلاة جامعة، وقام فيهم خطيبًا متأسيًا برسول الله ﷺ، مناقشًا لأمورهم، متعرِّفًا مشاكلَهم، داعيًا إياهم إلى الالتزام بكتاب الله وسنة رسول الله، يحضهم على الجهاد ويرغبهم فى الاستشهاد.

كما أخذ فى الأعمال العمرانية، من تشييد للجسور والقناطر فوق الوديان، والممرات الجبلية؛ لتسهيل حركة الناس فى أمور معايشهم، وتحركات الجيوش أيضا. ودعم الحصون والقلاع، وأقام فيها الحاميات، خصوصًا تلك الموجودة على الحدود، أو قريبًا منها؛ لتكون دروعًا واقية تصد غارات العدوان.

وكان لا يتخذ قرارًا قبل المشورة، فإذا ما حل ببلد جمع القادة ووجوه الناس، يسمع إليهم ويتفهم مطالبهم، ويدون كل ذلك، وقليلا ما كان يتكلم.

ولم يتوقف فى استطلاعه لشئون المواطنين عند المسلمين منهم فقط، بل كان يجتمع إلى الذِّمِّيين كذلك؛ فهم رعايا الدولة، ولهم العهد والميثاق.

لقد كان اهتمامه فى ضمان القاعدة الشعبية جل غايته وهدفه؛ استعدادًا لمعركة الثأر، واسترداد الهيبة وتضميد الجراح، والانطلاقة الكبرى إلى الفتح، وأنفق فى ذلك قرابة السنتين.

لماذا؟

وكانت عين عبد الرحمن الساهرة على الشئون الداخلية للبلاد لا تغفو عن تحركات العدو خارجها، فقد بث العيون والأرصاد ترقب الأحداث وتنقل إليه كل حركة بدقة وأمانة. وذات مرة استدعى إليه أحد كبار المعاهدين من أبناء المقاطعات الفرنسية، وحدثه وتبسط معه فى كل شأن وأمر، حتى أنس إليه ضيفه، ثم سأله فجأة: ما بال ملككم الأكبر شارل مارتل لا يتصدى لحربنا، وليس بيننا هدنة ولا معاهدة، وقد حشد من الجند من كل البلاد الأوروبية جيشًا جرارًا؟ لماذا؟ فأجابه الضيف: أيها الأمير، لقد وفيتم لنا بذمتنا عليكم، وعهدكم لنا، فمن حقكم أن نصدقكم القول فى كل ما تسألون وعنه تستفسرون.. إن قائدكم الكبير موسى بن نصير كان

قد أحكم قبضته على إسبانيا والبرتغال[١] ، ثم تطلع إلى اجتياز جبال البيرنيه التى تفصل بين الأندلس وفرنسا ؛ رغبة منه فى احتلال بلادنا ، ففزع حكام الأقاليم والمقاطعات وكبار رجال الدين إلى شارل مارتل ، وقالوا له : ما هذا الخزى والعار الذى نزل بنا وبأحفادنا وكأنه وصمة الدهر والأبد؟ لقد كنا نسمع بالمسلمين من قبل وما نعبأ بهم ، ونصد وثباتهم المتتالية علينا من قبل المشرق ، من ناحية القسطنطينية ، المرة تلو المرة ، ونردهم على أعقابهم ، ولكنهم الآن قد جاءونا من حيث لا نحتسب ، جاءونا من قبل المغرب ووطدوا أقدامهم فى إسبانيا ، وامتلكوا ما فيها من الذخائر والكنوز ، وبنوا القلاع الحصون ، ومهدوا لهم تمهيدا . . كيف حدث ذلك وعددهم قليل ، وسلاحهم هزيل ، وهم فى عيون الأمم ذات الحضارات أهون الناس؟! كيف؟! كيف؟!

فقال لهم : إن ما يشغلكم الآن قد شغلنى من قبل ، وقد فكرت فيه طويلاً ، ورأيت أن لا نتعرض لهؤلاء القوم فى وثبتهم الآن ، فإنهم فيها كالسيل المتدفق الجارف ، يأخذ فى طريقه كل ما يعترضه ، بل يقتلعه من جذوره ، ويُلقى به حيث يشاء . وهم فى عقديتهم التى يعتقدون أقوى وأصلب من كل الحصون والقلاع ، والدروع والرماح وكل سلاح ، فأمهلوهم إلى حين ، إلى أن تمتلئ أيديهم بالغنائم ، ويخلدوا إلى القصور والدور ، ويتخذوا الخدم والحشم ، ويتنافسوا على الدنيا بكل متاعها وزخرفها ، عندئذ فقط تكون لكم الغلبة عليهم وهزيمتهم[٢] .

كان عبد الرحمن ـ على عادته ـ يسمع ولا يتكلم ، وينصت ويصغى باهتمام شديد ؛ فقد كانت إجابة شارل مارتل للسائلين حقيقة لا ريب فيها . ثم تنهد تنهدة عميقة ، وزفر زفرة شديدة أودعها كل آلامه وأحزانه ، وهب واقفا قائلا : حيَّ على الصلاة ؛ فقد آن أوانها ، ووجب وقتها ، ونسأل الله العافية .

ولا يفوتنا هنا أن ننوه بأمر ذى بال ؛ فقد كانت هذه الأعمال والاستعدادات خلال الولاية الثانية لعبد الرحمن الغافقى أمير الأندلس ، فأما الأولى فقد علمنا ظروفها ؛ إذ كانت بعد استشهاد السمح بن مالك عند تولوز .

ولقد مر على عبد الرحمن عشر سنوات كان أثناءها قائدا عاديا ، من سنة ١٠٣هـ حتى سنة ١١٣هـ ، فقد تقلب على منصب الأمير الوالى أكثر من شخص ، وقليلاً ما انطلقت الجيوش إلى أهدافها فى الفتح ، وعمَّت الفوضى والضعف . حتى كان عهد الخليفة هشام بن عبد الملك الذى أصدر مرسومًا بإعادة عبد الرحمن إلى الإمارة مرة ثانية .

ولقد وصفه المؤرخون فقالوا : كان عبد الرحمن جنديا عظيمًا ، وحاكمًا قديرًا بارعًا فى شئون الحكم ، والإدارة ، ومصلحا كبيرا يضطرم رغبة فى الإصلاح ، بل كان بلا ريب أعظم ولاة الأندلس ، وأقدرهم جميعًا[٣] .

---

(١) كان الذى ساح فى بلاد البرتغال وفتحها عبد العزيز بن موسى بن نصير ، وكان قائدًا همامًا شجاعًا .

(٢) دولة الإسلام فى الأندلس ـ محمد عبد الله عنان ، ج١ ، ص ٨٤ .

(٣) نفح الطيب ، ج١ ، ص ١٢٩ .

إلى الفتح والثأر:

لم ينس عبد الرحمن عهده مع الله ـ تعالى ـ منذ أن نزل الأندلس ومست قدماه أرضها، أن يكون مرابطًا فى سبيل الله. وأنَّى للمؤمن الصادق أن ينسى؟! ولم ينس أيضا عهده للسمح بن مالك أن يثأر له من عدوه.

فلما أتم استعداداته واستوثق من حال البلاد والعباد، واطمأن على سلامة ومتانة الجبهة الداخلية نادى الناس: حيَّ على الجهاد.

واستعان ببعض الجند من والى إفريقية فأمدَّه. كما أرسل إلى أمير الثغور عثمان بن أبى نسعة[1] يأمره أن يشاغل العدو بغاراته حتى يقدم عليه.

ومن قِبَل ابن أبى نسعة كانت الفجوة ومكمن الخطر؛ إذ كان هذا الأمير ساقط الهمة، مريضًا بالحقد، أضف إلى ذلك أنه كان قد أَسَر ذات يوم ابنة دوق أوكتانيا، فتزوجها، وكانت ذات حسن وبهاء ودهاء، واستطاعت ـ وقد خلبت لُبَّه وعقله ـ أن يكون لها التأثير الكامل عليه، حتى عقد معاهدة مع أبيها وصالحه وأمنه.

فلما جاءه أمر الأمير عبد الرحمن بالزحف والمشاغلة توقف حيرانَ لا يدرى ماذا يفعل، وزينت له زوجته أن يرفض الأمر فأطاعها، وكتب إلى الأمير عبد الرحمن يقول: إنه لا يستطيع أن ينقض عهده مع دوق أوكتانيا حتى يتم الأجل.

غضب عبد الرحمن من تهاون واستخذاء ابن أبى نسعة غضبًا شديدًا ووجه إليه كتيبة من أشد فرسانه مَضاءً وعزيمةً، وأمرهم أن يأتوه بهذا الخائن حيًّا أو ميتًا.

وقد عرف أن هذا الغادر قد راسل دوق أوكتانيا، وحذره من قدوم عبد الرحمن عليه. فلما أحس ابن أبى نسعة بالخطر فر ومعه زوجته وفرسانه، وتحصن فى رءوس الجبال، فتبعه فرسان عبد الرحمن ووقعت بين الطرفين معركة رهيبة، سقط على أثرها الخائن صريعًا، فاجتُزَّ رأسه وحُمل إلى عبد الرحمن، ومعه زوجته الحسناء (مينين)، فأرسلها عبد الرحمن مخفورة إلى الخليفة هشام بن عبد الملك فى دمشق. وهكذا سد عبد الرحمن هذه الفجوة، ودرأ عن نفسه الخطر، وبات يستعد للزحف المقدس.

ومع مطلع عام ١١٣هـ انطلق عبد الرحمن بجيش من الأندلس باتجاه فرنسا، انطلق قائدًا وعاد شهيدًا، خرج يحدوه الأمل بالظفر والنصر والثأر، ولكن تكررت مأساة أُحُد فى بلاط الشهداء.. فكيف كان ذلك؟

الخروج العظيم:

انطلق عبد الرحمن بجيشه اللَّجب الذى زاد على مائة ألف من المقاتلين الشجعان، متجهًا شمالاً قاصدًا مقاطعة أكوتين، حيث خصمه اللدود أودو. وبلغت أنباء هذا الزحف مسامع الدوق، فاستعد للقاء عبد الرحمن، وقد تراءت له واقعة مقتل صهره ابن أبى نسعة، ووقوع ابنته

(١) تقول الروايات الأجنبية إن صاحب الاسم يدعى «منوسة»، وهو بربرى الأصل، وليس ابن أبى نسعة كما اشتهر.

مينين أسيرة، وانتقالها إلى دار الخلافة فى دمشق جاريةً من الجوارى. وازداد خوفًا أن يكون مصيره كواحد منهما، فتحصن وتأهب وحشد كل ما يستطع حشده.

واخترق عبد الرحمن ولايتى أراجون وناڤار، وانحطَّ كالسيل الجارف من فوق جبال البيرنيه عن طريق بنبلُّونة، ودخل الأراضى الفرنسية فى ربيع سنة ٧٣٢م- ١١٤هـ. وكان أول توجُّهه إلى مدينة آرْل الواقعة على نهر الرُّون؛ إذ نكصت هذه المدينة على عقبيها، وتخلفت عن دفع الجزية بعد استشهاد السمح بن مالك فى تولوز، فأراد عبد الرحمن تأديبها وقهرها. فلما أتاها وجد دوق أكوتين أودو قد استعد له وتصدى، وجرت بين الطرفين معركة هائلة، انهزم على أثرها الدوق وفر هاربا من الميدان بما بقى معه من فلول جيشه وقواته. ودخل عبد الرحمن المدينة- مدينة آرل واستولى عليها حربا، وغنم كثيراً من الغنائم التى لا تحصى ولا تعد.

ثم زحف غربًا وعبر نهر الجارون، وانتشر الجيش الإسلامى الظافر فى أنحاء مقاطعة أكوتين يُثخنون فى مدنها وبسائطها ويحققون النصر تلو النصر. فجمع الدوق فلوله، وحاول أن يتصدى من جديد لزحف عبد الرحمن، لكنه ما لبث أن هزم هزيمة ساحقة ماحقة.

يقول إيزيدور الباجى: والله وحده يعلم كم قُتل فى تلك الموقعة من النصارى.

واستولى عبد الرحمن على مدينة بوردو بعد حصار قصير، وفر الدوق أودو فراره النهائى، وبذلك تم فتح مقاطعة أكوتين كلها.

ثم ارتد عبد الرحمن نحو الرون فاخترق برجونية، واستولى على ليون وبيزانسون، ووصلت طلائع قواته إلى (سانْس Sans) التى بينها وبين باريس مائة ميل فقط. وتعد هذه المناطق كلها نصف فرنسا الجنوبى، وقد تم لعبد الرحمن الاستيلاء عليها فى مدة وجيزة كانت تقدر ببضعة أشهر فقط.

ويحدثنا المؤرخ «إدوارد جيبون» عن ذلك فيقول: وامتد خط الظفر مدى ألف ميل من صخرة جبل طارق إلى ضفاف نهر اللوار، وقد كان اقتحام مثل هذه المسافة يكاد يحمل العرب إلى حدود بولونيا، وربُى اسكتلندا، فليس نهر الراين بأمنع من النيل والفرات، ولعل أسطولاً عربيًا كان يمكنه أن يصل إلى مصب نهار التايمز دون معركة بحرية، بل ربما كانت أحكام القرآن تدرس الآن فى معاهد أكسفورد، وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد ﷺ صدق الوحى والرسالة.

تلك هى صورة الزحف الذى قام به عبد الرحمن الغافقى فى عيون الغرب، وتصورات انعكاساته على تلك الفترة التاريخية.

النفير:

وأطلق النفير فى كل دول أوروبا يستصرخ همم الناس لصد الإعصار الإسلامى الزاحف، وأخذت الحشود تتجمع من هنا وهناك تحت قيادة شارل مارتل، ولاح فى الأفق بوادر معركة هائلة لم يشهد لها التاريخ من قبل مثيلاً.

ويصف الشاعر الإنجليزى «سوذى» جموع المسلمين وحماسهم وحميتهم واندفاعهم فيقول:

جمع لا يحصى
من شام وبربر وعرب، وروم وخوارج
وفرس وقبط وتتَر غضبة واحدة
يجمعها إيمان هائم راسخ القوة
وحمية مضطرمة وأخوّة مروعة
ولم يكن الزعماء أقل ثقة بالنصر
وقد شمخوا بطول ظفر
يتهيئون بتلك القوة الجارفة
التى أيقنوا أنها - كما اندفعت - حيثما كانوا بلا منازع -
ستندفع ظافرة إلى الأمام
حتى يصبح الغرب المغلوب كالشرق
يطأطئ الرأس إجلالاً لاسم محمد
ينهض الحاجةمن أقصى التجمد
ليطأ بأقدام الإيمان - الرمال المحرقة -
المنتشرة فوق صحراء العرب
وأراضى مكة الصلدة

وكان جيش شارل مارتل الضخم خليطًا من مختلف العشائر الجرمانية المتوحشة، والعصابات الأوربية المرتزقة، جلُّه جند غير نظاميين، نصف عراة، يتّشحون بجلود الذئاب، وتنسدل شعورهم المتجعدة فوق أكتافهم العارية.

اللقاء:

ويصف لنا المؤرخون ذلك اللقاء بين عبد الرحمن وشارل مارتل فيقولون: انتهى الجيش الإسلامى فى زحفه إلى السهل الممتد بين مدينتى بواتييه وتور، وكان المسلمون قد استولَوا على المدينتين واستخرجوا كنوز كنائسها وقصورها وأديرتها.

وعند نهر اللوار كان شارل مارتل قد وصل قبلهم، ولم يشعروا به إلا وهو أمامهم بجموعه الجرارة، وقدَّر عبد الرحمن خطورة هذا الجمع الغربى الحاشد، فارتد إلى السهل الواقع بين بواتييه وتور وعسكر هناك.

وكان الجيش الإسلامى فى حال تدعو إلى القلق والتوجس، فإن الشقاق كان يضطرم بين قبائل البربر التى يتألف منها معظم الجيش، وكانت هذه القبائل تتوق إلى الانسحاب، ناجية بغنائمها الكبيرة الكثيرة.

وكان المسلمون - فى الواقع - قد استصفوا ثروات فرنسا الجنوبية أثناء سيرهم المظفر، وغنموا كنوز أديرتها وكنائسها، وأثقلوا بما لا يقدر ولا يحصى من الذخائر والغنائم والسبى، فكانت هذه الأثقال النفيسة تحدث الخلل فى صفوفهم، وتثير النزاعات.

وقدَّر عبد الرحمن خطورة هذه الغنائم على نظام الجيش وأهبته، وحاول ـ عبثا ـ أن يحملهم على ترك شيء منها، والتخفف من وطأتها، ولكنهم كانوا فى حرص شديد عليها، ولم يقسرهم على ذلك خشية التمرد. ومع كل هذا صمم عبد الرحمن على خوض المعركة، بعزم وثقة، ووضع خطته للقتال، وتأهب لذلك.

من أحُد إلى بلاط الشهداء:

وكما كانت غنائم قريش يوم أحد وتخلِّى الرماة عن مواقعهم ومخالفتهم أوامر رسول الله ﷺ سببًا فى الهزيمة، وتبدل ميزان المعركة ـ كان معسكر الغنائم فى المواجهة بين جيش المسلمين بقيادة عبد الرحمن الغافقى، وجيش الفرنجة بقيادة شارل مارتل سببًا فى نكبة أليمة وهزيمة مرة. وبدأ القتال، وكان ذلك فى أواخر شهر شعبان سنة ١١٤هـ. واستمرت المعارك بين الطرفين على مدى سبعة أيام دون أن يحقق أحد الطرفين نصرًا، أو غلبة.

وفى اليوم الثامن نشبت بينهما معركة عامة، اشتبكت فيها كل قوات الطرفين، واشتدت، وحَمِيَ وطيسها حتى جَنَّ الليل، وفصل بينهما الظلام.

ومع فجر اليوم التالى استؤنف القتال، أشد ضَراوةً، حتى ظهر الإعياء الشديد على جيش شارل مارتل ولاحت بوادر النصر الإسلامى، ورجحت كفة جيش عبد الرحمن، وفجأة سمع صوت يقول بأن معسكر الغنائم يوشك أن يقع فى أيدى العدو، فارتد أكثر الفرسان من قلب المعركة إلى الصفوف الخلفية لحماية الغنائم.. وهنا حدث الخلل الكبير فى صفوف المسلمين، وتضعضع تماسكهم، وانقلب اندفاعهم ارتدادًا.

وعبثًا حاول القائد عبد الرحمن أن يعيد النظام إلى قواته وجيشه؛ ويهدئ من رُوع جنده، وبينما هو يتنقل هنا وهناك فوق جواده أصابه سهم فى صدره، فسقط عن الصهوة أرضًا، ولَفِظَ أنفاسه الطاهرة شهيدًا فى سبيل ربه.

وارتد جيش المسلمين تحت جنح الليل مخلِّفًا وراءه آثار أعظم معركة وأخطرها فى تاريخ الفتح الأندلسى، من غنائم وأسلاب وأشلاء وشهداء. وقد عرفت تلك المعركة ببلاط الشهداء.

رحم اللهُ تعالى التابعيَّ الجليل عبد الرحمن الغافقى، وبوَّأه من الفِردَوْس الأعلى أسمى منزلة وأرفع مقام.

***

محمد الباقر

محمد بن على زين العابدين

رضى الله عنهما

(٥٧ - ١١٥ هـ)

قال أبو جعفر رضى الله عنهما :

الإيمان ثابت فى القلب، واليقين خطرات، فيمر اليقين بالقلب فيصير كأنه زُبر الحديد، ويخرج منه فيصير كأنه خرقة بالية!

وما دخل قلب عبد شيء من الكبر إلا نقص من عقله بقدره، أو أكثر منه.

وقال: بئس الأخ أخ يرعاك غنيا ويقطعك فقيرا.

وقال: والله لموت عالم أحب إلى إبليس من موت ألف عابد.

ذرية بعضها من بعض

تسلسلت وتفرعت من دوحة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء. وتسربلت بالإيمان والإسلام، ينصع شعاعه، ويضوع طيبه. وازينت بالعلم والفضل والتقوى فكانت أعلام هدى. وتتوجت بالشهادة تأتلق دماؤها الزكية نورا ونارا، نورا يضيء السبل إلى الحق والعدل، ونارا على الظلم والاستبداد.

وما محمد الباقر رضى الله عنه إلا ثمرة طاب جناها، وحان قطافها، لونا وريحا وطعما، فكل طالب للعلا يسعى إليها، ويشتهيها.

من الباقر إلى زين العابدين إلى ريحانة رسول الله ﷺ إلى سيد شباب أهل الجنة وشهيد كربلاء الحسين، إلى فتى الإسلام وفارس الميدان على كرم الله وجهه.

ترق وصعود، وسمو وعلو. رضى الله عنهم أجمعين.

الباقر:

(باقر) أحشاء العلوم ومستخرج دفينها، الغواص إلى أعماق بحار المعرفة، فملتقط لآلئها ودررها؛ الحاصل على كنوزها وذخائرها، فالناثر خيرها على الناس.

هكذا تعارف المؤرخون على لقبه، وأجمعوا على ذلك، فاشتهر به على مدى الأزمان والقرون؛ وشهد المعاصرون له من الأئمة الأعلام بالتقدم والصدارة.

يقول الإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله في تعريفه [1]: وهو تابعي جليل، كبير القدر كثيرا، أحد أعلام هذه الأمة علما وعملا، وسيادة وشرفا.

ويقول أيضا: وسمي (الباقر) لبقره العلوم واستنباطه الحكم، كان ذاكرا خاشعا صابرا. وكان من سلالة النبوة، رفيع النسب عالي الحسب! وكان عارفا بالخطرات، كثير البكاء والعبرات، معرضا عن الجدال والخصومات.

ربيب المدينة المنورة:

ولد محمد الباقر في المدينة المنورة عام سبعة وخمسين للهجرة. وأبوه علي زين العابدين. بقية البيت النبوي الطاهر. وثمال العترة الشريفة الزكية. عترة المصطفى ﷺ. زين العابدين الذي قال فيه الإمام الزهري: ما رأيت قرشيا أفضل من علي زين العابدين. والذي قال فيه الشاعر الفرزدق:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته	والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم	هذا التقي النقي الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله	بجده أنبياء الله قد ختموا
مشتقة من رسول الله نبعته	طابت مغارسه والخيم والشيم

(١) البداية والنهاية، ج: ٩، ص: ٣٣٨.

أما أم الباقر فهى أم عبدالله [١] بنت الحسن بن على رضى الله عنهم.

نشأ الباقر فى المدينة، وترعرع فى ربوعها الطيبة، وتنشق عبيرها ونسيمها، فسرت فى أوصاله وجوارحه محبتها.

كيف لا، وفى تربتها الطاهرة مثوى جسد رسول الله ﷺ، وفاطمة الزهراء، وكثير من الذرية الطاهرة، والسابقين من المهاجرين والأنصار.

محضن الإسلام وحصنه، ومنطلق دولته، ومرتكز تاريخه، ومصنع رجاله وأحداثه؛ وبزوغ فجره الوضاء على الدنيا كلها.

فتح الباقر رضى الله عنه قلبه وعينيه على مسجد جده المصطفى ﷺ، الذى كان فى حينه يغص بحلقات العلم، تنتشر فى جنباته، هنا وهناك، ويزدهر ويزهو برجالات من الصحابة الكرام، وكبار التابعين، يفيضون على الناس من مذخور علمهم وفضلهم، منهم جابر بن عبدالله وأبو سعيد الخدرى، وأبو هريرة، وعبدالله بن عباس، وأنس بن مالك وغيرهم رضى الله عنهم.

كما فتح عينيه وقلبه ووعيه على أحداث جسام، تبدلت فيها المقاييس، وانقلبت الموازين، فى الحكم والسلطان، وبات السيف مجردا للقهر والعدوان، لا للجهاد والطعان، اللهم إلا ما كان من فئة نذرت نفسها للجهاد والفتح؛ وحمل راية الإسلام إلى بقاع الأرض، فى الشرق أو الغرب.

وهزت وجدان الباقر رضى الله عنه مآسى الآباء والأجداد، من على، إلى الحسن إلى شهيد الشهداء، رمز الفداء، وصريع كربلاء الحسين رضى الله عنهم جميعاً. فآثر لنفسه نهج أبيه زين العابدين. فانصرف عن الدنيا إلى الله تعالى، علما وعبادة وزهدا. وبرز فى كل منها، فكان أوحد زمانه ومرجع الكبار من جهابذة العلم، وعلما مفردا فى العبادة والتقوى؛ ومثلا يحتذى فى الزهد. حتى قيل فيه: إنه كان خير محمدى على وجه الأرض يومئذ.

يقول أستاذنا الإمام محمد أبو زهرة رحمه الله فى مقدمة كتابه عن جعفر الصادق رضى الله عنه[٢]: انصرف آل البيت إلى العلم النبوى يتدارسونه، وفيهم ذكاء آبائهم، وهداية جدهم، والشرف الهاشمى الذى علا بهم عن سفساف الأمور، فاتجهوا إلى معاليها.

وقد بعدوا عن السياسة لأنهم ذاقوا مرارتها، ولم يعرفوا حلاوتها، وتوارثوا ذلك الاتجاه العلمى، فورثوا الإمامة فيه كابرا عن كابر، وإذا كانوا قد بعدوا عن سلطان أهل الدنيا، فقد آتاهم الله سلطان أهل الآخرة.

فعلى زين العابدين كان إمام المدينة نبلا وعلما، وكان ابنه محمد الباقر وريثه فى إمامة العلم، ونبل الهداية، ولذا كان مقصد العلماء من كل البلاد الإسلامية، وما زار أحد المدينة إلا عرج على بيت محمد الباقر يأخذ عنه.

(١) اسمها: فاطمة.

(٢) ص: ١٨.

مصاهرة الصديق رضى الله عنه:

وفى عنفوان شبابه، ونضارة رجولته، مال إلى فتاة ملئت علما وفقها، وبهاء وحياء، ورفعة نسب وحسب؛ هى أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق.

وكان أبوها القاسم بن محمد رضى الله عنه قد تربى فى حجر عمته الصديقة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها، ونهل من نمير عطائها خلقا ودينا وعلما، حتى برز على أترابه وبز أقرانه، وعُد أحد سبعة كانوا فقهاء المدينة.

واقترن الباقر رضى الله عنه بأم فروة، فولدت له الصادق جعفرًا.

فالصديق رضى الله عنه وأرضاه هو جد جعفر لأمه.

هذا النسب الشريف يقول فيه الشهرستانى:

هو - أى جعفر - من جانب أبيه ينتسب إلى شجرة النبوة، ومن جانب الأم ينتسب إلى أبى بكر الصديق.

الباقر رضى الله عنه بين الحقيقة التاريخية واتباع الهوى

جمح التطرف المذهبى والمغالاة لدى نفر من الناس، ممن عاصروا الباقر رضى الله عنه أو ممن جاءوا بعده، فقالوا عليه ما لم يقل، وكذلك فعلوا بولده الصادق رضى الله عنه من بعده، فتأججت النفوس الضعيفة بنيران الهوى، ومالت عن الحقيقة التاريخية إلى مفتريات فى صلب المفاهيم الأساسية للدين.

وهؤلاء النفر يجد المتتبع لأصولهم النسبية، ومناهجهم السياسية، والعلمية أيضا سمات تؤكد نواياهم فى تخريب وحدة الأمة، وإذكاء روح الفرقة بين أبنائها، وما ابن السوداء [1] إلا نموذجا صارخا، وحقيقة دامغة لا تقبل التأويل، ولا تحتمل التضليل!

ولقد تضافرت الأحداث السياسية، والنزاعات على السلطة الزمنية؛ وما رافق ذلك من مآس دموية، واستغلالها، على اتساع الخَرْق، وعمق الشق.

ونقل - نقلا صحيحا متواترا - عن الباقر رضى الله عنه ما يؤكد صفاء قلبه، ورجاحة عقله، وبراءة لسانه مما زُوِّر عليه وافترى.

قال عروة بن عبدالله: سألت أبا جعفر محمد بن على الباقر عن حلية السيف، فقال: لا بأس بها، فقد حلى أبو بكر الصديق سيفه. قلت: وتقول الصديق؟! قال عروة: فوثب وثبة، واستقبل القبلة، ثم قال: نعم الصديق؛ نعم الصديق، فمن لم يقل الصديق فلا صدق الله له قولا فى الدنيا والآخرة.

وحق للباقر رضى الله عنه أن ينصف الحقيقة بهذا الرد المفحم، تجاوبا مع إيمانه الصادق، ويقينه السليم، وسوى علمه وفضله. أضف إلى ذلك انتصاره لجده لأمه. وهو يعرف تمام المعرفة ما كان للصديق رضى الله عنه من سبق ونصرة، ويد بيضاء معطاء لله ورسوله.

---

(١) عبدالله بن سبأ - اليهودى المنافق، الذى قال فى على رضى الله عنه أقوالا ظاهرة الكفر، فأهدر بسببها دمه.

وينقل لنا جابر الجعفى صورة أخرى، أوضح وأصرح عن خلفية تلك الحقيقة، التى حاول دعاة السوء تزييفها وتشويهها عن الباقر رضى الله عنه.

يقول جابر:

قال لى محمد بن على: يا جابر، بلغنى أن قوما بالعراق يزعمون أنهم يحبوننا، يتناولون أبا بكر وعمر ويزعمون أنى أمرتهم بذلك.

فأبلغهم عنى أنى إلى الله منهم برىء. والذى نفس محمد بيده، لو وليت لتقربت إلى الله بدمائهم، لا نالتنى شفعة محمد ﷺ إن لم أكن أستغفر لهما، وأترحم عليهما، إن أعداء الله لغافلون عن فضلهما وسابقتهما.

فأبلغهم أنى برىء منهم، وممن يتبرأ من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما.

ومن مأثور القول عنه، فى هذا الصدد: من لم يعرف فضل أبى بكر وعمر فقد جهل السنة.

ويروى أيضا جابر الجعفى قولا للإمام الباقر رضى الله عنه فى تفسير قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾(المائدة، الآية: ٥٥). قال الباقر: هم أصحاب محمد ﷺ. قال جابر: قلت: يقولون هو على رضى الله عنه!؟ قال: على من أصحاب محمد ﷺ.

علمه رضى الله عنه:

قال عبدالله بن عطاء: ما رأيت العلماء أصغر منهم عند أبى جعفر محمد بن على.

وقال جابر الجعفى: قال لى محمد بن على: يا جابر إنى لمحزون، وإنى لمشتغل القلب. قلت: وما حزنك وشغل قلبك؟ قال: يا جابر إنه من دخل قلبه صافى دين الله عز وجل، شغله عما سواه. يا جابر ما الدنيا؟ وما عسى أن تكون؟ هل هى إلا مركب ركبته؟ أو ثوبا لبسته؟ أو امرأة أصبتها؟ يا جابر، إن المؤمنين لم يطمئنوا إلى الدنيا لبقاء فيها، ولم يأمنوا قدوم الآخرة عليهم، ولم يصمهم عن ذكر الله ما سمعوا بآذانهم من الفتنة، ولم يعمهم عن نور الله ما رأوا بأعينهم من الزينة، ففازوا بثواب الأبرار.

إن أهل التقوى أيسر أهل الدنيا مؤونة، وأكثرهم لك معونة، إن نسيت ذكروك، وإن ذكرت أعانوك، قوالين بحق الله، قوامين بأمر الله، قطعوا لمحبة ربهم عز وجل، ونظروا إلى الله وإلى محبته بقلوبهم، وتوحشوا من الدنيا لطاعة محبوبهم، وعلموا أن ذلك من أمر خالقهم، فأنزلوا الدنيا حيث أنزلها مليكهم، كمنزل نزلوه ثم ارتحلوا عنه وتركوه، وكمال أصبته فى منامك، فلما استيقظت إذا ليس بيدك منه شىء، فاحفظ الله فيما استرعاك من دينه وحكمته.

وروى جعفر الصادق رضى الله عنه فقال: ذهبت بغلة أبى، فقال: لئن ردها الله علىَّ لأحمدنه بمحامد يرضاها. فما كان بأسرع من أن أتى بها بسرجها، لم يفقد منها شىء، فقام فركبها، فلما استوى عليها، وجمع إليه ثيابه، رفع رأسه إلى السماء وقال: الحمد لله. لم يزد على ذلك. فقيل له فى ذلك، فقال: فهل تركت أو أبقيت شيئا؟ جعلت الحمد كله لله عز وجل.

وروى عنه عبدالله بن المبارك قال: قال محمد بن على: من أعطى الخلق و الرفق فقد أعطى

الخير والراحة، وحسن حاله فى دنياه وآخرته، ومن حُرمهما كان ذلك سبيلا إلى كل شر وبلية، إلا من عصمه الله.

فهمه لكتاب الله تعالى:

وروى عنه فى قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا ﴾(الفرقان، الآية: ٧٥). قال: الغرفة الجنة بما صبروا على الفقر فى الدنيا.

وسأل جابر الجعفى: يا جابر، ما يقول فقهاء العراق فى قوله تعالى: ﴿ لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ (يوسف، الآية: ٢٤).

قال جابر: رأى يوسف أباه يعقوب عليهما السلام عاضا على إبهامه. فقال الباقر رضى الله عنه: لا. حدثنى أبى عن جدى على بن أبى طالب أن البرهان الذى رآه، حين همت به وهم بها - أى طمع فيها - قامت إلى صنم لها مكلل بالدر والياقوت، فى ناحية البيت، فسترته بثوب أبيض، خشية أن يراها، أو استحياء منه. فقال لها يوسف: تستحين من صنم لا ينفع ولا يضر، ولا يسمع ولا يبصر، أفلا أستحى أنا من إلهى الذى هو قائم على كل نفس بما كسبت؟! ثم قال: والله لا تنالين منى أبدا، فهو البرهان [١].

وقال رضى الله عنه: إياكم والخصومة فإنها تفسد القلب، وتورث النفاق. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ (الأنعام، الآية: ٦٨)، هم أصحاب الخصومات.

وكان رضى الله عنه فى أكثر تأويله متأثرا بابن عباس رضى الله عنهما، يوافقه فى فهمه ونقله.

من مأثور قوله رضى الله عنه:

لقد غزر علم الباقر، واتسعت رقعة تحصيله، وامتلأ صدره بما حفظه من مذخور آل البيت. وكبار الصحابة رضى الله عنهم، أمثال: جابر بن عبدالله وأبى سعيد الخدرى وأبى هريرة وأنس بن مالك، وابن عباس، وغيرهم.

وكان فى ذات تكوينه فائق النباهة؛ عميق الفهم، ذكى الفؤاد، شديد الحساسية، دقيق التعبير، فأتت أقواله فى الفقه وعلم الحديث على مستوى عال. واختلجت مشاعره وجوارحه بما فهم وعلم، فنطق بالحكمة. فمن أقواله رضى الله عنه:

قال لابنه جعفر الصادق يعظه: إياك والكسل والضجر؛ فإنهما مفتاح كل خبيثة، إنك إذا كسلت لم تؤد حقا، وإن ضجرت لم تصبر على حق.

وقال: لكل شىء آفة، وآفة العلم النسيان.

وقال: أشد الأعمال ثلاثة: ذكر الله على كل حال، وإنصافك من نفسك، ومواساة الأخ فى المال.

وقال: اعرف مودة أخيك لك بما له فى قلبك من المودة، فإن القلوب تتكافأ.

وقال: ما من عبادة أفضل من عفة بطن أو فرج.

---

(١) فى (البرهان) أقوال كثيرة لدى أئمة التفسير غير هذا.

وقال: ما يرفع القضاء إلا بالدعاء، وأسرع الشر عقوبة البغى.

وقال: كفى بالمرء عيبا أن يبصر من الناس ما يعمى عليه من نفسه، وأن يأمر الناس بما لا يستطيع أن يفعله، وينهى الناس عما لا يستطيع أن يتحول عنه، وأن يؤذى جليسه بما لا يغنيه.

وسمع عصافير يصحن، فقال: أتدرون ماذا يقلن؟ فقالوا: لا. فقال: إنهن يسبحن الله ويسألنه رزقهن يوما بيوم. إنها تدعو الله بما يحب، وإذا وقع الذى تكره لم تخالف الله عز وجل فيما أحب.

بينه وبين الإمام أبى حنيفة النعمان رضى الله عنهما:

ودأب علماء الأمة على الاتصال بالباقر رضى الله عنه يزورونه ويحدثونه، ويستمعون إليه، ويحفظون عنه، ويروون؛ يتأثرون بمنهجه فى علمه وعبادته، وورعه وزهده، ونبل خلقه. يأتونه من كل قطر ومَصْر، من اليمن والعراق والشام ومصر.

منهم سفيان الثورى وسفيان بن عيينة والحكم بن عتيبة والأوزاعى وعطاء وعمرو بن دينار وابن شهاب الزهرى وغيرهم كثيرون.

وحدث مرة أن جاءه زائرا الإمام أبو حنيفة. وكان قد اشتهر عن أبى حنيفة أخذه بالقياس كثيرا، حتى تناولته الألسن بالملام. فقال له الباقر رضى الله عنه لائما معاتبا: أنت الذى حولت دين جدى وأحاديثه إلى القياس؟! فقال له أبو حنيفة رضى الله عنه: اجلس مكانك كما يحق لى؛ فإن لك عندى حرمة كحرمة جدك ﷺ فى حياته على أصحابه. فجلس الباقر رضى الله عنه، ثم جثا أبو حنيفة بين يديه؛ ثم قال: إنى سائلك عن ثلاث كلمات، فأجبنى.

* الرجل أضعف أم المرأة؟ قال الباقر: المرأة أضعف. فقال أبو حنيفة: كم سهم المرأة فى الميراث؟ قال الباقر: للرجل سهمان وللمرأة سهم. فقال أبو حنيفة: هذا علم جدك، ولو حولتُ دين جدك لكان ينبغى فى القياس أن يكون للرجل سهم وللمرأة سهمان، لأن المرأة أضعف من الرجل.

* ثم: هل الصلاة أفضل أم الصوم؟ قال الباقر: الصلاة أفضل. فقال أبو حنيفة: هذا قول جدك، ولو حولت قول جدك لكان على المرأة إذا طهرت من الحيض أمرتها أن تقضى الصلاة ولا تقضى الصوم.

* ثم: هل البول أنجس أم النطفة؟ قال الباقر: البول أنجس. فقال أبو حنيفة: لو كنت حولت دين جدك بالقياس لكنت أمرت أن يغتسل من البول، ويتوضأ من النطفة. ولكن معاذ الله أن أحول دين جدك بالقياس. فقام إليه الباقر وعانقه، وقبل وجهه.

لقد كان الباقر رضى الله عنه قمة علم، وذروة فضل، والفضل معرفة ذروة، ولم يجد فيما أذيع وأشيع عن أبى حنيفة ما يغض من علمه وفقهه، فقدره ووقره وعظمه فى قلبه وعينه، وعلى ملأ من الناس.

ونختم الحديث عن الباقر محمد بن على بن الحسين بن على رضى الله عنهم، بقوله المأثور: ما اغرورقت عين عبد بمائها إلا حرم الله وجه صاحبها على النار، فإن سالت على الخدين لم يرهق وجهه قتر ولا ذلة. وما من شيء إلا وله جزاء، إلا الدمعة، فإن الله تعالى يكفر بها بحور الخطايا، ولو أن باكيا بكى من خشية الله فى أمة، رحم الله تلك الأمة.

* * *

السجاد

على بن عبدالله بن عباس

رضى الله عنهم

(٤٠ - ١١٨ هـ)

كان على فى غاية العبادة والزهادة والعلم والعمل، وحسن الشكل والعدالة والثقة، كان يصلى فى كل يوم وليلة ألف ركعة.

ابن كثير

كان إذا قدم مكة حاجا أو معتمرا عطلت قريش مجالسها فى المسجد الحرام، وهجرت مواضع حلقها، ولزمت مجلسه إعظاما له، وإجلالا وتبجيلا، فإن قعد قعدوا، وإن قام قاموا، وإن مشى مَشوا معه جميعا، حوله، ولا يزالون كذلك حتى يخرج من الحرم.

هشام بن سليمان المخزومى

عليٌّ مات، وعليٌّ وُلد

أما الذى مات ، فهو على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، مات شهيدا فى الكوفة ليلة السابع عشر من شهر رمضان سنة أربعين للهجرة ، على يد الخارجى عبدالرحمن بن ملجم . وأما الذى ولد فهو على بن عبدالله بن عباس رضى الله عنهم ، وفى نفس اليوم .

غيبت الأرض شهيدا له السابقة ، وله الفضل ، وله البلاء الحسن ، وله من رسول الله ﷺ الذرية الطاهرة ، والعترة الزكية . وأنبتت غلاما زكيا ورث عن أبيه العلم والتقوى ، والمنزلة الكريمة ، والمكانة والسؤدد . أقيمت صلاة الظهر ، يوم السادس عشر من شهر رمضان ، وأمَّ على - رضى الله عنه - المصلين الذين غص بهم المسجد الجامع فى الكوفة . فلما سلم ، واستغفر وذكر سأل : ما بال ابن العباس لم يحضر الظهر؟ وقد ظن فى الأمر سوءا . فقيل له : ولد له مولود ، فانشغل به . فقال على رضى الله عنه لبعض أصحابه : امضوا بنا إليه ، نبارك له ، ونهنئه . فلما أتاه هنأه ، وقال : شكرت الواهب ، وبورك لك فى الموهوب يا أبا العباس ، ما سميته؟ فقال ابن عباس رضى الله عنهما : أويجوز أن أسميه حتى تسميه أنت؟ ثم أمر بالمولود فأخرج فى لفافته ، فأخذه على رضى الله عنه واحتضنه ، ثم حنكه[1] ودعا له ، ثم رده إلى أبيه وقال : خذ إليك يا أبا الأملاك ، قد سميته عليا وكنيته أبا الحسن .

أصغر الأبناء وأكثرهم نجابة:

وكان لابن عباس عدة من الأولاد ، ذكرانا[2] وإناثا ، لكن عليا كان أصغرهم ، وأحبهم إلى قلبه . وعاش على فى كنف أبيه عبدالله يحظى بحبه وعلمه ، ويغترف من معين فضله وخلقه ، ويتأسى به فى سلوكه ونهجه ؛ فورث عنه رفيع الصفات وكريم المزايا والسمات . فلما أسن عبدالله ، وتقدم به العمر ، أصيب فى عينيه ، فكان على ولده هو عصاه التى يتوكأ عليها ، ويهتدى فى سيره بها .

ومن طريف ما يروى أن الأطباء نصحوا ابن عباس بإزالة الماء من عينيه ، كى تذهب عنهما الغشاوة ، ويستعيد وضوح الرؤية ، ولكنهم اشترطوا عليه أن ينقطع عن الصلاة سبعة أيام ، حتى يتم الشفاء ، فقال لهم : لا ، إنه من ترك الصلاة وهو يقدر عليها ، لقى الله وهو عليه غضبان ، وأنشد :

إن يأخذ الله من عينى نورهما ... ففى لسانى وسمعى منهما نور
قلبى ذكى وعقلى غير ذى دخل ... وفى فمى صارم كالسيف مأثور

السجاد

وتأثر على بما سمع من أبيه ، فى الصلاة وغيرها من العبادات ، واختزن فى واعيته واسع علم أبيه ومعرفته ، فكان من بعده أكثر أبنائه حفاظا على تراثه ، يرويه عنه ، ويحدث به ، وينقله إلى الناس ، غير أن عليا رضى الله عنه كان فى موضوع الصلاة أكثر تأثرا ، وأشد استمساكا . تنقل مع

---

(١) حنكه : مضغ تمرة ، ثم لاك بها حنك المولود .

(٢) كان له عشرة من الأبناء الذكور .

أبيه فى مختلف الديار والأمصار، وأخيرا استقر بالطائف؛ فلما توفى عبدالله نزح على عنها إلى المدينة وأقام بها.

وكان المسجد النبوى الشريف مهوى قلبه وفؤاده، وقليلا ما يفارقه، فلا يرى فى المسجد إلا متعلما أو معلما، أو قائما فى صلاة، راكعا وساجدا. حتى اشتهر بين الناس بلقب: السجاد.

ذو الثفنات

وعرف على رضى الله عنه بهذا اللقب. ومعنى الثفنات: ما يقع على الأرض من أعضاء البعير، لكثرة سجوده.

والصلاة عامود الدين. وأول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة. وليس بين المؤمن والكافر إلا ترك الصلاة. وهى معراج المؤمن. وهى الصلة بين العبد وربه. لكل هذه التداعيات والمعانى كانت الصلاة ديدن على بن عبدالله بن عباس رضى الله عنهم، فروى كثير من المؤرخين والمحدثين والمترجمين أنه كان يصلى فى كل يوم وليلة ألف ركعة.

وروى أنه عند إقامته بالحميمة من بلاد الشام، كان عنده بستان زيتون، يحوى خمسمائة شجيرة، فكان يصلى عند كل أصل ركعتين، فى كل يوم.

فى بيت الله الحرام

وكثيرا ما كان يأتى على إلى مكة المكرمة زائرا، حاجا أو معتمرا. وكان لحضوره دوى هائل.

إذ كان الناس يعطلون مجالسهم فى المسجد الحرام، ويهجرون حلقهم، ويتكوكبون حول على، معتبرين حضوره موسما، أو عيدا، أو مناسبة كريمة! يحدثنا بذلك هشام بن سليمان المخزومى، فيقول: إن على بن عبدالله كان إذا قدم مكة حاجا أو معتمرا، عطلت قريش مجالسها فى المسجد الحرام، وهجرت مواضع حلقها، ولزمت مجلسه إعظاما له وإجلالا وتبجيلا، فإن قعد قعدوا، وإن قام قاموا، وإن مشى مشوا جميعا حوله، ولا يزالون كذلك حتى يخرج من الحرم.

الطويل الوسيم

صفتان خلقيتان كانتا مما يميز على بن عبدالله، فقد كان فارع الطول، مفرطا فيه، يبدو لمن يراه فى الطواف كأنه راكب بعيرا والناس من حوله مشاة.

اكتسب ذلك عن أبيه عبد الله وجده العباس وراثة.

فيقال إن عجوزا من المسلمين نظرت إلى على وهو يطوف، وقد فرع [١] الناس طولا فقالت: من هذا الذى فرع الناس؟ فقيل لها: إنه على بن عبدالله بن عباس. فقالت: لا إله إلا الله، إن الناس ليرذلون [٢]، عهدى بالعباس يطوف بهذا البيت كأنما هو فسطاط أبيض (أى أكثر بروزا وظهورا من حفيده).

---

(١) فرع: علا.

(٢) يرذلون: يتقاصر اللاحق عن السابق.

وكان رضى الله عنه جسيما وسيما . . فى قسمات وجهه جمال باد، وحسن رائع، حتى قيل إنه كان أجمل قرشى على وجه الأرض وأوسمهم على الإطلاق.

وبذا تكاملت الصفات الخِلْقية والخُلقية فى شخص على رضى الله عنه.

أبو محمد

كان الفرع العباسى الهاشمى يهادن إلى حد ما سلطان الأمويين. وغير راغب فى النزاع على السلطة، خصوصا بعد استشهاد الإمام على كرم الله وجهه. فقد اتصل ابن عباس بمعاوية، الذى كرَّمه ورحب به وأدناه، ووصله بالعطاء. ولقد حاول ابن عباس أن يمنع الحسين من الخروج، وتعلق بثيابه؛ لكن الحسين رضى الله عنه كان قد أزمع على الشهادة. فلم يستجب، لا إلى ابن عباس ولا إلى غيره من الناس.

وعلى هذا النمط من السلوك السياسى كان نهج على بن عبدالله. وصادف مرة أن زار عبدالملك بن مروان، فأكرمه وأجلسه معه على سريره[١]، ثم سأله عن كنيته ليناديه بها، من قبيل التحبب والتكريم، فقال على: أبو الحسن. فأمتعض عبدالملك وظهر الجفاء على محياه، ثم قال: لا يجتمع فى عسكرى هذا الاسم وهذه الكنية لأحد[٢]. ثم سأله: هل لك من ولد؟ قال على: نعم، فقد ولد لى ولد أسميته محمداً. فقال له عبدالملك: إذاً أنت أبو محمد.

أبو الأملاك

ومن ذرية محمد الذى تكنى به على بن عبدالله كان السفاح والمنصور، اللذين أسسا ملك بنى العباس، وأقاما دولتهم.

فمنذ أن عرف على أن الإمام عليا هو الذى سماه، وكناه، وحنكه، وأنه ناوله إلى أبيه عبدالله قائلا: خذ إليك يا أبا الأملاك، منذ ذلك الحين وجرْس كلمة الأملاك تضج فى أذنيه ووجدانه، ولا تفارق تطلعاته.

وهو رغم تعبده ونسكه، وعزوفه عن السياسة، تراوده بين الحين والآخر كلمة الأملاك، فيتنبأ بها على الملأ، ويذكرها كأنها حقيقة واقعة، لا معدى عنها، ولا مناص منها؛ وقد جرَّت عليه المصاعب والمتاعب، والهوان.

ضربُ الوليد بن عبدالملك لعلى

ولقد حدث الضرب لعلى مرتين فى عهد الوليد بن عبدالملك، ظلما وعدوانا. أما المرة الأولى فقد كان عبدالملك بن مروان متزوجا من لبابة بنت عبدالله بن جعفر بن أبى طالب. . وكان عبدالملك أبخر، كريه رائحة الفم، وكانت لبابة تنفر من رائحة فمه، وتطلب إليه أن يستاك، فيؤلمه ذلك ويؤذيه، وحدث مرة أن أكل بعضا من تفاحة ثم رمى بها إلى زوجته لبابة، كى تأكل، فأمرت جارية لها أن تأتيها بسكين، فسألها عبدالملك عما تريد من السكين؛ فقالت: أريد أن أزيل عنها الأذى. . (أى مكان قضمة فمه). عندئذ طلقها عبدالملك. وبقيت فى دمشق؛

(١) السرير (سرير الملك)؛ وهو المقعد الواسع الوثير.

(٢) كرها منه لاسم على، وكنيته «أبى الحسن».

وكانت من ربات الحسن، فصيحة، أريبة، لبيبة. فلما علم على بأمرها، وما حل بها أتى دمشق، فعرض عليها الزواج منها، فقبلت. ومن هنا كانت غضبة الوليد بن عبدالملك، إذ تصور أن عليا إنما أراد الزواج من لبابة ليضع قيمة الخلفاء، ويقلل من مكانتهم، ويحقرهم. فأمر به فأتى، وقال له - وهو يضرب فى مجلسه: إنما أردت أن تتزوج بأمهات الخلفاء لتضع منهم. فقال على: الأمر غير ذلك، إنما أرادت الخروج من هذا البلد - دمشق - وأنا ابن عمها، فتزوجتها لأكون لها محرما.

وهناك سبب آخر لغضبة الوليد.. فقد حدث أن عبدالملك بعد أن طلقها أمر جارية له أن تذهب إليها، وتحتال فى الكشف عن رأس على لتبدو صلعته، فلعلها تكره منظره، وتحن إلى أيام عبدالملك، وفعلت الجارية ما أمرها به سيدها. فلما رأت لبابة ذلك، أدركت الغرض، فقال للجارية: قولى لسيدك. هاشمى أقرع أحب إلى من أموى أبخر.

أما المرة الثانية التى ضرب فيها وعزر فقد كانت أشد فحشا وإيذاء من الأولى. يقول محمد بن شجاع: رأيت على بن عبدالله يوما مضروبا بالسوط، يدار به على بعير، ووجهه مما يلى ذنب البعير، وصائح يصيح عليه يقول: هذا على بن عبدالله الكذاب.

فأتيته وقلت له: ما هذا الذى نسبوك فيه إلى الكذب؟ قال: بلغهم عنى أنى أقول: إن هذا الأمر (أى الخلافة والسلطان) سيكون فى ولدى. ووالله ليكونن فيهم، حتى يملكهم عبيدهم، الصغار العيون، العراض الوجوه، كأن وجوههم المجان المطرقة[1].

هذا الهاجس، هاجس الخلافة، ظل يتفاعل فى عقل على الباطن ردحا من الزمن، لا ينفك عنه ولا يفارقه، حتى إنه كان يحدث به فى كل صقع وناد.

وكان الوليد يتأثر بما يسمع عن على فيغضب، ويظن فيه إثاره الناس على بنى مروان؛ فاتهمه بالخَبَل والجنون، والافتراء الكاذب، ثم أمر بضربه ليرتدع، ويكف عما يهذى به.

وحددت إقامته. فاتخذ من الحميمة سكنا؛ وامتلكها، وهى قرية صغيرة[2] تقع قريبا من الشوبك فى البلقاء - الأردن - ، فى طريق الذاهب من المدينة إلى دمشق. وكان ذلك سنة خمس وتسعين هجرية.

وفيها كان مولد حفيديه أبى عبدالله السفاح، وأبى جعفر المنصور، من ولده محمد. وفيها ترعرعا وشبا. حتى بلغا أشدهما، ومنها انطلقا فى دعوتهما إلى تقويض سلطان بنى أمية، وأفلحا.

على وهشام بن عبدالملك

وظل علىّ على تواده وتواصلة مع الأمويين بعد وفاة الوليد، مع سليمان وعمر بن عبدالعزيز، حتى كانت خلافة هشام بن عبدالملك. وهو لا يزال عند هاجسه الذى لم يفارقه؛ والكل يرى فى ظنه هذا نوعا من الهوس، أو الهذيان، أو التخريف. فلا يلقون إليه بالا، ولا يعطونه اهتماما، أكثر من رِفْقهم بصاحبه، وعطفهم عليه.

(١) عبيدهم: الترك من أهل المشرق، وهم فرع مغولى، صغار العيون، عراض الوجوه

(٢) مزرعة، أو عزبة.

أتى دمشق زائرا كعادته. ودخل على هشام بن عبدالملك، ومعه حفيداه السفاح والمنصور، وكانا في أول شبوبهما، وعنفوان صباهما.

فأوسع له الخليفة هشام على سريره، وأجلسه معه، ثم سأله عن حاله، فاشتكى دينًا عليه مقداره ثلاثون ألف درهم، لا يجد سبيلا إلى وفائه. فأمر الخليفة هشام بن عبدالملك بوفاء الدين، وقضاء حاجة على بن عبدالله، ثم سأله: وهل من أمر بعد ذلك يا أبا عبدالله؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين. تستوصى بابنى هذين خيرا. فقال هشام: نفعل ذلك إن شاء الله تعالى. وماذا بعد يا أبا عبدالله؟ فقال: أن تصل رحمى. قال هشام: نحن مأمورون بذلك. ثم استأذن على بالانصراف، شاكرا للخليفة هشام حسن لقائه ووفائه. فلما قارب باب الديوان، قال هشام لجلسائه - وهو يظن أن عليا لا يسمعه -: إن هذا الشيخ قد اختل وأسن وخلط، فصار يقول: إن هذا الأمر سينتقل إلى ولده، فالتفت إليه على وقال: نعم. يا أمير المؤمنين. والله ليكونن ذلك، وليملكن هذان. فتبسم هشام، ولم يزد على ذلك.

وفاته رضى الله عنه

ومع إطلالة العام الثامن عشر بعد المائة من الهجرة النبوية الشريفة كان على بن عبدالله بن عباس رضى الله عنهم يقترب من نهاية العقد الثامن من عمره. وقد أضعفت الأيام قواه، ونالت منه، وما لبث أن توفاه الله تعالى إليه. رضى الله عنه وأرضاه وجعل الفردوس الأعلى مثواه.

* * *

إياس بن معاوية

رضى الله عنه

(٤٦ـ ١٣٢هـ)

قال إياس بن معاوية:

لأن يكون فى فِعال الرجل فضل عن مقاله

خير من أن يكون فى مقاله فضل عن فِعاله.

طفولة ونبوغ:

منذ يفاعته فى صغره تفجرت عبقريته وتجلى ذكاؤه، وأضحى موضع اهتمام الأقارب والأباعد فى أهله وعشيرته وقبيلته مضر؛ إذا نطق فالحكمة على لسانه، والكلمة فصل مقال، مع حضور بديهة عجيبة، وفراسة ما بعدها فراسة. يحدثنا عن واقعة جرت له فى الكُتَّاب الذى تلقى فيه مبادئ العلم، فى مختلف الفنون.

كان يدرس الحساب على يد رجل من أهل الذمة، وكان له رفاق منهم، يدرسون معه، فسمعهم ذات يوم يتقولون ويضحكون، ويتحدثون ويسخرون، بأن المسلمين ويخرفون ويزعمون أن أهل الجنة لا يتغوطون، فإلى أين ينتهى خبثهم؟! والمدرس يوافقهم على ما يرددون، فاغتاظ لذلك، وطلب إلى المدرس - مستأذنا - أن يرد عليهم جميعا، فأذن له فى تحدٍّ، مستصغراً شأنه.

فقال إياس: أسألك هل كل ما نأكله يتحول إلى براز؟ فقال المدرس: كلا. فسأله إياس: فأين يذهب بعضه؟ قال المدرس: إلى غذاء للجسم. فقال إياس: إذًا ما وجه الإنكار فى أن يحول الله تعالى كل طعام أهل الجنة إلى غذاء؟ فبهت الجميع، وخرست ألسنتهم فما نطقوا بحرف.

فى ساحة القضاء:

ولقد تنقل إياس مع أهله بين نجد والعراق والشام فى ترحال وتجوال، ومن ثم استقر فى العراق، الذى شهد شبابه ورجولته وكهولته، ثم وفاته فيه.

وحدث له وهو فى الشام - أمام عبد الملك بن مروان - أن نازعه شيخ كبير فى حق له، وكان إياس فى أولى مدارج شبابه، فاشتكى الشيخ إلى القاضى.

وبين يدى القاضى وقف إياس، يدلى باتهامه للشيخ، ويروى قضيته معه، وغمطه حقه، ثم استمع القاضى إلى أقوال الشيخ الذى أصر على إنكاره وكذبه وافترائه.

وهنا ارتفع صوت إياس وعلا. فقال له القاضى: الزم حدود الأدب فى مجلس القضاء، ولا ترفع صوتك، واعلم أن خصمك شيخ كبير. فقال إياس فى هدوء وثقة: ولكن الحق أكبر منه ياسيدى. فتغيظ القاضى من رد إياسٍ المفحم، وقال له: اسكت. فرد إياس: ومن الذى يدلى عنى بقضيتى وحجتى إذا أنا سكتُّ. فتضايق القاضى، وازداد غضبا من إياس، وقال: ما سمعت منك منذ أن دخلت على حتى الساعة إلا باطل القول: فقال إياس: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أحق هذا أم باطل يا سيدى؟

فسكت القاضى قليلا، وهدأ، ثم قال: حق حق لا مرْية فيه، ولكنى ما أظنك إلا ظالما لهذا الشيخ. وما أسرع ما قال إياس: ما على ظن القاضىَ شكوت هذا الشيخ، ولا يتأتى الحكم بالظن.

ولم يطق القاضى استمرار سماع الدعوى، فقام من مجلسه إلى ديوان الخليفة عبد الملك

وقص عليه ما حدث، وعرف أن إياس بن معاوية ـ الفتى ـ هو صاحب الخصومة، فقال للقاضى: لقد كان لى مع إياس هذا منذ فترة قريبة حادثة.. كنت فى زيارة للبصرة، فرأيت ذات يوم جماعة من القراء ذوى اللِّحى، وعليهم الوقار والمهابة، يتقدمهم فتى، فعجبت من ذلك وقلت: أفٍّ لأصحاب هذه اللِّحَى! أما فيكم شيخ يتقدمكم، فقدمتم هذا الفتى؟ ثم سألت الفتى: كم سنك يا فتى؟ فأجابنى: سني كسن أسامة بن زيد حين ولاه رسول الله ﷺ على جيش للمسلمين، فيه أبو بكر وعمر. فسكتُّ، ثم قلت: تقدم يا فتى. تقدم بارك الله فيك. وعرفت من بعد أنه إياس بن معاوية ـ المُزنى، وكنت قد بلوت أخباره ونوادره، وقوة حجته ومنطقه.

ولا يسعنى الآن إلا أن أقول لك: أنصفه، واقض حاجته، وأخرجه الساعة من دمشق لا يفسد علىَّ الناس.

فى البصرة:

وكانت البصرة مدرج حياته وشبابه، ومَغْنى رجولته ونضوجه، ومن ثم بروزه وتفوقه وشهرته. وفى كل مرحلة من تلك المراحل يزداد علما وفهما، وأكرِمْ به من علم مع نبوغ وحدة ذكاء، وعبقرية لا تضارع.

لقى ـ رضى الله عنه ـ جلّةً من صغار الصحابة وكبار التابعين ـ رضى الله عنهم ـ فأخذ عنهم، أمثال: أنس بن مالك وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب ونافع وغيرهم.

وتفقه وتوسع، درس وحفظ، ثم جلس للوعظ، فكانت حلقته فى مسجد البصرة تغص بالطلاب والدارسين، حتى أصبحت مدرسة قائمة بذاتها، ومنهلاً عذبًا، غزيرًا ثرّا، يؤمّها القاصدون من كل حدب وصوب، يغذون عقولهم ونفوسهم.

وكان بعض من يدعى العلم يأتيه للمماراة والجدل يريد إحراجه، فيقوم من المجلس وقد باء بالفشل والخسران، يجر أذيال الخيبة.

ولقد روى أن واحدًا من هؤلاء أتاه يومًا، وجلس يسمع، وكان درس إياس فى حرمة الخمر، فانتهض هذا المدعى من بين الحضور وسأل: يا أبا واثلة، أتقول فى المسكر إنه حرام؟ فأجابه إياس: أوفى ذلك شك؟ فقال السائل المدعى: وما وجه الحرمة؟ فأنا لا أراه إلا تمرًا وماءً غُليا على النار، وكل ذلك مباح ولا حرمة فيه. فقال له إياس: أفزعت من مقالتك أم عندك زيادة علَى ما تقول؟ فقال السائل: لقد فرغت، فهات ردك. قال إياس: لو أخذت كفا من تراب وضربتك به، هل كان يؤذيك؟ فقال الرجل: كلا. فَقال إياس: ولو قذفتك بقبضة من تبن فهل يصيبك مكروه؟ قال: كلا. فقال إياس: فلو أنى أخذت التراب، وعجنته بالماء والتبن، ثم سجرت العجينة بالنار أو فى لظى الشمس، حتى تحجرت، ثم ضربتك بها أكانت تؤلمك؟ فقال السائل: نعم. وربما تقتلنى. فقال له إياس: كذلك شأن الخمر، إذا ما جمعت أجزاؤه ثم خمر حرم. فسكت الرجل، ثم قام مسرعا، تشيعه سخرية الحضور السامعين.

حتى متى يتوالد الناس؟

وبينا هو فى مجلس درسه ووعظه ذات يوم إذ دخل الحلقة أيضا واحد من صنف أولئك

المدعين، فجلس يستمع، فلما قارب إياس من نهاية الدرس، وقد بدأ فى الختم بالدعاء، سأله الزائر الطارئ: يا أبا واثلة، حتى متى يبقى الناس؟ وحتى متى يتوالدون ويموتون؟ فأدرك إياس أن الرجل قدرى دهرى فى عقيدته، زنديق فى مذهبه، يريد التشكيك وبلبلة عقول الناس. فقال إياس لمن حوله: أجيبوه. فسكتوا جميعا، ونظر بعضهم إلى بعض فى دهشة وعجب، وظن السائل أنه قد بلغ رأيه وهدفه فتبسم، ولم يمهله إياس وقال له:

سيظل أمر الله تعالى فى خلقه نافذا، بين ولادة وحياة وموت حتى تتكامل العدَّتان. فسأله الرجل: أية عدَّتان يا أبا واثلة؟! فرد إياس: عدة أهل الجنة من المؤمنين، وعدةَ أهلَ النار من الكافرين المشركين والمنافقين أمثالك. وانفض المجلس، وقام الرجل من بينهم يمشى، وكأنه أصيب بدوار، يكاد يتعثر فى كل خطوة بسوء ما أصابه من الخزى.

قاضى البصرة

وذاع صيت إياس فى الناس عالمًا فذا وعبقرية من الذكاء، وخلقًا ساميًا وجرأة فى الحق، قولا وفعلا، شاع ذلك حتى طبق الآفاق.

وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - قد تسلم مقاليد الأمور، وأراد أن يختار للبصرة قاضيا يقيم العدل، وينصف فى أحكامه، ويعيد الحق إلى نصابه. فاستدعى إليه واليه على البصرة عدى بن أرطاة، وأخبره بما يريد، وأنه قد فكر طويلا فى اثنين من الرجال هما: إياس بن معاوية المزنى، والقاسم بن ربيعة الحارثى، وكلاهما جدير، فليجمعهما إليه، وليختبرهما، فمن وجده أولى من صاحبه كلفه بمنصب القضاء، وعهد إليه بأمر أمير المؤمنين.

وجمع عدى بن أرطاة الرجلين المرشحين من الخليفة لمنصب القَاضى، وقال لهما: إن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز - أطال الله بقاءه، وأيده بنصره - قد عهد إلىَّ أن أولِّى أحدكما قضاء البصرة، فماذا تريان؟ وبماذا تشيران؟

فآثر كل منهما صاحبه على نفسه، وذكر شمائله وخصائصه وعلمه وفقهه، مما زاد الوالى حيرة، ثم قال لهما: لا بد من الاختيار ولن تخرجا من مجلسى هذا حتى تقضيا فى الأمر وتحسماه.

فقال إياس: أيها الأمير، سل عنى وعن صاحبى فقيهىْ العراق: الحسن البصرى ومحمد بن سيرين، فهما أقدر الناس على التمييز بيننا، وهما موضع ثقة العامة والخاصة من الناس.

واستدرك القاسم على كلام إياس، وتنبه إليه، وعرف أنه يريده؛ إذ كان القاسم على معرفة تامة وواسعة بالفقيهين المذكورين، يزورهما ويزورانه. أما إياس فكان منقطعا عنهما ولا صلة له بهما، فلو استشارهما الأمير عدى أشارا بالقاسم. فقال للأمير: لا تسل أحدًا عنى وعن صاحبى، فوالله الذى لا إله إلا هو إن إياسًا أفقه منى وأعلم وأكثر تضلعا فى دين الله، وأدرى بالقضاء. فإن كنت كاذبا فى قسمى ويمينى فإنه لا يجوز لك أن تولى كاذبا، وإن كنت صادقا فلا يجوز لك أن تعدل عن الأفضل إلى المفضول.

وهنا تجلى ذكاء إياس، فقال: أيها الأمير، لقد جئت برجل ودعوته إلى القضاء، فأوقفته على شفير جهنم، فنجى نفسه منها بيمين كاذبة، يستغفر الله منها ويكفر عنها، وينجو بنفسه مما يخاف. فنظر الأمير عدى بن أرطاة إلى إياس، وقال: إن من يفهم مثل فهمك هذا لجدير بمنصب القضاء، وهو أولى به، ثم ولاه قضاء البصرة.

نماذج من أحكامه وأقضيته

تخاصم لديه اثنان من الناس، فادعى أحدهما على الآخر أنه أودع لدى خصمه مبلغا من المال، فلما طالبه به أنكر الآخر، فقال إياس للمدعى: أين أودعته المال؟ فقال: سلمته له فى ضاحية البصرة. فسأله: وما علامة ذلك؟ قال: عند شجرة وارفة كنا قد جلسنا نستظل بها. فقال له إياس: اذهب إلى تلك الشجرة وأتنى ببعض ورقها. وقال للآخر: اجلس مكانك حتى يعود صاحبك، فجلس ومضى المدَّعى كمَا طلب إليه إياس، ثم إن إياسًا شغل نفسه بما بين يديه من دعاوى، وكان بين الحين والآخر ينظر من طرف جفنه إلى المدعَى عليه، يرقبه ويلاحظه، ثم سأله: ترى هل وصل صاحبك إلى مكان الشجرة؟ فأجاب بعفوية: كلا يا سيدى القاضى. فقال له إياس: قم يا عدو الله وأدِّ إلى صاحبك حقَّه.

وتحاكم لديه اثنان فى جارية باعها أحدهما للآخر، وكانت ضعيفة العقل، وقد طالب المشترى بردها إلى صاحبها، واستعادة ماله، فأبى عليه البائع، ثم أتىَ بالجارية، كما طلب إياس، فسألها: أى رجليك أطول؟ فقالت: هذه، وأشارت إلى إحداهَما. ثم سألها: أتذكرين ليلة ولدت؟ فأجابت بعفوية: نعم. فقال إياس للبائع: رد.. رد.

وجاءه رجل، فقال: إنى أودعت مالا لى عند فلان، وكنت على سفر، فلما عدت طلبت المال فأنكر على، وكان هذا الرجل قد أشتهر بين الناس بالصلاح والتقوى.

فقال إياس للمدعى: اذهب الآن وائتنى غدا. فذهب، ثم أرسل القاضى إياس إلى الغريم حاجبا من عنده يقول له: إنه قد اجتمع عندنا مال، فلم نر له أمينا نضعه عنده إلا أنت، فإذا كان يوم الغد فائت القاضى وتسلم الوديعة. مرَّ الرجل وقال: سمعا وطاعة. ثم إن إياسًا بعث بالمدَّعى فى اليوم التالى إلى غريمه، وقال له: قل لغريمك: أعطنى مالى وإلا شكوتك إلى القاضىَ.

ففعل، وبادر الغريم خائفا إلى دفع الأمانة إلى صاحبها حتى لا يظن القاضى به سوءا فيحجم عن الإيداع عنده. ثم حضر إلى مجلس القضاء رجاء تسلم الودائع، فنهره إياس، وذكَّره بما كان منه، ثم طرده وهو يقول له: أنت خائن أنت خائن.

فراسته:

وكان إياس بن معاوية ـ رحمه الله ورضى عنه ـ إلى جانب حدة الذكاء، وحضور البديهة، شديد الملاحظة، دقيق النظر، وعلى فراسة عجيبة.

دخلت مجلسه فى يوم ثلاث نسوة، وجلسن غير بعيد ينتظرن دورهن فى التقاضى. فلما فرغ

مما كان يشغله وطلبهن للمثول بين يديه، قال لهن: إحداكم مرضع، وثانيتكما ثَيِّب، وثالثتكن بِكْر. أليس كذلك؟ فنظرن إلى بعضهن في دهشة، قلن: هذا صحيح، ولكن كيف عرفت ذلك يَا سيدنا القاضى. فقال: أما أنت أيتها المرضع فكنت دائما تمسكين ثديك بيدك ولا تكفِّين عن ذلك، وأما أنت أيتها الثيب فكنت دائمة النظر إلى كل من دخل علينا من الرجال. أما أنت أيتها البكر فلم تلتفتى إلى أحد.

التقى الورع:

قال رضى الله عنه: «ما يسرنى أن أكذب كذبة يطلع عليها أبى (معاوية). فكان منذ صغره إلى أن توفى يتحرَّى الصدق، حتى ولو على نفسه.

وقال الأعمش: دعونى إلى إياس، فإذا رجل كلما فرغ من حديث أخذ فى آخر، وقال فى مجلسه هذا: كل رجل لا يعرف عيب نفسه فهو أحمق. فقيل له: ما عيبك أنت؟ فقال: كثرة الكلام.

ومع كثرة كلامه - إن عد ذلك عيب - فإنه كان بعيدا عن اللغو والفحش والثرثرة، والشاهد على ذلك رده على أحد الذين عابوا عليه كثرة الكلام.

قال له أحدهم: ليس فيك عيب سوى كثرة كلامك. فقال له إياس: بحق أتكلم أم بباطل؟ فقال: بل بحق. فقال له إياس: كلما كثر الحق فهو خير.

وعندما توفيت أمه بكى، وكثر ذلك منه، فلامه بعضهم، فقال لهم: كان لى بابان إلى الجنة مفتوحان، وقد أغلق أحدهما. أفلا أبكى وأكثر؟!

وذكر عند إياسَ أخذ الناس بسوء غيبةٌ، فقَال للمغتاب: أغزوت الروم؟ فقال: لا. فقال له إياس: أتسلم منك الروم والسند والهند والترك ولم يسلم منك أخوك المسلم؟!

وقال له بعض الناس: إن فيك خصالاً لا تعجبنى! فسأله إياس: وما هى؟ قال المعترض: أولا تحكم قبل أن تفهم(١). وثانيًا لا تجالس كل الناس، وثالثًا تلبس الثياب الغليظة. فنظر إليه إياس فى هدوء، ثم قال: يا صاحبى، أيهما أكثر الثلاثة أو الاثنان؟ فرد الرجل بسرعة: الثلاثة طبعا. فقال إياس: ما أسرع ما فهمت فأجبت. فقال المعترض: أو يجهل ذلك أحد؟ فقال إياس: وكذلك ما أحكم به أنا.

وأما مجالستى لكل أحد فلأن أجلس مع من يعرف لى قدرى أحب إلى من أن أجلس مع من لا يعرف لى قدرى. وأما الثياب الغلاظ فأنا ألبس منها ما يقينى(٢) لا ما أقيه أنا.

الحق: حق أن يتبع:

وحدثنا عن نفسه فقال: ما غلبنى أحد قط سوى رجل واحد؛ وذلك أنى كنت فى مجلس القضاء بالبصرة، فدخل على رجل، فشهد عندى أن البستان الفلانى هو ملك فلان، وحدده

---

(١) المراد: السرعة فى الأحكام.

(٢) يقينى: يحفظنى.

لى. فأردت أن أمتحن شهادته، قلت له: وكم عدد شجر هذا البستان؟ فأطرق قليلا، ثم رفع رأسه، وقال: منذ كم يحكم سيدنا القاضى فى هذا المجلس؟ فقلت: منذ كذا سنة. فقال: كم عدد خشب سقف هذا المجلس؟ فلم أعرف، وقلت: الحق معك. ثم أجزت شهادته.

تلكم الشخصية:

تلكم الشخصية بكل ما توافر فيها من عناصر الألمعية والنبوغ والشهرة الواسعة، خطَّتْ فى سجل الخالدين ذكرها الطيب، وأثرها الحميد وجعلتها أنموذجا يقتدى ويحتذى به على مر العصور والدهور، ويضرب بها المثل.

فقد قال أبو تمام فى مدح أحمد بن المعتصم:

إقدام عمرو فى سماحة حاتم   فى حلم أحنف[1] فى ذكاء إياس

* * *

(١) عمرو بن معد يكرب الزبيدى، وحاتم الطائى، والأحنف بن قيس.

محمد بن واسع

زين الفقهاء وعابد البصرة

رضى الله عنه

(... ـ ١٢٣ هـ)

قال مالك بن دينار رضى الله عنه:

للأمراء قراء، وللأغنياء قراء،

وإن محمد بن واسع لمن قراء الرحمن.

من ذلك الفتى؟

على مدى عقود من السنين طوال كانت البصرة أهم المدن التى اختطَّها المسلمون فى العراق، بداية من إنشائها فى خلافة الفاروق عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ حتى عصور متأخرة من العهد العباسى . وكانت أكبر قاعدة عسكرية يحتشد فيها الجند التى تحتاج إليها الجيوش، من أموال وعتاد وسلاح، ومؤن وذخيرة . فنزلها بسبب ذلك العدو الوفير من أبناء القبائل ينضمون إلى الجيوش الزاحفة، جهاداً فى سبيل الله، ونصراً للدين الحنيف، ورفعًا لراية الإسلام .

وتتابع عليها كثير من صحابة الرسول ﷺ فأقاموا بها، وكذلك استوطنها التابعون، فكانت إلى جانب مركزها العسكرى والاجتماعى مركزاً من مراكز العلم الكبرى، بل من أهم المراكز بعد مكة المكرمة والمدينة المنورة، وظهر فيها نوابغ العلماء، وأعلام الهداة إلى الله . وراحت مساجدها تغص بحلقات العلم، وازدهرت تلك الحلقات بنماذج راقية من المعلمين والطلاب، على حد سواء .

وكان من بين أولئك الطلاب فتى رقيق الجسم، نحيل البدن، حاد الذكاء، قوى المنطق، فصيح اللسان، بيِّن الحجة، لا يفارق الصحابى الجليل أنس بن مالك رضى الله عنه، يأخذ عنه، ويحفظ منه، حتى عد خلال سنوات قلائل سيداً من سادات الحديث .

أضف إلى ذلك نفسا مشبوبة بالورع والزهد والتقوى وضاءة بالعزوف عن الحياة الدنيا، بمباهجها وزخارفها وزينتها، حتى أصبح على مفردا .

إنه محمد بن واسع الأزدى، أبو عبد الله رضى الله عنه .

الصلة بالله تعالى.. وصلة الحكام:

رقت نفس محمد بن واسع وشفَّت شفوفًا عاليًا، وتنزهت عن كل صلة إلا الصلة بالله تعالى، فكان مباركا فى قوله وعلمه، منطقًا وسلوكًا . وأبى على نفسه أن تقبل أدنى شبهة، تحوطًا وخشيةً، فما عند الله خير وأبقى .

ويذكر أن الخليفة فى دمشق أرسل مالاً إلى والى البصرة كى يوزعه على فقراء أهلها، والمحتاجين والمعوزين وأهل العلم، وخص بالذكر محمد بن واسع . إلا أن محمداً ـ رضى الله عنه ـ رفض العطاء، وشكر الخليفة . وكان التابعى الجليل مالك بن دينار أحد الذين وصلهم الخليفة، فقبل العطاء، لكنه لم ينفقه على نفسه، بل اشترى به رقيقًا وأعتقهم تقربًا إلى الله تعالى .

وعلى الرغم من هذا التصرف الكريم فإن محمد بن واسع أتى مالكًا معاتبًا لائمًا ناعيًا عليه قبوله جوائز السلطان، وقال له مستنكرا : يا مالك، قبلت جوائز السلطان؟! فرد مالك : يا أبا عبد الله، سل أصحابى ماذا فعلت به؟ وكانوا جلوسا عنده، فسألهم ابن واسع، فقالوا : إنه اشترى به رقابًا فأعتقهم . فقال محمد بن واسع : علمت ذلك، وتأكدت من قولكم، ولكنى

أريد أن أسأل مالكًا : أستحلفك بالله ، أقلبك الآن لهم ـ أي لذوى السلطان ، مثل ما كان قبل أن يصلوك ، أم أنه لان ومال؟ عند ئذ قام مالك وحثا على رأسه التراب ، وقال : إنما يعرف الله ـ تعالى ـ محمد بن واسع ، وراح يردد : إنما مالك حمار ، إنما مالك حمار(١) .

هذه الحساسية المفرطة ، وهذه الدقة والرقة كانت ديدن محمد بن واسع ـ رضى الله عنه ـ حتى قيل عنه : زاهد البصرة وعابدها . وهى التى جعلته يرفض منصب القاضى ، حين أرادوه له ، وعرضوه عليه ، وأجابهم فى حينه : أول منى يدعى يوم القيامة إلى الحساب القضاة . وهى التى أهلته لأن يشهد له مالك بن دينار ـ رضى الله عنه ـ فيقول : للأمراء قراء(٢) ، وللأغنياء قراء ، وإن محمد بن واسع لمن قراء الرحمن . ومالك ـ رضى الله عنه ـ هو من هو فى بعد صيته وشهرته ، علما وتقوى .

المجاهد فى سبيل الله:

لم تكن هذه الزهادة ، ولم يكن هذا الورع ، ليقعدا بمحمد بن واسع عن خوض ميدان الجهاد ، والانضواء فى صفوف الجند تحت ظلال السيوف . وها هو فى جيش المسلمين الزاحفين إلى أواسط آسيا وأقاصيها ، تحت قيادة القائد الظافر قتيبة بن مسلم ـ رحمه الله ـ وها هو الجيش ينطلق من مرو فى خرسان إلى بخارى فى سمرقند ، ترتفع أعمدة النقع(٣) فوق الرءوس كأنها السحب ، من جراء سنابك الخيل ، وأدوات الحرب من مجانيق وغيرها .

وما كاد قتيبة يعبر بقواته نهر سيحون حتى دب الصريخ فى بخارى كلها ، واحتشد أهل البلاد من الصغد والترك وغيرهم ، فى جموع هائلة كثيفة ، ليردوا عنهم نازلة المسلمين . وأخذوا عليهم شعاب الجبال ، وممرات الوديان ، وأحاطوا بهم من كل مكان ، وسدوا عليهم المنافذ والطرق .

واضطر قتيبة أن يعسكر بجيشه عند مدينة بيكند ، ريثما يتضح له الموقف ، ويفكر فى خطة مناسبة للقتال ، وإزاحة هذا السد الذى واجهه على غير انتظار . وبدأت المناوشات : فكانت سرايا العدو تنزل إلى قريب من معسكر قتيبة فى كر وفر ، فتُناوش الأطراف ، ثم ترتد مع قدوم الليل إلى حصونها المنيعة فى أعالى الجبال وذراها .

واستمر الحال على هذا المنوال طيلة شهرين ، وكان قتيبة قد أنذر المسؤولين فى دمشق بالواقع المحير ونُذُره . وتطايرت الأنباء فى شتى الديار ، واستنفر الناس للنجدة ، وهبت الجموع تتدفق على قتيبة وجيشه من كل مكان ، دعمًا وتأييداً ورغبة فى النصرة والجهاد .

وكان العابد الزاهد ، طليعة الأصفياء الأتقياء محمد بن واسع ـ رضى الله عنه ـ فى مقدمة من جاءوا ، لم يقعد به ضعف بنيته ، ولا خوار جسمه ، عن تلبية الداعى ، فانطلق إلى الميدان . كان قلبه المفعم بالتقوى ، وروحه الجياشة بالإيمان يحملان جسمه العليل ، وبدنه الكليل .

(١) البداية والنهاية ج : ٩ ، ص ٣٧١ .
(٢) قراء : علماء مقربون .
(٣) النقع : الغبار .

وسعد الجند والقائد بوجود محمد بن واسع بينهم، ومعهم، لا لفروسيته وبطولته، ولكن للبركة التى يحملها بين ضلوعه، وخالص دعائه الذى لا يرد.

تيذر:

ومن يكون تَيْذَر هذا؟ وما دوره؟ وما سبب ذكره هنا؟!

كان أعجميا، فأسلم، ثم دخل فى جند قتيبة، وكان أريبًا، واسع الحيلة والمكر، شديد الدهاء، فاستخدمه قتيبة عينًا له على أعدائه، فأدى مهمته فى تفان ومهارة.

حتى كان يوم بيكند: إذ استماله الأعداء، وأغروه بالمال، وأيقظوا فى أعماقة عنصريته، وأعجميته السابقة، وطلبوا إليه أن يعمل على توهين المسلمين، وخداع قائدهم قتيبة ليرحل عنهم، فاستجاب لهم، ونسى ما قدمت يداه من عهد مع الله تعالى بالإسلام، وارتد. ودخل على قتيبة ذات يوم، وعلامات الجد بادية على مُحَيَّاه، وفى عينيه ملامح خير، حتى إذا أجلسه قتيبة بجانبه مال عليه تيذر وهمس له: أخل مجلسك أيها الأمير إذا شئت. فأدرك قتيبة أن تيذر يحمل إليه سرا خطيرا، فأشار إلى من كان بحضرته من القادة بإخلاء المجلس، عدا واحد كان عنده من المقربين، وهو ضرار بن الحصين، استبقاه لديه، ثم التفت إلى تيذز وقال له: هات ما عندك.

فقال تيذز: لك عندى أخبار أيها الأمير تهمك، بلغتنى من مساعدىّ. فقد عزل الخليفة فى دمشق الحجاج بن يوسف والقادة الذين يتبعونه، وأنت واحد منهم، وولى بدلاً عنكم قادة آخرين، وجههم إلى أعمالهم، وإن خلَفك قادم عليك، ممسيًا أو مصبحًا، وأرى أن ترحل بجيشك عن هذه الديار، وتتخذ لك مكانًا آخر، أكثر أمنًا، حتى ترى رأيك فيما يستجد من الأمور.

جزاء الخائن الغادر المرتد:

وكان قتيبة ـ رحمه الله ـ من القلائل الذين يتمتعون إلى جانب الحذق فى القيادة العسكرية ـ بكثير من المعرفة فى الإدارة، وضبط الحكم، وحسن السياسة، وأيضا بعد النظر. وهو يعرف أن الخليفة الوليد بن عيد الملك لا يتخلى بحال من الأحوال عن الحجاج بن يوسف؛ فهو إلى جانب وصية أبيه عبد الملك له فى الحجاج يدرك أن الحجاج بن يوسف هو اليد القوية التى لا يتخلى عن مساندتها ومساعدتها له فى السلطان. فأدرك قتيبة على الفور خديعة تيذر ومحاولته الضالة، فأمر غلامًا له يدعي سياه أن يضرب عنق تيذر فى الحال. ثم التفت إلى جليسه ضرار بن الحصين، وقال له: ليس بهذه الأرض أحد سمع هذا الخبر غيرى وغيرك، وإننى أقسم بالله العظيم لئن ظهر هذا الأمر من أحد قبل أن تنقضى حربنا هذه، لألحقنك بهذا الغادر. فإذا كانت لك فى نفسك حاجة فاحفظ عليك لسانك، واعلم أن انتشار هذا الحديث يفت فى عضد الجند، وقد يلحق بنا الهزيمة، ثم سمح لمن كان فى مجلسه بالدخول عليه، فدخلوا، وكانت جثة تيذر لا تزال ممددة على الأرض، غارقة فى الدماء، فبهتوا لما رأوا وارتاعوا، فقال لهم قتيبة: ما

يروعكم من قتْل رجل غادر خائن. فقالوا: كنا نظنه ناصحا للمسلمين. فقال قتيبة: لقد فضحه الله تعالى على لسانه؛ إذ كان غاشا مخادعا، وقد بين لى ذلك، فنال جزاءه، وعليكم الآن أن تستعدوا للقاء عدوكم، وبقلوب غير التى كنتم تلقونه بها من قبل، أخلصوا وأقدموا، ولن يَتِرَكم الله أعمالكم.

أين محمد بن واسع؟

وكما أدرك قتيبة ـ رحمه الله ـ خيانة تيدز فقضى عليها فى مهدها، أدرك أيضا أن مسعى الحيلة التى أرادها العدو من خلال تيدز تدل على ضعف وجبن وتخاذل، فأراد أن يضرب ضربته، فأمر بالاستعداد، ثم الزحف.

وعندما تواجه الجيشان، على كثافتهما امتلأت قلوب بعض جند قتيبة رهبةً من تضاعف جند العدو، وكان قتيبة ـ رحمه الله ـ يحس بذلك، فراح يمر على الكتائب، وهو مُمْتط جواده، يشحذ هممها، ويُذْكى الحماس فى قلوبهم، ويذكرها بنصر الله تعالى لعباده المؤمنين الصادقين، ويتلو عليهم آيات من الكتاب المبين، ثم استدرك، وتذكر بركة دعاء محمد بن واسع. فسأل عنه، فقيل له إنه فى ميمنة الجيش. فقال: وماذا يفعل هناك؟ فقالوا: إنه متكئ على رمحه، شاخص ببصره، يحرك إصبعه نحو السماء، فهل ندعوه لك؟ فقال: بل دعوه فى خلوته مع ربه، فوالله إن تلك الإصبع أحب إلى من ألف سيف، دعوه فى دعائه لنا، فما عرفناه إلا مستجاب الدعاء.

وتصادم الجيشان وكأنهما جبلان.. وأنزل الله تعالى سكينته على جنده المؤمنين، فثبتوا ثبوت الجبال الرواسى.. وما زالوا فى جهاد وجلاد، حتى أرخى الليلُ سدولَه، وتزلزلت أقدام المشركين، وفروا هاربين مهزومين، فتبعهم جند المسلمين يضربون فى ظهورهم، فوقع أكثرهم بين قتيل وجريح وأسير، وفر بعضهم ناجيًا بنفسه من الموت، ثم طلبوا الصلح ودفع الجزية، فقبلها منهم قتيبة.

ما رأيك يا أبا عبدالله؟

وكان فى حملة الأسرى أحد قادتهم الأشداء، عرف عنه غدره، وقوة شكيمته، وعداوته للمسلمين، فلما عُرض على قتيبة أراد أن يفتدى نفسه، وينجو بحياته وحريته. فسأله قتيبة: وكم تبذل فى سبيل ذلك؟ قال: خمسة آلاف حريرة صينية، ثمنها ألف ألف درهم. فسأل قتيبة وجوه الجند وقادتهم: ما ترون فيما يقول هذا الأسير؟ وما يعرض من الفدية؟ فقالوا: نرى أن هذا الحال سيزيد فى الغنائم، ونتقوى به على العدو.

وكان محمد بن واسع ـ رضى الله عنه ـ فى المجلس؛ إذ كان لا يغيب عن قتيبة أبدًا، وإذا غاب سأل عنه واستدعاه إليه. فسأله قتيبة: وما تقول أنت يا أبا عبد الله؟ فقال ابن واسع رضى الله عنه: أيها الأمير، إن المسلمين لم يخرجوا من ديارهم لجمع الغنائم، وتكديس الأموال، وإنما خرجوا مرضاة لله تعالى، ونشراً لدينه، وقهراً لأعدائه. فقال له قتيبة: جزاك الله خيرا.

والله لا أدعه يروع امرأة مسلمة بعد الساعة، ولو بذل مال الدنيا كلها فداءً لنفسه، ثم أمر بضرب عنقه.

من ميدان إلى ميدان:

كذا كان شأن محمد بن واسع رضى الله عنه، وكذلك كان دأبه. فبعد أن كان فى جيش قتيبة ابن مسلم الباهلى ها هو اليوم ينتقل إلى جيش يزيد بن المهلب بن أبى صفرة، وإلى جبهة قتال جديدة.

وكان يزيد قد خرج بجيش من المسلمين يزيد على مائة ألف من الجند والمتطوعين المجاهدين قاصداً جرجان وطبرستان من بلاد خراسان، التى كان واليا عليها. فلما بلغ دهستان تصدى له أهلها من الترك، وكانوا مقاتلين أشداء، ذوى بأس ومراس، فكانوا يخرجون لقتال المسلمين كل يوم، فإذا ما أدبر النهار وخيم الليل ارتدوا إلى حصونهم المنيعة، ومعاقلهم فاحتموا بها وتحصنوا.

هذا النوع من القتال شق على المسلمين وضايقهم، وكانوا يودون لو أن هذا العدد خرج إليهم وواجههم، وبرز إليهم. وصبروا على ذلك أياما.

وكان من شأن محمد بن واسع رضى الله عنه، وقد انضم إلى الجيش، أن يكون عنصر خير وبركة، رافعاً صوته بالتشجيع والدعاء، وإذكاء روح البذل والعطاء، لا ينأى بنفسه عن القتال إذا اشتد أواره.. والتحمت الرماح بالرماح، والسيوف بالسيوف. وكان الجند حين يرون منه ذلك ويسمعون يندفعون إلى اللقاء والمواجهة بروح وثّابة عالية، ويقذفون بأنفسهم فى الغمرات، خاصة عندما كان يناديهم بنداء رسول الله ﷺ: ياْخيل الله اركبى، يا خيل الله اركبى.

أنا له أيها الأمير:

وفى ذات يوم من أيام القتال برز من صفوف العدو فارس غاطس فى الدروع يصول ويجول، ويتبختر بفرسه، ويتخايل مزهوا وينادى: هل من مبارز؟ هل من مناجز؟ وكان لمنظره رهبة وخشية، فلم يخرج إليه أحد من فرسان المسلمين. عندئذ تقدم محمد بن واسع رضى الله عنه، رغم شخوخته وضعفه، وقال للأمير يزيد بن المهلب: أنا له أيها الأمير، فائذن لى. عندئذ دبت الحمية والحماس فى قلوب الرجال، وهم يرون ابن واسع - رضى الله عنه - يريد القتال، فأتاه فارس من فرسان المسلمين، ورجاه أن لا يفعل، وأقسم عليه، فأبر الشيخ قسمه، وترك له الأمر، ودعا له بالنصر.

وتلاقى الفارسان، وخاضا معركة عنيفة، أبدى كل منهما فيها شجاعته وفُتُوَّته وشدة مراسه وثباته، ثم إن الفارس التركى ضرب الفارس المسلم ضربة شديدة، جعلت سيفه يغرز فى خوذة خصمه، فلا يستطيع رده، فعاجله الفارس المسلم بضربة سيف اخترقت الخوذة وشقت الرأس نصفين.

وعاد الفارس المسلم إلى الصفوف يحمل سيفين، سيفه الذى يقطر بالدم، وسيف خصمه

وقد علق بالخوذة، فكأنها التاج المرصع اللامع! وهتف القائد ابن المهلب إعجابا: للّه أبوه من فارس، من هو؟! فرد عليه: إنه فلان، قد نالته بركة دعوة محمد بن واسع.

تبدل الموقف:

وانقلب ميزان القوى لصالح جند الله؛ إذ أصيب العدو بالفزع والرهبة، واستقوى جند الإسلام، فاندفعوا إلى عدوهم اندفاع السيل يتدفق من رؤوس الجبال، وأحاطوا بعدوهم يُعملون فيهم السيوف والرماح قتلاً وجرحًا.

عندئذ طلب ملكهم - قائدهم - الصلح والمسالمة، والإذعان، وتسليم البلاد، واشترط الأمان لنفسه وماله وأهل بيته، فقبل منه يزيد بن المهلب عرضه هذا، ولكنه اشترط عليه أن يدفع له أربعمائة ألف درهم عاجلة، وسبعمائة ألف آجلة، وأربعمائة دابة محمله بالزعفران، وأن يسوق له أربعمائة رجل فى يد كل واحد منهم جام[1] من الفضة، وعلى رأسه برنس من الخز، وعلى البرنس طيلسان من القطيفة، وسَرَقة من الحرير، لتلبسها نساء الجند، وتم ليزيد ما طلب وأراد.

ومما يذكره المؤرخون لنا فى موضوع غنائم تلك المعركة أن ابن المهلب قال لخازنه: أحص لنا الغنائم حتى نعطى كل ذى حق حقه. فحاول الخازن، ومن معه، أن يحصوها فعجزوا عن ذلك، وأخبروا القائد، فأمر بقسمتها بين الجند بعد أن أخرج منها نصيب بيت المال.

الزاهد فى تاج الملك:

وكان من بين الغنائم تاج الملك المصنوع من الذهب الخالص، مرصعًا بالدر النفيس، والجوهر النادر. قُدم ليزيد فرفعه بيده لتراه كل العيون، ثم قال: أترون أحدا من الناس يزهد فى هذا التاج؟ فقالوا: أصلح الله الأمير! ومن ذا الذى يزهد فيه؟ فقال: سأريكم أنه ما زال فى أمة محمد ﷺ من يزهد فيه، وبملء الأرض مثله، مُؤْثرا آخرته بدنيا الناس.

التمسوا محمد بن واسع. فأتوه فإذا هو قائم يصلى ويدعو، ويحمد الله تعالى على ما آتاه عباده وجنده من نصر وظفر، ويلهج لسانه بذلك، ودموعه تبلل لحيته. ودعَوْه إلى لقاء الأمير يزيد، فأتاه وحياه، فأفسح له الأمير مكانا بجانبه، ثم رفع التاج بيده وقال: يا أبا عبد الله، إن جند المسلمين قد ظفروا بهذا التاج الثمين، وإنى رأيت أن أوثرك به، وأجعله من نصيبك، ولقد طابت نفوس الجند بذلك. فدهش أبو عبد الله، وقال: تجعله من نصيبى أنا أيها الأمير. قال: نعم من نصيبك أنت. فقال: لا حاجة لى به. جزاك الله وإياهم عنى خيراً. قال يزيد: أقسمت عليك بالله لتأخذنه. فلما وقع القسَم من الأمير اضطر أبو عبد الله مكرهًا أن يقبل وخرج مستأذنًا، فحمل التاج وكأنه يحمل أثقال الدنيا كلها وأوزارها. فقال بعض الحاضرين لبعض، ممن لا يعرفون حقيقة الرجل: ها هو ذا قد استأثر بالتاج وقبله، ومضى به. فقال لهم يزيد: لا تتعجبوا. ثم أمر غلامًا له أن يتبع أبا عبد الله وينظر ما يصنع، ثم يأتيه بالخبر.

---

(١) الجام: الكأس.

الزاهد الرائد:

مضى محمد بن واسع ـ رضى الله عنه ـ مثقلاً، كأنه يحمل هموم الدنيا فوق كتفيه، حتى تعرض له فى بعض الطريق سائل يستجدى أكف الناس، ويقول: من مال الله . . من مال الله . فارتاحت نفس أبى عبد الله بعض الشيء، ونظر فى كل الجهات، حتى إذا استيقن أن أحدًا لا يراه دفع بالتاج فى يد السائل، وأسرع بالاختفاء وكأنه يفر من مرض معد.

وأطبق غلام الأمير على السائل، وأمسك به، وجاء إلى الأمير وأخبرّه بالواقعة، فتبسم الأمير يزيد بن المهلب، وأرضى السائل بنفحة من العطايا، واستعاد التاج، وقال للذين كانوا عنده: أترون؟! أما قلت لكم إنه ما يزال فى أمة محمد ﷺ من يزهد بهذا التاج، وبكنوز الأرض كلها؛ رغبة بما عند الله تعالى.

ودخل موسم الحج إلى بيت الله الحرام:

فاستاذن أبو عبد الله الأمير أن يأتى مكة المكرمة حاجّا، فأذن له، ثم قدّم إليه مبلغًا من المال ليستعين به، فسأله أبو عبد الله: وهل منحت كل جندى من جنودك مثل ما تريد أن تخصنى به؟ فقال الأمير: كلا. فقال أبو عبد الله: لا حاجة لى بشيء أخَصّ به من دون جند المسلمين، ثم ودع وانصرف.

نفحاته رضى الله عنه:

من أقواله وحكمه ـ رضى الله عنه ـ ما سار فى الملأ من الناس مسرى النور فى الظلام. قال رضى الله عنه: خمس خصال تميت القلب: الذنب على الذنب. ومجالسة الموتى. قيل له: ومن الموتى؟ قال: كل غنى مترف، وسلطان جائر. وكثرة مشاقة النساء. وحديثهن، ومخالطة أهله.

وقال مالك بن دينار فى حضرة أبى عبد الله: إنى لأغبط الرجل يكون عيشه كفافا فيقتنع به. فقال له أبو عبد الله: أغبط منه ـ والله ـ عندى من يصبح جائعا، وهو عند الله تعالى راض.

وقال: ما آسى عن الدنيا إلا على ثلاث: صاحب إذا اعوججت قوّمنى، وصلاةً جماعة يُحمل عنى سهوها، وأفوز بفضلها، وقوت من الدنيا ليس لأحد فيه منّة، ولا للّه علىَّ فيه تبعة

وعندما أزفت الآزفة، ودنت ساعة الفراق كثر عليه الناس يعودونه فى مرضه. قال أحدهم: دخلت عليه فإذا قوم قعود، وقوم قيام، فقال: ماذا يغنى عنى هؤلاء إذ أخذ بناصيتى وقدمى غداً وألقيت فى النار؟

رضى الله عن عابد البصرة وزاهدها، وعالمها، المجاهد نفسه، الخائض ميادين القتال، مستجاب الدعوة، محمد بن واسع الأزدى، وألحقنا به فى الصالحين من عباده.

ابن شهاب الزهرى

رضى الله عنه

(٥٨- ١٢٤ هـ)

عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون أحدا أعلم بالسنة الماضية منه.

عمر بن عبدالعزيز

كنا نطوف مع الزهرى ومعه الألواح والصحف، ويكتب كل ما يسمع.

أبو الزناد

لقد جالست جابرا وابن عباس وابن عمر وابن الزبير فما رأيت أحدا أسيق للحديث من الزهرى.

عمرو بن دينار

وكان نقش خاتمه:

محمد يسأل الله العافية

خادم السنة النبوية الشريفة:

أمضى ابن شهاب الزهرى - رضى الله عنه - أكبر شطر من حياته وسنى عمره منكبا على السنة النبوية الشريفة، وقد شغفته عقلا وحسا ووجدانا، وملكت عليه كل جوارحه، فأفنى دهره فى الدأب عليها، والحرص على خدمتها، فى منهج علمى، لم يُسبق إليه، فكان بذلك أول من دونها وسطرها، بعد أن كانت مخزونة فى الصدور، مكنونة فى الأفئدة والقلوب.

والسنة النبوية الشريفة - كما هو معلوم ومعتمد - المصدر الثانى فى التشريع الإسلامى، بعد كتاب الله تعالى. «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا، كتاب الله وسنتى».

خفت دروس العلم [1]:

على رأس المائة الأولى من الهجرة النبوية، كان عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه خليفة للمسلمين، فيه همة الحاكم الصالح الصادق، ونشاط العالم وإتقان حفظه، وغيرته، وترفع الزاهد عن زخرف الحياة الدنيا، والتوجه قلبا وقالبا إلى الله تعالى، والفوز برضوانه.

وكان انتشار الإسلام فى بقاع الأرض، شرقا وغربا، قد أخذ اتساعا وشمولا، وقد انضم إلى كتائب الإيمان وجيوش الفتح العديد من أعلام الصحابة وكبار التابعين، وتفرقوا فى الأمصار والأقطار؛ ومنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر.

هذا التشرذم والتبدد والتفرق، هنا وهناك أيقظ فى نفس الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز حالة من الخوف على ضياع التراث العلمى وذهابه؛ وجعله فى حالة من القلق أيضا.

وكانت المدينة المنورة حتى ذلك الحين دار السنة - الأولى - ولا يزال فيها طائفة كبيرة، وشريحة واسعة من حملة العلم.

فأرسل الخليفة إلى عامله على المدينة أبى بكر محمد بن حزم كتابا يخبره فيه بما يساوره من هموم ومخاوف، ويطلب إليه أن يشرف على جمع حديث رسول الله ﷺ من الصدور إلى السطور. وأن يبذل فى ذلك وسعه وجهده.

فكان ابن شهاب الزهرى رضى الله عنه أنشط الساعين فى ذلك وأبرزهم.

فمن هذا العالم الفذ؟ صاحب الموقف العظيم.

ابن شهاب الزهرى:

تلك هى نسبته، وشهرته. وهو: محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب بن عبدالله بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة، وكنيته: أبوبكر. فنسبه إلى بنى زهرة أحد بطون قريش، وهم أخوال النبى ﷺ.

ولد فى المدينة المنورة فى أواخر خلافة معاوية بن أبى سفيان سنة ثمان وخمسين للهجرة ونشأ فيها؛ وكانت حتى ذلك الحين مجمع أهل العلم، من الصحابة وكبار التابعين رضى الله عنهم.

ومنذ طفولته الأولى كان ميالا إلى طلب العلم، محباً له، وكان المسجد النبوى الشريف يعج

---

(١) دروس العلم: ذهابه.

بحلقات الدرس، فأقبل الفتى الزهرى على تلك الحلقات إقبال النهم الجائع، والظامئ العطش، يعب ويستوعب ويهضم.

وكانت حلقة سعيد بن المسيب محط اهتمامه الشديد، فلازمها أكثر من غيرها، حتى إنه كان يجلس فى مقابلة سعيد، حتى تكاد ركبتاه تمس ركبتيه.

ولم يضق به سعيد إذ وجد فيه قلبا واعيا، وعقلا متفتحا، وحيوية ونشاطا. فزاد من إدنائه له، والاهتمام به.

وظل التلميذ النجيب يسمع ويحفظ ويتقن على مدى سنوات طوال، بلغت ثمانى عددا.

ولقد قيل عن حفظه للقرآن الكريم، أنه أتقن ذلك فى ثمانية وثمانين يوما.

يعمل .. ويتعلم

ولد رضى الله عنه فى أسرة رقيقة الحال، قليلة المال، فاضطر الى العمل والسعى مبكرا. ويحكى لنا أنه عمل لدى عبيد الله بن عبدالله بن عتبة، يستسقى له الماء.

وفى التوفيق بين العمل والتعليم بذل جهدا مضاعفا، وعلى الرغم من جسمه الدقيق النحيل، وقصر قامته. والكد الشديد، فإنه كان عندما يجلس فى حلقة الدرس يبدو وكأنه غيره، ذهن متوقد، وعينان تشعان بالذكاء، ويد لا تكل عن التدوين، ولسان لا يمل من السؤال، مما كان يدهش الشيوخ، والأتراب والأقران، على حد سواء.

إلى دمشق

وفى زمن خلافة عبدالملك بن مروان؛ وكان الزهرى رضى الله عنه قد تجاوز العقد الثالث من عمره، واشتدت عليه وطأة مسؤولية الكسب، وناء بكلكل كثرة العيلة، ونزلت بأهل المدينة ضائقة، فارتحل بأهله إلى دمشق.

يحدثنا عن ذلك فيقول: أصاب أهل المدينة جهد شديد، فارتحلت إلى دمشق؛ وكان عندى عيال كثيرة، فجئت جامعها، فجلست فى أعظم حلقة. فإذا رجل قد خرج من عند أمير المؤمنين عبدالملك فقال: إنه قد نزل بأمير المؤمنين مسألة. وعرضها على المسامع. فقلت: إنى أحفظ - فيها - عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب. فأخذنى. فأدخلنى على عبدالملك، فسألنى: ممن أنت؟ فانتسبت له، وذكرت له حاجتى وعيالى. فسألنى: هل تحفظ القرآن؟ قلت: نعم. والفرائض والسنن. فسألنى عن ذلك كله [1]، فأجبته. فقضى دينى، وأمر لى بجائزة، وقال لى: اطلب العلم فإنى أرى لك عينا حافظة، وقلبا ذكيا. فرجعت إلى المدينة، أطلب العلم وأتتبعه.

التفرغ للعلم:

ومنذ اتصال إمامنا الزهرى رضى الله عنه بعبد الملك أصبح له عند الخلفاء من بعده مكانة مرموقة وحظوة، فالكل يعرف قدره ومنزلته، ويغدق عليه ويصله؛ خصوصا ما فرضه له

(١) كان عبدالملك رحمه الله من كبار علماء التابعين، ولولا أن السياسة والسلطان شغلاه عن ذلك لكان له شأن وأى شأن فى ميدان العلم.

عبدالملك من بيت المال؛ كى يتفرغ للعلم؛ وللعلم وحده فقط، وكى يعم نفعه الناس جميعا.

وبلغ من شغفه بالعلم أنه كان عندما يعود إلى بيته من إحدى الحلقات - حلقة عروة بن الزبير، رضى الله عنهما يردد على مسمع جارية له بعض ما سمع، فيقول: حدثنا عروة، ، حدثنا فلان. ويسرد ذلك، فتقول له الجارية: والله ما أدرى ما تقول. فيقول لها: اسكتى يالكاع[1]؛ فإنى لا أريدك. إنما أريد نفسى. أى: يريد التأكد من حفظه.

ولقد اضطره ذلك من بعد إلى الكتابة والتدوين، خشية النسيان والضياع، وبتوجيه من أولى الأمر. يخبرنا عن ذلك، فيقول: كنا نكره كتاب [2] العلم، حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء، فرأينا أن لا نمنعه أحدا من المسلمين.

من الوليد إلى عمر بن عبدالعزيز:

ومرت الأيام، وتلتها الأعوام، وإمامنا الزهرى رضى الله عنه يزداد علما ورسوخا وشهرة، وكان علم الحديث رواية ودراية أعظم ما عرف عنه.

فلما كان زمن خلافة عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه، وقد اهتم واغتم، خشية على العلم من الضياع بفقد العلماء، من الصحابة والتابعين، وأمر عامله على المدينة أبا بكر بن حزم بتدوين الحديث الشريف، كان إمامنا الزهرى رضى الله عنه رأسا فى العلماء الذين أخذ عنهم، واستوثق من حفظهم وإتقانهم؛ وكان مما قاله عمر لواليه: عليكم بابن شهاب فإنه ما بقى أحد أعلم بسنة ماضية منه.

ولقد حدثنا الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه عن واقعة جرت له مع الإمام الزهرى، كانت له درسا بليغا، وتشهد للزهرى بطول الباع، والاعتزاز بالنفس، وشدة الإتقان. إذ قال مالك رضى الله عنه: حدث الزهرى يوما بحديث، فلما قام أخذت بلجام دابته، فاستفهمته؛ فقال: أتستفهمنى؟ ما استفهمت عالما قط، ولا رددت على عالم قط.

وبعد عمر:

تولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز يزيد بن عبدالملك؛ وكان إمامنا الزهرى رضى الله عنه قد بلغ الأوج فى المكانة العلمية، والشهرة التى طبقت الآفاق، وأصبح فى المدينة علمها. وعالمها الأوحد، وسعى إليه طلاب العلم والمعرفة من شتى الديار. أما هو، فقد كان تردده فقط بين الحجاز والشام؛ ولم يغادرهما إلى مكان آخر.

وشرف منصب القضاء:

فقد اختاره يزيد بن عبدالملك قاضيا على المدينة مع سليمان بن حبيب. فأدى للمنصب حقه، ووفى؛ وكان يقول: ثلاثة إذا كن فى القاضى فليس بقاض: إذا كره الملاوم، وأحب المحامد، وكره العزل.

---

(١) اللكاع: اللئيمة، أو الحمقاء.

(٢) كتاب العلم؛ أى: كتابته.

شهادة العلماء له:

قيل لمكحول الدمشقى: من أعلم من لقيت؟ فقال: الزهرى، قيل: ثم مَنْ؟ فقال: الزهرى، قيل: ثم مَنْ؟ فقال: الزهرى.

وقال الإمام مالك رضى الله عنه: كان الزهرى إذا دخل المدينة لم يحدث بها أحد.. حتى يخرج. وقال على بن المدينى: الذين أفتوا أربعة: الزهرى والحكم وحماد وقتادة. والزهرى أفقههم عندى.

وروى أحمد بن صالح فقال: كان يقال: فقهاء زمانهم: الزهرى وعمر بن العزيز وموسى بن طلحة وعبيد الله رحمهم الله.

ومن أقواله رضى الله عنه التى تشهد لقيمة العلم عنده، ما رواه مالك عنه أنه قال: إن هذا العلم الذى أدب الله به رسول الله ﷺ، وأدب رسول الله به أمته - أمانة الله إلى رسوله ليؤديه على ما أدِّى إليه، فمن سمع علما فليجعله أمامه حجة فيما بينه وبين الله عز وجل. وقال رضى الله عنه: الاعتصام بالسنة نجاة. وقال: أمرُّوا أحاديث رسول الله ﷺ كما جاءت. وقال: إن من غوائل العلم أن يترك العالم حتى يذهب علمه. وفى رواية: إن من غوائل العلم أن يترك العالم الفحل بالعلم حتى يذهب، فإن من غوائله قلة انتفاع العالم بعلمه، ومن غوائله النسيان والكذب.

وقال صالح بن كيسان: اجتمعت أنا والزهرى ونحن نطلب العلم، فقلنا: نحن نكتب السنن، فكتبنا ما جاء عن النبى ﷺ، ثم قال لى: هلم فنكتب ما جاء عن أصحابه فإنه سنة.. فقلت: إنه ليس بسنة فلا نكتب. فكتب ما جاء عنهم ولم أكتب، فأنجح وضيعت.

دقته وأناته:

وكان الإمام الليث بن سعد، إمام أهل مصر وفقيههم من طائفة العلماء الذين أخذوا عن الزهرى رضى الله عنه، اجتمع به فى المدينة، وجلس إليه، وسمع منه، وأعجب به.

وصادف مرة أن زاره فى داره، وسهر عنده، يتسامران فى العلم..

يقول الليث - رضى الله عنه: وُضع الطست [1] بين يدى ابن شهاب، فتذكر حديثا، فلم تزل يده فى الطست حتى طلع الفجر، وصححه.

أى أنه رضى الله عنه توقف طويلا فى مراجعة محفوظه حول الحديث الذى تذكره، حتى تبينت له صحته دراية ورواية، عندئذ اطمأنت نفسه، وهذا يدل على مدى دقته وأناته فى الرواية عن رسول الله ﷺ.

وها هو ينصح طالب العلم واضعا نصب عينيه هذا المبدأ فى التحرى والصبر، وهذا المنهج الأكاديمى فى العمل الموضوعى.

يقول رضى الله عنه: للعلم واد. فإذا هبطتَ واديه فعليك بالتؤدة حتى تخرج منه، فإنك لا تقطعه حتى يقطع بك.

(١) الطست: إناء نحاسى يوضع فيه الماء للوضوء، أو غسل الأيدى.

ويقول أيضا : إن هذا العلم إن أخذته بالمكابرة غلبك ولم تظفر منه بشيء ، ولكن خذه مع الأيام والليالى أخذا رفيقا تظفر به .

آفة العلم النسيان

أخشى ما كان يخشاه إمامنا الزهرى النسيان ؛ لأنه به ذهاب العلم .

ومن طريف ما يروى عنه فى هذا الصدد أنه كان يكره أكل التفاح وسُؤْر الفأرة[1] : ويقول : إنه يُنسى ، وكان يشرب العسل ويقول : إنه يذكر . وكان رضى الله عنه يقول : إنما يذهب العلم النسيان ، وترك المذاكرة . وكان ينزل بالأعراب فى البوادى يعلمهم لئلا ينسى العلم . وكان يقول : إياكم وغلول الكتب . قيل : وما غلولها؟ فقال : حبسها عن أهلها . وكان يقول : حضور المجلس - أى مجلس العلم - بلا نسخة - أى صحيفة للكتابة - ذل .

موائد الرحمن:

اشتهر رضى الله عنه ؛ وقد وسع الله عليه ، أنه كان ينصب موائد الطعام على باب داره ، لكل محتاج ، ويكثر من تقديم العسل . حتى إنه كان يستدين ليفعل ذلك .

وصادف مرة أن عاتبه فى ذلك الفعل رجاء بن حيوة رضى الله عنه وقال له : يا أبابكر ما هذا بالذى فارقتنا عليه ، لا آمنُ أن يحبس هؤلاء القوم - أى الخلفاء من بنى مروان - ما بأيديهم عنك ، فتكون قد حملت على أمانيك ، فوعده أن يمتنع ، ولكنه لم يستطع ، فمر به رجاء ذات يوم فرآه على نفس تلك الحال ، فعاتبه ، فقال له الزهرى : إن السخى لا تؤدبه التجارب ، انزل وكل .

ومدحه الشاعر ا بن أقرم فقال :

وإذا يقال : من الجواد بماله؟ قيل : الجواد محمد بن شهاب
أهل المدائن يعرفون مكانه وربيع ناديه على الأعراب
بشرى وفاء جفانه ويمدها بكسور إنتاج وفتق لباب

بينه وبين سعيد بن المسيب:

كان رحمه الله قد تتلمذ على سعيد بن المسيب رضى الله عنه ، كما أسلفنا ؛ وكان بينهما تواصل وتواد وتراحم ، مما يقدره التلميذ فى أستاذه ومعلمه ؛ ومما يعرفه المعلم فى تلميذه النجيب ، الذكى العَقول ، الطالب الدؤوب .

وأيضا تتلمذ إمامنا الزهرى على تابعى جليل ، كان أحد فقهاء المدينة وعلمائها الفحول ، هو عروة بن الزبير رضى الله عنهما .

ويروى لنا الإمام الزهرى رضى الله عنه طلبه العلم على يدى هذين الشيخين ، فيقول : لزمت سعيدا سبع سنين ، ثم تحولت عنه إلى عروة ففجرت ثَبَجَ بحره ، وما صبر أحد على العلم صبرى ، وما نشره أحد قط نشرى .

فأما عروة بن الزبير فبئر لا تكدره الدلاء ، وأما ابن المسيب فانتصب للناس ، فذهب اسمه كل مذهب .

---

(١) سؤر الفأرة : بقية ما أكلت أو شربت .

ويروى لنا الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه، واقعة تشهد للزهرى بحبه لسعيد بن المسيب، وتشهد لسعيد رحمه الله بأنفته عن أبواب الحكام، خلفاء كانوا أم ولاة، أو ذوى سلطان. يقول مالك: إن ابن شهاب سأله بعض بنى أمية عن سعيد بن المسيب، فذكر علمه بخير، وأخبره بحاله، فبلغ ذلك سعيدا، فلما قدم ابن شهاب المدينة جاء فسلم على سعيد، فلم يرد عليه ولم يكلمه، فلما انصرف سعيد مشى الزهرى معه، وقال: ما لى سلمت عليك فلم تكلمنى؟ ماذا بلغك عنى، وما قلت إلا خيرا؟! قال سعيد: لقد ذكرتنى لبنى مروان[1].

مع هشام بن عبدالملك

وتوج الزهرى رضى الله عنه صلاته ببنى مروان مع هشام بن عبدالملك.. وكانت له عنده حظوة كبرى، ومكانة مرموقة، يؤثره على غيره من علماء عصره، وقد طلب إليه أن يكون مؤدبا لأولاده ومعلما؛ ففعل. كما أنه رافقه فى الحج إلى بيت الله الحرام. طلب إليه ذات مرة أن يكتب لبنيه شيئا مما يحفظ من الحديث، فأملى على كاتبه أربعمائة حديث، ثم خرج على أهل الحديث فحدثهم بها. ثم إن هشاما أراد امتحانه فى الحفظ، بعد عدة أيام، فأخبره أن الكتاب الذى كتبه من قبل قد ضاع. فقال الزهرى: لا عليك، ثم أملى على الكاتب - وهو فى نفس المجلس - عين تلك الأحاديث، بتمامها وكمالها. فحملها هشام وقارنها بالكتاب الأول، فإذا هو لم يغادر حرفا واحدا..

وفاته رضى الله عنه

ما إن حل العام الرابع والعشرون بعد المائة، حتى كان إمامنا الزهرى رضى الله عنه قاب قوسين أو أدنى من مفارقة الدنيا، فلما كانت ليلة الثلاثاء، لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، فاضت روحه إلى بارئها.

وكانت وفاته فى محلة تعرف بشغب زبدا، وهى على التخوم بين الحجاز وفلسطين، وكان قد بلغ اثنتين وسبعين سنة. وكان قد أوصى أن يدفن على قارعة الطريق، ليدعو له المارة.

وكان الإمام الأوزاعى رضى الله عنه من محبى الزهرى، والمعجبين بعلمه وفضله، واجتمع به مرات، وسمع منه؛ وحفظ عنه.

وقد وقف على قبره، دامع العين، ثم أنشد:

يا قبر كم فيك من علم ومن حكم ... يا قبر كم فيك من علم ومن كرم

وكم جمعت روايات وأحكاما

***

من مأثور أقواله وحكمه وفعاله: روى الإمام الأوزاعى عنه أنه قال: كنا نأتى العالم فيما نتعلم من أدبه أحب إلينا من علمه. وقال: العلم خزائن تفتحها المسائل. وقال: ما أحدث الناس مروءة أعجب إلى من الفصاحة. وقال: العلم ذكر لا يحبه إلا الذكور من الرجال، ويكرهه مؤنثوهم.

---

(١) يعنى أن سعيدا رضى الله عنه كره أن يذكره الزهرى عندهم، فيظنوا به حاجة، أو مسألة؛ وهذا ما لا يرضاه لنفسه الأبية.

وسئل ابن أخ له: هل كان عمك يتطيب؟ فقال: كنت أشم ريح المسك من سوط دابة الزهرى! وقال مرة.. بل مرات.. لبعض جلسائه: استكثروا من شيء لا تمسه النار.

فقلنا له: وما هو؟ فقال: المعروف. وامتدحه رجل، فأعطاه قميصه. فقيل له: أتعطى على كلام الشيطان؟ يعنى الشعر. فقال: «إن من ابتغاء الخير اتقاء الشر..».

لماذا بعيدا عن المدينة؟

قد يتساءل الناس: ما الذى حمل الزهرى على اختيار هذا المكان القصىّ على حدود الحجاز وفلسطين. مكانا لإقامته، وقد شارف على العقد الثامن من عمره، ورغب عن المدينة المنورة؟

يروى لنا سفيان الثورى رضى الله عنه سبب ذلك فيقول: قالوا للزهرى: لو أنك الآن فى آخر عمرك قد أقمت بالمدينة، فقعدت إلى مسجد رسول الله ﷺ ودرجت وجلست إلى عمود من أعمدته فذكرت الناس وعلمتهم!؟

فقال لهم: لو أنى فعلت ذلك لوُطئ عقبى، ولا ينبغى لى أن أفعل ذلك حتى أزهد فى الدنيا وأرغب فى الآخرة.

وكان يحدث السائلين أنه هلك فى جبال بيت المقدس بضعة وعشرون نبيا، ماتوا من الجوع والعمل، كانوا لا يأكلون إلا ما عرفوا، ولا يلبسون إلا ما عرفوا.

ويقول: يا معشر الناس: العبادة هى الورع والزهد، والعلم هو الحسنة، والصبر هو احتمال المكاره، والدعوة إلى الله على العمل الصالح.

ونودع إمامنا الزهرى رضى الله عنه داعين له الله تعالى أن يبوئه من لدنه منازل الأبرار الصالحين، مع النبيين والصديقين، والشهداء، وحسن أولئك رفيقا.

* * *

بلال بن سعد

رضى الله عنه

(- ١٢٤ هـ)

أخ لك كلما ذكرك بنصيبك من الله، وأخبرك بعيب فيك أحب إليك وخير لك من أخ كلما لقيك وضع فى كفك دينارا.

لا تكن وليا لله فى العلانية وعدوه فى السر؛ ولا تكن عدو إبليس والنفس والشهوات فى العلانية وصديقهم فى السر.

ولا تكن ذا وجهين وذا لسانين فتظهر للناس أنك تخشى الله ليحمدوك وقلبك فاجر.

بلال بن سعد

سعد بن تميم السكونى:

والد بلال. على غرار وعادة كثير من الصحابة رضى الله عليهم رابط سعد فى الشام وفى دمشق بالذات، وبنو تميم فرسان مميزون، وأبطال حروب، أسلموا مبكرين، وهاجروا إلى المدينة، وكانوا قرابة أربعمائة فارس.

وخاضوا القتال تحت راية رسول الله ﷺ فى آخر الغزوات، وحازوا شرف الصحبة والجهاد؛ وباركهم النبى ﷺ.

ولد سعد فى المدينة فى آخر حياة النبى ﷺ فحمل إليه، فمسح رأسه ودعا له، وتركت يد رسول الله ﷺ أثرها الطيب الكريم على شخصية سعد، حبا لله ورسوله، وعمق إيمان، وصدق يقين.

وبعد أن شب وترعرع، انخرط فى صفوف جند الله، مجاهدا فى سبيله، وباذلا نشاطه وفنونه لإعلاء كلمة التوحيد.

وكان رضى الله عنه قد تعلم وحفظ ووعى، وتشبع وامتلأ. وفى دمشق استقر ورابط.

وكانت مرابطته فيها فى مساجدها، وحلقات دروسها، يجاهد الجهاد الأكبر، تثقيفا وتقويما لذاته ولغيره من طلاب العلم والمعرفة، واضعا نصب عينيه منهج كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وتفوق وتقدم حتى لقب بالقارئ.

كان رضى الله عنه ضابطا لحسن التلاوة، مبنى ومعنى، ندى الصوت، عذب الأداء، حلو الجرس، فكان يجتمع عليه الخلق الكثير، يؤدى بهم صلاة الجماعة، وخصوصا فى صلاة التراويح، فى رمضان. ولقد روى أحد الذين ألفوه وأحبوه ابن أبى جميلة فقال: كان سعد والد بلال يقوم بنا فى شهر رمضان، فإذا كان آخر ليلة لم يحضر، وقام فى بيته(١).

بلال بن سعد:

فى هذا الجو العابق بشذا الإيمان، وتلاوة القرآن كانت ولادة بلال ونشأته. ولقد تأثر بلال بنزعة أبيه العلمية والتعبدية إلى أقصى حد، فشب متغذيا بآداب القرآن الكريم، زاهدا فى الدنيا وزينتها وزخرفتها، عابدا خاشعا، صواما قواما، راغبا فى الآخرة ومنقلبها الطيب؛ ومستقرها الكريم، ونزلها فى جنة نعيم.

وتفاعلت كل تلك المعانى والرغبات فى ذاته ووجدانه، وجرت على لسانه وعظا وإرشادا بليغا عميقا.

يوم لا ينسى:

وكلمات نافذة لن تبلى. ما زال صداها يترجع فى أذنيه ومسمعيه. أما اليوم فكان يوم ودع أبوه سعد الدنيا. وأما الكلمات فكانت آخر نصائحه لولده بلال.

كان سعد رضى الله عنه على فراش الموت، يحتضر، يغشى ويفيق، ويعانى السكرات. ثم

---

(١) لعله رضى الله عنه كان يحب أن يخلو ليلة الختم مع ربه سبحانه.

نادى على بلال فى إحدى صحواته، فأتاه، فقال له سعد: يا بنى، أين بنوك؟ أدخلهم علىّ أمتع نظرى بهم، وأنصح لك ولهم.

قال بلال: فأمرت أهلى فألبسوهم قُمُصًا بيضا، ثم أتيته بهم. فنظر إليهم مليا، واغرورقت عيناه بالدموع، ثم دعا فقال: اللهم إنى أعوذ بك من الكفر، ومن ضلال فى العمل، ومن السب، ومن الفقر إلى بنى آدم.

هذا الدعاء الطيب أراده سعد رضى الله عنه أن يكون آخر درس يلقى به لفلذة كبده، وأحفاده، ومنهجا سلوكيا يأخذون به أنفسهم، ليحفظوها من فتنة الدنيا، ويلقوا به ربهم، سبحانه وتعالى.

ينابيع علم بلال:

لم يتوقف علم بلال رضى الله عنه عند حدود أبيه، وتلقيه عنه، بل استقى من ينابيع أخر، كانت صافية المورد، نقية المصدر، ثرة العطاء.

استقى بلال رضى الله عنه عن جابر بن عبدالله وعن عبدالله بن عمر وعن أبى الدرداء وغيرهم رضى الله عنهم.

تلامذته:

وكان له تلامذة كثر، يحضرون مجالسه، وتغص بهم حلقته فى المسجد، بعضهم من الشام وبعضهم من مختلف الآفاق، يقصدونه ليزيدهم ويزودهم.

وكان من أشهرهم حجة العلم فى عصره، وفقيه أهل الشام وإمامهم الأوزاعى رضى الله عنه، ولنتصور تتلمذ الأوزاعى على بلال بن سعد. فإن فى ذلك مدعاة إكبار وإجلال وتعظيم للمعلم.

ولقد كان الأوزاعى رضى الله عنه كما روى، يكتب عن بلال كل ما يقوله من الفوائد العظيمة، فى قصصه ووعظه.

ويقول: ما رأيت واعظا قط مثله. ويقول وقد عاين ذلك بنفسه: ما بلغنى عن أحد من العبادة ما بلغنى عنه، كان يصلى فى اليوم والليلة ألف ركعة.

بين برد الدنيا وحر جهنم:

لبيوت الشام فى طرزها المعمارى صحن مكشوف فى داخلها، ومن حوله الغرف، وتتوسط الصحن عادة بركة ماء.

وكان بلال رضى الله عنه يقوم الليل صلاة وتهجدا، وذكرا وعبادة ودعاء. فإذا ما أحس بدبيب النعاس يراود جفنيه ويداعبهما، خرج من صومعته وألقى بنفسه فى البركة، وهو مرتد ثيابه، فى فصل الشتاء القارس.

وعرف بعض أصحابه بذلك، إثر نزلة برد أصابته، فمرض بها، فعاتبه ناصحا مشفقا، فكان جواب بلال: إن ماء البركة أهون من عذاب جهنم.

صاحب الصوت الجهورى:

وكان بلال يتمتع بصوت جهورى، عالى النبرة، بعيد الأثر. وفى هذا الشأن يحدثنا أحد معاصريه العلماء الأفذاذ الوليد بن مسلم فيقول: (كان بلال بن سعد إذا كبر فى المحراب[١] سمعوا تكبيره من الأوزاع). والأوزاع ضاحية من ضواحى دمشق عند أحد أبوابها، وهو باب الفراديس. والمسافة بين المسجد والأوزاع ليست بالقريبة أبدا.

ولا تظن أن الراوى يقصد ذلك حقيقة، بل يريد إضفاء صفة جهورية الصوت لبلال من وراء هذه المبالغة.

عباد الرحمن:

وفى ذات يوم كان بلال رضى الله عنه يلقى درسا فى التفسير، وقد عرض لمواصفات عباد الرحمن فى سورة الفرقان.

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾.

قرأ الآيات أولا كلها دفعة واحدة، وبصوته الشجى الندى، وبتأثر بالغ، واستشعار لمعانيها ومدلولاتها، ففاضت نفسه رقة وحنانا، وقد خنقته العبرات أكثر من مرة. فلما أتمها كان الحضور قد نشجوا بالبكاء، حتى كان لبكائهم دوى شديد، يشبه المراجل تغلى بالماء. ثم سكت صامتا لا ينبس ببنت شفة، يكفكف دمعه بكُمِّه. والتفت إلى الحضور وقال: عباد الرحمن، إنكم تعملُون فى أيام قصار لأيام طوال، وفى دار زوال إلى دار مقام، وفى دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود، فمن لم يعمل على يقين فلا ينتفعن.

عباد الرحمن، لو قد غُفرت خطاياكم الماضية لكان فيما تستقبلون لكم شغلا، ولو عملتم بما تعلمون لكان لكم ملاذا وملتجأ.

عباد الرحمن، أما ما وكّلتم به فتضيعونه، وأمّا ما تكفل الله لكم فتطلبونه ما هكذا نعت الله عباده الموقنين. أذوو عقول فى الدنيا وبُلْه فى الآخرة؟ وعُمْى عما خلقتم له، بصراء فى أمر

---

(١) أى فى المسجد الذى كان يؤم الناس فيه.

الدنيا؟ فكما ترجون رحمة الله بما تؤدون من طاعته، فكذلك أشفقوا من عذابه بما تنتهكون من معاصيه.

عباد الرحمن.. هل جاءكم مخبر يخبركم أن شيئا من أعمالكم قد تقبل منكم؟ أو شيئا من خطاياكم قد غفر لكم؟ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾سورة (المؤمنون) الآية (١١٦). والله لو عجل لكم الثواب فى الدنيا لاستقللتم ما فرض عليكم، أترغبون فى طاعة الله لدار معمورة بالآفات، ولا ترغبون وتنافسون فى جنة أكلها دائم وظلها، وعرضها عرض الأرض والسماوات؟ ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾سورة (الرعد) الآية (٣٥).

عباد الرحمن، الذكر ذكران، ذكر لله باللسان، حسن جميل، وذكر لله عند ما أحل وحرم، أفضل؟

عباد الرحمن، يقال لأحدنا: تحب أن تموت؟ فيقول: لا، فيقال له: لِمَ؟ فيقول: حتى أعمل، فيقال له: اعمل، فيقول: سوف أعمل.

فلا يحب أن يموت، ولا يحب أن يعمل، وأحب شيء إليه يحب أن يؤخر عمل الله، ولا يحب أن يؤخر الله عنه عرض دنياه.

عباد الرحمن، إن العبد ليعمل الفريضة الواحدة من فرائض الله، وقد أضاع ما سواها، فما يزال يمنيه الشيطان ويزين له حتى ما يرى شيئا دون الجنة، مع إقامته على معاصى الله.

عباد الرحمن، قبل أن تعملوا أعمالكم انظروا ماذا تريدون بها، فإن كانت خالصة فأمضوها، وإن كانت لغير الله فلا تشقوا على أنفسكم، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا، فإنه قال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾سورة (فاطر) الآية (١٠).

عباد الرحمن، إن الله ليس إلى عذابكم بالسريع، يقبل المقبل، ويدعو المدبر. إذا رأيتم الرجل متحرجا لحوحا مماريا معجبا برأيه فقد تمت خسارته.

يوم مشهود:

ويحدثنا الإمام الأوزاعى رضى الله عنه عن يوم مشهود، من أيام بلال بن سعد رضى الله عنه، إذ انْحبس المطر عن الناس زمنا، فخشوا على أنفسهم، وزرعهم وضرعهم. وكان لبلال معهم موقف مشهود، وقول معدود.

قال الأوزاعى: خرج الناس بدمشق يستسقون، فقام بهم بلال بن سعد فقال: يا معشر من حضر، ألستم مقرين بالإساءة؟ قالوا: نعم.. فقال: اللهم إنك قلت: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ سورة (التوبة) الآية (٩١)، وقد أقررنا بالإساءة فاعْف عنا، واغفر لنا. فسقوا يومهم ذلك.

الحكمة البالغة فى الموعظة الحسنة:

هكذا كان شعاره ودثاره رضى الله عنه. مستشهدا بقوله تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾. وهكذا كان كل شأنه فى حياته، ويتلبس القول بالفعل، حتى عُد رأسا فى الواعظين. وحسب بلال بن سعد أن يكون الأوزاعى مع جلالة قدره، وعظيم فضله،

ممن تأثروا به، وتتلمذوا على يديه، فحفظوا منه، ورووا عنه.

يقول الأوزاعى رضى الله عنه: وسمعته يقول: لقد أدركت أقواما يشتدون بين الأغراض، ويضحك بعضهم إلى بعض، فإذا جنهم[1] الليل كانوا رهبانا.

وسمعته يقول: لا تنظر إلى صغر الذنب، وانظر إلى من عصيت.

وسمعته يقول: من بادأك بالود فقد استرقَّك بالشكر.

وكان من دعائه: اللهم إنى أعوذ بك من زيغ القلوب، ومن تبعات الذنوب، ومن مرديات الأعمال، ومضلات العين.

وقال: عباد الرحمن، لو أنتم لم تَدَعوا إلى الله طاعةً إلا عملتموها، ولا معصية إلا اجتنبتموها، إلا أنكم تحبون الدنيا لكفاكم ذلك عقوبة عند الله عز وجل.

وقال: إن الله يغفر الذنوب لمن تاب منها، ولكن لا يمحوها من الصحيفة حتى يوقف العبد عليها يوم القيامة.

رحمه الله تعالى، ورضى عنه، وألحقنا به فى الصالحين من عباده، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

* * *

(١) جنهم الليل: اقتلعهم من نهارهم وشئونه.

ربيعة الرأى

ربيعة بن فرّوخ

رضى الله عنه

(٥٥ - ١٣٦ هـ)

إن العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته نفسك كلها.

ربيعة الرأى

ما رأيت أحدا أحفظ لسنة من ربيعة.

ابن الماجشون

الربيع بن زيادة الحارثى

لا يتم الحديث ويتكامل عن ربيعة الرأى إلا بالحديث عن الربيع بن زياد - الحارثى - رضى الله عنهما . فالربيع بن زياد هو مولى فروخ والد ربيعة .

وإليك القصة : كان الربيع بن زياد أحد قادة الفتح الاسلامى فى المشرق : فارس وخراسان وما وراءالنهر [١]، وكان من أبرزهم دراية وإقداما وشجاعة ، وحنكة وإيمانا .

بدأ جهاده تحت راية أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه سنة سبع عشرة للهجرة ، وأبلى فى المعارك بلاء حسنا ، وظهر تفوقه ، وبرزت شخصيته القيادية ، مما لفت إليه الأنظار .

وفى سنة ثمانى عشرة هجرية ؛ ولاه أبو موسى على البحرين . فى تلك السنة وفد الربيع إلى المدينة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وفى اللقاء ، سأله عمر : ما أقدمك؟ فقال الربيع : قدمت وافدا لقومى .

وأثناء الحديث ، قال الربيع لعمر : يا أمير المؤمنين ، والله ما وليت هذه الأمة إلا ببلية ابتليت بها ، ولو أن شاة ضلت بشاطئ الفرات لسئلت عنها يوم القيامة . فانكب عمر يبكى ، ثم رفع رأسه وقال للربيع : ما اسمك؟ فقال : الربيع بن زياد .

وتكرر اللقاء ، وازداد إعجاب عمر بالربيع ، وقد امتحنه أكثر من مرة ، وفى كل مرة يسمو فى نظره ، ويعلو عنده .

حتى إن عمر قال لبعض خاصته من أصحابه : دلونى على رجل ، إذا كان فى القوم أميرا ، فكأنه ليس بأمير ، وإذا كان فى القوم وليس بأمير ، فكأنه أمير؟ فقالوا : ما نعرف إلا الربيع بن زياد الحارثى . فقال عمر : صدقتم .

لم يكتف عمر بما كونه عن الربيع برأيه فيه ، بل أراد استخلاص ذلك من أهل المشورة والنصيحة ؛ وعليه ، كتب إلى أبى موسى الأشعرى أن يقر الربيع على عمله فى ولاية البحرين ، ويجعله من خاصته . ومن ثم تنقل الربيع تحت لواء أبى موسى فى بلاد فارس وخراسان ، يخوض المعامع والمعارك ، وينتصر فيها كلها على عدوه بتوفيق من الله تعالى ، وحسن تدبير!

وأمضى القائد الظافر ردحا طويلا من الزمن ، وشطرا كبيرا من عمره فى بلاد المشرق الإسلامى ، غازيا مجاهدا فاتحا ، ما يزيد على ثلاثة عقود ؛ (من سنة ١٧ إلى سنة ٥٣ هـ) .

وكان فرّوخ قد وقع فى الأسر ، بعد إحدى المعارك التى خاضعها الربيع ، فاستخلصه لنفسه ؛ ونشأه على طريقته ومذهبه ، فكان غلامه المفضل ، ومولاه الأثير ، الذى يقاتل بين يديه ، ويبدى من ضروب الشجاعة والإقدام ما أهله لأن يكون فارسا لا يشق له غبار .

وفى سنة إحدى وخمسين وفى خلافة معاوية بن أبى سفيان كان زياد بن أبيه[٢] واليا عاما على العراق وما يستتبعه من بلاد فارس وخراسان وغيرهما من بلاد المشرق .

فسير الربيع إلى خراسان لاستعادة الفتح ، وبعث معه خمسن ألفا من الجند ، وفى زمن يسير ،

---

(١) النهر : نهر «سيحون» .

(٢) هو : زياد بن أبى سفيان ، ألحقه معاوية بنسبه وأقر له بذلك .

لا يتجاوز السنتين، استطاع الربيع بن زياد أن يستعيد أكثر مدن خراسان، ويبسط سلطان الإسلام عليها، ويحسن إدارتها.

حرية فروخ

ولقاء إخلاص فروخ وتفانيه لمولاه الربيع أكرمه سيده فأعتقه. وزيادة على نصيبه وسهمه من الغنائم منحه من خاصة ماله مبلغا كبيرا، وهدايا.

وحين وافى الأجل الربيع وقد قارب الثمانين عاما، أثر ذلك فى نفس فروخ وحزن حزنا بالغا، ثم انصرف عن الميادين إلى بقعة طاهرة، وبلد يحمل له فى وجدانه شوقا وحبا، فأتى المدينة المنورة؛ ونزل فى جوار الحرم الشريف. وكان فروخ يحمل ثروة طائلة، بلغت ثلاثين ألفا من الدنانير.

الزواج

كان فروخ فى الثلاثين من عمره، يمتلئ حيوية ونضارة، فعزم على الزواج، واختار من أهل المدينة فتاة طيبة الأرومة، كريمة المحتد، ذات عقل ودين وخلق؛ فبنى بها، واشترى دارا وسكنا، وأقام اشهرا يستمتع بدفء الحياة ونعيمها.

لكن نفس الفارس وروح المجاهد، كانت تعاوده بين الفينة والفينة، خصوصا عندما كان يسمع أنباء الانتصارات الإسلامية، وأخبار الجيوش الغازية فى سبيل الله، فيحن إلى الميادين، ويشتاق إلى القتال والنزال، وتبدو على محياه علامات الأسى.

وفى ذات يوم عقد العزم على أمر؛ إذ جاء زوجته يخبرها أنه ماض إلى حيث يجد نفسه، إلى الجهاد فى سبيل الله، فجزعت واضطربت، وقالت: يا أبا عبدالرحمن، لمن تتركنى وجنينى الذى فى أحشائى؟! فقال: أتركك لله ورسوله؛ خير من يتولى الصالحين. وها هى ثروتنا بين يديك، فاحفظيها وثمريها، وأنفقى على نفسك وطفلنا، فإن عدت سالما غانما فبها ونعمت، وإن استشهدت فذلك خير اختاره الله تعالى لى. ثم مضى.

ربيعة

وضعت الزوجة حملها؛ غلاما يحمل قسمات وجه أمه. بهاء وحسنا، ففرحت به فرحا عظيما، ولم ينغص عليها سوى غياب الأب عن تلك البشرى.

ترتسم البسمة على شفتيها، وتنهل العبرات من عينيها. وأسمته ربيعة، يحمل من الربيع لطفه ونسمه وشذا عطره وزهره.

رضع، ثم درج ومشى، وبدت عليه منذ يفاعته ونعومة أظفاره علامات النبوغ وآيات الذكاء. فعهدت به إلى المؤدبين والمعلمين، وأغدقت عليهم العطاء.

حفظ القرآن الكريم، وأتقن القراءة والكتابة، ووعى حديث رسول الله ﷺ بقدر ما تيسر له؛ وجالس من بقى من الصحابة رضوان الله عليهم؛ وكبار التابعين؛ الذين عرفوا فيه التفوق والنبوغ، فلم يبخلوا عليه، بل وسعوه واحتضنوه. وبذلوا له كل ما يحملون فى صدورهم من العلم.

ومرت الأعوام..

وتلتها السنون والأيام. . وربيعة يسمو مكانة، ويرتفع منزلة، حتى غدا صاحب أكبر حلقة علم فى المسجد النبوى الشريف. إذا ما جلس للدرس والوعظ تجمع الناس من حوله حتى يغصّ بهم المسجد على رحابته، والكل يسمع ويسأل، ويتعلم ويحفظ، وربيعة يتدفق فى العطاء كنهر سلسل فوار، رائق الماء عذب الطعم؛ حلو المذاق.

وطالت غيبة الأب فروخ. وزادت على السنين الطوال.

وكانت أم ربيعة تتسقط أخبار الزوج من كل قادم ينزل المدينة عائدا من ميادين الجهاد، فيخبرها بعضهم أنه ما يزال حيا، يواصل الجهاد، ويخبرها آخرون بأنه قد وقع فى الأسر، وطائفة ثالثة تقول بأنه استشهد.

حتى يئست من السؤال، وانكفأت على نفسها، ونذرت حياتها لولدها، محتسبة صابرة! وعاهدت الله تعالى أن تجعل كل ما فى يدها من ثروة ومال فى سبيل العلم الذى نذر ربيعة نفسه له. وقالت لمن نصحها أن ترفق بنفسها، ومدخراتها، فتجعل ربيعة يختار حرفة أو مهنة يتكسب منها، فينفق على نفسه وأمه: أسأل الله تعالى أن يخير له ما فيه صلاحه دنيا وآخرة، وقد اختار العلم، متعلما ومعلما، ولن أكرهه على غير ذلك.

حتى إن بعض هؤلاء الناصحين، واجه ربيعة وكلمه، إشفاقا عليه مما هو فيه من جهد المتعلم والمعلم، ورفقا به. فماذا يا ترى كان جواب ربيعة؟ لقد قال لهم: إن العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته نفسك كلها. أضف إلى ذلك الاستغراق العلمى صفة الجود التى دأب عليها، إذ كانت يداه مبسوطتان بالخير، والبذل، وكانت الأم لا ترد له طلبا، ولا تمنع عنه سؤالا.

وعاد فرّوخ

مفاجأة ما خطرت على البال أبدا، بعد غياب امتد ثلاثة عقود من السنين. فها هو فروخ، فوق صهوة جواده يدخل المدينة على حين غفلة من الناس، وقد أوى أكثرهم إلى دورهم ومنازلهم، واحتوتهم مضاجعهم، إذ مضى الهزيع[1] الأول من الليل.

وها هو يجول فى طرقاتها وأزقتها متلمسا داره وبيته بعد أن تبدلت المعالم، وتغيرت، وأخيرا وجد نفسه أمام باب الدار، وقد فتح أحد مصراعيه، فنزل عن جواده، وربط زمامه إلى حلقة فى الجدار، ثم دفع الباب بيده ودخل.

كانت تدور فى رأسه كثير من الأفكار، والأحلام. ترى كيف يكون حال زوجته الحبيبة التى غادرها منذ ما يزيد على ثلاثين سنة!؟

وماذا يكون حملها التى وضعت، ذكرا أم أنثى؟ وإذا كان ذكرا فماذا يكون من شأنه وحاله؟ هل تزوج وأنجب؟ وماذا يعمل؟ وإذا كانت أنثى فلا بد أنها الآن فى مرحلة أمومة، وقد خلفت أحفادا. وماذا فعلت الزوجة بالثروة الهائلة التى تركها بين يديها أمانة؟

اختلطت الأفكار، وهاجت المشاعر، واشتد وجيب القلب، وطافت بالرأس الظنون

(١) الهزيع من الليل: جزء منه.

والأوهام والأحلام، وما استفاق فروخ من غفلته إلا على صوت صارخ يهزه، ويدين شديدتين تمسك به .

لقد استيقظ رب الدار على صوت صرير الباب، ورأى رجلا متوشحا سيفا يدخل عليهم بغير استئذان، فظن به سوءا. فهجم عليه وأمسك بتلابيب ثوبه؛ وصرخ فيه: يا عدو الله، أتستتر بظلام الليل الحالك، وتقتحم على الناس بيتهم!؟ يا لك من لص غادر. لسوف ترى ما يحل بك. واشتبك الاثنان، وتصايحا، وعلت أصواتهما؛ فاستيقظ الجيران، وساعدوا صاحب الدار على عدوه، فأحكموا وثاقه. عندئذ قال فروخ: اسمعوا منى. ولا تعجلوا فى أمرى، لست عدوا، ولا لصا، ولا أبغى شرا أو غدرا، أنا صاحب الدار هذه، أنا فروخ. !

إنه والدك يا ربيعة:

كانت الأم منهكة، مستسلمة لنوم عميق، لكن الجلبة أيقظتها. فأطلت من نافذة عُلِّيَّتها لترى ما الخبر. لم تصدق ما ترى! إنه زوجها فروخ، فرغم مرور السنين، وكثرة الشيب ما زالت معالمه وقسمات وجهه حية نابضة، تنبئ عن حقيقة شخصيته. فنادت ولدها والناس: اتركوه، وحاذروا إيذائه، إنه الحبيب الغائب، والزوج العزيز. إنه أبوك يا ربيعة. . يا ولدى، إنه فروخ!! وتعانق الوالد والولد. واحتضن الأب ابنه، والابن أباه، واستغرقا فى البكاء، حتى بللت دموعهما لحاهما.

أين الثروة يا أم ربيعة؟

وعاد ربيعة إلى مخدعه ومعه زوجته الشابة. وانفض جمع الجيران، وقد دهشوا لما سمعوا وشاهدوا. وجلس الزوجان يتناجيان، فروخ وأم ربيعة.

وقص فروخ على زوجته قصصا طوالا، عن حوادث الأيام والسنين الخوالى. وما لقيه أثناءها. وروت الزوجة أم ربيعة لفروخ عن كل أحوالها، منذ أن غادرها وهى حامل، حتى عودته الساعة.

ومضى أكثر الليل وهما فى مناجاة وحديث. . حتى أذن للفجر. وقبل أن يقوم فروخ لوضوئه، سأل زوجته عن الدنانير، الثلاثين ألفا، التى تركها عندها. فسكتت، ثم كرر السؤال، فقالت: وضعتها فى مكان أمين وحرز حريز، وغدا إن شاء الله تعالى، آتيك بها. فناولها صرة كان يحملها، وقال: وهذه أربعة آلاف دينار أخرى، اجعليها معها يا أم ربيعة.

وبعد أن توضأ سأل عن ربيعة ليخرجا سوية إلى المسجد النبوى الشريف لأداء صلاة الفجر، فقيل له: إنه سبقك، ولم يرد أن يقطع عليك لقاءك وخلوتك. ثم مضى إلى المسجد. لم يدرك فرّوخ الجماعة، فصلى منفردا. وشغله المسجد عن كل ما سواه، وانهمرت الدموع من عينيه مدرارا، ثم أتى الروضة الشريفة؛ ووقف يصلى. وهام من أجواء روحية، وشفافية عالية.

ثم تنبه من سبحته الروحية على جموع من الناس يلتفون حلقة حول شيخ معلم، وقد غص بهم المكان؛ وحاول الدخول بينهم والاقتراب من مجلس الشيخ فلم يستطع، فقد كانوا متراصين متلاصقين، فوقف بعيدا فى آخر الصفوف. وشده المنظر. فوقف ثابتا لا يتحرك.

كان الحضور من أعمار مختلفة؛ شيوخا كبارا؛ وشبانا وفتيانا، والكل فى إصغاء، يستمعون لما يقوله الشيخ الذى يتدفق علمه وبيانه، أو يجيب عن سؤال وفتوى، ومن لم يستطع السماع منهم - لبعده - يسأل من أمامه، وهكذا يبلغ بعضهم بعضا.

إنه ربيعة الرأى

مع شروق الشمس.. انتهى الدرس، فقام الشيخ من مكانه، وهب كل الحضور معه، حافين به فى موكب يسامى مواكب الملوك، بل يعلوها.

فسأل فروخ أدنى رجل منه: مَنْ يكون هذا الشيخ يا أخى؟ فرد الرجل: ألست من أهل المدينة يا رجل!؟ قال فروخ: بلى، ولكنى كنت فى غيبة طويلة عنها. وما عدت إلا بالأمس. قال الرجل: إذاً، اجلس أحدثك عنه. فجلس فروخ، وأخذ صاحبه يحدثه. قال: إن من تسأل عنه، سيد من سادات التابعين، وعلم بارز من أعلام المسلمين، ومحدث المدينة وفقيهها، ليس شيخا طاعنا فى السن، ولكنه شيخ فى العلم. يسعى إليه ويحضر مجلسه، ويأخذ عنه الأئمة الأعلام، من مصر والعراق والشام؛ مالك بن أنس وأبوحنيفة النعمان وسفيان الثورى والأوزاعي والليث بن سعد وكثيرون غيرهم، ممن طبقت شهرتهم الآفاق، علما وفضلا، وكلهم لديه تلاميذ ومتعلمون. قال فروخ: ما شاء الله.. لا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله. هذا مقام عظيم، ومكانة سامية، وفضل من الله تعالى، يختص به من يشاء من عباده! ولكن.. فقاطعه محدثه قائلا: وقبل كل هذا فإن فى الشيخ المعلم صفات وشمائل وسجايا قل أن توجد فى غيره؛ فهو سخى اليد فى كرم مشهود معدود، وليس فى المدينة كلها من هو أوفر منه عطاء ونوالا. مع زهد وقناعة، ورغبة فيما عند الله تعالى من حسن الجزاء، ولو طوّفت المدينة كلها ما رأيت فيها فقيرا ولا محتاجا، ولحدثك أهلها بعاطر الثناء على الشيخ. قال فروخ: لقد شوقتنى يا أخى إلى معرفة اسمه، والتعرف إليه. قال الرجل: إنه ربيعة الرأى. فانتفض فروخ، وأحس برعدة تسرى فى كيانه كله، فى أوصاله وجوارحه. ثم قال: قلت يا أخى ربيعة الرأى؟! قال: نعم، ربيعة الرأى.

قال فروخ وهو يكتم زهوه: عرفت اسمه ولكن ما هذه الإضافة إليه؟ ولماذا نسب إليها؟ قال الرجل: لقد سماه بها علماء المدينة والأمصار؛ كانوا إذا لم يجدوا فى كتاب الله تعالى، وفى سنة رسول الله ﷺ نصا فى قضية، وأشكل عليهم فهمها وحلها، لجأوا إلى ربيعة؛ فيجتهد لهم، فيقيس ما لم يرد فيه نص على ما ورد فيه نص، ثم يطلع عليهم بالحكم، فتطمئن نفوسهم، ويحتجون بما أفتى.

ولم يطق فروخ بقاءه فى المسجد. فهب واقفا، شاكرا للرجل صنيعه، ومضى يسابق الخطوات إلى داره. ودخل بيته ودموع الفرح تغسل خديه، وتخضل لحيته.

ذلك مكان الوديعة يا فروخ

استقبلته الزوجة وارتاعت لدموعه؛ فسألته: ماذا أصابك يا أبا عبدالرحمن؟ ولماذا بكاؤك؟ قال: لست أبكى من هم أو غم، ولكنى رأيت ولدنا ربيعة فى موقف ومشهد عظيمين، يتضاءل عظماء الدنيا كلها أمامهما، إنهما مجد العلم وشرفه. فبكيت فرحا وفخرا واعتزازا.

فاغتنمت أم ربيعة الفرصة السانحة وقالت : أيهما يا أبا ربيعة أحب إليك : الثلاثون ألف دينار أم مجد العلم وشرفه الذى بلغه ولدك؟ فقال : والله يا أم ربيعة إن كل أموال الدنيا لا تساوى عندى شيئا إزاء ما أنا فيه من زهو وفخار، وإكبار. فقالت أم ربيعة : ذلك هو المكان الآمن الطيب الذى استودعت فيه ثروتنا يا فروخ.

* * *

سَلَمة بن دِينار

أبو حازم الأعرج

رضى الله عنه

(... ـ ١٤٠هـ)

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم:

ما رأيت أحدًا الحكمة أقرب إلى فيه من أبى حازم.

عالم المدينة وقاضيها وشيخها:

جذوره تمتد إلى الأصل الفارسى؛ فقد كان آباؤه وأجداده من طبقة الأوائل الذين أسلموا مبكرين، ودخلوا فى دين الله رغبة لا رهبة، ثم نزحوا عن ديارهم إلى أصول ومنابع الدعوة، وألفوا الحياة ما بين مكة والمدينة، ما بين حرم الله تعالى وحرم رسوله ﷺ، وانتمَوا إلى بطن من بطون قريش بالولاء، فكانوا مخزوميِّين.

رفع سلمة عينيه وقلبه وبصره وبصيرته على الحرمين الشريفين، وقد حفلاً بالعلم والعلماء، من البقية الطيبة من صحابة رسول الله ﷺ، ورءوس التابعين، يعقدون الحلقات، ويقدمون أشهر الوجبات، وأصفى الشراب، علمًا موصولاً بكتاب الله تعالى وسنة نبيه المصطفى ﷺ.

وكان سلمة بن دينار - رضى الله عنه - موهوبًا، حادَّ الذكاء، شديد الفطنة، لماحًا، يتمتع بواعية قل نظيرها، وحافظة لا تبارى ولا تجارى، فأقبل على العلم إقبال النهم الظامئ حتى شبع وروى، وغدا فى الطليعة. فكان عالم المدينة فى عصره وأيامه، ومرجع أهل الفتوى والمشورة، فإذا ما قال وأفتى كان فى ذلك الفصل والفضل، فلا يعتدّ بغيره، ولا يؤخذ إلا برأيه.

وعليه فقد أسند إليه منصب القاضى للفصل فى الأحكام والخصومات، وما عرف عنه إلا الحق ونصاعة الكف، وطهارة الذيل.

ومع وجود العدد الكثير من مشاهد التابعين فى المدينة إلا أن سلمة بن دينار تقدمهم جميعا فى غلو الصيت وذيوع الشهرة، فى العلم والحكمة، حتى عرف - أيضا - بشيخ المدينة.

أبو حازم - الأعرج:

وعرف أيضا بكنيته، أبى حازم، حتى إن كثيرا من المترجمين والمؤرخون آثروا ذكره وتعريفه بكنيته دون اسمه؛ لشده الشهرة وغلبتها، وقد يضاف إلى هذه الكنية صفة خلقية له، وهى: الأعرج، فيقال: الأعرج.

وهذه العاهة - أو غيرها - لا تؤثر فى مقادير الرجال، ورفعة مكانتهم، فالمَخبر هو الحقيقة، والمظهر هو الطلاء الخارجى، وسرعان ما يزول، ولكن كيف؟

شمس الحكمة:

لقد تفاعلت فى ذات أبى حازم - رضى الله عنه - أنوار التنزيل، فأضاءت قلبه بنور فياض، وتجاوبت بين جوانحه روائع الكلمات الزاخرات البينات من الحديث الشريف، بمنطوقها ومفهومها ودلالاتها.

ومن ثم تولدت لديه الحكمة والموعظة الحسنة، وطفرت على لسانه، أقوالاً تنزل من النفوس والأرواح نزول الغيث على الأرض العطشى، ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1].

---

(١) تمامها: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٩].

بين أبى حازم وسليمان بن عبد الملك:

أو بين عالم وأمير، وهما رمزان للصنفين اللذين أخبر عنهما رسول الله ﷺ أنهما إذا صَلَحا صلح الناس، وإذا فسدًا فسد الناس. ولقد قدم الحديث الشريف العلماء على الأمراء لفظًا وَمعنًى؛ لما للعالم الصالح من تأثير ووقع.

وإليك الواقعة: قصد سليمان بن عبد الملك أيام خلافته سنة سبع وتسعين من الهجرة الديارَ المقدسة ليؤدى فريضة الحج، وكثيرًا ما كان يحج.

وبعد أن أتم حجه وقضى تفثه[1]، وأدى المناسك هاج به الشوق إلى المدينة المنورة للصلاة فى الروضة الشريفة، والسلام على رسول الله ﷺ، فأتاها فى موكب الخلافة، تحف به الحاشية والركائب. وبعد أن نزلها وروّى ظمأه بعث إلى عالمها وقاضيها وشيخها سلمة بن دينار يستدعيه إليه؛ ليسمع منه ويتعظ بأقواله؛ فقد كان سليمان ـ رحمه الله ـ يسمع عما بلغه سلمة من رفعة المنزلة فى العلم، فأحب أن ينال من ذلك الخير، ويصيب من ذلك الفضل، ولم يكن يعرفه معرفه مواجهة وحضور. والذى دعاه إلى ذلك أن سلمة لم يأته فى منزله الذى نزله ليرحب بقدومه ويسلم عليه، كما فعل الكثيرون، فأراد أن يراه ويجالسه، ويطمئن إلى حاله.

لكن أبا حازم ـ رضى الله عنه ـ قال لرسول الخليفة سليمان: إن كانت له حاجه فليأت وأما أنا فما لى إليه حاجة. لم تأخذ سليمان العزة بالسلطان، بل تقبل الدعوة، وأكبر فى صاحبها أنفة العالم وكبرياءه، وقصد إلى أبى حازم، فلما أتاه عاتبه سليمان قائلا: ما هذا الجفاء يا أبا حازم؟ فقال أبو حازم: وأى جفاء رأيت منى يا أمير المؤمنين؟ قال سليمان: زارنى وجوه الناس ولم تزرنى. فقال أبو حازم: إنما يكون الجفاء بعد المعرفة يا أمير المؤمنين، وأنت ما عرفتنى قبل اليوم، ولا أنا رأيتك، فأى جفاء وقع منى؟

فالتفت الخليفة إلى الجلساء وقال: أصاب الشيخ فى اعتذاره، وأخطأ الخليفة فى العتب عليه. ثم وجه القول إلى أبى حازم، فقال: إن فى النفس شئونا أحببت أن أفضى بها إليك يا أبا حازم. فقال: هاتها يا أمير المؤمنين، والله المستعان. قال سليمان: ما بالنا نكره الموت يا أبا حازم؟ فقال أبوَ حازم: لأننا عمَّرْنا دنيانا وخرَّبنا آخرتنا، فكرهنا أن ننتقل من العمار إلى الخراب. فقال سليمان: صدقت! صدقت! ثم سأل: يا أبا حازم ما لنا عند الله تعالى؟ فقال أبو حازم: اعرض نفسك وعملك على كتاب الله عز وجل تجدْ ذلك. فقال سليمان: وأين أجده فى كتاب الله عز وجل؟ قال: تجده فى قوله ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣ ـ ١٤].

وَاستدرك سليمان فقال: إذًا فأين رحمة الله بعباده؟ فرد أبو حازم: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]. قال سليمان: قل لى يا أبا حازم، كيف قدَومنا على الله تعالى؟ قال أبو حازم: يختلف باختلاف العبيد، فالمتّقى لله، الخائف لمولاه يكون قدومه قدوم الغائب عن أهله وصحبه وأحبابه، فى شوق ولهفة. أما العاصى المذنب المجاهر بالسوء فيكون قدومه

(١) التفث فى المناسك ما كان من نحو قص الأظافر والشارب وحلق الرأس والعانة، ورمى الجمار ونحر البدن.

قدوم العبد الآبق يُجَرُّ إلى مولاه جراً. وبكى سليمان بكاء مرا، وانتحب حتى علا نحيبه، ولم تبق عين فى المجلس إلا دمعت.

ثم قال سليمان: يا أبا حازم كيف لنا أن نصلح؟ فقال: تدَعون عنكم الصلف، وتتحلَّون بالمروءة. قال سليمان: وهذا المال، ما السبيل إلى تقوى الله فيه؟ قال أبو حازم: إذا أخذتموه بحقه، ووضعتموه فى أهله، وقسمتوه بالسوية، وعدلتم فيه بين الرعية. قال الخليفة سليمان: أخبرنى يا أبا حازم مَن أفضل الناس؟ قال: أولو المروءة والتُّقى.

فقال سليمان: وما أعدل القول يا أبا حازم؟ قال: كلمة حق يقولها المرء عند من يخافه، وعند من يرجوه. قال سليمان: فما أسرع الدعاء إجابة يا أبا حازم؟

قال: دعاء المحسنين للمحسنين. ثم سأله: وما أفضل الصدقة؟ فقال: جهد المقل بضعه فى يد البائس الفقير من غير أن يتبعه من ولا أذى. قال سليمان: من أكيس[1] الناس يا أبا حازم؟ فقال أبو حازم: رجل ظفر بطاعة الله تعالى فعمل بها، ثم ذل الناس عليها. فقال سليمان: ومن أحمق الناس؟ فقال: رجل انساق مع هوى صاحبه، وصاحبه ظالم، فباع آخرته بدنيا غيره.

وارتفع رصيد الإعجاب بأبى حازم عند سليمان بن عبد الملك، وأخذ به، فأراد أن يجعله من خاصة أصحابه ومستشاريه، ليفيد منه، فقال له: يا أبا حازم أقم عندنا، أو صاحبنا، فتصيب منا، ونصيب منك. فقال أبو حازم: أخشى أن أركن إليكم قليلا، فيذيقنى الله ضعف الحياة وضعف الممات، أو أركن إلى الذين ظلموا فتمسنى النار. لم يَثُرْ سليمان، ولم يضطرب، بل أذعن وسمع، ثم قال: ارفع إلينا حاجتك يا أبا حازم. فسكت ولم يجب. فأعاد عليه سليمان الكرَّة وقال: ارفع إلينا حاجتك يا أبا حازم نقضها لك مهما كانت. فبتسم أبو حازم وقال: حاجتى - يا أمير المؤمنين - أن تنقذنى من النار، وتَدخلنى الجنة.

فقال سليمان: تعلم - يا أبا حازم - أن ذلك ليس من شأنى. فقال أبو حازم: لا حاجة لى غيرها. وقبل أن ينصرف الخليفة سليمان من مجلس أبى حازم، قال له: ادع لى يا أبا حازم. فبسط أبو حازم يديه، وقال: اللهم إن كان عبدك سليمان من أوليائك فيسره إلى خيرىْ الدنيا والآخرة، وإن كان من أعدائك فأصلحه واهده إلى ما تحب وترضى. فانتفض أحد الحاضرين من رجال حاشية الخليفة وقال: بئس ما قلت منذ جلس إليك أمير المؤمنين، فلقد جعلت خليفة المسلمين من أعداء الله وآذيته. فقال له أبو حازم: بل بئس ما قلت أنت؛ فلقد أخذ الله على العلماء الميثاق بأن يقولوا كلمة الحق؛ فقد قال تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

ثم وجّه وجْهه إلى الخليفة سليمان، وقال: يا أمير المؤمنين، إن الذين مضوا قبلنا من الأمم الخالية ظلوا فى خير وعافية ما دام أمراؤهم يأتون علماءهم رغبة فيما عندهم، ثم وجد قوم من أراذل الناس من تعلموا العلم وأتوا به الأمراء يريدون أن ينالوا به شيئًا من عرض الدنيا، فاستغنت الأمراء عن العلماء، فتعسوا ونكدوا وسقطوا من عين الله عز وجل. ولو أن العلماء زهدوا فيما عند الأمراء لرغب الأمرَاء فى علمهم، ولكنهم رغبوا فيما عند الأمراء، فزهدوا فيهم، وهانوا

عليهم. وأمَّنَ سليمان على ما قاله أبو حازم، وقال: صدقت يا أبا حازم. زدنى من موعظتك، عزمت عليك فى ذلك. فقال أبو حازم: عظِّمْ ربك - عز وجل - ونزِّهْه أن يراك حيث نَهاك، وأن يفقدك حيث أمرك، وقام سليمان وانصرف شاكرًا حامدًا.

ثم إنه أرسل إلى أبى حازم صرة من الدنانير، وكتب إليه رقعة قال فيها: أنفقها ولك عندى مثلها كثير. فردها أبو حازم وكتب على الرقعة نفسها: يا أمير المؤمنين، أعوذ بالله أن يكون سؤالك إياى هزلاً، وردِّى عليك باطلا. فوالله ما أرضى ذلك لك، يا أمير المؤمنين، فكيف أرضاه لنفسى؟! يا أمير المؤمنين، إن كانت هذه الدنانير لقاء حديثى الذى حدثتك به، فالميتة ولحم الخنزير فى حال الاضطرار أحلّ منها، وإن كانت حقا لى فى بيت مال المسلمين فهل سوَّيتَ بينى وبين الناس جميعا فى هذا الحق؟

المجاهد فى سبيل الله، بيده يحمل سيفًا، ولسانه ينطق حكمته:

وانخرط سلمه بن دينار فى عداد الجند الذاهبين إلى أرض الروم غازيا مجاهدا فى سبيل الله، تحت قيادة مسلمة بن عبد الملك - القائد المروانى الظافر.

وبعد لأى وبُعد مشقة وطول سفر دنا الجيش الإسلامى من غايته، وآثر القائدة مَسلمة أن يأخذ الجند قسطًا من الراحة؛ استعداداً للقتال، فأقام معسكره. وفى ليلة أرسل الأمير إلى أبى حازم يستدعيه، ليحدثه ويفقهه. فرد على الأمير، يقول: أيها الأمير، لقد أدركتُ أهل العلم وهم لا يحملون الدين إلى أهل الدنيا، ولا أحسبك تريد أن أكون أول من يفعل ذلك، فإن كانت لك حاجة فائتنا. والسلام عليك وعلى من معك.

فلما قرأ الأمير الجواب سعى إلى أبى حازم مسرعا، فسلم عليه، وقال: يا أبا حازم، لقد وقفنا على ما كتبته لنا فازددتَ به كرامةً عندنا وعزة لدينا، فذكِّرنا وعظْنا، جُزيت عنَّا خير الجزاء.

وانطلق أبو حازم تتدفق الموعظة والحكمة من فمه تدفُّق الماء الرقراق النمير. وكان مما قاله: انظر أيها الأمير - إلى ما تحب أن يكون معك فى الآخرة، فاحرص عليه فى الدنيا، وانظر إلى ما تكره أن يكون معك هناك، فازهد منه هنا. واعلم أيها الأمير أنه إن نفق الباطل عندك وراج أقبل عليك المبطلون المنافقون والتفوا حولك. وإن نفق الحق عندك وراج التفَّ حولك أهل الخير وأعانوك عليه، فخذ لنفسك ما يحلو.

حديث عبد الرحمن بن جرير:

وكانت حلقة أبى حازم فى المسجد النبوى الشريف فى المدينة المنورة مهوى القلوب والأفئدة، ومحط أنظار العلماء والصلحاء، تغص بهم، وتضيق بهم لكثرتهم. وكان بيته - رضى الله عنه - مقصد الزائرين، يأتونه من كل مكان، حتى الذين يَؤُمُّون المدينة من شتَّى الديار، فلا بد أن يلقوه ويسألوه، ويستزيدوا من رقائق مواعظه، وبليغ حكمته، ودرر أقواله، على مختلف مراتبهم ومكانتهم.

وها هو عبد الرحمن بن جرير ـ أحد أعلام التابعين ـ يحدثنا، ناقلاً إلينا خلاصة لقاء له مع أبى حازم وما اشتمل عليه هذا الحديث من رائع الموعظة، وسبر أغوار الحكمة، ولطيف القول.

سأله عبد الرحمن: كيف نحظى بالفتوح يا أبا حازم؟ (والمقصود بالفتوح يقظة القلب للتلقى من الله عز وجل). فقال أبو حازم: عند تصحيح الضمائر تغفر الكبائر، وإذا عزم العبد على ترك الآثام أمَّه الفتوح. ولا تنس ـ يا عبد الرحمن ـ أن يسير الدنيا يشغلنا عن كثير الآخرة، وكل نقمة لا تقربك من الله عز وجل فهى نقمة.

وكان مع عبد الرحمن بن جرير فى مجلسه، وزيارته لأبى حازم ولد له، فقال لأبى حازم: إن أشياخنا كثيرون، فبمن نقتدى منهم؟ فقال له أبو حازم: يا بنى اقتد بمن يخاف الله فى ظهر الغيب، ويعف عن التلبس بالعيب، ويصلح نفسه فى أوان الصِّبا، وَلا يرجئ ذلك إلى عهد الشيب. واعلم ـ يا بنى ـ أنه ما من يوم تطلع فيه الشمس إلا ويقبل على طالب العلم هواه وعلمه، ثم يتغالبان فى صدره تَغالُب المتخاصمين. فإذا غلب هواه علمه كان يومه يوم خسران عليه. وإذا غلب علمه هواه كان يوم غُنم له.

فقال له عبد الرحمن: كثيرًا ما حضضتَنا على الشكر يا أبا حازم، فما حقيقة الشكر؟ فقال: يا عبد الرحمن، بكل عضو من أعضائنا حق علينا من الشكر. فقال عبد الرحمن: فما شكر العينين؟ فقال: إن رأيت بهما خيرًا أعلنتَه، وإن رأيت بها شرّا سترتَه. وسأله عبد الرحمن: فما شكر الأذُنين؟ قال: إن سمعت بهما خيرًا وعَيتَه، وإن سمعت بهما شرّا دفنتَه. فقال عبد الرحمن: فما شكر اليدين؟ قال: أن لا تأخذ بهما ما ليس لك، وأن لا تمنع بهما حقا من حقوق الله. ثم أضاف: ولا يفُتْك ـ يا عبد الرحمن ـ أن من يقصر شكره على لسانه ولا يشرك معه جميع أعضائه وجَنانه فمثله كمثل رجل له كساء، غير أنه أخذ بطرفه ولم يلبسه، فإن ذلك لا يقيه من الحر ولا يصونه من البرد.

هذا وإن فى حياة الواعظ الفذّ أبى حازم أكثر من هذا بكثير، قد انتثر هنا وهناك فى بطون الكتب على مختلف أغراضها وفنونها، ذكرت فى حينها ووقتها للدلالة والاستشهاد. ولا يتسع المجال هنا لسردها كلها. ويكفينا أن قدمنا نماذج لما كانت عليه شخصية هذا التابعى الجليل، وما تحلى به من مزايا.

ويذكر أنه ـ رحمه الله ورضى الله عنه ـ عندما أزفت ساعته، وحان حينه سأله من حوله: كيف تجدك يا أبا حازم؟ فقال: لئن نجونا من شر أصبناه من الدنيا فما يضرنا ما زُوى عنا فيها، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

وما زال ـ رضى الله عنه ـ يرددها ويغرغر بها حتى صَعدت روحه إلى بارئها.

الأعمش

سليمان بن مِهْران

رضى الله عنه

(٦١ - ١٤٨هـ)

كان رأسا فى العلم النافع والعمل الصالح.

الذهبى

لم يُرَ السلاطين والملوك والأغنياء فى مجلس أحقر منهم فى مجلس الأعمش، مع شدة حاجته وفقره.

السخاوى

كان ثقة، عالما، فاضلا.

ابن خلّكان

السباعي:

يرى بعض البحاثين المختصين أن المولود لسبعة أشهر من الحمل يكون فيه طاقات عقلية ضخمة، وذكاء حاد، يقارب بهما العبقرية، مع بنية جسمانية قليلة الحجم، ضئيلة الجرم. وهكذا كان الأعمش رضى الله عنه.

ولقد ذكر ذلك ابن قتيبة فى كتابه المعارف، وعدَّ الأعمش فى جمله من حملت به أمه سبعة أشهر.

والواقع التاريخى المتواتر يشهد على ألسنة الخاصة والعامة بما ركب فى الأعمش من نبوغ أهّله لأن يكون رأسا فى الطبقة الأولى من علماء التابعين، الذين ورثوا العلم عن الصحابة، وحملوا أمانته، ونقلوه نقيا صافيا إلى من بعدهم، مضيفين إليه نتاج فكرهم، فأثروه بما تولد من قرائحهم.

الكوفى

اختط المسلمون الكوفة بأمر الخليفة الفاروق رضى الله عنه وأنشأوها، وجعلوها قاعدة منطلقهم إلى أقصى الشمال العراقى، وبلاد فارس وخراسان وما وراء النهر. ولقد اكتظت الكوفة بالجند وبالناس، وضاقت عليهم بما رحبت، وكثرت مساجدها وحفلت بالعدد العديد من الصحابة المجاهدين رضوان الله عليهم؛ مئات وألوفا.

ومن ثم أصبحت مقصدا للكثيرين من خلق الله من البشر، يأتونها على مختلف مشاربهم ورغباتهم وحوافزهم، بعضهم للانخراط فى الجيوش الغازية ابتغاء الأجر، وبعضهم طلبا للعلم بتحصيله من صدور الصحابة وألسنتهم، وبعضهم للكسب والتجارة، إلى آخر ما هنالك من المساعى.

ولقد نزلها والد الأعمش واسمه مهران سنة إحدى وستين للهجرة، آتيا إليها من بلد فى الرىّ إسمه دُنْباوند[1]، ودخل فى ولاء بنى كاهل. وعند نزوله بها كانت زوجته حاملا، ثم وضعت ولدها سليمان لسبعة أشهر من الحمل. وعليه فقد عرف رضى الله عنه فيما بعد بالكوفى ولم يشتهر إلا بهذا النسب.

طلب العلم:

لكل امرئ وجهة هو موليها. فمنذ صغره وصباه كان الأعمش ميالا إلى العلم، قد جُمع عقله وذكاؤه فى ضآلة جسمه ونحول بدنه، راغبا - قسرا - عن ميدان النزال والطعان إلى ميدان العلم، يخوض معامعه، ويغترف من بحوره.

وكانت الكوفة - كما أسلفنا - زاخرة بالناس، غاصة بالخلق، تموج بالأحداث الجسام، ولم يكن يوم الطفّ فى كربلاء ببعيد عن الأذهان والمشاعر؛ وما تبع ذلك من تجاذبات وتكتلات، وسفك دماء، وزهوق أرواح.

(١) اسم فارسى، وهى ناحية من رستاق الرى فى الجبال (ابن خلكان).

ولقد شهد أبوه مهران مقتل واستشهاد الحسين بن على رضى الله عنهما، ريحانة رسول الله ﷺ. كل ذلك كان يعتمل فى وجدان الأعمش، فى عمق وألم وحسرة، ولكنه غير مؤهل لأن يخوض مع الخائضين، لا بدنا ولا دراية؛ فآثر العلم على السياسة.

وبالرغم من ذلك كانت له مواقف وآراء، تشهد بالجرأة فى الحق، من غير أن يجرد سيفا أو رمحا؛ إذ كانت الكلمة عنده أشد حدة وأمضى.

وفى المساجد، فى بيوت الله، كانت الحلقات أشبه بفصول الجامعات وكلياتها، اختصاصات ومناهج وأساتذة، وإجازات. أمَّها الأعمش رضى الله عنه كلها، ودرس فيها. وتشاء الأقدار أن يكون أنس بن مالك رضى الله عنه خادم رسول الله ﷺ أحد الأعلام الذين تتلمذ الأعمش على يديه، وكذلك الصحابى الجليل عبدالله بن أبى أوفى رضى الله عنه، وأيضا كبار التابعين كالحسن البصرى وغيره.

الأعمش:

لقب ما اختاره لنفسه، ولا اختاره له الناس، بل الأقدار. فقد تعرض لمرض فى عينيه فى صغره، أصابه من بعد بالعمش. وهو ضعف فى البصر مع سيلان دمع. ولكنه - ولله الحمد - لم يصب فى بصيرته؛ إذ كانت وقادة وضاءة نافذة. ولم يجعل رضى الله عنه هذه العاهة همّا وأسى فى نفسه، بل اتخذها وسيلة وتكئة إلى دعابة ما فارقته أبدا.

سعة العلم:

هناك اختصاص فى تحصيل الأعمش رضى الله عنه من العلم؛ إذ برع فى مجالات ثلاثة: علوم القرآن، والحديث، والفرائض، وكان فى كل منها إماما وقدوة.

وجعلته مقصد المتعلمين وراغبى المعرفة. منهم الإمام الأعظم أبو حنيفة وسفيان الثورى، وشعبة بن الحجاج وحفص بن غياث، وغيرهم خلق كثير من جلة العلماء.

وعلوم القرآن الكريم لا تقتصر على التفسير والتأويل، بل تتطلب دراية واسعة بأسباب النزول، وفقها عميقا فى اللغة، والتاريخ، والأجناس، والبلاغة، وكثير غير ذلك. وقد أتقنها الأعمش إتقانا عظيما، واسعا، حتى أصبح فيها إماما ورأسا. أما الحديث فكان فيه الأعمش شيخًا، كما عرفه الحافظ ابن كثير رحمه الله.

وذكرت له فى كتب الصحاح والسنن عدة زادت على ألف وثلاثمائة حديث؛ وهذا يشهد له بطول الباع.

وعلم الفرائض - المواريث - فهو من العلوم الهامة التى حُضَّ عليها، وأمر بالعض عليها بالنواجذ، وطلبها وإتقانها. وقلائل من العلماء من اشتهر بها؛ وكان الأعمش رضى الله عنه أحد المبرزين فيها، يرجع إليه، ويعتمد عليه.

مجالسه العلمية:

توزع نشاط الأعمش العلمى بين المسجد وبيته؛ كان يجلس فى المسجد للدرس فيجتمع

حوله خلق كثير، فلا يترك مجالا لسائل أو مستفهم، فقد أوتى رحمه الله طلاقة فى اللسان، وإسهابا فى الشرح والبيان، وإلماما واسعا بجوانب الموضوع الذى يتحدث فيه وعنه. مما يجعل السامع والمتلقى مكتفيين بما يقال، وغير محتاجين إلى سؤال.

كل الحضور فى صمت وسماع؛ كبار القوم وصغارهم، عامتهم وخاصتهم. علماء وولاة، وأصحاب نفوذ، جميعهم لديه فى مستوى واحد. والويل، كل الويل، لمن أراد أن ينحرف عن وقار العلم واحترامه، بتعليق ساخر، أو عبارة جاهلة، أو غباء فاضح؛ فإن فى انتظاره لسان الأعمش الذى لا يرحم.

لذا قال السخاوى رحمه الله: لم يُر السلاطين والملوك والأغنياء فى مجلس أحقر منهم فى مجلس الأعمش، مع شدة حاجته وفقره.

أما بيته فلم يغلق بابه دون أى زائر ينشد علما ومعرفة. فكان يأتيه الناس على مختلف مراتبهم فى العلم، ومراكزهم فى السلطة، ينزل الكبراء منهم، من علياء حياتهم فى دورهم وقصورهم، إلى بيت متواضع بسيط، فى أثاثه وضيافته، ولكنه كبير، كبير فى عطائه العلمى.

ويحدثنا أبو معاوية الضرير فى واقعة طريفة ظريفة، حدثت للأعمش، كان الطرف الثانى فيها هشام بن عبدالملك الخليفة الأموى، وهشام هو من هو فى قوته وسلطانه، وشدة سطوته.

يقول أبو معاوية: بعث هشام بن عبدالملك إلى الأعمش أن اكتب لى مناقب عثمان ومساوئ على. وكان هشام يبغض الهاشميين بغضا شديدا، وفى أيامه كان استشهاد الإمام زيد بن على رضى الله عنه، وقد مثل بجثته تمثيلا فاحشا. ولقد أراد هشام أن يحرج الأعمش، ويستنطقه، ليأخذه بما يقول. فماذا فعل الأعمش؟

يقول أبو معاوية: فأخذ الأعمش القرطاس، وأدخلها فى فم شاة، فلاكتها، وقال لرسول هشام: قل له هذا جوابك. ففزع الرسول وانتابه الخوف؛ واسترحم الأعمش وقال: إنه قد آلى[1] إن لم آته بجوابك أن يقتلنى. كما استصرخ وجدان أهل المروءة من أصحاب الأعمش وخلصائه، ممن كان حاضرا عنده، أن يقنعوا الأعمش بالرد على كتاب أمير المؤمنين. فقالوا للأعمش وقد حنَّت قلوبهم للرسول المسكين: يا أبا محمد نجه من القتل، وساعدْه وترفّق به، حتى لا يكون ضحية صلف الخليفة وكبريائك أنت. فلما ألحوا عليه، كتب يقَول: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد - يا أمير المؤمنين -، فلو كانت لعثمان رضى الله عنه مناقب أهل الأرض ما نفعتك، ولو كانت لعلى رضى الله عنه مساوئ أهل الأرض ما ضرتك، فعليك بخويِّصة نفسك، والسلام.

وما من شك فى أن هذا الرد المفحم قد أخذ سبيله إلى عقل الخليفة وحسه، فاستكفى وسكن، وسكت.

المزاح:

هذه الشخصية العلمية الفذة، وهذا العملاق الذى تهابه السلاطين والملوك، وذووالنفوذ،

(١) آلى: أقسم.

كان فى الجانب الرضى الطيب صاحب دعابة لطيفة، ومزاح خفيف، لا يتورع عن أن يقوله عن نفسه إذا اقتضى الأمر، أو حبكت النكتة كما يقولون. .

وتلك السجية تذكرنا بالحطيئة الشاعر الهجّاء. إذ أعياه ذات يوم أن يجد من يهجوه - وكان دميما قبيح الوجه - فنظر فى المرآة فقال يهجو نفسه:

أرى لى وجها قبح الله خلقه فقُبِّحَ من وجه وقبح حامله

وأما الأعمش رضى الله عنه فإنه لم يسف أبدا فى كلمة نابية، أو فرية كاذبة، فى مزاحه ودعابته، متأدبا بأدب رسول الله ﷺ، الذى كان يمازح أحيانا أصحابه، ولا يقول إلا صدقا.

فقد روى عن الأعمش رضى الله عنه أنه جاءه إلى داره ذات يوم نفر من طلبة العلم فى الحديث، ليسمعوا منه، ويتعلموا. . فخرج إليهم حيث اعتادوا الجلوس، وقال لهم: لولا أن فى منزلى من هو أبغض إلى منكم، ما خرجت إليكم. (يقصد زوجته) قال ذلك على سبيل المداعبة والمزاح لهم؛ ولم يرد إيذاءهم. ويبدو أن زوجته، كانت فى غير الجو العلمى الذى نذر الأعمش له نفسه؛ وكانت فى فراغ وخواء من معرفة منزلة العلم والعلماء. وقد حدث يوما أن تلاحى معها فى الكلام، واشتدت هى عليه فى الإيذاء؛ ثم ندم على إحراجها الذى أفضى إلى هذا التوتر، فقصد إلى قريب لها، ليصلح بينهما، فأتاها قريبها من ذوى رحمها، وقال لها:

- لا تنظرى - يا أختاه - إلى عمش عينيه، وحموشة[1] ساقيه، فإنه إمام، وله قدر. يريد أن يرفع من منزلة الأعمش فى نظرها. فقال له الأعمش، وكان حاضرا المجلس: أخزاك الله، ما رأيت إلا أن تعرفها عيوبى.

أجوبة لاذعة:

كان لسان الأعمش ذربا، وردوده لاذعة، لمن تغافل فى السؤال، أو ظهرت منه البلاهة. ويضمنها النكتة السليطة.

وقد عرف عنه أصحابه ومعارفه ذلك؛ فكانوا يتحاشون إثارته حتى لا يصيبهم بلسانه؛ وقد يقع أحدهم فى المحظور، فيضطر لسماع التعليق الساخر، دون غضب أو غيظ.

سأله داود بن عمر الحائك: ما تقول يا أبا محمد فى الصلاة خلف الحائك؟ فقال له الأعمش: لا بأس بها على غير وضوء. فضحك الاثنان حتى استلقيا. ثم سأله: ما تقول فى شهادة الحائك أمام القاضى؟ فقال: تقبل مع عدلين. وأيضا ضحكا.

ويقال إن الإمام أبا حنيفة النعمان وكان صديقا صدوقا للأعمش - عاد الأعمش فى مرضه، وأطال الجلوس عنده، يحاول تسليته وتعزيته، والترويح عنه، وكان الأعمش يعانى الآلام وغير ميال إلى تسلية، بل إلى دواء يخفف عنه ألمه. فلما عزم أبو حنيفة على القيام، قال للأعمش: ما كأنى إلا أثقلت عليك؟ فقال له الأعمش: والله إنك لثقيل على وأنت فى بيتك.

ودخل عليه فى نفس المرض جماعة من أصحابه ليلاً لعيادته. فأطالوا الجلوس عنده، وكأنهم يسمرون؛ فنهض من فراشه ضجرا منهم، وحمل وسادته، يريد الخروج إلى غرفة

(١) حموشة ساقيه: دقتهما ونحولهما.

أخرى؛ وقال لأصحابه القاعدين : شفى الله تعالى مريضكم بالعافية، تصبحون على خير .

وكان ذات يوم فى مجلس علم، يحدث ويشرح ويبين؛ وقد أسهب فى الكلام عن فضيلة قيام الليل للصلاة والذكر والدعاء .

وأورد حديثا لرسول الله ﷺ يقول فيه : من نام عن قيام الليل بال الشيطان فى أذنه . ثم عقب الأعمش رضى الله عنه على الحديث، بقوله : ما عمشت عينى إلا من بول الشيطان فى أذنى .

ورعه وخوفه من الله تعالى

وإلى جانب العلم الغزير، والنفس الأبية، والروح المرحة، كان الأعمش رضى الله عنه على ورع وتقوى، ومراقبة لله تعالى من ذات نفسه . قال أحد معاصريه من أحبائه وتلامذته زائدة بن قدامة : تبعت الأعمش يوما، فأتى المقابر فدخل فى قبر محفور، فاضطجع فيه، ثم خرج منه وهو ينفض التراب عن رأسه، ويقول : وا ضيق مسكناه .

رضى الله عنه وأرضاه، وأكرم نزله ومثواه، وجزاه على علمه ودينه خير الجزاء وأوفاه .

* * *

أبو حنيفة

رضى الله عنهم

(٨٠ - ١٥٠ هـ)

مررت يوما على الشعبى وهو جالس؛ فدعانى، فقال لى: إلى أين تختلف؟ فقلت: أختلف إلى السوق. فقال: لم أعن الاختلاف إلى السوق، عنيت الاختلاف إلى العلماء، فقلت له: أنا قليل الاختلاف إليهم.

فقال لى: لا تغفل وعليك بالنظر فى العلم ومجالسة العلماء، فإنى أرى منك يقظة وحركة.

أبو حنيفة

الناس عيال فى الفقه على أبى حنيفة.

الإمام الشافعى

الأعظمية..

فى بغداد عاصمة العراق، والتى كان اسمها دار السلام يوم أنشأها أبو جعفر المنصور.. ثانى الخلفاء العباسيين، والتى كانت عاصمة دولة الخلافة العباسية، فيها حى يعرف باسم «الأعظمية» يثوى فيه جثمان الإمام أبى حنيفة النعمان بن ثابت رضى الله عنه. ولكن من أين جاء اسم الأعظمية؟

إنه مأخوذ مما اشتهر به اسم أبى حنيفة، ولصق به، فقد كان يعرف باسم الإمام الأعظم، تقديرا وعرفانا لمكانته العلمية.

إن أكرمكم عند الله أتقاكم

كان الإمام الأعظم - فى أرجح الروايات - فارسى الأصل، وقع جده فى السبى لما فتح المسلمون «كابل»، فكان ولاؤه لبنى تيم [1]، ثم أعتق.

وعلى الولاء لبنى تيم كانت نشأة أبى حنيفة.

ولم يكن نسبه الفارسى أو ولاؤه لبنى تيْم ليؤثرا على نفسية أبى حنيفة، أو يشعراه بغضاضة، مع النزوع الشديد آنذاك إلى الافتخار الأجوف بالنسب العربى عند الكثيرين.

ويروى أن رجلا من بنى تيم أحب أن يستفز أبا حنيفة، ويحقره، فقال له: أنت مولاى! فقال له أبو حنيفة، هادئا واثقا مطمئنا: أنا والله أشرف لك منى.

فالشرف فى الخلق والعلم والتقوى، وليس بالنسب، ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ و«لا فضل لعربى على أعجمى، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى» وصدق الله ورسوله.

التاجر

فتح أبو حنيفة عينيه فى الكوفة على متجر أبيه ثابت متأثر بنهجه وأسلوبه، فى البيع والشراء، وأتقن ذلك، وحذق فيه؛ وكان ميمون النقيبة، مبارك اليد، صادق الكلمة غير حلاف.

أما التجارة التى كان يمتهنها ثابت - والد أبى حنيفة رضى الله عنه فهى تجارة الخز، أى الأقمشة والثياب، والذى يعمل فيه يسمى «بزازا» ولذا عرف «أبو حنيفة» - رضى الله عنه- بالبزاز.

حفظ القرآن الكريم منذ نعومة أظفاره حفظا متقنا، ودأب على القراءة والفهم، واشتهر عنه أنه كان من أكثر الناس تلاوة، يختمه فى شهر رمضان ستين مرة.

وبحكم الجو العلمى الذى كانت تشتهر به «الكوفة»، كان أبو حنيفة، منذ بداية وعيه وإدراكه يتأثر بذلك إلى الحد الذى يشارك فيه بإبداء الرأى ووجهة النظر، فى أية قضية تعرض، أو تكون مجال بحث ومناقشة، سواء كان ذلك فى مسجد، أو مجتمع علم، أو لقاء عابر.

بين التجارة وطلب العلم

يحدثنا الإمام أبو حنيفة عن بدء اهتمامه بالعلم، فيقول: مررت يوما على عامر الشعبى وهو

(١) بنو تيْم أحد بطون قريش، ومنهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه.

جالس (أى: للدرس فى المسجد) فدعانى فقال لى: إلى أين تختلف؟ فقلت: أختلف إلى السوق. فقال: لم أعن الاختلاف إلى السوق، عنيت الاختلاف إلى العلماء. فقلت: أنا قليل الاختلاف إليهم. فقال لى: لا تغفل، وعليك بالنظر فى العلم ومجالسة العلماء، فإنى أرى فيك يقظة وحركة. فوقع فى قلبى من قوله، فتركت الاختلاف إلى السوق، وأخذت فى العلم، فنفعنى الله بقوله.

ولقد كان العراق بعامة آنذاك موطن العلم والعلماء، خصوصا مدينتيه العظيمتين: «الكوفة» و«البصرة». وكان فيه ملل ونحَل، ومدنيات قديمة. ومع ظهور الإسلام ودخوله تلك الديار، وفتح أقصى المشرق، ازدادت فيه نماذج وأجناس مختلفة من الأمم والشعوب.

كما كثرت فيه الاضطرابات والفتن، وتضاربت الآراء فى السياسة وأصول العقائد. كان سوقا كبيرة للعلم والرأى، والمجادلة والمناظرة. وكان لا بد لعقل واع فطن، مثل عقل أبى حنيفة أن يدلى بدلوه، ويعطى رأيه، ولكن باهتمام محدود.

فابتدأ وهو فى ميعة الصبا ومطلع الشباب يجادل مع المجادلين، وينازل بعض أصحاب المذاهب والآراء، دون أن يلتزم جهة معينة؛ وكان تصرفه هذا تصرفا عارضا وليس أصيلا، لأن كل اهتمامه كان ينصب على مهنة التجارة، التى أحبها كمهنة، بعد أن ورثها عن أبيه وجده.

ولقد لمح عامر الشعبى رضى الله عنه فى أبى حنيفة حدة الذكاء، وتوقد الذهن، وصفاء العقل، وقوة الحجة، فآثر أن يكون كل ذلك فى طلب العلم. فلا يضيع فى متاهات الدراهم والدنانير، ينفع به نفسه والناس، ويكون له حجة عند الله تعالى.

ومن ثم صار أبو حنيفة يختلف إلى العلماء، ولا يأتى السوق إلا قليلا. كان له متجر، وكان له فى هذا المتجر شريك[1] يسانده ويساعده، فكان يأتيه بين الحين والحين للاطلاع على الأحوال وسير الأمور، لا أكثر ولا أقل.

اختياره للفقه

كانت مواد العلم كثيرة ومتنوعة، بين علم الكلام[2]، والحديث الشريف وما يتفرع عنه، والأدب والنحو، والقراءات. وغير ذلك، وقد ألم بأكثرها ودرسها، ولكنه اختار الفقه تخصصا.

يقول رحمه الله ورضى عنه: ثم قلبت الفقه، فلما قلبته وأدرته لم يزد إلا جلالة، ولم أجد فيه عيبا؛ ورأيت الجلوس مع العلماء والفقهاء والمشايخ والبصراء، والتخلق بأخلاقهم، ورأيت أنه لا يستقيم أداء الفرائض، وإقامة الدين والتعبد إلا بمعرفته، وطلب الدنيا والآخرة إلا به.

ومن أراد أن يطلب الدنيا طلب به أمرا جسيما، وصار إلى رفعة فيها، ومن أراد العبادة لم يستطع أحد أن يقول تعبد بغير علم، وقيل: إنه فقه وعمل بعلم.

(١) اسم شريكه: حفص بن عبدالرحمن.

(٢) علم الكلام يدور حول أصول العقائد

شيخه حماد بن أبى سليمان

سمع أبو حنيفة رضى الله عنه كثيرا من مشايخ عصره، وكأنه يبحث عن أستاذ يلقى بين يديه عصا الترحال بعد طول تجوال، وأخيرا استقر على حماد بن أبى سليمان؛ وكان حماد علما بارزا، وحجة قاطعة.

ولازمه أبوحنيفة ملازمة التلميذ لأستاذه، والظل لظله، وامتد ذلك قرابة عقدين من السنين. حتى اختار الله تعالى حماداً إلى جواره، وكان أبوحنيفة قد استوى على عوده ونضج نضوجا باهرا فى العلم، وقدر له أن يجلس مكان أستاذه.

ويحدثنا الإمام الأعظم عن تلك الفترة فيقول: صحبته عشر سنين، ثم نازعتنى نفسى الطلب للرياسة، فأردت أن أعتزله وأجلس فى حلقة لنفسى، فخرجت يوما بالعشى، وعزمى أن أفعل، فلما دخلت المسجد ورأيته لم تطب نفسى أن أعتزله، فجئت وجلست معه.

فجاءه فى تلك الليلة نعى قرابة له قد مات بالبصرة، وترك مالا، وليس له وارث غيره، فأمرنى أن أجلس مكانه.

فما هو إلا أن خرج حتى وردت على مسائل، لم أسمعها منه، فكنت أجيب، وأكتب جوابى. ثم قدم، فعرضت عليه المسائل، وكانت نحوا من ستين مسألة، فوافقنى فى أربعين وخالفنى فى عشرين. فآليت على نفسى ألا أفارقه حتى يموت، فلم أفارقه حتى مات.

فلما توفى حماد جلس أبو حنيفة مكانه فى مسجد الكوفة، وأخذ يدارس تلاميذه فيما يعرض له من فتاوى ومسائل وأقضية، وكان ذلك فى سن الأربعين من عمره.

ولقد ميزه فى البحث والدرس عقل قوى قويم، ومنطق سوى مستقيم، حتى تسنى له أن يضع الطريقة الفقهية التى اشتق منها: المذهب الحنفى.

بين العلم والعمل

وكان رحمه الله يوزع وقته بين علمه وعمله، ويعطى كلا منهما حقه وقدره من الاهتمام، متبعا نصائح أشرف الخلق وخاتم الأنبياء، ومعلم الحكماء، رسول الله ﷺ، القائل: «أفضل المال الكسب من الحلال»، و«أطيب ما يأكله المرء من عمل يده»، و«من أمسى كالا على عياله أمسى مغفورا له».

وكما كان الإمام الأعظم رحمه الله نابغة فى العلم، كان أيضا تاجرا ناجحا موفقا. وليست كثرة المال وضخامة الثروة دليلا على النجاح فى التجارة، بل الصيت الحسن والسمعة الطيبة، وكثرة الزبائن وإقبال الناس هى المقياس الحقيقى.

جاءته امرأة بثوب من الحرير تبيعه له، فسألها: كم ثمنه؟ فقالت: مائة. فقال: هو خير من مئة، بكم تقولين؟ فزادت مائةً مائةً حتى بلغت أربعمائة درهم، فقال: هو خير من ذلك. فقالت: أتهزأ بى؟ فقال: هاتى رجلا يقومه، فجاءت برجل فاشتراه بخمسمائة درهم.

وجاءته امرأة فقالت: إنى ضعيفة وإنها أمانة، فبعنى هذا الثوب بما يقوم عليك، فقال: خذيه

بأربعة دراهم، فقالت: لا تسخر بى. وأنا عجوز، فقال: إنى اشتريت ثوبين، فبعت أحدهما برأس المال إلا أربعة دراهم، فبقى هذا الثوب على بأربعة دراهم.

وجاءه صديق يطلب إليه ثوب خز على وصف ولون عينهما، فقال له أبوحنيفة: اصبر حتى يقع وآخذه لك. . إن شاء الله تعالى. فما دارت الجمعة حتى وقع، فمر به الصديق، فقال له: قد وقعت حاجتك، وأخرج إليه الثوب، فقال: كم إذاً؟ قال: درهما، فقال الصديق: ما كنت أظنك تهزأ بى، قال أبوحنيفة: ما هزأت، إنى اشتريت ثوبين بعشرين دينارا ودرهم، وإنى بعت أحدهما بعشرين دينارا، وبقى هذا بدرهم.

وأما بنعمة ربك فحدث

يظن بعض الناس أن التدين: دروشة، وأن الزهد فى الدنيا هلهلة ثوب، وحفاء أقدام. وكل ذلك مظاهر لا تمت إلى الدين ولا إلى الزهد بأدنى صلة.

لذا كان إمامنا الأعظم أبو حنيفة رضى الله عنه حريصا كل الحرص على أن يكون مظهره حسنا كمخبره تماما، دونما إسراف، فكان كثير العناية بثيابه، يختارها جيدة، كثير التطيب، ويتعهد نعله. يقول عنه صاحبه أبو يوسف:

كان كساؤه يقوم بثلاثين دينارا، وكان يتعهد بشسعه حتى لم ير متقطع الشسع[1].

وفى مجلس علم فى المسجد رأى على أحد جلسائه ثيابا بالية رثة، فتأذى من ذلك، فلما انتهى الدرس، وقام كل التلامذة، وأراد الرجل الانصراف فاستبقاه أبو حنيفة، حتى اختلى به، ثم قال له: ارفع المصلى[2] وخذ ما تحته. فرفع الرجل المصلى، فكان تحته ألف درهم، فقال له أبوحنيفة: خذ هذه الدراهم فغير بها من حالك، فقال الرجل: إننى موسر، وأنا فى نعمة، ولست أحتاج إلى دراهمك. فقال له أبو حنيفة: أما بلغك قول الله تعالى: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾؟ أما بلغك حديث رسول الله ﷺ: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»؟ فينبغى لك أن تغير حالك، حتى لا يغتم بك صديقك.

ويروى أيضا: أنه كان رحمه الله، ورضى عنه، يجمع الأرباح عنده من سنة إلى سنة، ليشترى بها حوائج الأشياخ والمحدثين، وأقواتهم وكسوتهم، وجميع ما يلزمهم؛ ثم يدفع باقى الدنانير من الأرباح إليهم، ويقول لهم: أنفقوا فى حوائجكم، ولا تحمدوا إلا الله تعالى، فإنى ما أعطيتكم من مالى شيئا، ولكن فضل الله علىّ فيكم.

أبو حنيفة وآل بيت رسول الله ﷺ

كان حب آل البيت إرثا طيبا حمله أبوحنيفة بين جوانحه، وجوارحه، إذ كان أبوه ثابت قد التقى الإمام عليا - رضى الله عنه - فى الكوفة وعايشه وعاشرة، وأهدى إليه ذات يوم الفالوذج[3]، فدعا له على بالبركة فيه وفى ذريته.

(١) الشسع: رباط النعل.

(٢) المصلى: ما يصلى عليه من حصير أو سجاد.

(٣) الفالوذج: (كلمة فارسية) وتعنى نوعا من الحلوى يعمل من الدقيق والماء والعسل.

وعلى هذا نشأ أبوحنيفة ؛ فكان شديد الحب لآل البيت. ولقد أوقعه ذلك فى كثير من المتاعب والمشاكل، سواء فى العهد الأموى أو العباسى.

ففى عام مائة وواحد وعشرين ثار زيد بن على بن الحسين بن علىّ على هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى، وكان أبوحنيفة من مؤيدى زيد، وأمده بعشرة آلاف درهم، لكنه لم يخرج معه لقتال، وأبدى فى ذلك عذره.

هذا الموقف ترك انطباعا سيئا فى نفوس الأمويين، وأضمروا له الشر. وبعد انقضاء الأمر، والقضاء على ثورة زيد وبنيه[1] جاء دور الحساب لأبى حنيفة على ما قدمت يداه. وتولى أمر ذلك الوالى على الكوفة يزيد بن عمر بن هبيرة، وكان فظا غليظا قاسيا.

فجمع ابن هبيرة فقهاء العراق: ابن أبى ليلى وابن شبرمة وداود بن أبى هند. فولى كل واحد منهم عملا، وأرسل إلى أبى حنيفة ، فأراد أن يجعل الخاتم فى يده، فلا ينفذ كتاب إلا من تحت يده، يريد بذلك حمل أبى حنيفة على الولاء لبنى أمية قسرا وقهرا، أو إغراءً بالإكثار من المسؤوليات والمهام.

فامتنع أبو حنيفة، فحلف ابن هبيرة إن لم يقبل أبوحنيفة بما عهد إليه أن يضربه. فجاء الفقهاء ابن أبى ليلى وابن شبرمة وداود بن أبى هند إلى أبى حنيفة يقولون: إننا ننشدك الله أن لا تهلك نفسك، فإنا إخوانك، وكلنا كاره لهذا الأمر، ولم نجد بدا من ذلك.

فأجابهم أبوحنيفة: والله لو أرادنى أن أعُد له أبواب مسجد واسط[2] لم أدخل فى ذلك، فكيف وهو يريد منى أن يكتب دم رجل يضرب عنقه، وأختم أنا على ذلك الكتاب؟! فوالله لا أدخل فى ذلك أبدا. وأصر على ذلك؛

فقال ابن أبى ليلى لزملائه: دعوا صاحبكم، فهو المصيب وغيره المخطئ. هو على الحق، ونحن على الباطل إذ رضينا بالأمر خوفا أو طمعا.

سجن وضرب وصمود

ألقى القبض على أبى حنيفة وسيق مقيدا بالأغلال إلى السجن، وضرب ضربا مبرحا، مؤلما شديدا، أياما متتالية، حتى فقد وعيه، لا يستنجد ولا يستغيث، ولا يقول: نعم، وبقى صامدا كالجبل الأشم لا تهزه العواصف والأعاصير مهما اشتدت.

وجاء سجانه إلى ابن هبيرة يقول له: إن الرجل ميت لا محالة إن استمرينا على ضربه وتعذيبه.

فقال ابن هبيرة لصاحب الشرطة (السجان): قل له: تخرجنا من يميننا وتحلنا من قسمنا وتقبل بالعمل؟

فعاد صاحب الشرطة إلى أبى حنيفة يخبره بما قاله الوالى ابن هبيرة، فقال له أبو حنيفة: أخبر صاحبك لو سألنى أن أعد له أبواب المسجد ما فعلت.

(١) يحيى وعبدالله.

(٢) واسط: المدينة التى بناها الحجاج بن يوسف فى العراق.

ولقد تحير ابن هبيرة ماذا يفعل؛ ثم قال: ألا ناصح لهذا المحبوس أن يستأجلنى فأؤجله؟

الحمى الآمن، بيت الله الحرام

تبلغ أبو حنيفة ما قاله ابن هبيرة. ورآها فرصة للخلاص من السجن والضرب، فقال: دعونى أستشر إخوانى، وأنظر فى ذلك.

قال ذلك، وقد أزمع فى نفسه أمرا. أخلى سبيله، وخرج من السجن وهو فى غاية الإرهاق والإعياء. وبعد أيام قلائل انطلق إلى مكة المكرمة، ونزل بالحرم الشريف، آمنا مطمئنا.

وكان ذلك سنة ثلاثين ومائة هجرية، وظل فى جوار حرم الله إلى قيام الدولة العباسية، بعدها عاد إلى الكوفة، زمن أبى جعفر المنصور.

وليس معنى ذلك أن الإمام أبا حنيفة رحمه الله لم يغادر مكة إطلاقا، بل كان يتحين الفرص ويقوم بزيارات خاطفة إلى الأمصار، ومنها الكوفة مسقط رأيه، وملعب صباه، وميدان علمه وعمله.

وصادف وجوده ذات مرة دخول أبى العباس السفاح الكوفة، وقد زال عهد الأمويين، وسلطانهم، وجمع العلماء، وقال لهم: إن هذا الأمر قد أفضى إلى أهل بيت نبيكم، وجاءكم الله بالفضل، وإمام الحق، وأنتم معاشر العلماء أحق من أعان عليه، ولكم الحباء والكرامة، والضيافة من مال الله ما أحببتم، فبايعوا بيعة تكون عند إمامكم حجة لكم وعليكم، وأمانا فى معادكم، لا تلقوا الله بلا إمام فتكونوا ممن لا حجة له.

فنظر القوم بعضهم إلى بعض، ثم صوبوا جميعا أنظارهم إلى أبى حنيفة، وكأنهم يستنجدون به، برأيه الناصح، وقوله الصائب ومنطقه القويم السليم، فأدرك ذلك، فقال لهم: إن أحببتم، أتكلم عنى وعنكم؟ فقالوا: قد أحببنا ذلك.

فقام فقال: الحمد لله الذى بلغ الحق من قرابة نبيه ﷺ، وأمات عنا جور الظلمة، وبسط ألسنتنا بالحق، قد بايعناك على أمر الله، والوفاء لك بالعهد إلى قيام الساعة، فلا أخلى الله هذا الأمر من قرابة نبيه ﷺ.

فأجابه أبو العباس بجواب جميل، وقال: مثلك من خطب عن العلماء، لقد أحسنوا اختيارك، وأحسنت فى البلاغ.

فلما خرجوا من بين يدى السفاح سألوا أبا حنيفة: ما أردت بقولك: إلى قيام الساعة؟ فقال: أردت أن أقول لأبى العباس: إن احتلتم على احتلت عليكم، وأسلمتكم للبلاء.

صاحب حجة ومنطق

من أهم ما تمتعت به شخصية الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه أنه كان صاحب حجة قوية، ومنطق سليم، يروى أنه دخل ذات مرة على الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه يزوره. وكان عند مالك جماعة من أصحابه، لم يكونوا قد عرفوا أبا حنيفة من قبل، فلما خرج من الزيارة قال مالك لجلسائه: أتدرون من هذا؟ فقالوا: لا. قال مالك: هذا النعمان بن ثابت، هذا الذى لو قال عن

هذه السارية[١] إنها ذهب لاحتج لما قال، ولخرجت كذلك.

والواقع أن أبا حنيفة رضى الله عنه قد طفحت كتب التاريخ والسير والتراجم بأخباره ومواقفه مع مناوريه ومحاوريه، وتفوقه عليهم وإحجاجه لهم.

ومن طريف ما يروى أن رجلا من أهل الكوفة قد أضله الله تعالى؛ وكان ذا مكانة فى الناس، وصاحب كلمة مسموعة، كان يزعم أن عثمان بن عفان رضى الله عنه ذا أصل يهودى، وأنه بقى مبطنا لمعتقده طيلة حياته!

وسرت هذه الشائعة والفرية فى الناس، وراحوا يرددونها، حتى إن بعضهم صدقها وآمن بها، فقصده أبوحنيفة رضى الله عنه؛ وقال له بعد السلام والتحية: لقد جئتك خاطبا ابنتك لأحد أصحابى.

فقال له الرجل: مرحبا بك وأهلا، ومثلك لا يرد طلبه، ولكن قل لى: من الخاطب؟

فقال أبو حنيفة: رجل معروف بين القاصى والدانى بالشرف والغنى، مبسوط اليد بالعطاء، سخى جواد، ذو مروءة وهمة، حافظ لكتاب الله تعالى، يقوم ليله ويصوم نهاره، كثير الخوف من الله تعالى.

فقال الرجل لأبى حنيفة: حسبك يا أبا حنيفة، تكفينى خصلة واحدة مما ذكرت لى كى أقبل به، ومثله لا يرد.

واستدرك أبو حنيفة فقال: ولكن فيه خصلة لا بد من بيانها لك، حتى تقف على الحقيقة بكاملها.

قال الرجل: وما هى؟ قال أبوحنيفة: إنه يهودى. فهب الرجل واقفا، وانتفض كمن لدغته أفعى وقال: يهودى؟! أتريد منى يا أبا حنيفة أن أزوج ابنتى من يهودى؟!

والله لا أزوجها له ولو جمع الشرف كله.

عندئذ، قال له أبو حنيفة: تأبى أن تزوج بنتك من يهودى، وتنكر ذلك أشد الإنكار، ثم تزعم للناس أن رسول الله ﷺ قد زوج ابنتيه[٢] كلتيهما من يهودى.

فاضطرب الرجل، وأحس كأن الأرض تميد به، ثم قال: أستغفر الله من قول سوء قلته، وأتوب إليه مما افتريت، وأعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ومع أحد الخوارج

وجاءه يوما أحد الخوارج يقول له: تُبْ يا أبا حنيفة. فانتفض أبو حنيفة وقال: ومم أتوب أيها الرجل؟

فقال الخارجى: من قولك بجواز التحكيم بين على ومعاوية.

فتبسم أبوحنيفة وقال: هل تقبل أن تناظرنى فى هذا الأمر؟

قال الخارجى: نعم. أقبل، ولا حجة لك.

---

(١) السارية: العمود الأسطوانى.

(٢) رقية وأم كلثوم رضى الله عنهما.

فقال أبو حنيفة: فإن اختلفنا فى شيء مما نتناظر به فمن يحكم بيننا؟

فقال الخارجى: حكم من تشاء..

فالتفت أبو حنيفة الى رجل كان مع الخارجى، وقال له: أنت تحكم بيننا فيما نختلف فيه.

ثم قال للخارجى: لقد رضيت بصاحبك، فهل ترضى به أنت؟

فسر الخارجى، وقال: نعم. وكيف لا أرضى به، وهو على رأيى؟

عندئذ، قال أبو حنيفة: ويحك، أتجوز التحكيم فيما نختلف فيه، وتنكره على اثنين من صحابة رسول الله ﷺ؟ فبهت الخارجى الذى ادعى وفجر، وقام يجر أذيال الخيبة والفشل.

بينه وبين الدهرى

كانت الفتن فى المروق من الدين، أو الطعن فيه وعليه، قد استفحلت واشتدت، كما رأينا فى الحادثتين السابقتين؛ وكان أعظم منهما خطرا ما نادى به طائفة من الناس، قد تأثروا بنزعات الإلحاد، التى وفدت على الدولة من خلال الأجناس والأفكار والكتب، التى زخرت بها الحركة الفكرية والعلمية آنذاك.

اولئك هم الدهريون الذين يقولون: ﴿ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ (الجاثية - ٢٤) أو الطبيعيون الذين يكفرون بالخالق عز وجل؛ ويؤمنون أن الكون قد وجد بذاته، والمادة هى أصل كل شيء.

ولقد وجد من يقول بذلك فى أيام أبى حنيفة رضى الله عنه، ويتبعه بعض الجهلة أو الزنادقة. وأراد أبو حنيفة مناظرة ذلك الدجال المخرف.

وتحدد المكان والزمان، وحضر الدهرى واجتمع الناس، ولكن أبا حنيفة لم يحضر. فأخذ الدهرى يزهو بنفسه ويقول:

لقد خشى صاحبكم من الهزيمة، وآثر الهروب من المناظرة، ولو جاء كما وعد وتوعد، لألحقت به من الصغار والهوان ما يخجل به بين الناس.

ثم أطل على الجمع أبو حنيفة رضى الله عنه، وهو بادى التعب والإرهاق، وهو يتصنع ذلك، فلما سئل عن سبب تأخره، قال: لقد جئت شاطيء النهر فجلست أنتظر المركب الذى يقلنى إليكم، وطال انتظارى، فإذا بى أرى مشهدا عجبا.

لقد قطعت الشجرة التى كنت استظل بها، ثم نشرت ألواحا؛ ثم جمعت فكانت مركبا، وله مجدافان، فركبت باسم الله مجريها ومرساها، وأخذت فى التجديف، وأصابنى التعب والنصب حتى وافيتكم.. فى مجلسكم هذا.

نظر بعض الناس إلى بعض وهم فى دهشة مما يسمعون، وأسقط فى أيديهم، لقد جُنّ أبو حنيفة، ففقد عقله وأخذ يهذى، فكيف له بمقارعة هذا الدهرى ومناظرته.

وقطع حبل الصمت قهقهة الدهرى، وقال: ألا تسمعون ما يقول إمامكم، لقد أصيب بلوثة. إنه يزعم أن الشجرة قطعت وصارت مركبا، من تلقاء نفسها، ويريدنا أن نصدق ذلك.

فقال أبو حنيفة: أنت وأمثالك تقولون بأغرب من ذلك؛ فكيف تستنكر منى ما

أقـول وتدعــى أن الكون كله، من غير خــالق، من غير صانع. من غير مدبر منظم. الحجة عليك لا لك.

فبهــت الذى كفر. وتصايح الناس بنداءات التوحيد: لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله..

بين أبى حنيفة وأبى جعفر المنصور

وكان أبو جعفر المنصور يدنى أبا حنيفة ويعليه، ويرفع قدره، ويقدم له العطايا الجزيلة، فيـردها بلطف وأدب. ولقـد عـاتبـه المنصـور على ذلك وقـال له: لم لا تقبل صلتى؟ فـقـال أبوحنيفة: ما وصلنى أمير المؤمنين من ماله بشىء فرددته، ولو وصلنى بذلك لقبلته، إنما وصلنى أمير المؤمنين من بيت مال المسلمين، ولا حق لى فى بيت مالهم، إننى لست ممن يقاتل من ورائهم فآخذ ما يأخذ المقاتل، ولست من ولدانهم فآخذ ما يأخذ الولدان، ولست من فقرائهم فآخذ ما يأخذ الفقراء.

أبو حنيفة يقضى بين المنصور وزوجته

وقع بين المنصور وزوجته ابنة عمه شقاق وخلاف، بسبب ميله عنها إلى غيرها، فطلبت منه العدل، فقال لها: من ترضين فى الحكومة بينى وبينك؟

فقالت: أبو حنيفة النعمان بن ثابت. فرضى هو أيضا، وأرسل إليه فجاءه، فقال له: يا أبا حنيفة الحرة تخاصمنى، فأنصفنى منها.

فقال أبو حنيفة: ليتكلم أمير المؤمنين. فقال المنصور: يا أبا حنيفة كم يحل للرجل أن يتزوج من النساء، يجمع بينهن؟

قال: أربع. قال المنصور: وكم يحل من الإماء؟ فقال أبوحنيفة: ما شاء، ليس لهن عدد.

قال المنصور: وهل يجوز لأحد أن يقول غير ذلك؟ فقال أبوحنيفة: لا.

عندها قال المنصور لزوجته الحرة: قد سمعت، وكانت تجلس وتسمع وراء حجاب.

ثم قال ابوحنيفة: يا أمير المؤمنين، إنما أحل الله هذا لأهل العدل، فمن لم يعدل، أو خاف أن لا يعدل فينبغى أن لا يجاوز الواحدة، قال الله تعالى ﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾. فينبغى لنا أن نتأدب مع الله، ونتعظ بمواعظه.

فسكت أبو جعفر، وطال سكوته، فقام أبو حنيفة وخرج.

فلما بلغ داره أرسلت إليه الحرة - زوج المنصور - خادما ومعه مال وثياب وجارية وحمار، فردها أبو حنيفة وقال للخادم: أقرئ سيدتك سلامى، وقل لها: إنما ناضلت عن دينى، وقمت بذلك المقام لله تعالى، لم أرد بذلك تقربا إلى أحد، ولا التمست به دنيا.

الخلاف بين أبى حنيفة والمنصور

وظل أبو حنيفة رضى الله عنه على ولائه لأبى جعفر حتى قامت الخصومة بين العباسيين والطالبيين.

وكان أول الخارجين على أبى جعفر محمد بن عبدالله بن الحسن الملقب بالنفس الزكية، ثم

بعده أخوه إبراهيم، وكلاهما أصابه القتل على يد المنصور.

وقد اشتد المنصور فى ملاحقة الطالبيين، دون هوادة ولا رحمة، ولا وازع من قربى وصلة رحم. هنا اتخذ أبو حنيفة موقف المعارض. لم يحمل سيفا، ولم يخرج مع جيش، لكن كانت فتاويه وآراؤه أشد من وقع السيف على أبى جعفر.

ولقد حاول أبوجعفر أن يجد موقفا واحدا على أبى حنيفة ليأخذه به. فلم يوفق، إذ كان رضى الله عنه شديد الحرص فى تفادى المواجهة، وفى نفس الوقت لا يتردد عن المصارحة. والصدوع بكلمة الحق.

العامل فى سور بغداد

كان المنصور يبنى مدينة دار السلام بغداد، فأرسل إلى أبى حنيفة ليوليه القضاء عليها، فامتنع أبوحنيفة، وأصر الخليفة المنصور على موقفه.

وقال أبو حنيفة: لو كلفت العمل مع البنائين فى سور دار السلام ما تأخرت، ولن أتولى القضاء. فقبل منه المنصور آملا فى إذلاله، وكسر شوكة أنفته، وانخرط أبو حنيفة رضى الله عنه مع العمال، كواحد منهم، فى نقل الأحجار والطين، وغير ذلك.

واشتد المنصور فى تتبع تحركات أبى حنيفة، وترصد تصرفاته، وأقواله وفتاويه، ويحصى عليه أنفاسه، بانتظار سقطة أو هفوة يتخذها ذريعة للانتقام منه. حتى كانت الوقعة التالية:

يروى أن أهل الموصل انتقضوا على أبى جعفر، وكان قد اشترط عليهم إذا انتقضوا حلت دماؤهم.

فجمع المنصور العلماء والفقهاء والقضاة، وكان أبو حنيفة من بينهم، وكان المنصور يخاطب الجميع: أليس صح أن رسول الله ﷺ قال: «المؤمنون عند شروطهم» يلتزمون بها؟

وأهل الموصل قد اشترطوا (على أنفسهم) أن لا يخرجوا عليّ، وها هم قد خرجوا وانتقضوا، ولقد حلت دماؤهم فماذا ترون؟

فقال أحد الحاضرين: يا أمير المؤمنين، يدك مبسوطة عليهم، وقولك مقبول فيهم، فإن عفوت فأنت أهل العفو، وإن عاقبت فبما يستحقون.

والتفت المنصور إلى أبى حنيفة يسأله ويستنطقه ليوقع به:

ما تقول أنت يا شيخ؟ ألسنا فى خلافة نبوة؟ وبيت أمان؟

فقال أبوحنيفة: إنهم شرطوا لك ما لا يملكونه، وشرطت عليهم ما ليس لك، لأن دم المسلم لا يحل إلا بإحدى ثلاث[1]. فإن أخذتهم أخذت بما لا يحل، وشرط الله أحق أن يوفى به.

عندئذ أمر المنصور جميع من حضر بالتفرق، باستثناء أبى حنيفة، فقد استبقاه، ثم قال له: يا شيخ إن العدل ما قلت؛ انصرف إلى بلدك، ولا تفت الناس بما هو شين على إمامك، فتبسط أيدى الخوارج.

---

(١) كفر بعد إيمان، وزنى بعد إحصان، وقتل نفس بغير حق.

مرة أخرى

وكان أبو حنيفة رضى الله عنه ينتقد قضاء القضاة بشدة، ويبين عوار أحكامهم، فاتخذ المنصور هذا الموقف ذريعة للخلاص من أبى حنيفة. فاستدعاه إليه، ووجه له منصب القضاء.

فقال له أبو حنيفة: يا أمير المؤمنين، اتق الله ولا ترع أمانتك إلا من يخاف الله، ووالله ما أنا بمأمون الرضا، فكيف أكون مأمون الغضب، ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتنى أن تغرقنى من الفرات أو أن ألى الحكم لأخترت أن أغرق، لك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك، فلا أصلح لذلك.

فغضب المنصور وقال: كذبت. . أنت تصلح. فتبسم أبو حنيفة وقال: لقد حكمت على نفسك، كيف يحل لك أن تولى أمانتك من هو كذاب؟

ولم يطق المنصور هذا الحوار، وشعر بأنه أمام جبل راسخ، فأمر بإيداعه السجن، ويضرب مائة وعشرة أسواط، على مشهد من العامة.

فكان يحمل رضى الله عنه إلى خارج السجن ويضرب كل يوم عشرة أسواط، ويطاف به، ثم يعاد إلى محبسه.

وبعد أيام قلائل أدركه الوهن، فدعا ربه قائلا: اللهم أبعد عنى شرهم بقدرتك.

وهيأ الله تعالى لأبى حنيفة من خاصة المنصور من كلمه فى شأنه، فأخرج من السجن، ومنع من الفتوى، والجلوس للناس فى المساجد، والخروج من المنزل.

وهكذا يخاف الحكام الطغاة من العلماء الأحرار. وظل الإمام الأعظم على تلك الحال حتى توفاه الله تعالى إليه. وكان ذلك سنة خمسين ومائة من الهجرة. رحمه الله - وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء وأوفاه.

❊ ❊ ❊

عبدالرحمن الأوزاعى

إمام أهل الشام

رضى الله عنه

(٨٨ - ١٥٧ هـ)

لم أر أحدا أنصح للمسلمين من الأوزاعى.

محمد بن عجلان

ما رأيت أحدا أشد اجتهادا من الأوزاعى فى العبادة.

الوليد بن مسلم

عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس، وإياك وأقوال الرجال، وإن زخرفوه وحسنوه؛ فإن الأمر ينجلى وأنت منه على طريق مستقيم.

الأوزاعى

هـذه العجـالة عن الإمام الجـليل عبدالرحمن بن عـمرو الأوزاعى غيض من فيض مما كتب عنه. وحـفلت بهـا حيـاته. وصـورة لإمـام عظـيم وتابعى جليل، كـان بحـرا زاخـرا بالعلم؛ صـاحب كلمـة ومـوقف، بل إن شـئت قلت: مـواقف. كـمـا كـان نمطا مـتـمـيـزا فى السلوك الشخصى والعام.

عند مدخل بيروت عاصمة الجمهورية اللبنانية - من الناحية الجنوبية، عند الضـاحية، محلة عـامرة بنبض البناء الحديث، وكثير من العشوائيات، تعرف بمحلة الأوزاعى، نسبة إلى الإمام عبدالرحمن بن عمرو الأوزاعى، فقيه أهل الشام، رحمه الله ورضى عنه.

هناك.. وفوق كثيب رملى، يقوم مسجد متواضع، فيه قبر الإمام عند الجهة القبلية، وقد أضيف إليه حديثا مسجد كبير بمئذنة عالية سامقة، ويفصله عن الطريق العام حديقة غناء، فيها مختلف أنواع الأزهار والرياحين.

فى البداية كان أهل الفضل والتقوى يقيمون مساكنهم هناك على سبيل التبرك والمجاورة للمسجد، يرتادونه فى أوقات الصلاة لأدائها جماعة، ولقد جمح بعضهم فجعل من المكان الذى يحيط بالقبر زاوية لحلقات الذكر على طريقة فرق الصوفية، وما يزال بعضهم يفعل ذلك إلى يومنا هذا.

غير أن فوضى الحياة، ونمطية انعدام النظام، وغياب السلطة، أو تغاضيها، أدى بالكثيرين إلى ركوب الموجة العارمة، فانعدمت إلى حد بعيد جلالة المكان وروحانيته.

وأصبحت محلة الأوزاعى صورة لا تليق إطلاقا بما تعورف عليه بالتنظيم المدنى، واختفى المسجد الصغير المتواضع، الذى يضم قبر هذا الإمام الجليل، ولولا المسجد الحديث الذى ذكرناه قبل لما كان هناك أى دليل.

الأوزاعى

اختلف النسابون كثيرا فى نسب الأوزاعى رضى الله عنه، ولكنهم أجمعوا على نسبه العربى، وأصله اليمنى، هاجرت قبيلته من الجزيرة العربية، ونزلوا فى ضاحية من ضواحى دمشق تعرف باسم الأوزاع عند باب الفراديس. ومن هنا كانت النسبة.

وعمل أبوه فى خدمة دواوين الأمويين، وكان عالما فاضلا؛ وبحكم عمله انتقل إلى مدينة بعلبك[1] فى الشمال الشرقى من سهل البقاع اللبنانى، وأقام فيها؛ وفيها كانت ولادة إمامنا الأوزاعى رحمه الله سنة ثمان وثمانين للهجرة.

اليتيم والأم الفاضلة

توفى الأب، وكان الأوزاعى طفلا رضيعا، فنشأ يتيما؛ وهنا يتجلى دور الأم، الأم الفاضلة العالمة الصالحة، فقد تولت بنفسها تنشئة يتيمها وأحسنت توجيهه، وكان كلما شب قليلا رأت فيه النبوغ وحب العلم وقوة الاستيعاب وحدة الذكاء، فأولت كل ذلك اهتمامها، وجندت نفسها وإمكاناتها لتوفير الجو الملائم والمناسب.

---

(١) لا تزال قائمة إلى يومنا هذا، وفيها القلعة الرومانية الشهيرة.

وحين قصرت بعلبك عن العطاء العلمى للفتى الناهض نزحت به أمه إلى دمشق، ونزلت منزلها الأول، فى الأوزاع.

وراحت تعمل وتكد، وتوفر لولدها أسباب المعاش لينكب على الدرس والتحصيل، فلا يشغله شيء، تراه ينهل من ينابيع العلم، ويغرف منها، حتى أصبح - وقد اشتد عوده - علما من الأعلام الكبار، يشار إليه بالبنان، فى حفظ الحديث وإتقانه إتقانا فائقا متميزا. أضف إلى ذلك براعته فى الفقه، الذى اعترف له به أساطين عصره. ولم تمض سنوات حتى كان إمام أهل الشام، وصاحب مذهب مميز.

يقول الأستاذ محمد كرد على فى كتابه «خطط الشام»: وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى - البيروتى - كان إمام أهل الشام وعالمهم، قيل إنه أجاب فى سبعين ألف مسألة، وصار يعمل بمذهبه فى الشام نحو مائتى سنة؛ وآخر من عمل بمذهبه أحمد بن سليمان بن جندلم، قاضى الشام. وعمل بمذهبه أهل الأندلس أربعين سنة، ثم تناقص المذهب بمذهب الإمام مالك رحمه الله.

وكان الأوزاعى عظيم الشأن بالشام، وأمره فيهم أعز من أمر السلطان؛ وكان مع علمه بارعا فى الكتابة والترسل.

شهادة العلماء له

قال إسماعيل بن عياش: سمعت الناس سنة أربعين ومائة يقولون: الأوزاعى اليوم عالم الأمة.

وقال الوليد بن مسلم: ما رأيت أكثر اجتهادا فى العبادة من الأوزاعى.

وقال أبو مسهر: كان يحيى الليل صلاة وقرآنا وبكاء.

وقال عنه أبو زرعة: لم يكن فى أبناء الملوك والخلفاء والوزراء والتجار وغيرهم، أعقل منه، ولا أورع ولا أعلم، ولا أوفر ولا أحلم، ولا أكثر صمتا منه، ما تكلم بكلمة إلا كان المتعين على من سمعها من جلسائه أن يكتبها عنه، من حسنها، وكان يعانى[1] الرسائل والكتابة، وقد اكتتب[2] مرة فى بعث إلى اليمامة وفى اليمامة التقى بيحيى بن أبى كثير الذى كان يسمع عن علمه وفضله، فلما رآه وجالسه ازداد إعجابه به؛ وانقطع إليه فترة، يحفظ عنه.

هذا بكاء الشيخ

كان ليل الأوزاعى رحمه الله عبادة، صلاة وقرآنا وبكاء. دخلت إحدى النساء من جيرانه على امرأته، فرأت الحصير التى يصلى عليها بالليل مبلولة فى بقعة، فقالت لزوجته: لعل صبيا بال هنا، فانضحيها[3] بالماء، فقالت الزوجة: هذا أثر دموع الشيخ من بكائه فى سجوده، وهكذا تصبح كل يوم.

---

(١) يعانى: يمارس.

(٢) اكتتب: تطوع.

(٣) انضحيها بالماء: رشيها

الأوزاعى ومالك والثورى

ويروى لنا سفيان بن عيينة عن واقعة شهدها بنفسه، تبين مكانة الأوزاعى فى عصره، يقول: كان الأوزاعى إمام أهل زمانه، وقد حج مرة، فدخل مكة وسفيان الثورى آخذا بزمام جمله، ومالك بن أنس يسوق به؛ والثورى يقول: أفسحوا للشيخ[1]، حتى أجلساه عند الكعبة، وجلسا بين يديه، يأخذان عنه.

وشهد مالك للأوزاعى رحمهما الله تعالى فقال: كان الأوزاعى إماما يقتدى به.

وتناظر الأوزاعى وسفيان الثورى فى مسجد الخيف فى منى أثناء موسم الحج، وذلك فى مسألة رفع اليدين فى الركوع، والرفع منه، فاحتج الأوزاعى على الرفع، بما رواه عن الزهرى عن سالم عن أبيه أن رسول الله ﷺ كان يرفع يديه فى الركوع والرفع منه. واحتج الثورى بحديث ليزيد بن أبى زياد. . فغضب الأوزاعى وقال للثورى: تعارض حديث الزهرى بحديث يزيد بن أبى زياد، وهو رجل ضعيف. فاحمر وجه الثورى. فقال له الأوزاعى: قم بنا حتى نلتعن عند الركن[2] أينا على الحق، فسكت الثورى.

وروى يحيى القطان عن مالك رحمه الله قال: اجتمع عندى الأوزاعى والثورى وأبو حنيفة. فقلت - أى يحيى يسأل مالكا: أيهم أرجح؟ قال: الأوزاعى.

إلى بيروت

لقد طوف إمامنا الأوزاعى فى بلاد الإسلام، شرقا وجنوبا، فزار العراق والحجاز واليمن وكانت رحلاته وسفرياته لا تعدو أمرين: طلب العلم، أو أداء الفريضة، فريضة الحج.

ومع مطلع العقد الثالث بعد المائة؛ اضطربت أحوال الدولة الأموية، وبدأ سلطانها على العراق وخراسان ينحسر ويتضاءل، وأخذ نجمها بالأفول على يد العباسيين. ووقعت الواقعة بسقوطها وزوال حكمها ١٣٢هـ.

وكانت هذه الفتن تقض مضجع إمامنا الأوزاعى رضى الله عنه شفقة على دماء المسلمين، التى كانت تجرى هنا وهناك، وعلى الأرواح التى زهقت، لا عطفا أو تأييدا لسلطان بنى أمية أو لجهة الثائرين عليهم، فقد كان رحمه الله ممن لا يخشون فى الحق لومة لائم، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، أيا كانت الجهة أو الفئة أو الحاكم.

واضطر رضى الله عنه مع اقتراب العباسيين من دمشق إلى النزوح عنها، والنزول إلى الساحل الشامى عند مدينة بيروت، وكان فى ذلك الحين أشبه بقرية ساحلية.

ويقال بأنه - كما حدثت بعض مصادر التاريخ - كان يريد المرابطة فيها، وليس هروبا من جيوش العباسيين، إذ لم تكن بينه وبين أحد من الناس، كبيرهم وصغيرهم، أميرهم وحقيرهم، عداوة إلا فى الله تعالى.

ويحدثنا إمامنا رحمه الله عن اختياره لبيروت بنفسه فيقول: وأعجبنى فى بيروت أنى مررت

---

(١) يعنى بكلمة الشيخ: الأستادية فى العلم، وليس التقدم فى السن.

(٢) أى: نأتى الكعبة فنقف عند الركن (الحجر الأسود) وهناك ندعو الله تعالى أن يجعل لعنته على الكاذب منا.

بقبورها[١]، فإذا امرأة سوداء فى القبور، فقلت لها: يا هنتاه أين العمارة؟

فقالت: إن أردت العمارة فهى هذه - وأشارت إلى القبور -، وإن كنت تريد الخراب فأمامك - وأشارت إلى البلد - فعزمت على الإقامة فيها.

وهناك حط الرحال وألقى عصا التسيار، وأقام بأهله، واتخذ له مصلى، واتصل بالناس، فعرفوا فيه العالم الفاضل، التقى الورع، العابد الزاهد، فأقبلوا عليه.

فى مواجهة العباسيين

لما دخل عبدالله بن على - عم السفاح - إلى دمشق - وقد زال ملك الأمويين، طلب الأوزاعى، الذى طبقت شهرة علمه الآفاق، وله المنزلة الرفيعة فى قلوب الناس، ليناقشه ويحاجه، ويستنزله على رأيه، ويطويه تحت سلطانه.

فتأخر حضور الأوزاعى ثلاثة أيام لوجوده فى بيروت وبعده عن دمشق.. ونترك الحديث لإمامنا الجليل يحدثنا بنفسه عن تلك المواجهة. يقول رحمه الله ورضى الله عنه:

فدخلت عليه وهو على سرير[٢]، وفى يده خيزرانة، والمسودة[٣] عن يمينه وشماله، معهم السيوف مصلتة[٤]، فسلمت عليه، فلم يرد، ونكت[٥] بتلك الخيزرانة التى بيده، ثم قال: يا أوزاعى، ما ترى فيما صنعنا من إزالة أيدى أولئك الظلمة عن البلاد والعباد؟ أجهاد هو؟

فقلت: أيها الأمير سمعت يحيى بن سعيد الأنصارى يقول: سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو إلى امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

فنكت بالخيزرانة أشد مما كانت ينكت، وجعل من حوله يقبضون أيديهم على سيوفهم، ثم قال: يا أوزاعى، ما تقول فى دماء بنى أمية؟

فقلت: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب[٦] الزانى، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

فنكت بها - أى بالخيزرانة - أشد من ذلك، ثم قال: ما تقول فى أموالهم؟

فقلت: إن كانت فى أيديهم حراما، فهى حرام عليك أيضا، وإن كانت لهم حلالا، فلا يحل لك إلا بطريق شرعى.

فنكت أشد بما كان ينكت قبل ذلك، ثم قال: ألا نوليك القضاء؟

---

(١) عند قرية: فى ضاحيتها تسمى «حنتوس».

(٢) السرير: المقعد الوثير العالى.

(٣) المسودة: العباسيون وجندهم، إذ كان شعارهم لبس السواد.

(٤) مصلتة مشرعة.

(٥) نكت: حرك وأثار التراب.

(٦) الثيب: المحصن المتزوج.

فقلت: إن أسلافك لم يكونوا يشقون على فى ذلك، وإنى أحب أن تتم ما ابتدأونى به من الإحسان.

فقال: كأنك تحب الانصراف؟

فقلت: إن ورائى حُرُمًا، وهم محتاجون إلى القيام عليهن وسترهن، وقلوبهن مشغولة بى.

ويضيف الإمام الأوزاعى قائلا: وانتظرت رأسى أن يسقط بين يدى. فأمرنى بالانصراف، فلما خرجت إذا رسول من ورائى، وإذا معه مائتا دينار، فقال: يقول لك الأمير[1] استنفق بهذه. فتصدقت بها، وإنما أخذتها خوفا.

ما أروعه موقفًا! وما أعظمها عبرة!

إنها الصورة المشرقة والمشرفة، التى كان عليها أئمتنا وروادنا، جرأة فى الحق وعلما لا يتجر به، ونصيحة صادقة للولاة والحكام، من غير نفاق ولا رياء ولا ممالأة.

موعظة من مواعظه رضى الله عنه

وينقل لنا كاتبه الهقل بن زياد إحدى مواعظه رضى الله عنه فيقول: اتقوا بهذه النعم التى أصبحتم فيها على الهرب من نار الله الموقدة، التى تطلع على الأفئدة، فإنكم فى دار الثواء[2] فيها قليل، وأنتم عما قليل عنها راحلون، خلائف بعد القرون الماضية، الذين استقبلوا من الدنيا ألفتها وزهرتها، فهم كانوا أطول منكم أعمارا، وأمد أجساما، وأعظم إجلالا، وأكثر أموالا وأولادا، فخدوا[3] الجبال، وجابوا الصخر بالواد، وتنقلوا فى البلاد مؤيدين ببطش شديد، وأجساد كالعماد، فما لبثت الأيام والليالى أن طوت آثارهم، وتغيرت منازلهم وديارهم، فهل تحس من أحد أو تسمع لهم ركزا؟

كانوا يتطلبون الدنيا ويطيلون الأمل آمنين، وعن ميقات يوم موتهم غافلين، فأبوا إياب قوم نادمين، ثم إنكم قد علمتم الذى نزل بساحتهم بياتا من عقوبة الله، فأصبح كثير منهم فى ديارهم جاثمين[4]، وأصبح الباقون المتخلفون ينظرون فى نعم الله وينظرون فى نقمته، وزوال نعمته عمن تقدمهم من الهالكين، ينظرون - والله - فى مساكن خالية، قد كانت بالعز محفوفة، وبالنعم معروفة، والقلب إليها مصروف، والأعين إليها ناظرة، فأصبحت آية للذين يخافون العذاب الأليم، وعبرة لمن يخشى، وأصبحتم من بعدهم فى أجل منقوص، ودنيا مقبوضة، فى زمان قد ولى عفوه، وذهب رخاؤه وصفوه، فلم يبق منه إلا حمة[5] شر، وصبابة قدر، وأهاويل عبر، وعقوبات غبر، وأرسال فتن، وتتابع زلات، ورذالة خلف، بهم ظهر الفساد فى البر

(١) الأمير هو: عبدالله بن على بن عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب، عم أبى جعفر المنصور، ولاه السفاح حرب مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية، استولى على بلاد الشام وقطع دابر الأمويين، وكان شغوفا بالدماء، وظل على إمارة الشام حتى خلافة المنصور، ثم اختلفا ودعا لنفسه، فحاربه أبو جعفر، وكانت المعركة الفاصلة فى نصيبين، فقبض عليه وحبس، ومات فى السجن سنة ١٤٧هـ.

(٢) الثواء. الإقامة.

(٣) خدوا الجبال. نحتوا فيها الأخاديد واتخذوها بيوتا ومساكن وقصورا.

(٤) إشارة إلى قوم هود وصالح ولوط عليهم السلام.

(٥) الحمة: السواد الشديد الفاحم.

والبحر، يضيقون الديار، ويغلون الأسعار، بما يرتكبون من العار.

فلا تكونوا أشباها لمن خدعه الأمل، وغره طول الأجل، ولعبت به الأمانى، فنسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم ممن إذا دُعى بادر، وإذا نهى انتهى، وعقل مثواه، فهدى لنفسه.

بين الأوزاعى وقدرى

مع كثرة الفتوح الإسلامية، واختلاط العرب بالفرس والترك والروم وغيرهم، ظهرت أفكار غريبة عن الإسلام، وبدع ومنكرات عقلية، وكثرت الفتن، فتصدى لها العلماء الأعلام ووقفوا فى وجهها، واضطروا من أجل ذلك أن يخوضوا فى المنطق والفلسفة ليردوا عن مجتمعهم وأمتهم غائلة الإفساد العقائدى.

من تلك البدع القدرية، وهى نزعة مروق وزندقة، تعطل فى الإنسان عقله، وتحجر عليه حرية الإرادة فى الاختيار، وبذا تنعدم المسؤولية، ويكون الثواب والعقاب هباء، ويمحى العدل باختلال الموازين القسط.

سمع الخليفة هشام بن عبدالملك [1] برجل قدرى يبث فى الناس سمومه، فأمر بإحضاره، وسأله فلم ينكر، وأراد الخليفة ضرب عنقه لارتداده واتقاء شره.

فقال القدرى: ادع من شئت من العلماء فيجادلنى، فإن أدركت على بسبب فقد أمكنتك من علاوتى (رأسى).

فقال له هشام: أنصفت، وهذا حقك. ثم بعث هشام إلى الأوزاعى، عالم الشام المفرد، آنذاك؛ فلما حضر، قال له: يا أبا عمر، و ناظر لنا هذا القدرى.

قال الأوزاعى للقدرى: اختر إن شئت ثلاث كلمات، وإن شئت أربع كلمات، وإن شئت واحدة. فقال القدرى: بل ثلاث كلمات. فقال له الأوزاعى رضى الله عنه: أخبرنى عن الله عز وجل: هل قضى على ما نهى؟ فقال القدري: ليس عندى فى هذا شىء. فقال الأوزاعى: هذه واحدة. ثم سأله: أخبرنى عن الله عز وجل: هل حال دون ما أمر؟ فقال القدرى: هذه أشد من الأولى. ما عندى شىء فى هذا. فقال الأوزاعى رضى الله عنه: هذه اثنتان، يا أمير المؤمنين. ثم قال للقدرى: أخبرنى عن الله عز وجل: هل أعان على ما حرم؟ فقال القدرى: هذه أشد من الأولى والثانية، ما عندى فى هذا شىء.

فالتفت الأوزاعى إلى هشام وقال: يا أمير المؤمنين هذه ثلاث كلمات.

فقال هشام: يا أبا عمرو فسر لنا هذه الكلمات الثلاث.

فقال الأوزاعى: نعم يا أمير المؤمنين. أما تعلم أن الله تعالى قضى على ما نهى؟ لقد نهى آدم عن الأكل من الشجرة، ثم قضى عليه بأكلها فأكل منها.

يا أمير المؤمنين، أما تعلم أن الله تعالى حال دون ما أمر؟ لقد أمر إبليس بالسجود لآدم، ثم حال بينه وبين السجود.

يا أمير المؤمنين، أما تعلم أن الله تعالى أعان على ما حرم؟ لقد حرم الميتة والدم ولحم الخنزير، ثم أعان عليه بالاضطرار.

(١) كانت وفاته سنة ١٢٥ هـ.

انفرجت أسارير الخليفة، وقال للقدرى: قاتلكم الله، إنما أنتم أعوان الشيطان، وفى خوض تلعبون، وبعقول الناس تفسدون، إضرب عنقه يا غلام.

وأخذ القدرى لتنفيذ العقوبة جزاء وفاقا. وانبسط هشام للأوزاعى وقال له: يا أبا عمرو، أريد أن أستزيد من علمك وفقهك؛ أخبرنى عن الكلمة الواحدة، ما كنت تقول له؟

قال أبو عمرو: كنت أقول له: أخبرنى عن مشيئتك مع مشيئة الله عز وجل، أو مشيئتك دون مشيئة الله عز وجل؟ فبأيها أجاب حل ضرب عنقه.

قال هشام: بارك الله فيك، ومتعك بإيمانك، ومتع المسلمين بعلمك. أخبرنى عن الأربع كلمات، ما هن؟

قال الأوزاعى: كنت أقول له: أخبرنى عن الله عز وجل حيث خلقك، خلقك كما شاء أو كما شئت؟ فإنه يقول: كما شاء. فأقول له: أخبرنى عن الله عز وجل: يتوفاك إذا شئت أو إذا شاء؟ فإنه كان يقول: إذا شاء، فأقول له: أخبرنى عن الله عز وجل إذا توفاك، أين تصير، حيث شئت أو حيث شاء؟ فإنه كان يقول: حيث شاء.

يا أمير المؤمنين، من لم يمكنه أن يحسن خَلقه، ولا يزيد فى رزقه، ولا يؤخر فى أجله، ولا يقيد نفسه حيث شاء، فأى شىء فى يده من المشيئة؟

فقال له هشام: صدقت يا أبا عمرو.

ثم قال الأوزاعى: يا أمير المؤمنين إن القدرية ما رضوا بقول الله تعالى، ولا بقول الأنبياء، ولا بقول أهل الجنة، ولا بقول أهل النار، ولابقول الملائكة، ولا بقول أخيهم إبليس. فأما قول الله تعالى: ﴿ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (القلم: الآية ٥٠). وأما قول الملائكة: ﴿لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ (البقرة: الآية ٣٢). وأما قول الأنبياء عليهم السلام، فقد قال شعيب ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ (هود: الآية ٨٨)، وقال إبراهيم: ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ (الأنعام: الآية ٧٧)، وقال نوح: ﴿وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ (هود: الآية ٣٤). وأما قول أهل الجنة: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ (الأعراف: الآية ٤٣). وأما قول أهل النار: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ (إبراهيم: الآية ٢١)، وأما قول إبليس: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ (الحجر: الآية ٣٩).

بين الأوزاعى وأبى جعفر المنصور

زار المنصور دمشق وصادف وصوله إليها وجود الإمام الأوزاعى فى زيارة، فأرسل إليه يستدعيه؛ وكان قد سمع بفضله وعلمه، فأحب لقاءه والسماع منه.

حضر الأوزاعى ووعظ ونصح، فازداد إعجاب المنصور به، ولما أراد الانصراف طلب أن يأذن له الخليفة بعدم لبس السواد، الذى كان شعار العباسيين، فأذن له، فلما أصبح خارج الديوان، أرسل المنصور حاجبه الربيع وراء الأوزاعى وقال له: اسأله لم كره لبس السواد؟ ولا تعلمه أنى قلت لك.

فسأله الربيع: لم كرهت لبس السواد يا أبا عمرو؟ فأجابه الأوزاعى رضى الله عنه فقال: لأنى لم أر محْرما أحرم فيه، ولا ميتا كفن فيه، ولا عروسا جليت فيه، فلهذا أكرهه.

وهنا يظهر لنا بجلاء: ذكاء الأوزاعى الحاد، وسرعة خاطره، وحضور ذهنه، وصراحته، وجرأته.

ألا ترى أنه رضى الله عنه قد جمع فى جوابه بين العبادة، والحزن، والفرح بمقولة واحدة؟!

ولقد كثرت رسائل الإمام الأوزاعى إلى الخليفة أبى جعفر المنصور، فى النصح والتوجيه، ومراقبة الله عز وجل، وكان ذلك بطلب من الخليفة، أن لا يقطع عنه توجيهاته وإرشاداته، رغم ما كان عليه أبو جعفر من صلابة وقسوة واعتداد.

ومن بين تلك الرسائل قول الأوزاعى رحمه الله ورضى عنه: أما بعد. فعليك يا أمير المؤمنين بتقوى الله عز وجل، وتواضع يرفعك الله تعالى يوم يضع المتكبرين فى الأرض بغير الحق. واعلم أن قرابتك من رسول الله ﷺ لن تزيد حق الله عليك إلا وجوبا.

إلى القبلة

وصورته رضى الله عنه حين وفاته، ولقاء ربه، تدعو إلى التفكر والتدبر، والاتعاظ والاعتبار. فقد أراد أن يغتسل فى يوم بارد قارص، فأوقدت له زوجته كانون فحم وأدخلته الحمام ليدفأ. ثم أغلقت الباب. فلما هاج الفحم واشتد، وأصيب الإمام بدوار، حاول فتح الباب فلم يفلح، وسقط أرضا، ثم أسلم الروح. وبعد حين، وقد شغلت عليه زوجته، لتأخره، فتحت الباب من الخارج، فوجدته رضى الله عنه متوجها إلى القبلة، متوسدا خده بكفيه.

رضى الله تعالى عن الإمام الأوزاعى، القدوة الصالحة فى القول والفعل، والعلم النافع، وألحقنا به فى الصالحين من عباده.

* * *

إبراهيم بن أدهم

(أبو إسحاق رضى الله عنه)

(- ١٦١هـ)

كان إبراهيم جلا فاضلا، له سرائر ومعاملات بينه وبين الله عز وجل. وما رأيته يظهر تسبيحا ولا شيئا من عمله، ولا أكل طعاما مع أحد إلا كان آخر من يرفع يده.

عبدالله بن المبارك

إبراهيم بن أدهم ثقة مأمون، أحد الزهاد.

الإمام النسائى

قلة الحرص والطمع تورث الصدق والورع، وكثرة الحرص والطمع تورث الغم والجزع.

إبراهيم بن أدهم

إبراهيم بن أدهم

علم فى الزهد، ورأس فى الورع، وأنموذج فريد فى الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة، اختلطت فى سيرته الحقيقة بالأسطورة، وتاهت بين المعقول والمنقول، حتى بدت كأنها خرافة، ولم تقصر أيدى العابثين، فجعلوا منه سيرة شعبية وحكاية.

والرجل - رضوان الله عليه - بما كان منه، فى حياته العامة والخاصة، من أعلام التابعين، علما وفضلا وأثرا وجبلا شامخا يعلو ويسمو فوق الترهات والأباطيل.

لقى الأعمش ومحمد بن زياد صاحب أبى هريرة وإسحاق السبيعى وأبا حازم[١] وقتادة بن دعامة السدوسى ومالك بن دينار، فحفظ منهم، ونقل عنهم.

وحدث عنه خلق، منهم سفيان الثورى [٢] وأبو إسحاق الفزارى والأوزاعى[٣] رضى الله عنهم أجمعين.

ونحن بإذن الله تعالى نحاول أن ننقل إلى القارئ العزيز الصورة المشرقة الصافية، الخالصة من كل شائبة، النقية من كل زيف لمواقف إبراهيم بن أدهم والعبرة منها، ونسلكه رضى الله عنه فى سلك العقد مع أعلام التابعين كما يجب وينبغى.

انفصال لا انفصام

كان الشاب إبراهيم ابنا لرجل من أهل بلخ [٤] واسع الغنى كثير المال، عريض الثروة، يحيا حياة الملوك والسلاطين فى بذخ وترف؛ وكان ابنه إبراهيم قد تأدب وتربى على يد نخبة من العلماء، فأتقن اللغة، وحفظ القرآن الكريم، والحديث الشريف، واطلع على كثير من العلوم والمعارف.

وكان يحب التعاطى مع الأرض، وظهر فيه هذا الميل من خلال الضياع والمزارع التى يملكها والده، وتفيض بحَبِّها وثمرها عليهم رزقا واسعا ومالا حلالا.

كان يمتطى صهوة جواده فيجول ويصول فى تلك الأرض الشاسعة، ويقف أحيانا على الفلاحين والعمال المزارعين يرقب عملهم، ويحن على جهدهم بلطيف القول وحلو الكلام، وينفح المجدين بعض الدراهم تشجيعا؛ فيدعون له بالدعوات الصالحات.

وفى ذات يوم، وهو فى تجواله، لمح عن بعد ثعلبا، فتحركت فى ذاته رغبة الصياد - وكان ماهرا حذقا - فهمز بحذائه بطن الجواد، وأرخى له العنان، فانطلق يعدو كالريح نحو الثعلب. وفجأة جذب إبراهيم اللجام، وشده إليه، وتوقف عن المطاردة.

لقد سمع هاتفا من قربوس[٥] سرج الجواد يناديه ويقول له: ما لهذا خلقت.. ولا بهذا أمرت.

---

(١) سلمة بن دينار.

(٢) سفيان الثورى أمير المؤمنين فى الحديث.

(٣) الأوزاعى: فقيه أهل الشام.

(٤) بلخ: إحدى بلاد ما وراء النهر - فى بخارى - واشتهرت بأنها قبة الإسلام.

(٥) القربوس: القسم العالى من السرج، من أمام ووراء المقعد. وقيل: بأنه سمع هاتفا يتلو عليه قول الله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾ (سورة: المؤمنون، آية: ١١٥).

وأدرك الشاب المغامر أن ما يتعاطاه من وجوه الحياة ليس إلا لهوا وعبثا؛ والأجدر به أن يتحول عنه إلى الجدية، وإلى ما يعود على الناس وعليه بالخير.

فلوى عنان الجواد مرتدا، فى نكوص وعزوف، وأخذ يردد: انتهيت، انتهيت، لقد جاءنى النذير من رب العالمين.

وكانت هذه الحادثة بداية التحول الكبير فى حياة إبراهيم بن أدهم، والانقلاب الواعى الواعد.

مفارقة الأهل والوطن

وبعبارة بسيطة موجزة، وكلمات معدودات، يروى إبراهيم رضى الله عنه ويصور ما كان منه، فيقول: رجعت إلى أهلى، فخليت عن فرسى، وجئت إلى بعض رعاة أبى، فأخذت منه جبة وكساء، ثم ألقيت ثيابى إليه، ثم أقبلت على العراق.

وبين بلخ والعراق آماد وأبعاد ومئات الفراسخ والأميال. قطعها كلها مشيا على قدميه، يتكسب عيشه وما يسد جوعته بعرق جبينه، يؤجر نفسه لقاء دراهم معدودات.

ويبدو لمن يراه فى سعيه بأسماله البالية، متسلقا الجبال، وهابطا إلى الوديان والوهاد، ملتحفا السماء، مفترشا الغبراء، أنه إنسان قد أصيب بمس فى عقله.

وها هو يحدثنا عن ذلك فيقول: أفر بدينى من شاهق إلى شاهق، ومن جبل إلى جبل، فمن يرانى يقول: هو موسوس.

حتى بلغ بغداد ونزل ساحتها، وكانت تموج بالناس، من مختلف الأجناس، قد عمرت عمرانا فريدا، وحفلت بمباهج الحياة، وكان ذلك فى إبان عصرها الذهبى؛ رخاء وازدهارا، وعلوما وفنونا.

لكنه لم يحس بمتعة بغيته ومراده؛ . يقول رحمه الله: فعملت بها أياما، فلم يصفُ لى بها الحلال، فسألت بعض المشايخ عن الحلال، فأرشدنى إلى بلاد الشام.

إلى طرسوس[1]

فغادر بغداد إلى طرسوس، وحين أتاها كانت من أهم الثغور الشامية، ووجد فيها مجالا للعمل، فى بساتينها وزروعها، وكان - كما قدمنا - يحب التعاطى مع الأرض، ويتقن ذلك.

فعمل فى النظر إلى البساتين، والحصاد، والزرع. وطابت نفسه بذلك؛ يشعر بكل لقمة يضعها فى فمه، من عرق جبينه، أنه يتناول اللذيذ الشهى المغذى؛ علما بأنه رضى الله عنه كان يجود على المحتاجين والسائلين، والفقراء والمساكين، بالطيب اللذيذ، ويكتفى هو بكسرة خبز وحبات من الزيتون، ويحمد الله تعالى على ما رزقه.

وعلق رحمه الله على أيامه فيها بقوله: ما تهنيت بالعيش إلا فى بلاد الشام.

جاءه ذات يوم صاحب عمل، وقد رق لحاله ومظهره وبساطة عيشه، جاءه يحمل إليه جبة جديدة. وهو يقول: اعرف يا إبراهيم أنك راض عما أنت فيه، قانع بالكفاف، ولكنى أخشى

(١) أو طرطوس ميناء على الساحل السورى، قريب من اللاذقية

عليك من برد الشتاء عندنا، وجبتك البالية لا تقيك ولا ترد عنك غائلة، فأرجو أن تقبل منى هذه الجبة هدية. فقال له إبراهيم: إن كنت غنيا قبلتها، وإن كنت فقيرا رفضتها. وأنا لك من الشاكرين، على كل حال. فقال له صاحب العمل: أنا غنى والحمد لله، كما ترى. فقال له إبراهيم: أعرف عندك ضيعتان، فهل تريد أن تكون عندك أربعة؟ فقال الرجل: ولم لا؟ بل أريد أكثر من ذلك، ما دمت أسعى وأجنى فى الحلال. فقال له ابراهيم: بل أنت فقير، لأنك غير مستغن ولا قانع وتريد المزيد.

إبراهيم بن أدهم والحديث الشريف..

روى ابن عساكر من طريق معاوية بن حفص قال: إنما سمع إبراهيم بن أدهم حديث واحدا، فأخذ به، فساد أهل زمانه.

والحديث عن ربعى بن خراش قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله دلنى على عمل يحبنى الله عليه، ويحبنى الناس. قال: إذا أردت أن يحبك الله فابغض الدنيا، وإذا أردت أن يحبك الناس، فما كان عندك من فضولها فانبذه إليهم.

وقال ابن أبى الدنيا: حدثنا أبو الربيع عن إدريس قال: جلس إبراهيم بن أدهم إلى بعض العلماء فجعلوا يتذاكرون الحديث، وإبراهيم ساكت؛ ثم قال: حدثنا منصور، ثم سكت، فلم ينطق بحرف حتى قام من ذلك المجلس.

فعاتبه بعض أصحابه فى ذلك، فقال: إنى لأخشى مضرة ذلك المجلس فى قلبى إلى اليوم.

ومر إبراهيم بن أدهم بالإمام الأوزاعى وحوله حلقة، فقال: لو أن هذه الحلقة على أبى هريرة لعجز عنهم؛ فقام الأوزاعى وتركهم.

والتقى الإمام أبوحنيفة بإبراهيم بن أدهم فقال له: قد رزقت من العبادة شيئا صالحا، فليكن العلم من بالك، فإنه رأس العبادة وقوام الدين. فقال له إبراهيم: وأنت فلتكن العبادة والعمل بالعلم من بالك، وإلا هلكت.

وهكذا، فإن إبراهيم بن أدهم مع رقيِّه بالعبادة والزهد إلى الدرجة التى بلغها، ويقصر عنها الأكثرون فإنه رضى الله عنه قد جعل مما علم وحفظ سلوكا ومنهجا عمليا؛ وكأنَّه فى تصرفه إزاء أى حدث يصادفه يروى حديثا.

لقد سمع الكثير، وحفظ الكثير، وأتقن ذلك، ويكفى أنه صاحَبَ سفيان الثورى زمنا، وسفيان كما عرفه وصنفه علماء عصره أمير المومنين فى الحديث.

ومع كل ذلك كان إبراهيم رحمه الله يتورع عن الرواية للحديث الشريف، يخشى الوقوع فى خطأ الرواية، زيادة أو نقصانا، أو اختلافا، وفى ذلك كل المحذور.

فقد كان العمل بالعلم هو الحقيقة البينة عنده؛ وإلا هلك صاحب العلم وحامله أيضا.

الإقامة بالشام

ونعنى بالشام الديار الشامية كلها، من أقصى الشمال عند حدود آسيا الصغرى إلى أقصى الجنوب عند سيناء.

ومن الثغور على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، إلى بادية الشام شرقا. كلها زارها إبراهيم وتنقل بين مدنها وقراها، يبذر الحكمة، ويعطى المثل الأعلى فى الزهد والورع والتقوى.

وأمضى فى تلك الديار قرابة ربع قرن من الزمان، أربعا وعشرين سنة.

وقد التقى بالعدد العديد من الناس، على مختلف المستويات، ولقد سأله ذات يوم بعضهم عن حقيقة الزهد، وقد رأى فيه هذه الظاهرة، فى الطعام واللباس وفى الإقبال على متع الحياة، فقال له إبراهيم: الزهد ثلاثة: واجب، ومستحب، وزهد سلامة. فأما الواجب فالزهد فى الحرام. والزهد عن الشهوات الحلال مستحب. والزهد عن الشبهات سلامة.

ورأى صاحبه فيه علامات حزن ترتسم دائما على قسمات وجهه، فسأله عن ذلك؛ فقال: الحزن حزنان، حزن لك، وحزن عليك. فحزنك على الآخرة لك، وحزنك على الدنيا وزينتها عليك.

إلى بيروت

وقصد إبراهيم إلى بيروت حيث استوطنها صديقه الإمام الأوزاعى، فأتاه زائرا، فرحب به الأوزاعى وسُرَّ به، وأضافه؛ وعمل له وليمة دعاه إليها، فقصر إبراهيم فى الأكل، فارتاع الأوزاعى لذلك، وسأله: ما لك قصرت؟ فقال إبراهيم: لأنك قصرت فى الطعام. وأراد إبراهيم أن يرد الجميل للأوزاعى، فعمل له وليمة حوَتْ أصنافاً عدة من المآكل الشهية، فلما حضر الأوزاعى لمنزل إبراهيم وجلسا إلى المائدة، ورأى الأوزاعى كثرة ألوان الطعام، قال لصاحبه إبراهيم: أما تخاف يا إبراهيم أن يكون هذا سرفا؟ فقال له إبراهيم: كلا. إنما يكون السرف فى معصية الله، فأما ما أنفقه الرجل على إخوانه فهو من الدين.

وعمل إبراهيم فى بيروت ما كان يعمله فى غيرها من المدن، يؤجر نفسه لأصحاب الأراضى، ويكسب قوته بعرق جبينه. وفى يوم حصل أجرا بلغ عشرين دينار، فذهب إلى حجام ليحلق له رأسه ويحجمه، فلما رآه الحجام لم يعبأ به، واشتغل بغيره من الزبائن، فلما فرغ منهم سأل إبراهيم عما يريد، فقال: أريد أن تحلق رأسى وتحجمنى. وقام الحجام بعمله، وهو يتأفف ضجرا من رائحة ثوب إبراهيم وبدنه. فلما انتهى ناوله إبراهيم كل ما يحمل من ثروة، العشرين دينار! فتعجب الحجام وقال: هذا كثير، وكثير جدا، ويكفى درهم واحد. فقال له إبراهيم: إنما أردت أن أعلمك درسا أن لا تحقر بعد اليوم فقيرا. ثم تركه وانصرف.

وقصده الأوزاعى يوما حيث يعمل، فى الزراعة. لكنه عجب مما رأى؛ لقد رأى إبراهيم يحمل حزما من الحطب ينقلها من مكان إلى مكان آخر، وعهده به أنه يشق الأرض بفأسه، ويسقى الزرع، ويجنى الحب، فتأسى من ذلك وحزن، وقال لإبراهيم: يا أبا إسحاق، يكفيك من هذا العمل النفر المولجون به من العمال، فلا ترهق نفسك ولا تذلها.

فقال إبراهيم: اسكت يا أبا عمرو؛ لقد بلغنى أنه إذا وقف الرجل موقف مذلة فى طلب الحلال وجبت له الجنة.

إلى بيت المقدس

ومن بيروت انتقل إبراهيم إلى بيت المقدس، وكان قد انضم إلى رفقة فى قافلة ذاهبة إليها، وفى الطريق، بين الجبال والوديان والغابات، تصدى للقافلة أسد، فتوقفوا عن المسير، وقد انتابهم الخوف، وأصابهم الجزع؛ وتحيروا ماذا يفعلون.

وكان فى القافلة رجل يقال له خلف بن تميم، وقد روى الواقعة فقال: وتقدم إبراهيم بن أدهم من الأسد حتى وقف على قيد خطوات منْه، ثم قال: يا قسورة، إن كنت أمرت فينا بشيء فامض لما أمرت به، وإلا فعودك على بدئك.

قال الراوى: فولى السبع ذاهبا يضرب الأرض بذيله، ثم أقبل علينا إبراهيم فقال: ادعوا ربكم فقولوا: اللهم راعنا بعينك التى لا تنام، واكنفنا بكنفك الذى لا يرام، وارحمنا بقدرتك علينا ولا نهلك وأنت رجاؤنا، يا الله، يا الله، يا الله.

قال الراوى خلف: فما زلت أرددها منذ أن سمعتها، فى كل موقف صعب، فما عرض لى لص ولا غيره.

السجين

بعد أن أقام إبراهيم فى بيت المقدس فترة خرج منها يبتغى الرحلة والسياحة فى بلاد الله، فلما كان قريبا من طبرية صادف ثلة من الجند، فأحاطوا به؛ وقد استنكروا مظهره، فقال له قائدهم: أنت عبد؟ فقال إبراهيم: نعم. فقال له الرئيس، القائد: عبد آبق[1]؟ فقال إبراهيم: نعم. فقيدوه بالسلاسل وأتوا به إلى طبرية وأدخلوه السجن. وعرف بأمره وشأنه بعض أصحابه فى بيت المقدس، فأتوا إلى حاكم طبرية؛ وسألوه: لم سجنت إبراهيم بن أدْهم؟ فقال: ما سجنته. فقالوا: بلى هو فى سجنك. فاستحضره وسأله: لم أنت فى السجن؟ فقال: اسأل فى هذا جندك وقائدهم. فدعا إليه قائد الجند الذين قبضوا على إبراهيم وسأله: لمَ سجنت هذا الرجل؟ فقال: لقد سألناه: هل أنت عبد؟ فقال: نعم، وسألناه: هل أنت آبق؟ فقال: نعم، فألقينا القبض عليه وسقناه إلى السجن. قال إبراهيم: نعم أنا عبد لله تعالى، وآبق من ذنوبى، يا سيدى.

فاستدرك الحاكم معنى ومغزى ما قصده إبراهيم، فاعتذر إليه، وخلى سبيله، وحاول استرضاءه بعطية من المال، فأبى إبراهيم شاكرا، وغادر البلد، مودعا أصحابه الذين جاءوا من بيت المقدس لخلاصه.

إلى الكوفة

وقصد إبراهيم إلى الكوفة وقد سبقه إليها شهرة وذيوع صيته، فرحب به أهلها، وأحلوه من أنفسهم منزلة عالية، ومكانة سامية. وأحاطوه بكل ترحيب واحترام.

ويروى عن مقامه بالكوفة أنه كان إذا حضر مع أهلها مجلس علم وموعظة لزموا الصمت كأن على رءوسهم الطير، إجلالا لإبراهيم وهيبة منه.

وكان أكثر جلوسه مع سفيان الثورى رضى الله عنهما يتسامران إلى الفجر، فى الليلة الشاتية، وكان سفيان قليل الكلام معه، خشية أن يلحن فى كلمة، إذ كان إبراهيم لا ينطق إلا بالفصحى، ويتقن ذلك غاية الإتقان.

ومما يروى عنه فى الكوفة أنه كان يعظ أهلها، فيقول لهم: فروا من الناس كفراركم من الأسد الضارى، ولا تخلفوا عن الجمعة والجماعة.

وفى يوم، بينما كان مع بعض أصحابه ومرافقيه فى السوق، رأى أحدهم رجلا واقفا على باب دكان، فقال لإبراهيم: يا سيدى انظر إلى ذلك الرجل، إنه قاتل خالك، وقد ساقه الله إليك لتثأر منه. فما كان من إبراهيم إلا أن تقدم من الرجل وسلم عليه، ودفع إلى البائع ثمن ما اشترى؛ هدية منه إليه، وعرفه بنفسه. وقال لمن حوله من مرافقيه: لقد بلغنى أن الرجل لا يبلغ درجة اليقين حتى يأمنه عدوه.

ويروى أنه ركب البحر فى سفينة، فأخذها الموج من كل جانب، وعصفت بها الريح، فلف إبراهيم رأسه بكساء واضطجع، وعج الركاب والربان بالضجيج والدعاء، وأتاه الربان يوقظه ويقول له: ألا ترى ما نحن فيه من الشدة؟ كأنك لا تبالى ولا تهتم. فقال له إبراهيم: ليس هذه بالشدة، إنما الشدة الحاجة إلى الناس، ثم بسط يديه بالدعاء إلى الله تعالى، وقال: اللهم أريتنا قدرتك، فأرنا عفوك. فصار البحر وكأنه قَدَح زيت، هدأت الريح، وسكنت الأمواج، وذهب روع الناس؛ وقد استجاب الله دعاء عبده الصالح.

ويروى لنا حذيفة المرعشى هذه النادرة، فيقول: أويت أنا وإبراهيم أدهم إلى مسجد خراب بالكوفة، وكان قد مضى علينا أيام لم نأكل فيها شيئا، فقال لى: كأنك جائع؟ قلت: نعم.

فأخذ رقعة وكتب فيها: بسم الله الرحمن الرحيم. أنت المقصود إليه بكل حال، المشار إليه بكل معنى.

أنا حامد، أنا ذاكر، أنا شاكر ... أنا جائع، أنا حاسر، أنا عارى
هى ستة، وأنا الضمين بنصفها ... فكن الضمين لنصفها يا بارى
مدحى لغيرك وهج نار خفتها ... فأجرْ عبيدك من دخول النار

ثم قال لى: اخرج بهذه الرقعة، ولا تعلق قلبك بغير الله سبحانه وتعالى وادفع بهذه الرقعة لأول رجل تلقاه، فخرجت، فإذا رجل على بغلة، فدفعتها إليه، فلما قرأها بكى، ودفع إلى بستمائة دينار، وانصرف.

فسألت رجلا كان معه: من هذا الذى على البغلة، فقال: هو رجل نصرانى

فجئت إبراهيم، فأخبرته، فقال: الآن يجىء صاحبك مسلمًا. فما كان غير قريب حتى جاء، فأكب على رأس إبراهيم وأسلم.

وفاته رضى الله عنه..

قال ابن عساكر: المحفوظ أن إبراهيم بن أدهم توفى سنة اثنتين وستين ومائة. وقيل فى سبب

وفاته أنه يرحمه الله قد أصيب ليلة وفاته بإسهال شديد، ذهب معه إلى الخلاء عشرين مرة، يجدد بعدها وضوءه. وكان مرابطا مع جيش للمسلمين فى إحدى جزر بلاد الروم. فلما كانت غشية الموت قال لمن حوله: أوتروا لى قوسى، فأوتروه، فقبض عليه، فمات وهو قابض عليه يريد الرمى به إلى العدو، رحمه الله وأكرم مثواه.

* * *

خَاتِمَة

وبعد، فلقد طوّفنا فى سياحة فريدة من نوعها، فى مضامينها ومدلولاتها ومأثوراتها، فى شخوصها لا فى تماثيلها، فى نماذجها الراقية أرواحًا وقلوبًا وعقولاً. وقطفنا من كل روضة زهرة تضوع عطراً وشذًى.

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم   إذا جمعتنا يا جرير المجامع

إنهم ثمالة قرن شهد لها الرسول الخاتم ﷺ بأنها خير. وأى خير؟!

لقد دلفت إلى وجداناتهم إشعاعات أنوار النبوة، فأضاءت وسطع ضياؤها، وتأجّجت فى قلوبهم حرارة الإيمان، وجذوة اليقين، فأتَوا بالبديع المفيد، وخلّفوا للقرون من بعدهم آيات بينات، وسطروا فى سفر التاريخ أعظم المواقف والعبر، والدروس.

كنت قبل الخوض فى هذه التجربة، والانطلاق فى هذه السياحة على بيِّنة محدودة وقاصرة، سواء فى الأسماء أو المجريات، أعرف البعض منها معرفة لا تسمح بتكامل الصورة بكل أبعادها وجوانبها، فلما شرعت ـ مستعينا بالله تعالى ـ فى البحث والدرس والتقصِّى استغرقنى العمل وملك علىَّ كل خواطرى ومشاعرى وآفاق حسى.

وأدركت كم نحن مقصرون، وكم نحن مبتعدون، وكم نحن منفصلون عن جذورنا! والغصن الذى ينفصل عن جذره تجفّ فروعه، وتيبس أوراقه، وتنعدم أزهاره وثماره، ويصبح عُرْجونًا قديمًا لا طائل من ورائه، ولا خير فى بنائه.

والواقع المؤلم المرير لأمتنا يشهد علينا بالتخلف عن ركْب المسيرة البشرية، والأجدر أن نكون فى الريادة والقيادة، كما أراد لنا ربنا سبحانه وتعالى.

نحن نرى فى الماضى بكل معطياته أحلامًا وأمانى وأوهامًا، ندغدغ بها سُباتنا العميق، ولا نرى فيه دروسا وعبراً تحفزنا إلى اليقظة.

لا بد من شحن العقول والنفوس وملء فراغ الأرواح وخوائها. لا بد من نهضة ووثبة وصحوة حقيقية. لا بد من بناء الشخصية وَفْق الهداية الربانية، لا الشيطانية. . لا بد من أجيال تغير معالم المستقبل. . وهذه الأجيال بحاجة إلى مربين يهدونها سواء السبيل، فى مدرسة ذات منهج محمدى. وهذه المدرسة متفتحة الأبواب، لمن أراد أن يذَّكَّر فيتعظ ويتعلم، أو أراد نشوراً. فينهض بكل ما فى كلمة النهضة من مبنى ومعنى.

والتابعون الأولون ـ رضى الله عنهم ـ خير خلف لخير سلف، رواد علم وفضل، وقدوة صالحة، وأعلام هداية ونور، وأساتذة كبار.

أسأل الله تعالى أن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه. آمين، والحمد لله رب العالمين.

فهرس الكتاب

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطي شبرا القاهرة
الرقم البريدى — ١١٢٣١

هذا الكتاب

- يجمع بين دفتيه نخبة من رجالات التابعين رضى الله عنهم، ممن قال فيهم رسول الله (ص): « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ».
- أسماء لها دويها ومكانتها فى العلم والعبادة والزهد والجهاد، والجهر بالحق.
- ليست تراجم بالمعنى التقليدى، ولكنها مواقف وعبر ودروس.
- نماذج حية، وراقية، لمن أراد أن يذكر أو أراد نشورا.
- نحتاجها لتبعث فينا روحا حافزة إلى الهداية والتقدم، علماء ومتعلمين.
- ونعرض فى هذا الكتاب لهؤلاء التابعين:

عامر بن عبدالله • أبو مسلم الخولانى • الأحنف بن قيس • صلة بن أشيم • شريح القاضى • محمد بن الحنفية • جابر بن زيد • سعيد بن المسيب • سعيد بن جبير • على زين العابدين • موسى بن نصير • عمر بن عبدالعزيز • مجاهد • عامر الشعبى • طاووس بن كيسان • سالم بن عمر • القاسم بن محمد • عكرمة • محمد بن كعب القرظى • الحسن البصرى • محمد بن سيرين • عروة بن الزبير • وهب بن منبه • رجاء بن حيوة • عطاء بن أبى رباح • عبدالرحمن الغافقى • محمد الباقر • السّجاد • إياس بن معاوية • محمد بن واسع • ابن شهاب الزهرى • بلال بن سعد • ربيعة الرأى • سلمة بن دينار • الأعمش • أبو حنيفة • عبدالرحمن الأوزاعى • إبراهيم بن أدهم


ISBN 977-5875-93-5
90000
9 789775 875938